الأنوار القدسيّة

في

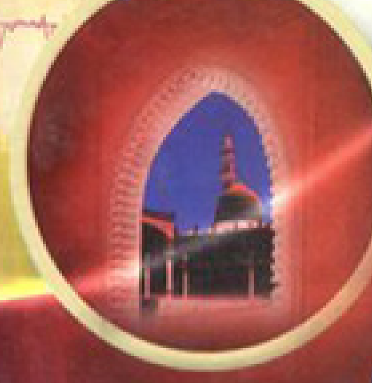
شرح القصيدة الهمزيّة للبوصيري

تأليف

سيدي أبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي
ابن عجيبة الحسني
المتوفى سنة 1224 هـ

اعتنى بتقديمه وتصحيحه

الأستاذ عبد السلام العمراني الخالدي





الأنوار القدسيّة
في
شرح القصيدة الهمزيّة
للبوصيري

تأليف

سيدي أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن المهدي
ابن عجيبة الحسني
المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ

اعتنى بتقديمه وتصحيحه

الأستاذ عبد السّلام العمراني الخالدي



الكتاب : الأنوار القدسية
في شرح القصيدة الهمزية
للبوصيري

Title : AL-ANWĀR AL-QUDSIYYA
FĪ ŠARḤ AL-QAṢIDA AL-HAMZIYYA
LIL BŪṢĪRĪ

التصنيف : مدائح نبوية وتصوّف

Classification: Prophetic praises and Sufism

المؤلف : سيدي ابن عجيبة الحسني (ت ١٢٢٤ هـ)

Author : Sidi Ibn Ajiba Al-Hassani (D.1224 H.)

المحقق : الأستاذ عبد السلام العمراني الخالدي

Editor : Abdul-Salam Al- 'Umrani Al-Khalidi

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	448	عدد الصفحات
Size	17x24 cm	قياس الصفحات
Year	2013 A.D. -1434 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنان
Edition : 2nd		الطبعة : الثانية

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ١٢/١١/٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



ISBN 978-2-7451-6765-1
ISBN 2-7451-6765-0

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم شرح الهمزية، لمن هو في العلم آية

تقديم من طرف خديم علمِه وطريقِه:

عبد السلام العمراني الخالدي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحابته أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد؛ فإن العالم العامل، القطب الرباني الكامل، بحر الشريعة والحقيقة، ومجلي الشك ومنور القريحة: أبا العباس، سيدي أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، معروف هو وعلومه وفهومه ومؤلفاته. ومن ضمنها شرحه على الهمزية والبردة. وهما قصيدتان جليلتان في مدح خير البرية، لأبي عبد الله، محمد بن سعيد البوصيري. فهو لا يحتاج إلى تعريف. ففيه وفي علومه ألقيت مئات الأطروحات والندوات، وقد قدم في كثير من مؤلفاته. فمنه تؤخذ التعاريف، وإنه - رضي الله عنه - لم يقصر في الجانب النبوي، تأليفا ومدحا واستغراقا بالكلية. فهو القائل في بعض قصائده:

أنـــا فنـــيت فـــي ذا الحبـــيبْ ســـــــيدي رســـــــول اللهْ
مـــن بحـــره تـــسقى الـــرجالْ فهـــــو بـــــاب مـــــولاهْ

وإن من تفانى في حب المصطفى صلى الله عليه وسلم مدحا وتعظيما، وذكرا لشمائله تخصيصا وتعميما؛ هو: الشيخ شرف الدين، أبو عبد الله، محمد بن سعيد، بن حماد، بن محمد بن عبد الله، بن صنهاج ابن هلال الصنهاجي البوصيري - رضي الله عنه - وإن العارف بالله، سيدي أحمد بن عجيبة، شرح لهذا الشيخ المحب في المصطفى قصيدتين: قصيدة الهمزية، وقصيدة البردة، أو الدرة اليتيمة، أغناهما بالشرح

والتوضيح والأدلة.

وقد طلب مني حفيده الأنور، الشيخ المربي الأغر، سيدي الحاج عبد الواحد ابن القطب الفرد، سيدي عبد القادر بن عجيبة - مرارا أن أطبعهما، لما فيهما من علوم منورة، ومدح لخير البررة، ولكني كنت مشتغلا بعلم الأنساب، ودرر فقهية ولطائف إيمانية، واليوم، وقد أنهيت ذلك، لبيت طلبه، وشرعت بحول الله تعالى في العمل به. وإني هنا أقدم للطباعة شرحه على همزية البوصيري الذي سماه: [الأنوار القدسية، في شرح القصيدة الهمزية]. ثم نشرع بحول الله تعالى، في شرحه للدرة اليتيمة على حدة.

والله أسأل أن يعينني على جمعه والحرص على طبعه ونشره، وأن ينفع الله تعالى الورى بعلومه وفهومه، اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين.

العرائش في 11 ربيع النبوي عام: 1430 هـ موافق 9 مارس سنة 2009م.

خديم العلم والصوفية:

عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي

خار الله له.

نماذج من صور المخطوط

الصفحة الأولى من مخطوط الأنوار القدسية، في شرح القصيدة الهمزية

وأزكى التسليم وجازيه مرتبة القرب منه والنظر إلى وجهه الكريم وجعلنا من رفقائه
مع المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا
والحمد لله رب العالمين كمل الشرح بحمد الله وحسن عونه والصلاة والسلام على رسول الله
صلى الله عليه وسلم على يد جامعه العبد المذنب الفقير إلى عفو ربه ورحمته أحمد
بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحجوجي سمح الله وعفا عنه يوم الأحد الأول من شعبان
عام تسعة وتسعين ومائتين وألف ﻫ

هـــذا ويقول العبد [illegible] الحقير المذنب الراجي عفو ربه وشفاعة
نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم محمد الأمين بن محمد السعيد بن أحمد بن أحمد بن [illegible] محمد بن المهدي
بن عجيبة المؤلف المذكور قد أخذت هذه النسخة من نسخة مؤلفها بخط يده المرحومة
وكان الفراغ منها صبيحة يوم الجمعة ثالث عشر صفر الخير عام واحد وتسعين وثلاثمائة
وألف موافقا 9 ابريل سنة 1971

الصفحة الأخيرة من مخطوط الأنوار القدسية، في شرح القصيدة الهمزية.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي اختص سيدنا ومولانا محمدا بالمحبة التامة ورفع الدرجات، وأتحفه بالخلة الصافية والمعاريج السنيات، وأيده بالحكمة الدامغة والآيات البينات. وفضله على جميع العوالم والمكونات. وخصه بالأخلاق الطيبة ومحاسن الصفات، وجعل مدحه والثناء عليه من أعظم القربات، وأقرب الوسائل إلى خير البريات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث بالحجج الواضحة والبراهين القطعيات، ورضي الله تعالى عن أصحابه النجوم الزاهرات، والبدور النيرات.

وبعد؛ فأحق ما تتنزه في رياضه الأفكار، وتتمتع بسماعه وتشتاق لمشاهدته الأبصار، محاسن نبينا وسيدنا المصطفى المختار، وروض شمائله المعطار، فبذاك يكتسب العبد معرفته الخاصة، ويجتني ثمار محبته التامة، فيرد موارد الأبرار؛ وينهل مناهل الأخيار، ويلتحق بمحبوبه ويكون في هذه الدار وفي تلك الدار. ولا شك أن محبته عليه الصلاة والسلام عقد من عقود الإيمان لا يتم الإيمان إلا به. فقد قال عليه الصلاة والسلام:<<والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده وقلبه الذي بين جنبيه والناس أجمعين>>. ويتفاوت الناس في الإيمان على قدر تفاوتهم في محبته عليه السلام، لأن محبة الله للعبد على قدر محبته لرسوله صلى الله عليه وسلم ومتابعته إياه ومحبة العبد له صلى الله عليه وسلم على قدر معرفته به واطلاعه على جماله وإحسانه. ولا سبب للمحبة إلا الإحسان والجمال. ولا إحسان ولا جمال

يقارب إحسانه وجماله صلى الله عليه وسلم، إذ كل نعمة واصلة من الله تعالى إلى مُنْعَم عليه أيا كان فهي على يده وبواسطته صلى الله عليه وسلم. فهو صلى الله عليه وسلم أحق من يحبه العبد ويثني عليه ويفني عمره في مدحه والثناء عليه. وقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام:<<من مدحني ولو بشطر بيت كنت له شفيعا يوم القيامة>>. وقال لحسان حين أنشد قصيدته التي قال فيها لبعض كفار قريش هجوت محمدا وأجبت عنه. وعند الله يكون الجزاء. جزاؤك الجنة. وكان يقول له:<< اللهم أيده بروح القدس>>. وقد كان صلى الله عليه وسلم يجزل الثواب لمادحه ويخلع حلته لديه كقضية كعب وغيره.

فما هو معلوم في السير وحياته صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله إلى ربه معلومة، فاستوى مدحه حيا وميتا في احتفاظه بالقرب منه والايتلاف به وقرب سره بروحه عليه السلام فتدوم حياة روحه ويتنعم بمشاهدة قربه وربما تشكلت روحه الكريمة بجسده الطيب فيراه المادح له والمصلي عليه عيانا ويكلمه شفاها كما هو منقول عن أكابر الأولياء أهل محبته عليه السلام لا حرمنا الله من ذلك بجاهه الأعظم عليه الصلاة والسلام. وسميت هذا التأليف: [**الأنوار القدسية، في شرح القصيدة الهمزية**]. وينبغي أن نعلم أن كمالات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لا تحصى، وأن حسن شمائله وكمال صفاته لا يستقصى. فإن خصائصه ومعجزاته لم تجتمع قط في مخلوق. وإن حقه على الكمال فضلا عن غيرهم من أعظم الحقوق. وإن المادحين لجنابه العلي والواصفين لكماله الجلي، لم يصلوا إلى قل من كل، لا حد لنهايته ولا غيض من فيض لا وصول إلى غايته.

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

ولله در القائل:

إذا رمت مدح المصطفى شغفا به ... تبلد ذهني هيبة لمقامه

فأقطع ليلي ساهر الجفن مطرقا ... هوى فيه أحلا من لذيذ منامه

إذا قال فيه الله جلَّ جلاله ... رءوف رحيم في مساق كلامه

فمن ذا يجاري الوحي والوحي معجز لمختلقيه نثره ونظامه

وللأستاذ أبي القاسم ابن جزي رحمه الله ونفعنا به:

أروم امتداح المصطفى فيصدني قصوري عن إدراك تلك المناقب

ومن لي بحصر البحر والبحر زاخر ومن لي بإعطاء الحصا والكواكب

ولو أن كل العالمين تئالفوا على مدحه لم يبلغوا بعض واجب

فأمسكت عنه هيبة وتأدبا وخوفا وإعظاما لأرفع جانب

ورب سكوت كان فيه بلاغة ورب كلام فيه عتب لعاتب

وقد رئي العارف المحقق السراج ابن الفارض في النوم فقيل لم لا مدحت النبي صلى الله عليه وسلم أي بالتصريح وإلا فنظمه في الحقيقة إما في الحضرة الإلهية أو فيه صلى الله عليه وسلم فقال:

أرى كل مديح في النبي مقصرا وإن بالغ الإثنا عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما تمدحه الورا

قال البدر الزركشي ولهذا لم تتعاط فحول الشعراء المتقدمين كأبي تمام والبحتري وابن الرومي مدحه صلى الله عليه وسلم وكان مدحه عندهم من أصعب ما يحاولونه فإن المعنى وإن جلت دون مرتبته، والأوصاف وإن كملت دون وصفه. هذا وإن أبلغ ما مدح به صلى الله عليه وسلم من النظم الرائق البديع، وأحسن ما كشف عن كثير من شمائله من الوزن الفائق المنيع، ما صاغه صوغ التبر الأحمر، ونظمه نظم الدر والجوهر، الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محمد بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجي. كان أحد أبويه من بوصيرى الصعيد والآخر من دلاصر فركبت النسبة منهما فقيل الدلاصيري ثم اشتهر بالبوصيري فقيل ولعلها بلد أبيه فغلبت عليه. ولد سنة ثمان وستمائة وأخذ عن الإمام أبي حيان والإمام اليعمري وأبي الشيخ بن سيد الناس ومحققي عصره العز ابن جماعة وغيرهم توفي سنة سبع وتسعين وستمائة وكان من عجائب الله في النثر والنظم ولو لم يكن له إلا قصيدته المشهورة البردة التي سبب نظمها وقوع فالج به أعيا الأطباء ففكر في إعمال قصيدة

يتشفع بها إليه صلى الله عليه وسلم إلى ربه فأنشأها فرءاه ماسحا بيده الكريمة عليه فعوفي لوقته ثم لما خرج من بيته لقيه رجل صالح فطلب منه سماعها فعجب إذ لم يخبر بها أحد فقال سمعتها البارحة تنشد بين يديه صلى الله عليه وسلم وهو يتمايل كتمايل القضيب فأعطيته إياها وقيل إنه اشتد رمده بعد نظمها فرءا النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقرأ عليه شيئا منها فتفل في عينه فبرئ لوقته لكفاه ذلك شرفا وتقدما وكيف وقد ازدادت شهرتها إلى أن صار الناس يتدارسونها في البيوت والمساجد كالقرآن. وكان رضي الله عنه في ابتداء أمره يعاني صنعة الكتابة من الحمايات وباشر بَلْبيس الشرقية ثم ترك ذلك وصحب القطب أبا العباس المرسي رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنة المعارف متقلبه ومثواه، وأفاض علينا من بحر سيبه ورياه، فعادت عليه بركاته وساعده لحظه وهمته إلى أن فاق أهل زمانه ورزقه الله من الشهرة والحظوة ما لم يصل إليه أحد من أقرانه رحمه الله تعالى ورضي عنه. انتهى من ابن حجر. ولبعض الفضلاء في مدح قصائده:

سافر بطرفك كي ترى مدائحه	ففي الشهادة ما يغني عن الخبر
فهي فواق أتت تحذوا قلائدها	قول له مدد يربي على النبر
يحملان كل ثناء عرفه غبق	وهو الصوان صوان عرضه العطر
تصدرن عن همم يفصحن عن كلم	يسفرن عن حكم يبتسم عن زهر
فإن بدت من نسيب المدح في حلل	تختل وإن راثا حسن الثنا تصر

وبالجملة فمناقب الشيخ كثيرة ومئاثره شهيرة. ومن تأمل كلامه ونظمه البديع علم ذلك بالضرورة جازاه الله عنا أحسن الجزاء فلقد أدى عنا معشر الأمة دينا يتعين قضاؤه. وفرضا لا يتأخر عن الوقت المختار أداؤه. ورفع قلم الإشادة بفضله المشهور. ونسق قصائده الحسان. نسق الشذور على نحو الحور. النثرة منها في صفحة البدر من فوقه. والفقرة من أشجاعه على وجنة الدهر موشومة. ما من ألفاظ ولكنها نجوم تهدى. أو رجوم ترمى. وشمس دانية السنا. ورياض قائمة الجنا. وخصوصا في ذلك قصيدته الهمزية. فقد لاحت منها أنوار قدسية. وهبت من زهر جمالها نفائح عطرية. وقد سماها الشيخ أم القرى تبركا باسم بلد الله الحرام. ليقع النفع بها على الدوام. بدوام القصد إلى

بيت الله الحرام. وقد استخرت الله تعالى بعد التضرع والابتهال. في وضع تقييد عليها يحل ألفاظها ويبين منها ما كان في حيز الإشكال. وسميته بالأنوار القدسية، في شرح القصيدة الهمزية. نسأل الله تعالى أن يجعله خالصا لوجهه العظيم، وخدمة لسيدنا ونبينا المصطفى الكريم، فإنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* **قال الشيخ رضي الله عنه:**

1 **كـــيفَ ترقَـــى رقِـــيَّكَ الأنْبِـــياءُ   يـــا ســـماءً مـــا طاولـــتْها ســـماءُ**

2 **لـمْ يُساوُوكَ فـي عُـلاكَ وقـدْ حَـا   لَ ســـنًى مِـــنْكَ دُونَهـــمْ وسَـــنَاءُ**

لا شك أن سيدنا ومولانا محمدًا صلى الله عليه وسلم قد ترقى في المقامات والأحوال، وبلغ من الله غاية الكمال، وحاز من مراتب الاختصاص المقام الأسنى، وجاز كل مقام لغيره حسا ومعنا.

فحـــزت كـــل فخـــار غيـــر مـــشترك   وجـــزت كـــل مقـــام غيـــر مـــزدحم

وبـــت ترقـــى إلـــى أن نلـــت منـــزلة   مـــن قـــاب قوسـين لـم تـدرك ولـم تـرم

فكيف ترقى رقيه الأنبياء، وهو سماء المجد الذي لم تطاوله سماء، فلا يمكن أن يساويه أحد في علاه، وقد حالت أنواره الباهرة دونهم وسناه، ولذلك تعجب الشيخ فقال: "**كيف**" وهي اسم استفهام بني لشبهه بالهمزة وتعرب خبرا، قبل ما لا يستغنى عنه نحو كيف زيد، وحالا قبل ما يستغنى عنه نحو كيف جاء زيد، وكما هنا إذ هي حال من فاعل. "**ترقى**" أي على أي حالة ترقى "**الأنبياء**" رقيك، أي لا يكون ذالك. قال ابن مالك: لم يقل أحد أن "كيف" ظرف إذ ليست زمانا ولا مكانا ولا كنها لما كانت تفسر بقولك على أي حال لكونها سؤالا عن الأحوال العامة سميت ظرفا لأنها في تأويل الجار والمجرور واسم الظرف يطلق عليهما مجازا. قال ابن هشام وهذا أحسن. انتهى. ويستفهم بها عن حال الشيء لا عن ذاته. قال الراغب: وإنما يسأل بها عما يصح أن يقال فيه شبيه وغير شبيه ولهذا لا يصح أن يقال في الله كيف. قال: وكلما أخبر الله بلفظ كيف عن نفسه فهو استخبار على طريق التنبيه للمخاطب والتوبيخ والإنكار كقوله: كيف تكفرون بالله، كيف يهدي الله قوما، وفرق الزمخشري بين كيف والهمزة بأن كيف سؤال تفويض والهمزة سؤال حصر، فإنك تقول: أجئت ماشيا أو راكبا فتوقت وتحصر

بخلاف كيف فينتظم فيه الأحوال كلها. ترقى: أي ترتفع وتعلو رقيك بكسر القاف، مصدر رقى بالكسر إذا كان حسيا وبالفتح إذا كان معنويا وهنا يصحان معا. فقد ترقى سيدنا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ببدنه الشريف إلى سدرة المنتهى ثم إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام، ثم إلى العرش الحقيقي والرفرف، ثم إلى الرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة والكشف الحقيقي. وقد كان صلى الله عليه وسلم يترقى في المقامات والأحوال إلى أن بلغ أقصا غاية الكمال. فقد استعمل اللفظة في معنييه الحقيقة والمجاز وهو جائز على الأصح. الأنبياء جمع نبي، بمعنى فاعل أو مفعول، لأنه مخبر عن الله، ومخبر عنه من النبإ بمعنى الخبر أو من النبوة بمعنى الارتفاع لأنه رفيع القدر عظيم الجاه فإن قلت نفْي رقي الأنبياء لا يستلزم نفْي رقي الرسل لأن الأعم لا دلالة له على أخص معين. قلت: يوخذ من قوله "**يا سماء ما طاولتها سماء**" فقد نفى المطاولة عن الجميع وأيضا فنفي الحقيقة مطلقة تستلزم نفيها مع قيدها ولا عكس. وثبت عن أبي ذر، قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم. قال: <<ثلاثمائة وأربعة عشر جم غفير>>. قلت: يا رسول الله: من كان أولهم ؟ قال: <<آدم>>. ثم قال:<<يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيت ونوح وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم. وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر. أول نبي من بني إسرائيل وهو يعقوب صلى الله عليه وسلم، وموسى وعيسى آخرهم. وأول النبيئين آدم وآخرهم نبيك>>[1]. "**يا سماء**": يا حرف نداء للبعيد أو لمن منزلته رفيعة وهو هنا إشارة إلى بعد رتبته صلى الله عليه وسلم عن أن تلحق أو تسامى، وسماءً نكرة موصوفة من حيز الشبيه بالمضاف فينصب لا غير على الأصح. وقال الكسائي: يجوز فيها النصب والضم وفصل الفراء فأوجب النصب إذا كان العائد ضمير غيبة كما هنا كيَا رجُلا ضرب زيدا. والضم إذا كان ضمير خطاب كيارجل ضربت زيدا. قال ابن حجر بعد كلام: والذي أقوله أن الضم متعين هنا فانظره، وإنما شبهه صلى الله عليه وسلم بالسماء لأنه رفيع المنزلة والمقدار ومحل شروق المعارف

(1) رواه ابن حبان وتكلم فيه ابن الجوزي وعده في الموضوعات. فالله أعلم.

والأنوار. ومظهر ارتفاع الحقائق والأسرار. "**ما طاولتها**" أي غالبتها في الطول والارتفاع وهذا الشطر الثاني كالدليل للشطر الأول. إذ لم يرتق أحد ارتقاءك، لأنه لم يستطع مطاولتك في ارتقائك الحسي ولا المعنوي، وإن كانت درجاتهم ومراتبهم كلها أرفع الدرجات وأعظم الرتب. ثم وشح الاستعارة وقرر ما تقدم بقوله "**لم يساووك**" أي لم يشاركوك "**في علاك**" أي: في ارتفاعك وعلوك. مصدر علَى بالفتح والكسر يَعْلا عُلًى، إذا كان في الشرف والمجد. ويقال في المكان علا يعْلو عُلوا. ولما كان نفي المطاولة لا يلزم منه نفي المساوات ولما كان المعنى لا يتم بها صرح بذلك. قاله الشارح: وكيف يساوونك في ارتفاعك العظيم "**وقد حال**" أي حجز ومنع "**سنى**" (بالقصر) أي: ضوء عظيم ونور باهر "**منك**" أي صادر منك خصك الله تعالى به. فقيل المراد به القرآن العظيم مجازا. وقيل: ما اختصه الله به من جمال الظاهر في سر ذاته الشريفة وحسن خلقه الكريم وجمال الباطن بما اشتمل عليه من المعارف والأسرار والتي لا يعلمها إلا المتفضل عليه بذلك. وقد سماه الله تعالى نورا في قوله:﴿ **قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ** ﴾ [المائدة: 15] على أحد التفاسير. ومن دعائه صلى الله عليه وسلم:<<اللهم اجعل في قلبي نورا>> إلى أن قال:<<واجعلني نورا>> فكان صلى الله عليه وسلم هو نور الأنوار، فلذلك حالت أنواره "**دونهم**" وحال أيضا بينه وبينهم "**سناء**" (بالمد) رفعة عظيم. قال قطب الأقطاب سيدي عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به بعد كلام له في قضية الإسراء ثم عاد إلى معالمه وأهل عالمه. ورؤساء الملائكة تضع أجنحتها في مواطئ قدميه. والروح الأمين يحمل بين يديه غاشية فخره. ويطوف به بين الملائكة تعظيما لقدره. وآدم يرفع ألوية جلالته. وإبراهيم ينشر أعلام مهابته. وموسى يناجي حبيبه من جانب غربي صفحات وجهه. ونظرت عيناه محبوبه يسئل عودة بعد عودة. عسى نظرة بعد نظرة فنادى القدر من جانب الطور قد قضينا الأمر، وعيسى يتألى بالمولى لينزلن وليخبرن أهل الأرض بما شاع في أرجاء السماء، من أخبار قاب قوسين أو أدنى. ويرحم الله ابن رشد البغدادي

حيث يقول في قافية الميم:

مـشى وحـده والحجـب تـرفع دونـه ... وأملاكهـــا تـــسعى لـــه وتقـــوم

وقال في قافية الحاء:

حبـيب سـرى للعـرش يـا لهـا رفعـة ... تقاصـــر إدريـــس لهـــا ومـــسيح

* **ثم قال الشيخ رضي الله عنه:**

3 **إنَّمَـــا مـــثَّلوا صِـــفاتِكَ للـــنَّا ... سِ كمَـــا مـــثَّل الـــنُّجومَ المَـــاءُ**

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم قد أعطي من أوصاف البهاء والجمال، واكتسى من أنوار العظمة والجلال، ما تكل دون وصفه الألسنة والفهوم، وتتضاءل دون إدراكه حقائق العلوم:

أعـيا الـورى فهـم معـناه فلـيس يـرى ... للقـــرب والـــبعد فـــيه غيـــر مـــنفحم

كالـشمس تظهـر للعينـين مـن بعـد ... صـــغيرة وتكـــل الطـــرف مـــن أمـــم

وكـيف يـدرك فـي الدنـيا حقيقـته ... قـــوم نـــيام تـــسلوا عـــنه بـــالحلم

فلا يمكن أن يمثل من وصفه الأنبياء ولا العلماء إلا كما يمثل النجوم في السماء. ولهذا أشار بقوله: "**إنما**" حرف حصر عند الجمهور "**مثلوا**" أي: يشبه الواصفون "**صفاتك**" أي: محاسنك العظيمة وأوصافك الجليلة "**للناس**" قيل أصله أناس مشتق من الإنس فحذفت همزته تخفيفا. وقيل غير ذلك "**كما**" الكاف نعت لمصدر محذوف، أي: تمثيلا مثل ما "**مثل النجوم الماء**" يعني أن الأنبياء عليهم السلام نعتوا صفة نبينا صلى الله عليه وسلم لأممهم لكنهم مع ذلك لم يصلوا لتصوير كنهها لعدم إحاطتهم به. وإنما غاية ما وصلوا إليه تصوير صورها الحاكية لمباديها. كما أن الماء لم يحك من النجوم إلا صورها لا غير. وإذا عجزت الأنبياء عن كنه صفاته صلى الله عليه وسلم، فما بالك بغيرهم من العلماء والحكماء. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: << والذي نفسي بيده ما عرفني حقيقة غير ربي>>. وقال أويس القرني رضي الله عنه، لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما رأيتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ظله" قالوا: "ولا ابن أبي قحافة".وقال القطب سيدي

عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به وأفاض علينا من سيب بحره في صلاته المشهورة:"وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق".

*** ثم قال رضي الله عنه:**

4 **أنتَ مِصْباحُ كلِّ فضْل فَمَا تصْـ ـدُرُ إلاَّ عـنْ ضَـوْئكَ الأضْـوَاءُ**

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم هو نور الأنوار، ومعدن المعارف والأسرار، فمن نوره صلى الله عليه وسلم اقتبست الأنوار، ومن معدن سره التمست الأسرار. ولا شك أيضا أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الفضائل والكمالات، ومن فضله صلى الله عليه وسلم تفرعت المكارم والكرامات، وقد سبق نوره الوجود خلقا وتقديرا، فلم يزل مصباح الكون سراجا منيرا، فلا تصدر الأضواء إلا من ضوء نوره الباهر، ولا تلتمس الفضائل إلا من جوده الظاهر، وفي بردة المديح:

وكلهـم مـن رسـول الله ملـتمس غـرفا مـن البحـر أو رشـفا مـن الـديم

ولهذا أشار الشيخ بقوله : "**أنت**" أيها العلم المفرد الذي لا يساوي ولا يداني "**مصباح**" أي سراج منير مقتبس من قوله تعالى:﴿ **وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾ [الأحزاب: 46] وتشبيهه صلى الله عليه وسلم بالمصباح والسراج لأنه فيه مزيد الانتفاع والاقتباس بلا كلفة ولا نقص وإن غاب الأصل بقيت الفروع. نوره صلى الله عليه وسلم منه اقتبست جميع الأنوار السابقة لظهوره الصوري واللاحقة له من غير مانع ولا حجاب ولا كلفة. وكلما اقتبس منه صلى الله عليه وسلم لا ينقصه شيء وفي غيبته الصورية لم يغب الاستمداد من نوره بل هو موجود في الفروع المقتبسة منه سابقة ولاحقة. فلا ريب كان "**مصباح كل فضل**" وكمال برز لغيره في الوجود، لأنه الخليفة الأكبر الممد لكل موجود. وشاهده ما صح من قوله صلى الله عليه وسلم:<<آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة>> وقوله:<< لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي>>. وقوله: <<إنما كان إبراهيم خليلا من وراء ورا>>. قال القطب الكامل سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه وأفاض علينا من بركاته: "الأنبياء خلقوا من الرحمة ونبينا صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد هو عين

الرحمة" قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107] فدعا إلى الله بالبصيرة الواضحة والبينة القائمة وقرب المدارك وبين المسالك وحث على سلوك سبيل الهدى واجتناب سبيل الردى فما ترك شيئا يقرب إلى الله إلا ودعا إليه ولا أدبا يصلح أن يكون العبد به مع الله إلا حث عليه ولا شيئا يشغل عن الله إلا حذر العباد منه ولا عملا يقطعهم عن الله إلا وأخرجهم عنه لا يألوا نصحا في تخليص العباد من أوحال القطيعة ومن مواطن الهلكة إلى أن ارتحل ليل الشرك وانقضت أغياره، وأضاء نهار الأعيان وأشرقت أنواره، فرفع صلى الله عليه وسلم من الدين لواءه، وتمم نظامه، وقرر فرائضه وأحكامه، وبين حلاله وحرامه، وكما بين للعباد الأحكام، كذلك فتح لهم باب الإفهام، حتى قال الراوي لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الطير ليتحرك في السماء فيستفيد منه علما. فبِحَقٍّ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة: 256]. وقال سبحانه: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ [المائدة: 3]. وقال صلى الله عليه وسلم: <<تركتها بيضاء نقية>>. فجزاه الله خير ما جزى نبيا عن أمته. ولما أكمل صلى الله عليه وسلم البيان لسبيل الرشاد، وأظهر المسالك الموصلة إلى الله للعباد، توفاه الله إلى الدار التي هي خير له، وأولى بعد أن خيره فاختار الرفيق الأعلى. ثم جعل الله سبحانه الدعاء إلى الله في أمته أبدا ودائما سرمدا بما ورثوا منه وأخذوا عنه.وقد شهد لهم الحق سبحانه بذلك وجعلهم أهلا لما هنالك، قال الله سبحانه: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: 108]. انتهى كلامه رضي الله عنه. نقله تلميذه في لطائف المنن رضي الله عنهم أجمعين. وإذا تحقق أن سيدنا صلى الله عليه وسلم هو سراج الكون "**فما تصدر**" أي: تبرز في الوجود "**إلا عن ضوئك**" أيها السيد الكامل "**الأضواء**" كلها من الآيات والمعجزات، وسائر المزايا والكرامات، وإن تأخر وجودك عن جميع الأنبياء لكن نور نبوتك متقدم عليهم، بل وعلى جميع المخلوقات. وفي البردة:

وكـل آي أتـى الرسـل الكـرام بهـا ... فإنمـا اتـصلت مـن نـوره بهـم

وعن جابر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أخبرني عن أول شيء خلقه الله

قبل الأشياء. قال: <<يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا إنسي. فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول العرش، ومن الثاني القلم، والثالث اللوح. ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة. ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار. ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم، وهي المعرفة بالله، ومن الثالث نور أنفسهم وهو التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله. انتهى. أخرجه عبد الرزاق بسنده إلى جابر.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

5 **لكَ ذاتُ العلوم من عالِم الغيْـ ـــب ومِـــنْها لآدمَ الأسْـــماءُ**

لا شك أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قد خصه الله بالعلوم الذاتية، والأسرار الربانية، والمواهب اللدنية، وأسرار الحقائق العرفانية، وقد أطلعه الله على أسرار المكنونات، وكشف له عن حقائق المكونات، فأخبر بما كان وما هو آت، فقرر علوم الشرائع المتقدمة، عن الرسل في القرون السالفة، وقصص الأمم الماضية، وعلمه الله خواص الأسماء وأسرارها، وتفاريع الشريعة وأنواعها، فكان صلى الله عليه وسلم يخاطب كل قوم بلغاتهم ويتكلم مع كل أناس بلسانهم، لأنه صلى الله عليه وسلم رسول الجميع ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [ابراهيم: 4]. ولذلك أشار الشيخ بقوله "**لك ذات العلوم**" أي ثبت لك لا لغيرك حقائق العلوم الربانية، والتجليات الذاتية والكشوفات العيانية، وهي مواهب الله الفتحية التي ترد على القلوب من خزائن علام الغيوب. ويعبر عنها في حق الرسل بالوحي وفي حق الأولياء بالإلهام. ولذلك قال "**من عالِم الغيب**" أي: من فيض عالِم الغيب، وهو الحق سبحانه عالِم الغيب والشهادة، فالغيب بمعنى الغائب وهو ما لم يشاهده أي بالنسبة إلينا، أما بالنسبة

لله تعالى فالكل من عالم الشهادة. وخص بالذكر لأن العلم به أعظم وأفخم قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الجن: 26] الآية. وأكثر علوم نبينا صلى الله عليه وسلم تتعلق بالمغيبات بدليل قوله: <<فعلمت علم الأولين والآخرين>> في الحديث المشهور. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه لما ولد صلى الله عليه وسلم، قال في أذنه خازن الجنان: "أبشر فما بقي لنبي علم إلا وقد أعطيته، فأنت أكثرهم علما وأشجعهم قلبا". وعن أبي رافع فيما أخرجه الديلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<مثلت لي أمتي في الماء والطين، وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها>>. ولهذا فقد أوتي صلى الله عليه وسلم علم كل شيء حتى أن اللوح والقلم مستمدان من علومه وهو يمدهما، فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم. فالله تعالى علمه صلى الله عليه وسلم حقائق العلوم وأسرارها بخلاف ما علم آدم عليه السلام. ولذلك أشار الشيخ بقوله: "**ومنها لآدم الأسماء**" أي: مجرد معرفة أسماء الأشياء دون حقائقها وخواصها. وصرح الشيخ رحمه الله تعالى، بهذا التفضيل مع العلم به مما قبله، لأن آدم ميزه الله تعالى على الملائكة بالعلوم التي علمها له وكانت سببا لأمرهم بالسجود والخضوع، فربما يتوهم أن هذه المرتبة الباهرة لم تحصل لنبينا صلى الله عليه وسلم إذ قد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل مرجع ذلك بأنه لم يحصل له من العلوم إلا مجرد العلم بأسمائها وأن الحاصل لنبينا صلى الله عليه وسلم هو العلم بحقائقها ومسمياتها. ولا ريب أن العلم بهذا أعلى وأجل. فإن الأول وسيلة لهذا. فآدم عليه السلام كان وسيلة لخلق نبينا صلى الله عليه وسلم من صلبه، فهو المقصود بالذات. وآدم بطريق التبعية حتى قال بعض المحققين، إنما سجد الملائكة لنور نبينا صلى الله عليه وسلم. قال سيدي علي بن وفى رضي الله عنه: لو أبصر الشيطان طلعة نوره في وجه آدم كان أول من سجد. ثم ما قاله الشيخ من كون آدم إنما عرف الأسماء فقط دون المسميات ليس هو التحقيق، إذ عرْض جميع الملائكة عن أسمائها وجوابه بتطبيق الأسماء عليها يفيد أنه علم المسميات والأسماء. وفي تفسير أبي السعود والتعليم حقيقة: عبارة عن

فعل يترتب عليه العلم بلا تخلف عنه، ولا يحصل ذلك بمجرد إفاضة العلم بل يتوقف على استعداد المتعلم بقبول الفيض وتلقيه من جهته وهذا هو السر في إيثاره على الإعلام والإنباء، فإنهما إنما يتوقفان على سماع الخبر الذي يستوي فيه البشر والملك، وبه تظهر أحقيته بالخلافة منهم لما أن جبلتهم غير مستعدة للإحاطة بتفاصيل أحوال الجزيئات الجسمانية. فمعنى تعليمه تعالى إياها أن يخلق فيهم إذ ذاك بموجب استعداده علما ضروريا تفصيليا بأسماء جميع المسميات وأحوالها وخواصها اللائقة بكل منها أو يلقى في روعه تفصيلا أن هذا فرس وشأنه كيت وكيت، وذاك بعير وشأنه كيت وكيت، إلى غير ذلك من الأحوال الموجودة فيتلقاها حسبما يقتضيه استعداده وتستعد له قابليته المتفرعة على فطرته المنطوية على طبائع متباينة مستعدة لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمستحيلات والموجودات، وألهمه معرفة ذوات الأسماء وأسمائها وخواصها ومصارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالاتها. انتهى. وعلى هذا فنبينا صلى الله عليه وسلم اختص علمه كغيره من الأنبياء بالعموم فيها وفيه إيماء إلى أن الخصوصية التي امتاز بها آدم عن الملائكة وكانت سببا لأمرهم بالسجود حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم وزاد بعلم الحقائق.

تنبيه: ما ضمنه الشيخ في هذه الأبيات الثلاثة من قوله إنما مثلوا صفاتك للناس إلى هنا هو عين ما ذكره الشيخ القطب سيدي عبد السلام بن مشيش في أول تصليته من قوله: "اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلت علوم آدم، فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق". فقوله "**أنت مصباح كل فضل**" هو قوله: "على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار". وقوله "**لك ذات العلوم**" إلخ، هو قوله "وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلت علوم آدم، فأعجز الخلائق". وقوله "**إنما مثلوا صفاتك للناس**" إلخ. هو قوله "وله تضاءلت الفهوم، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق. فهو من اتفاق الخواطر. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال الشيخ رضي الله عنه:**

6 **لمْ تـزلْ في ضمائر الكونِ تُختا رُ لـــك الأمهـــاتُ والآبـــاءُ**

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم قد سبق نوره الموجودات، ومن نوره امتدت المكونات. فلم يزل نوره صلى الله عليه وسلم محجوبا في خزائن غيبه مصونا في ضمائر كونه تختار له الأصلاب النقية والأرحام الطاهرات حتى ظهر صلوات الله وسلامه رحمة للعالمين. ولهذا أشار بقوله "**لم تزل**" حال كونك "**في ضمائر الكون**" أن في خباياه تنتقل من الأصلاب والأرحام. "**تختار لك**" أي تصطفى "**لك الأمهات**" جمع أم وهي الوالدة وإن علت، وأصلها أمهة بدليل الجمع بأمهات في الآدمين وأمات لغيرهما. "**والآباء**" جمع أب وأصله أبوٌ حذفت واوه تخفيفا أي كما طابت ذاتك بما أوتيته من الكمالات، كذلك طاب نسبك فلم يكن في أمهاتك من لدن أبيك عبد الله إلا من هو مصطفى مختار. وشاهد ذلك حديث البخاري <<بعثت من خير قرن بني آدم، قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت منه>>. وحديث مسلم: <<إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم>>. وحديث الترمذي <<إن الله خلق الخلق فجعلني من خير قرنهم، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا>>. وحديث: <<أن قريشا كانت نورا بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام، يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق الله آدم عليه السلام ألقى ذلك النور في صلبه>>. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرات حتى أخرجني بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط>>. وقال صلى الله عليه وسلم: << لم يلتق أبواي قط على سفاح، فلم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطينية إلى الأرحام الطاهرة مصفا مهذبا لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما>>. انتهى.

تنبيه: يوخذ من كلام الشيخ ومن الأحاديث المتقدمة أن آباء النبي صلى الله

عليه وسلم إلى آدم وأمهاته إلى حواء ليس فيهم كافر، لأن الكافر لا يقال فيه أنه مختار ولا كريم، بل نجس، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: 28] وغاية ما فيهم أنهم أهل الفترة، وهم في حكم المسلمين لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 15] وأما والداه صلى الله عليه وسلم فقد صححه غير واحد من الحفاظ أن الله تعالى أحياهما له وآمنا به كرامة له صلى الله عليه وسلم. قال السيوطي وزعم بعض الناس أنه موضوع، والصواب أنه ضعيف لا موضوع حسبما صرح به الحافظ ناصر الدين ابن الدمشقي. بيان: قلت الإيمان بعد الموت لا ينفع، قلت في غير الخصوصية. فإن قلت: إذا قررتما أنهما من أهل الفترة، فما فائدة الإحياء. قلت: إتحافهما بكمال لم يحصل لأهل الفترة لأن الغاية من أمرهم أنهم نجوا من النار. وأما مراتب الثواب فهم بمعزل عنها. فإن قلت: آزر أبو إبراهيم كان كافرا. قلت: المحققون على أنه عمه، والعرب تسمي العم أبا. والصواب في هذه المسألة الوقف والإمساك. قال بعض الموفقين: الحذر الحذر من ذكرهما بنقص، فإن ذلك يؤذيه صلى الله عليه وسلم لقوله: <<لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات>>. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

7 مَـا مضَت فتْرة من الرسـل إلا بـشَّرَتْ قَـومها بـك الأنْبـياء

لما كان نور سيدنا صلى الله عليه وسلم هو السابق للوجود. أخذ الله سبحانه على الأنبياء في شأنه المواثيق والعهود، فلم يزل شرفه وإشادة ذكره في الأمم السالفة مشهورا، ولم يزل نعته وصفته في الكتب السابقة مسطورا. فما مضت فترة خالية من الرسل الكرام. إلا بشرت بظهوره الأنبياء عليهم السلام. ولهذا أشار بقوله "**ما مضت**" أي خلت "**فترة**" بفتح الفاء، وهي ما بين الرسول وبعثة الرسول الذي يليه، كما بين عيسى ونبينا صلى الله عليه وسلم. والمشهور أنها ستمائة، أي مدة خالية "**من الرسل**"، جمع رسول، وهو إنسان ذكر أُوحي إليه بشرع وأمر بالتبليغ، وإلا فنبي فقط. أي ما مضت فترة خالية من الرسل مع وجود الأنبياء فقط، "**إلا بشرت**" من البشارة وهو

الخبر السار "**قومها**" يعود على ما بعده لفظا فقط. "**بك**" أي بظهور نورك التام وبشريعتك الجامعة لسائر الأحكام. "**الأنبياء**" جمع نبي وقد تقدم، ويحتمل أن يكون المعنى ما مضت فترة من الرسل والأنبياء وخلا الزمان ممن يذكرك ويبشرك إلا بعث الله من يجدد ذكرك ويشهر اسمك من الأنبياء والرسل. وفي هذا استدلال واضح على كمال شرفه صلى الله عليه وسلم ورفعة على ألسنة الرسل، فإنه صلى الله عليه وسلم نبي الأنبياء. وكانت الرسل في دعاء الأمم عنه خلفاء. قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ** ﴾ [آل عمران: 81].الآية. أي لأجل ما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم لتؤمنن به ولتنصرنه. قال ابن عباس والحسن وطاوس أنه تعالى أخذ على كل نبي بعثه من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم لئن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويلزم من هذا ان الأنبياء كانوا ياخذون الميثاق من أممهم بأنهم إن أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا به ونصروه. قال الإمام السبكي: دلت الآية على أنهم لو أدركوا زمنه كان مرسلا إليهم فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق: الأنبياء وأممهم من لدن آدم إلى قيام الساعة، وحينئذ يدخلون في قوله وأرسلت إلى الناس كافة. وحكمة أخذ الميثاق على الأنبياء إعلامهم وأممهم بأنه المتقدم عليهم وأنه نبيهم ورسولهم. وقد ظهر ذلك في الدنيا فإنه أمَّهُم في الإسراء، ويظهر ذلك في الآخرة بأنهم كلهم تحت لوائه. انتهى. ولا ينافيه العلم بأنهم لا يدركونه ولا الحكم في الآية بل لفسق على من تولى عن ذلك. لأن التعليق لا يستلزم الوقوع كقوله تعالى:﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ** ﴾ [الزمر: 65] الآية. وقوله تعالى:﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا** ﴾ [الحاقة: 44] الآية. فالمقصود أنه لو فرض أنهم يدركونه وبعث وهم أحياء لآمنوا به. وقال تعالى عن عيسى:﴿ **وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ** ﴾ [الصف: 6]. ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم:<<أنا دعوة أبي إبراهيم>>. أي ﴿ **رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً** ﴾

[البقرة: 129] الآية. وبشارة عيسى عليه وعلى نبينا السلام.

*** ثم قال:**

8 **تتباهى بك العصور وتسمو بك علياء بعدها علياء**

لما كان سيدنا صلى الله عليه وسلم موجودا في ضمائر الأكوان، تفاخرت بوجوده العصور والأزمان، وارتفعت شرفا بقدر قربها من عصر وجوده للعيان. فكل عصر يعلوا على ما قبله لقربه منه عليا بعد عليا. إلى عصر حلوله في الفردوس الأعلى. ولهذا أشار بقوله "**تتباهى**" أي تتفاخر "**بك**" أي بوجودك "**العصور**" أي الأزمنة الطويلة من لدن آدم إلى قيام الساعة وما بعده، فكل عصر يفتخر على ما قبله لوجودك فيه بكمال أعلى مما قبله، ولو في ضمن آبائك لكن أعظمها افتخارا عصر بروزك إلى هذا العالم ثم عصر نشأتك ثم عصر رضاعك، ثم عصر شق صدرك، ثم تعبدك بحراء وغيره، ثم عصر نبوتك، ثم عصر رسالتك، ثم عصر دعائك الخلق إلى الله تعالى، ثم عصر إقبالهم عليك، ثم عصر معراجك ثم عصر هجرتك، ثم عصر جهادك، ثم عصر سراياك وبعوثك وفتوحك، ثم عصر دخول الناس في دين الله أفواجا، ثم عصر حجك، ثم عصر أتباعك على تفاوتهم إلى يوم القيامة كما دل عليه الأثر <<لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين>> فمزاياه تتزايد في كل عصر من أعصار حياته صلى الله عليه وسلم، ما قبله بحسب ذلك يكون افتخار ذلك العصر على غيره، وكذلك عصر أتباعه متفاوت بتفاوت مزاياهم المقتبسة من مزاياه صلى الله عليه وسلم وأعمالهم المتضاعفة له تضاعفا يفوق الحصر، لأن كل عامل يتضاعف له تضاعفا فوق الحصر. لأن كل عامل يتضاعف له صلى الله عليه وسلم بحسب عمله. وكذلك كل وسيلة بينه وبينه لأنه الدال للكل، ومن دل على الخير فله أجر مثل فاعله، فكل دال يتضاعف له بحسب تضاعف من بعده. والنبي صلى الله عليه وسلم يتضاعف له الجميع وهذا شيء يقصر عن إدراكه وكثرته العقل. ثم عصر مقامه المحمود وشفاعته العظمى، ثم عصر فصل القضا، ثم عصر بقية شفاعته، ثم عصر حوضه، ثم عصر وسيلته التي يعطاها في الجنة مما لا تدرك غايته ولا تحد نهايته. فكل هذه العصور تفتخر بحسب ما يقع فيها من كماله

صلى الله عليه وسلم، لأن الأزمنة والأمكنة تتشرف بشرف من يكون فيها وما يكون فيها من المزايا والكمالات. ولذلك قال بعضهم: إن ليلة المولد أفضل من ليلة القدر، وهو صحيح لولا النص على خلافه. قاله ابن حجر هنا. وكما اكتسب الشرف الزمان بظهوره فيه صلى الله عليه وسلم، كذلك اكتسب الشرف المكان بحلوله فيه صلى الله عليه وسلم، ولذلك نقله الله إلى المدينة المشرفة لتكتسب منه الشرف، وقد شرف الله مكة بإبراهيم الخليل عليه السلام. وقد انعقد الإجماع على تفضيل البقعة التي ضمت أعضاءه الشريفة على جميع بقع الأرض والسماء، فاكتسبت شرفا لا يوازيه شرف أصلا. وكذا كل من انتسب إليه صلى الله عليه وسلم بنسب أو حسب أو تقرب إليه بوسيلة أو سبب اكتسب منه الشرف التام ووجب تعظيمه على الأنام. وقوله "**وتسموا**" أي تعلو وترتفع، من سموت وسميت، كعلوت وعليت بك، أي بتلبسها "**بك**" مرتبة "**علياء**"، مؤنث أعلا، "**بعدها**" في الزمان. والعلو مرتبة أخرى "**علياء**"، أي أعلى منها، أي في كل عصر من العصور المذكورة مرتبة أعلا مما قبلها، وأعلى منها ما بعدها، هكذا إلى ما لا نهاية لها. ودليل تفاوت مراتبه كما ذكر تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ولا شك أن علومه ومعارفه متزايدة ومتفاوتة إلى ما لا نهاية له. وقوله صلى الله عليه وسلم: <<أنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله>> إنما قاله تواضعا وطلبا لتزايد كماله. قال العارف القطب أبو الحسن الشاذلي تغمده الله برحمته، وأفاض علينا من بركته: "غين أنوار، لا غين أغيار" أي لأنه صلى الله عليه وسلم كان دائم الترقي، فكان كلما توالت أنوار العلوم والمعارف على قلبه، ارتقى إلى مرتبة أعلى مما هو فيها، ورءا أن ما قبلها دونها فيستغفر. وفي قول الناظم "**وتسموا**" من المدح ما لا يخفى، لأنه جعل تلك المراتب هي التي تسموا به، ولم يجر على ما هو المتبادر أنه الذي يسموا ويرتفع لما هو الحق من أنه تعالى خلقه في عالم الأمر على أكمل كمال يمكن أن يوجد لمخلوق، ثم أبرزه في عالم الخلق مندرجا في تلك المراتب لتتشرف به لا ليتشرف هو بها لما علمت أنه كامل قبلها. فتأمل ذلك فإنه دقيق قاله ابن حجر.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

9 **وبَــدا للْوجُــود مــنْك كــريمُ مِــنْ كَــريمٍ آبــاؤُه كُــرماءُ**

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم هو سيد الوجود،وأصل ينابيع المكارم والجود. فقد ظهر منه للوجود كريم عظيم، نشأ من آباء كرام ونسب كريم، منزه الجانبين من سفاح الجاهلية وأدناسها. مشتمل على أشرف رجال ونسائها. ولهذا أشار بقوله "**وبدا للوجود**" أي لهذا العمل "**منك كريم**" أي سالم من كل نقص جامع لكل كمال. وهذا أحد أنواع التجريد الذي هو أدق أنواع البديع، وهو أن تنزع من أمر ذي صفة أمرا آخر مماثلا لذلك الأمر في تلك الصفة مبالغة لكمالها في ذلك الأمر حتى كأنه بلغ من الاتصاف بتلك الصفة إلى حيث يصح أن ينزع منه موصوف بتلك الصفة كقولك: لي من فلان صديق حميم. ولقيت من زيد أسدا، أي: يبلغ فلان من الصداقة حدا يصح معه أن يستخلص منه فلان آخر مثله في الصداقة، وقس على هذا. وسيدنا صلى الله عليه وسلم لما بلغ في الكرم الغاية التي لا تدرك، صح أن ينزع منه شخص كريم مبالغة في كرمه وكماله فيه. ثم هو صلى الله عليه وسلم نشأ "**من**" حر "**كريم**" وهو عبد الله بن عبد المطلب "**آباءه كرماء**"، فكلهم كانوا في غاية الشرف والكمال، ظاهرا نور النبوة عليهم، حائزين رياسة قومهم في زمانهم، ومن طالع سيرهم وأخبارهم في كتب السير علم ذلك ضرورة. وقد اعتنى الناس بنسبه الكريم نظما ونثرا، ونقبوا عن آله الأمجاد، وأمهاته الطاهرات الميلاد. أبا فأبا وأما فأما،فزادوا من ذلك الفخار حدائق غلبا، وشاذوا من شرف تلك الآثار مراقي شيما. وقد أجاد السيد الأديب أبو عبد الله الفاسي الخصال في قصيدته التي سماها: معراج المناقب، ومنهاج الحسب الثاقب. في ذكر نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ومناقب أصحابه. وقد رأيت أن أثبت منها هنا ما يختص بهذا النسب الكريم على اختصار يفي إن شاء الله بالغرض المروم، من كتاب الاكتفاء للإمام الكلاعي مع اختصار لبعض أبياتها، وهذا بعضها:

1 **فمــن بــي وأنــى لــي بــريح تحطنــي إلــى ذروة البــيت الــرفيع المطــنب**

2 **إلــى الهاشــمي الأبطحــي محمــد إلــى خاتم الرسل المكين المقـرب**

3 **إلــى صــفوة الله الأمــين لوحــيه أبي القاسم الهادي إلى خير مشعب**

4 إلى ابن الذبيحين الذي صيغ مجده ... ولما تصغ شمس ولا بدر غيهب

5 إلى المنتقى من عهد آدم في الذرى ... يردد في سر الصريح المهذب

6 إلى من تولى الله تطهير بيته ... وعصمته من كل عيص موشب

7 فجاء بريء العرض من كل وصمة ... فما شئت من أم حصان ومن أب

8 كروض الربى كالشمس في رونق الضحى ... كناشئ ماء السحب قبل التصوب

9 عليه من الرحمن عين كلاءة ... تجنبه إلمام كل مجنب

10 فمن مثل عبد الله خير لذاته ... وآمنة في خير طي ومنصب

11 ومن ذا له جد كشيبة ذي الندى ... وساقي الحجيج بين شرق ومغرب

12 له سؤدد البطحاء غير مدافع ... وحرمة ما بين الصفا والمحصب

13 به وبم في برده من أمانة ... حمى الله ذاك البيت من كل مرهب

14 وأهلك بالطير الأبابيل جمعهم ... فيا لهم من عارض غير خلب

15 وفيما رواه شيبة أحمد آية ... تلوح لعين الناظر المتعجب

16 وفي ضربه عند القداح مروعا ... ومن يرم بين العين والأنف يرهب

17 وما زال يرمي والسهام تصيبه ... إلى أن وقته الكوم من نسل أرحب

18 وكانوا أساسا كلما أمهم أذى ... تكشف عن صنع من الله معجب

19 وعمر المعالي هاشم وثريده ... بمكة يدعوا كل أغبر مجذب

20 بمتن جفان كالجوابي منيخة ... ملئن عبيطات السهام المرغب

21 هو السيد المتبوع والقمر الذي ... على صفحتيه في الرضى ماء مذهب

22 بنا الله للإسلام عزا لنصره ... إلى منتهى الاحياء من آل يثرب

23 وعبد مناف دوحة الشرف التي ... تفرع منها كل أروع محرب

24 مطاع قريش والكفيل بعزها ... ومانعها من كل ضيم ومنهب

25 وزيد ومن زيد قصي مجمع ... سمعت وبلغنا وحسبك فاذهب

26 بـه اجـتمعت أحـياء فهـر وأحـرزت ... تـراث أبـيها دون كـل مذبـذب
27 وأصـبح حكـم الله فـي آل بيـتـه ... فهـم حـوله مـن سـادنين وحجـب
28 ولاذت قـريش مـن كـلاب بـن مـرة ... بجـذل حكـاك أو بعـذق مـرجـب
29 ومـرة ذو نفـس لـدا الحـرب مـرة ... وفي السلم نفس الصرّ خويّ المذوب
30 وكعب عقيد الجود والحلم والنهـى ... وذي الحكـم الغـر المبشر بالنبـي
31 خطـيب لـؤي واللـواء بكفـه ... لخطـبة نـاد أو لخطـة مقـنـب
32 وأول مـن سـمى العـروبة جمعـة ... وصـدر أمـا بعـد يلخـى ويطـب
33 وأضـحى لـؤي غالـبا كـل ماجـد ... ومـن غالـب ينجيه للجحـد يغلـب
34 وفهـر أبـو الاحـياء جامـع شـملهـا ... وكاسـبها مـن فخـره خيـر مكسـب
35 تعـرش فامـتازت قـريش بفـضله ... وسـد فـسدوا خلـة المـتـأوب
36 ومالـك المربـي علـى كـل مـالـك ... فتـى النضر حابته السيادة بـل حبـي
37 هو الليث في الهيجاء والغيث في الندى ... وبدر الدياجي حين يسري ويجتب
38 واعـرض بحـر مـن كـنانة زاخـر ... يـساق إلـى أمـواجه كـل مـذنـب
39 وخير حكما في الصهيل أو الرضـى ... أو التـي أوعـز علـى الدهـر مـصحب
40 فلـم ينتـصر واخـتار كـلا فحـازه ... إلـى غايـة العـز المديـد المعقـب
41 لـدا البـيت محجـوبا وعـز مخـلّه ... واجـرد معيوب إلـى جنب أصـهب
42 وخـزم آنـاف العـتاة خـزيمـة ... فـلاذوا بـأخلاق الذلـول المغـرب
43 ومدركـة ذو الـيمن والـنجح عامـر ... وخيـر مـسمى فـي العـلا وملقـب
44 تـراءى مطـلا إذ تقمـع صـنـوه ... ففـاز بقـدح ظافـر لـم يخـيـب
45 وإلياس مـأوى النـاس فـي كـل أزمـة ... ومهر بهـم في كـل خـوف ومرهـب
46 وزاجـرهم اذ بدلـوا الـدين ضـلـة ... وأضـحوا بـلا هـاد ولا مـتحـوب
47 وجـاءهم بالـركن بعـد هلاكـه ... وقد كان في صدع من الأرض أنكب

48 وما هو إلا معجز لنبوة ... وبشرى وعقبى للبشير المعقب

49 وحج وأهدى البدن أول مشعر ... لها وفروض الحج لم ترتب

50 وكم حكمة لم تسمع الأذن مثلها ... له إن تلح في ناظر العين تكتب

51 إلى قنص تنميه سوداء بنته ... كلا طرفيه من معد لمنسب

52 وفي مضر تاه الكلام واقبلت ... مآثر سدت كل وجه ومذهب

53 وجيش وكاثرْن النجوم بجمعها ... بأكثر منها في العديد وأثقب

54 هنالك أتى الله من شاء فضله ... وقيل لهذا سر وللآخر اركب

55 وما منها إلا حنيفي ومسلم ... على نهج إسماعيل غير منكب

56 وقد سلم الأفعى بنجران حكمه ... إليهم ولم ينظر إلى متعقب

57 رءا فطنا أبدت له عن نجاره ... وكان لنبع فاستحال لأثأب

58 وتلك علامة النبوة كلها ... تشير إلى منظورها المترقب

59 وقال رسول الله مهما اختلفتم ... ولم تعرفوا قصد السبيل الملحب

60 ففي مضر جرثومة الحق فاعمدوا ... إلى مضر تلفوه لم يتنقب

61 وما سيد الأنزار يفوته ... ومن فاته بدر الدجا لم يؤنب

62 قريع مصل والذي سد فقره ... متى يأتيهم شعب من الدهر يرأب

63 أبو أبحر الدنيا وأطودها التي ... بها تثبت طرا فلم تتقلب

64 ولم يكفه حتى أعانت مُعانةٌ ... بكل عتيق جُرْهُميّ مهذّب

65 وجاء معد والسماء شموسها ... وأقمارها في ديله المتسحب

66 وبين يديه الأنجم الزهر بثها ... على الأرض حتى لا مساغ لأجنب

67 وقدما تحجى الله من بخت نصر ... به والورى من هالك ومعذب

68 وجنبه أرض البوار وحازه ... إلى معقل من حرزه متأشب

69 وحل بأرمينية تحت حفظه ... لدا ملك عن جانبيه مدبب

70 فلما تجلى الروح أسرى بعبده إلى حرم أمْن كإنبائه اجتب
71 وقد كان رد الله عنهم كليمه ليالي يدعوا دعوة المتغضب
72 وجاء بنو يعقوب يشكون منهم ينادونه هذا قتيل وذا سبي
73 فقال له لا تدع موسى عليهم فمنهم نبي أصطفيه وأجتبي
74 أحبهم فيه رضى وأحبه كذلك من أحببه يكرم ويجتب
75 واغفر إن يستغفروني ذنوبهم ومهما دعا داع أجبه وأقرب
76 فقال إذًا اجْعلهم ربي أمتي فمن ترضاه يا رب يرضى ويرغب
77 فقال هم في آخر الدهر صفوتي يفضون أعدائي ويستنصرون بي
78 دعائم إيمان وأركان سؤدد مضت بعلاها مهدد بنت جلحب
79 ومصعد عدنان إلى جذع آدم بأبيع من قصد الصباح وألحب
80 ونهي رسول الله صد وجوهها وكان لنا في نظمها شد ملهب

* انتهى الغرض منه. وأوردته بطوله تماما لمدح هذا النسب الشريف تفصيلا. وإلا فقد مدحه المصنف إجمالا بقوله:

10 نَسَبٌ تَحْسبُ العُلا بِحُلاهُ قلَّدتْها نُجومَها الجَوزاءُ

أي تظن أيها المتأمل، معالي هذا النسب، وكمال شرفه، بسبب ما تحلى به من الكمالات، أن الجوزاء قلدت نجومها تلك المعالي، أي جعلت نجومها قلادة لمعالي هذا النسب الشريف، فعلم أن كل واحد من أولائك الآباء الكرام قد ارتفع في زمانه حتى صار كأنه نجم في الترقي وعلو المرتبة والاهتداء في ظلمات البر والبحر، حتى يظن الظان أنه نجم من نجوم الجوزاء، وأن ذلك النسب العقد، كاستدارة نجوم الجوزاء، وأن مجموع هذا النسب كالعقد الثمين الذي تقلده عنق تلك المراتب. ففيه من البلاغة ما لا يخفى.

* ثم أخذ في زيادة مدحه:

11 حـبَّذا عِقْـد سُـؤْدَدٍ وفَخـارِ أنْـت فِـيهِ اليَتـيمَةُ العـصْماءُ

"**حبذا**" مثل نعم معنى وعملا مع زيادتها بإشعارها بأن الممدوح محبوب للقلب. فأصلها حبُبَ بالضم أي صار حبيبا لا حبَبَ بالفتح ثم أدغم. وذا فاعله يلزمه الإفراد دائما لأنه كالمثل وإن كان المخصوص مثنى أو مجموعا. **و"العقد"** بالكسر قلادة من الجوهر. و"**السؤدد**" الشرف والسيادة و"**الفخار**" ما يمتدح به من الخصال الحميدة و"**اليتيمة**" الياقوتة التي لا شبيه لها في حسنها. و"**العصماء**" أي المعصومة من الأغيار والأكدار والمعنى حبذا نسبك الذي إذا عددتهم ووقفت على مفاخرهم وشرفهم وجدتهم قلادة منتظمة من جواهر ثمينة وكنت أنت فيها أعظمها وأنفسها وأغلاها بحيث تكون أنت واسطتها العديمة النظير، المخصوصة بالرعاية والحفظ التي وجد فيها ما لم يوجد في غيرها لتميزها ببلوغها من صفات الجمال ونعوت الجلال ما يبهر العقل ويفوت الوصف. وقد تقدم ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق والخليقة الأكبر عن الملك الحق. وأما نسبه الشريف فمن طالع السير علم ما كانوا عليه من مخافة الأمر وجلالة القدر. فكل واحد كان عظيما في قومه، حاز في قومه رياسة زمانه في وقته لظهور نور النبوة في جبينه وقد تقدمت قصيدة في الخصال في تعيين كل واحد وما ثبت له من الخصال إلى جده عدنان. وقد ثبت:<<لا ترفعوني فوق عدنان>>.

*** ولما أكمل مدح نسبه أخذ في مدح ذاته فقال رضي الله عنه:**

12 ومُحَيًّا كالـشَّمسِ منكَ مُضيءُ أسْـفَرتْ عـنهُ لـيلةٌ غـرَّاءُ

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم قد خصه الله بكمال الحسن والجمال، وعظمه بنور العظمة والجلال، بل من حسن جماله صلى الله عليه وسلم تبهجت الأكوان، وبطلعة محياه سعد الكون والزمان، ولهذا أشار بقوله "**ومحيا**" أي وحبذا محيا أي وجه وهو مقصور فقدر فيه الإعراب، وإنما سمي الوجه محيا لوقوع التحية عند رؤيته. وقيل ظهور الحياء فيه. وقوله "**كالشمس**" مفعول مطلق لمضيء أي مثل

إضاءة الشمس و"**منك مضيء**" كالشمس وأشار بهذا إلى ما في البخاري عن الربيع بنت معوذ: لو رأيته لقلت الشمس طالعة. وإلى حديث الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه. وحديث مسلم عن جابر بن سمرة وقد سأله رجل أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف. قال: لا ، بل كالشمس والقمر كان مستديرا. وقالت أم معبد في بعض ما وصفته به: أجمل الناس من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: كان صلى الله عليه وسلم أفلج الثنيتين أي إذا تكلم رئي كالنور يخرج من بين ثناياه صلى الله عليه وسلم. وفي حديث أبي هالة : يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر. وقال علي رضي الله عنه: ومن رءاه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه. يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله. وتشبيهه صلى الله عليه وسلم بالشمس من حيث الإشراق والإضاءة، وتشبيهه بالقمر من حيث الحسن والملاحة، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم أعظم المخلوقات وهو أحق أن تنشد فيه بيتا أبي نواس:

تتــيه الــشمس والقمــر المنيــر ... إذا قلــــنا كأنهمــــا الأميــــر

لأن الــشمس تغــرب حــين تمــسي ... وإن الــــبدر ينقــــصه المــــسير

وقوله "**أسفرت عنه**" أي انحسرت وانقضت عنه أو أضاءت متحاورة عنه "**ليلة غراء**" أي بيضاء بظهور نوره فيها مشهورة عظيم قدرها ولذا قال بعض المحققين إنها أفضل من ليلة القدر.

*** ثم ذكر محاسن هذه الليلة فقال:**

13 **لـيلةُ المـولدِ الـذي كـانَ للـدِّيـ ... ـــنِ ســـرورٌ بـــيوْمِهِ وازدهـــاءُ**

أي هي "**ليلة المولد**" وهو هنا مصدر ميمي، أي ليلة الولادة التي حصل فيها "**للدين**" فرح و"**سرور بيومه**" أي بيوم ذلك المولد وجعل الفرح باليوم مبالغة في زيادة عظمة المولود إذا كان الفرح بيومه فما بالك بمن ظهر فيه. اللهم فرحنا بلقائه والاجتماع معه في الدنيا والآخرة. والدين في اللغة الجزاء. وفي الاصطلاح الشرع

المبعوث به النبي الكريم. وقيل وضع إلهي سائق بذوي العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات واليوم من طلوع الشمس إلى الغروب عند المنجمين. وفي الشرع من طلوع الفجر. **والازدهاء**: الافتخار. واختلف في ولادة سيدنا صلى الله عليه وسلم فقيل ليلا وقيل بعد الفجر. وصحح. والأصح أنه في شهر ربيع الأول. واختار أكثر المحدثين وجمهور أهل التاريخ أنه لثمان منه وقيل لعشر وقيل لثنتي عشرة وهو المشهور وعليه العمل. والأصح أنه يوم الاثنين، وإنما اختار الإله له هذا الشهر إشارة إلى انه صلى الله عليه وسلم ربيع القلوب وبه تذهب الأحزان وتفرج الكروب. وإنما لم يكن في الأشهر الحرم وفي رمضان أو في يوم الجمعة ليلا يتوهم أنه صلى الله عليه وسلم تشرف بذلك الزمان الفاضل، وإنما سيدنا صلى الله عليه وسلم منه يكتسب الشرف، ولذلك نقله الإله إلى المدينة لتتشرف به ودفن بها لتكون زيارته مقصودة لنفسها لا تابعة لغيرها. ولا شك أن المدينة المشرفة كانت قبله صلى الله عليه وسلم مفضولة فصارت به صلى الله عليه وسلم فاضلة على سائر البلاد عند كثير من العلماء. واما موضع قبره فهو أفضل البقع كلها. وولد صلى الله عليه عام الفيل. قيل بعده بخمسين يوما وموضع ولادته صلى الله عليه وسلم بمكة، قيل بالشعب وقيل بالردم والمشهور أنه المسجد المشهور الآن بالمولد. قال بعض العلماء ويجب على الأولياء أن يعلموا صبيانهم أنه صلى الله عليه وسلم ولد بمكة ودفن بالمدينة. فقد قيل إنكار ذلك كفر. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

14 **وتوالت بشرى الهواتف أن قَد وُلِــدَ المُـصطفى وحـق الهــناء**

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم لما ظهر وجوده للعيان، فرحت بطلعة نوره الأكوان، وافتخر زمانه السعد على سائر الأزمان، وتتابعت البشرى به من هواتف الإنس والجان، أن قد ولد المصطفى المختار من ولد عدنان، وحق لنا له الهناء والسرور، وكيف لا وهو العزيز الدائم والكنز الموفور، والرحمة المهداة والبهاء والنور، وقد أظهر الله دينه الحق على الأديان غاية الظهور، فمعنى قوله "**توالت**" أي تتابعت

"**بشرى**" أي بشارة "**الهواتف**" وهو ما يسمع هتفه في صوته ولا يرى شخصه. والمراد هنا ما هو أعم، لأن البشارة به جاءت في كتب الله تعالى على ألسنة الأحبار والكهان والجان، كما استوعبه أهل السير. "**قد ولد المصطفى**" أي المختار على الخلق كلهم "**وحق**" أي ثبت "**الهناء**" أي الفرح والسرور لكل الخلائق به. قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾. البشارة به صلى الله عليه وسلم على أنواع كثيرة، منها ما وقعت من هواتف الجن بحيث يسمع صوته ولا يرى شخصه، ومنها ما وقعت على ألسنة الكهان، وما أخبرت به الأحبار والرهبان، ومنها ما ورد في الكتب السابقة. لما ولد صلى الله عليه وسلم هتف هاتف على الحجون وقال:

فأقسم ما أنثى من الناس أنجبت ... ولا ولدت أنثى من الناس واحده

كما ولدت زهرية ذات مفخر ... مجنبة لوم القبائل ماجده

وهتف آخر على جبل قبيس بأربعة أبيات فيها معنى ذلك، ومنها قصة سواد بن قارب المشهورة، إلا أنها كانت عند المبعث. وأما ما وقع من الإنس فمنها أن راهبا كان بمر الظهران يقول: يوشك أن يكون منكم يا أهل مكة مولودا اسمه محمد، تدين له العرب ويملك العجم، هذا زمانه. فكان لا يولد بمكة مولود إلا سأل عنه. فجاءه عبد المطلب صبيحة ولادته صلى الله عليه وسلم، فلما رءاه قال كأنك أبوه، فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه، فما سميته ؟ قال: محمدا وقد طلع نجمه البارحة. وروى الحاكم عن عائشة رضي الله عنها أنه كان بمكة يهودي وصاح ليلة ولادته: يا أهل مكة هل ولد فيكم الليلة مولود. قالوا: لا نعلمه. قال: ولد هذه الليلة نبي الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهم عرف فرس. فأدخلوه على أمه أو أخرج له، فكشف عن ظهره فرءا تلك العلامة فخر مغشيا عليه. فلما أفاق قالوا: مالك ويلك. قال: ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل. وذكر الحافظ النيسابوري أن نور النبي صلى الله عليه وسلم لما صار إلى عبد الله بن عبد المطلب، وكان يضيء في غرته ويفوح من فيه رائحة المسك، وكانوا يستسقون به فيسقون، نام في الحجر فأصبح مكحولا مدهونا قد كسي حلة البهاء والجمال، فتحير فيمن فعل به ذلك،

فانطلق به أبوه إلى كهنة قريش، فقالوا: إن إله السماوات أذن لهذا الغلام أن يتزوج. ونام مرة أخرى في الحجر فرءا رؤيا وقصها على الكهان فقالوا: لئن صدقت رؤياك ليخرجن من ظهرك من يؤمن به أهل السماوات والأرض، وليكونن للناس علما مبينا. وقصة تزوج عبد الله بآمنة مع ما وقع لأبيه في شأن حفر زمزم ونذره مشهورة في كتب السير، فلا نطيل بها.

*** ثم ذكر ما وقع في هذه الليلة من الآيات فقال:**

15 **وتَداعى إيوان كسْرى ولـوْلا　　　آيـةٌ مِـنْك مـا تداعـى البـناءُ**

الإيوان، بكسر الهمزة وقد تقصر ككتاب، بيت كبير طويل ذا شرافات كان لملك الفرس. قيل هو بيته المعد لجلوسه مع أرباب مملكته لتدبير الملك، وهو فارسي. وتداعيه تهدمه وانشقاقه. وكسرى، بفتح الكاف وكسرها معرب قسرى، أي واسع الملك، وهو لقب لكل من ملك الفرس، كقيصر لملك الروم، وتبع لملك اليمن، ونعمان لملك العرب من قبل العجم، والنجاشي لملك الحبشة، وفرعون لملك القبط، والعزيز لملك مصر، وجالوت لملك البربر، وخاقان لملك الترك، ومعنى البيت أن سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم لما ولد اهتز إيوان كسرى وتشقق وسقط منه أربع عشرة شرفة، علامة على نبوته ورسالته، وأنه لا ملك مع ملكه صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يكون اهتزازه فرحا به صلى الله عليه وسلم، وأنه سيصير دينه إليه ويعمر بالإسلام، وتتبدل ظلمة الشرك الذي فيه بنور الإسلام والإيمان. قد كان هذا الإيوان في غاية الإحكام والإتقان، وكانوا يظنون أنه لا يهدمه إلا نفخ الصور، فلولا آية نبوته وعموم رسالته ما تداعى ذلك البناء وتهدم، فكان علامة على انهدام ملكهم، فملك منهم بعد ذلك أربعة عشر ملكا بعدد الشرفات عشرة في أربع سنين وأربعة إلى زمان عثمان، وقد فتح في زمان عمر رضي الله عنه أكثر إقليم فارس وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى غاية أقصى مملكته، ثم قتل في زمان عثمان رضي الله عنه وزال ملكه بالكلية. وقد أخبر سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم بخراب ملكه فقال: <<إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والله لتنفق

كنوزهما في سبيل الله>>. وقد بشر صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق بملك بلاده. وقال لسراقة: <<كيف بك إذا ألبست سواري كسرى>>. فلما أوتي عمر ألبسهما سراقة. قال الخطابي من حديث هاني بن هاني المخزومي: وأتت عليه مائة وخمسون سنة لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة وغاضت بحيرة ساوة وفاض بحار واد السماوات وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك ألف عام. وأوري الموبذان، وكان أعلم أهل زمانه أن إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فلما أصبح كسرى فزعه ذلك فصبر عليه تجشعا حتى إذا عيل صبره رءا أن لا يدخر ذلك عن فرسه ومرازبته فلبس تاجه وجلس على سريره ثم بعث إليهم، فلما اجتمعوا قال: أتدرون فيما بعثت فيكم. قالوا: لا إلا أن يخبرنا الملك. فبينما هم كذلك إذ ورد عليه كتاب بخمود النار، فازداد غما إلى غمه. ثم أخبر بما رءا وما هاله من ذلك. فقال الموبذان: وأنا أصبح الله الملك قد رأيت في هذه الليلة رؤيا، ثم قص عليه رؤياه في الإبل، فقال: أيُّ شيء يكون هذا يا موبذان، قال: حدث يكون من ناحية العرب، وكان أعلمهم. فكتب عنه ذلك كسرى إلى النعمان بن المنذر أن يوجه برجل عالم بما يريد أن يسأله عنه فوجه إليه بعبد المسيح الغساني، فلما قدم عليه قال له: ألك علم بما أسألك عنه. قال: يخبرني الملك عما أحب فإن كان عندي منه علم وإلا أخبرته بمن يعلمه، فأخبره بالذي وجه إليه فيه، فقال له: علم ذلك عند خال لي يسكن مشارق الشام يقال له سطيح، قال: فأته فاسأله عما سألتك عنه ثم إيتني بتفسيره. فخرج عبد المسيح حتى أتى إلى سطيح وقد أشرف على الموت فسلم عليه وكلمه فلم يرد عليه جوابا. فأنشد عبد المسيح شعرا على رأسه، فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول عبد المسيح. أتى سطيح. على جمل مشيح. وقد أوفى على الضريح. بعثك ملك بني ساسان. لارتجاس الإيوان. وخمود النيران. ورؤيا الموبذان. رءا إبلا صعابا. تقود خيلا عرابا. قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها. يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة. وظهر صاحب الهراوة. وفاض وادي السماوة. وخمدت نار فارس. فليست الشام لسطيح شاما يملك منهم ملوك وملكات. على عدد الشرفات. وهو ما هو آت آت. ثم قصر سطيح. فلما

قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بمقالة سطيح فقال: إلى أين يملك منا أربعة عشر ملكا. قد كانت أمور فملك منهم عشرة إلى أربع سنين وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه. انتهى. والموبذان بلغتهم القاضي أو المفتي. وسطيح المذكور كان جسدا ملقى بلا جوارح، وكان لا يجلس إلا إن غضب. وسمى صلى الله عليه وسلم صاحب الهراوة، لأنه كان يمسك بيده العصا وتركز بين يديه ليصلي إليها. ويسمى أيضا صاحب القضيب أي السيف كما في الإنجيل، فهو صاحب العصا يحفظ بها الأخيار. وصاحب القضيب يبيد به الأشرار.

*** ومن العجائب التي ظهرت في ليلة مولده أيضا ما ذكره بقوله:**

16 **وغــدا كُــلُّ بـيْت نَــار وفِــيه كُــرْبَة مِــن خمُــودها وبَــلاء**

ولما ولد سيدنا صلى الله عليه وسلم خمدت نيران الفرس التي كانوا يعبدونها ويشتد إيقادهم لها حتى أن لها ألف سنة لم تخمد نارها، فخمدت كلها إشارة إلى انقطاع عبادتها وتفرق شمل أهلها، فصار كل بيت من بيوتها فيه كربة وبلاء من خمودها، لأنه لما انطفأت تلك النيران كلها في ساعة واحدة وكانت من الكثرة ما تحيل العادة انطفاءها. علموا أن ذلك لأمر عظيم حدث في العالم وكان كذلك. فكان سببا لزوال ملكهم وتمزيقهم كل ممزق. ومعنى غدا: صار. والكربة: غم النفس. وخمود النار: سكون لهبها من غير أن يطفأ جمرها وإلا قيل همدت. والبلاء: المصيبة، لأنها تبلي صاحبها أي تختبره.

*** ومن عجيب ما وقع في هذه الليلة أيضا ما ذكره بقوله:**

17 **وعيُون للفُرس غارت فهَل كَا نَ لِنِيــرانِهمْ بِهَــا إطْفَــاءُ**

ولما ظهر سيدنا صلى الله عليه وسلم للوجود غارت بحيرة طبرية ولم يبق لها وجود بعد أن كان فيها من المياه ما تحيل العادة غيضها، ويسبي العقول عذبها وحسنها. وفي بردة الشيخ:

وســاء ســاوة أن غاضــت بحيــرتها ورد واردهــا بالغــيظ حــين ظــمِ

وتعبير الشيخ بالعيون يقتضي أنه غار لهم غيرها ويحتمل أنه مبالغة. والفرس

جيل عظيم من الناس ويقال أيضا فارس، كان مسكنهم في شمال العراق. ومعنى غارت أي ذهبت في الأرض وانقطع ماؤها.وهل هنا للتعجب التهكمي أو للتقريع أي هل كان لتلك المياه التي غارت إطفاء لتلك النيران التي خمدت، لا بل لم يطفئها إلا سر وجود سيدنا صلى الله عليه وسلم وظهوره المضمحل به كل لهو وباطل.

ثم قال:

18 **مَوْلِدٌ كانَ مِنْهُ في طالِعِ الكُفْـ ـــرِ وبَـــالٌ عَلَـــيْهِمْ وَوَبَـــاءُ**

أي مولد عظيم حصل منه في طالع الكفر أي فيما اطلعوا عليه وعلموه من نجوم وغيرها كرؤيا الموبذان وشبه ذلك. أي وضَم ونكال. أي مرض شديد وهو الذل والهوان الذي أدركهم بعدم اتباعه صلى الله عليه وسلم. نسأل الله تعالى أن يعزنا بحسن اتباعه وأن يمنحنا بكمال محبته. آمين.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

19 **فهنِيـــئا بـــه لآمِـــنَةَ الفَـــضْـ ـــلُ الـــذي شَـــرُفَتْ بـــه حَـــوَّاء**

لما كان سيدنا صلى الله عليه وسلم أشرف المخلوقات، نال الشرف التام من انتسب إليه من الآباء والأمهات، وخصوصا آمنة، الفضل والنزاهة، فهنيئا لها بشرف هذه الولادة لمباشرتها صاحب اللواء والشفاعة، اللهم شرفنا بمحبته، واجعلنا من خواص أمته، واستعملنا لاتباع سنته، فقوله "**هنيئا**" أي ثبت لها الفضل والشرف حال كونه هنيئا لا آفة فيه ولا مشقة ولا نكد، فهي حال مؤكدة لعاملها اللازم إضماره إذ لم يسمع إلا كذلك. وقال المبرد: إنه مصدر كالعاقبة والأصل أنهم أنابوا عن المصدر صفات كعائذا بك وهنيئا. قال بعض المغاربة: وهي موقوفة على السماع. وقال غيره: إنه مقيس عند سيبويه. يقال لكل من اللازم صفاته. وهنيئا اسم فاعل من هنئ أو هنؤ كشريف من شرف وهو ما أتاك من غير مشقة. وقوله: "**الذي شرفت به حواء**" يعني إن هذا الفضل الذي حصل لأمه صلى الله عليه وسلم قد شرفت به حواء حيث كان من نسلها وانتسبت إليه من جهة الأمومة، إلا أن المباشرة أتم. وحواء هي أم البشر خلقت من ضلع آدم اليسرى نام فسلت منه. وقيل إنما سميت حواء لاحتوائها على قلب آدم.

وسميت امرأة لإذاقتها طعم المرارة له. وسمي جنسها النساء لنسيان من أحبهم ذكر الله. وفي الحديث أنهن حبائل الشيطان. وفيه أيضا لولا المرأة لدخل الرجل الجنة.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

20 **مَن لِحوَّاء أنَّها حمَلت أحْـ مَـدَا أو أنَّها بـه نُفَسَاءُ**

لا شك أن شرف آمنة التي اكتسبته من سيد الوجود، أتم من شرف حواء التي كانت سببا لإبرازه لعالم الوجود، فحواء سبب لإبرازه لأصلاب الرجال، وآمنة سبب لإبرازه لعالم النفع والإكمال، فمن لحواء بهذه المزية العظمى، ومن أين لها أنها ولدت أحمد وأنها به نفساء، اللهم اقسم لنا من الشرف به قسما وافرا وحظا عظيما. وكلام الشيخ واضح.

* **ثم قال:**

21 **يَوم نَالت بوضْعه ابنة وهْب مِن فَخَار ما لمْ تنلْهُ النساء**

لا شك أن آمنة أم سيدنا صلى الله عليه وسلم قد نالت من الشرف والفخار ما لم تنله النساء، يوم ولدت سيد أهل الأرض والسماء، فقوله "**يوم نالت**" بدل من قوله مولد كان منه إلخ. ونالت بمعنى أعطيت والباء في بوضعه سببية أي أعطيت بسبب وضعه من الشرف والفخار ما لم تعطه النساء وآمنة تلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلاب وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة وكان أبوها وهب سيد بني زهرة سنا وشرفا وأم آمنة مرة بنت عبد العزى بن قصي بن عبد الدار بن قصي بن كلاب. ومن الفخار الذي نالته أم سيدنا صلى الله عليه وسلم ما أخرجه أبو نعيم وابن عساكر أن عبد المطلب لما خرج بعبد الله يزوجه للرؤيا التي رآها. رأته كاهنة فرأت نور النبوة في وجهه ومن ثم كان أجمل رجل في قريش فسألتْ منه أن يقع عليها وتعطيه مائة من الإبل، فأبى وقال: أما الحرام فالممات دونه فمر به أبوه حتى أتى به وهبا أبا آمنة فزوجه بها وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا فوقع عليها يوم الاثنين أيام منى عند الحجرة ثم خرج ومر على تلك المرأة فلم تكلمه فسألها: لم تعرضي نفسك الآن علي، قالت: فارقك النور الذي سألتك

لأجله. وذكروا أنه لما استقرت النطفة الكريمة فيها أصبحت أصنام الدنيا منكوسة، واخضرت الأرض وحملت الأشجار، وكانت قريش في جدب شديد فسميت تلك السنة سنة الفتح ونودي في الملكوت أن النور المكنون قد انتقل إلى بطن آمنة ذات العقل الباهر، والفضل الظاهر، وفي حديث ابن إسحاق أنها حدثت أنها لما حملت به صلى الله عليه وسلم قيل لها إنك حاملة بسيد هذه الأمة، وقالت: ما شعرت بحمله ولا وجدت له ثقلا ولا وحما أي في ابتداء أمره لرواية أنها قد وجدته. وقالت: أتاني آت وقال لي وأنا بين اليقظة والنوم: هل شعرت أنك حملت بسيد الأنام؟ ثم أمهلني حتى دنت ولادتي أتاني فقال لي قولي:

أعيذه بالواحد ... من شر كل حاسد

ثم قال: سميه **محمدا**. وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس - رضي الله عنهما أنه قال: كان في دلالة حمل آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة كانت بقريش نطقت تلك الليلة وقالت: حمل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا وسراج العلماء. ولم يبق سرير من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوسا، ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات وكذلك أهل البحار بشر بعضهم بعضا، وله في كل شهر من شهور حمله نداء في الأرض ونداء في السماء أن أبشروا فقد آن أن يظهر أبو القاسم ميمونا مباركا. وروى أبو نعيم أن آمنة أتاها آت بعد ستة أشهر من حملها وقال يا آمنة إنك حملت بخير العالمين، فإذا وضعته فسميه **محمدًا**، واكتمي شأنه. ثم لما أخذها الطلق وكانت وحدها، رأت كأن طائرا أبيض قد مسح فؤادها فذهب رعبها، ثم أتيت بشربة بيضاء فتناولتها فأصابها نور عال، ثم رأت نسوة كالنخل طوالا فأحدقن بها فقالت من أين علمتن بي، وفي رواية فقلن لي: نحن آسية امرأة فرعون ومريم ابنت عمران وهؤلاء الحور العين ثم رأت ديباجا أبيض مد بين السماء والأرض ورجالا بين أيديهم الأباريق من فضة، وقطعة من الطير أقبلت حتى غطت حجرتها، مناقيرها من الزمرد، وأجنحتها من الياقوت، ورأت مشارق الأرض ومغاربها، وثلاثة أعلام منصوبات، علما بالمشرق وعلما بالمغرب وعلما على ظهر الكعبة.

فأخذها المخاض فوضعته صلى الله عليه وسلم فإذا هو ساجد وقد رفع أصبعه إلى السماء كالمتضرع المبتهل، ثم رأت سحابة بيضاء غشيته فغيبته عنها فسمعت مناديا طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها، وأدخلوه البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، ويعلمون أنه سمي الماحي لا يبقى شيء من الشرك إلا محي في زمنه. ثم تجلت عنه في أسرع وقت. انتهى من ابن حجر فانظره.

*** ثم قال رحمه الله:**

22 **وأتــتْ قَــوْمها بأفْــضلَ مِمّــا   حملــتْ قــبلُ مَــريَمُ العَــذْراءُ**

لا شك أن سيدنا صــلى الله عليه وسلم أفضــل الخلق إجماعا. قــال تعــالى: **﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾** [البقرة: 253]. قال البيضاوي: هذا البعض هو محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه خص بالدعوة العامة، والحجج المتكاثرة، والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهور، والفضائل العلمية الفائتة الحصر والإلهام، لتفخيم شأنه كأنه العلم المتعين لهذا الوصف المستغني عن التعين. انتهى. وقال صلى الله عليه وسلم: <<أنا سيد ولد آدم ولا فخر>>. وقال صلى الله عليه وسلم: <<كنت نبيا وآدم بين الطين والماء>>. وقال صلى الله عليه وسلم: <<أنا أول شافع وأول مشفع وأول من تنشق عنه الأرض>>. وحديث الشفاعة المشهور يدل على عظيم قدره وإشاذة ذكره، فقد "**أتت**" أمه صلى الله عليه وسلم "**بأفضل مما حملت**" به قبلها "**مريم العذراء**" ومريم هي ابنت عمران الصديقية بنص القرآن. قيل من ذرية سليمان صلى الله عليه وسلم وبينها وبينه أربعة وعشرون أبا وأما. وفي الصحيح خير نسائها مريم ولذا فضلت على جميع النساء للخلاف في نبوتها وإن كان شاذا. ولما رفع عيسى عليه السلام إلى السماء كان سنها ثلاثا وخمسين سنة وبقيت بعد ذلك خمس سنين ووصفها بالعذراء وهي البكر لأنها لم تتزوج وحملها بعيسى عليه السلام إنما كان بنفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها فحملت به ووضعته من وقتها على الأشهر كرامة لها ومعجزة له صلى الله عليه وسلم لأنه ينزل من السماء على منارة جامع بني أمية البيضاء في دمشق كما رواه مسلم

في آخر هذه الأمة، فيقتل الدجال والخنزير، ويبطل الجزية فربما يتوهم من ذلك مع باهر معجزاته عليه السلام وولادته من غير أب وإن كان لنبينا عليه الصلاة والسلام ما هو مثلها أو أفضل. ونزوله عليه السلام إنما هو بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم وإنما أبطل الجزية لانتفاء ما لهم من نوع شبهة تمسك بكتاب، وتكذيبا لهم، ويكون من اتباعه صلى الله عليه وسلم ولذلك يصلي وراء المهدي أولا ثم يتقدم إعلاما بأنه لم ينزل مستقلا، بل تابعا مؤيدا حاكما بشريعة سيدنا صلى الله عليه وسلم. تنبيه: أوقع المصنف هنا ما، على ما يعقل وهو خلاف المشهور، لكنه جائز واقع في الفصيح، كقوله تعالى: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: 75]. وقوله: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ ﴾. وأخواتها. وقول بعض العرب: سبحان ما سخركن لنا. إلى غير ذلك خلافا لمن أنكره والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:**

23 **شـمَتَّتْه الأمـلاكُ إذ وضـعَتهُ وشَـفَتْنَا بقـولِها الـشَّفَّاء**

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم حضرت الملائكة مولده واقتبست أنواره وبركته. حدثت أم عبد الرحمن بن عوف وهي الشفاء رضي الله عنها قالت لما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على يدي فاستهل، فسمعت قائلا يقول رحمك الله، رحمك ربك. قالت الشفاء: وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتى ظهرت إلي بعض قصور الروم. قالت: ثم ألبسته وأضجعته فلم أنشب أن غشيتني ظلمة ورعب وقشعريرة ثم غيب عني فسمعت قائلا يقول: أين ذهبت به قال إلى المشرق قالت فلم يزل الحديث مني على بال حتى بعثه الله فكنت أول الناس إسلاما. انتهى. فقوله "**شممته**" هو من التشميت وهو أن يقال للعاطس يرحمك الله بالمعجمة والمهملة: الدعاء له بالسلامة من الشوامت أو ببقاء سمته كما هو، لأن العطاس ربما كان سببا لتعويج العنق أو الحنك وتسمية الشيخ ما قاله الملك عند الاستهلال تشميتا مجاز. وكذا قوله "**الأملاك**" لكن لما كان بمحضر الجماعة جمعه تغليبا أو مبالغة. والأملاك جمع ملك وهو القياس كجمل وإجمال وأما ملائك فقيل جمع ملْأك بعد

نقل حركة الهمز وحذفها. وقيل على غير قياس. والملائكة أجسام نورانية لها قدرة على الشكل. وفي خبر مسلم خلق الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم كما وصف لكم. وظاهره أن عنصرهما متمخض من نور ونار وقيل بل هما من العناصر الأربعة، وإنما غلب عليهما ذلك. وقوله "**إذ وضعته**" أي حين وضعته. وقوله "**وشفتنا**" أي أفرحتنا وسرتنا. أو من الشفاء، لأن "**قولها**" المتقدم يشفي العليل ويبرد الغليل. و"**الشفاء**" هي أم عبد الرحمن بن عوف، أحد العشرة. بنت عمر بن عوف، وحديثها المتقدم أخرجه أبو نعيم عن ولدها عبد الرحمن - رضي الله عنه - .

*** ثم قال رضي الله عنه:**

24 **رافِعا رأسَهُ وفي ذلك الرفْـعِ إلى كل سُؤدد إيمَاءُ**

لما ظهر سيدنا صلى الله عليه وسلم إلى هذا العالم السفلي. رفع رأسه إلى سمك العالم العلوي. إشارة إلى رفع قدره. وعلو أمره، ومناسبة أصله. وسمو همته وإعلاء دينه. وإظهار ملته. وخفض جاحده ومعانده. اللهم أعزنا بعز التوحيد والإيمان. ولا تذلنا باتباع خطوة الشيطان. فقوله "**رافعا**" حال من مفعول وضعته و"**رأسه**" مفعول به وفي ذلك خبر مقدم وإيماء مبتدأ والإيماء الإشارة أي "**وفي ذلك الرفع**" إشارة وتنبيه إلى حصول كل سؤدد وشرف لهذا المولود العظيم. روى أبو سعيد من حديث جماعة منهم عطاء وابن عباس أن آمنة قالت لما فصل مني، تعني النبي صلى الله عليه وسلم، خرج مني نور أضاء ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع على الأرض معتمدا على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع طرفه إلى السماء. انتهى.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

25 **رامِقا طرفُه السّمَاءَ ومرْمى عيْنِ مَن شأنهُ العُلوُ العلاءُ**

لما برز سيدنا صلى الله عليه وسلم للوجود، بادر إلى ربه سبحانه بالسجود، ثم رمق بطرفه إلى السماء، ورمى بعينه مرمى من شأنه العلو والاعتلاء، إشارة إلى اختصاصه بالشرف الأعلى والمقام الأسنى. فقوله "**رامقا**" حال أيضا من ضمير

وضعته على تعدد الأحوال أو من ضمير رافعا على عكسه. و"**طرفه**"، أي بصره على إسقاط الخافض، أي بطرفه "**السماء**" أي ناظرا إلى جهتها نظرا حقيقيا كما تقدم في حديث ابن عباس. وروى الطبراني أنه لما وقع على الأرض وقع مقبوضة أصابع يديه مشيرا بالسبابة كالمسبح. وقال أيضا: لما وضعته نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعه إلى السماء كالمتضرع المبتهل. وسر هذا الرمق الإشارة إلى علو أمره وإظهار شأنه. والمرمى في الأصل غرض الرامي الذي يصيبه سهمه، وهنا ما انتهى إليه البصر أي رامقا بطرفه محل نظر "**من شأنه العلو**" أي الارتفاع "**والعلاء**" أي الشرف فهو بالفتح والمد، ويجوز الضم مع القصر أي كما أن رفع رأسه إيماء إلى حصول السؤدد التام فكذلك رمقه ببصره إلى جهة العلو إيماء إلى أنه لا يقصد إلا أعلا المراتب إذ من شأنه العلو، لا يقصد إلا جهاته وما يوصل إليها دون غيرها مما لا يوصل إليها فعلم أن المرتب على الرفع والرمق متحد بالذات مختلف بالاعتبار. إذ التوجه إلى جهة العلو الذي هو مفادهما له اعتبارات مختلفة. انتهى. قاله الهيثمي.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

26 **وتَـدلَّت زهـر الـنجُوم إلَـيه ... فَأضَـاءت بـضوئها الأرجـاءُ**

لما أظهر سيدنا صلى الله عليه وسلم رحمة للمكونات. "**تدلت**" إليه النجوم الزاهرات . حتى أضاءت بضوئها الجهات. فقوله وتدلت أي قرب وتدانت معطوف على قوله نالت أو مستأنف. و"**زهر النجوم**" من إضافة الصفة إلى الموصوف أي: الكواكب الزاهرات النيرات أي تدلت إليه صلى الله عليه وسلم تعظيما له وشوقا إليه، ولم يقع نظيره لغيره كما رواه البيهقي وابن السبكي عن عثمان بن أبي العاص، عن أمه فاطمة الثقفية قالت: لما حضرت ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت البيت حين وقع وقد امتلأ نورا، ورأيت النجوم تدنوا حتى ظننت أنها ستقع علي "**فأضاءت**" بسبب ذلك الضوء "**الأرجاء**" أي نواحي البيت ونواحي السماء ونواحي الوجود بأسره.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

27 **وتَـراءت قُـصورُ قيْـصرَ بالـرو ... مِ يــراهَا مَــن داره الــبَطحاء**

ولما برز سيدنا صلى الله عليه وسلم تراءت من نوره الباهر قصور قيصر بالشام. إشارة إلى كونها ستمتلئ بنور الإسلام. ويضمحل بنور الإيمان منها كل ظلام. هذا معنى قوله "**وتراءت**" أي ظهرت حتى رأتها الأبصار والتفاعل هنا ليس على بابه بل هو كقوله تعالى "﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: 9] وعافاه الله. "**قصور قيصر**" أي منازله وقيصر ملك الروم والروم جيل من الناس من ولد روم بن عيص بن إسحاق عليه السلام. وبين قصور وقيصر التجنيس وهو مبين في محله بالشام هكذا في بعض النسخ. وهو معلوم وفي بعضها "**بالروم**" وعليها شرح ابن حجر رآها رؤية عين "**من**" الذي "**داره البطحاء**" أي مكة والأبطح والبطحاء المسيل الواسع وما ذكره المصنف هو في بعض الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: <<أنا عبد الله خاتم النبيين، وأن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم عن ذلك أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين وضعته نورا أضاء لها قصور الشام. انتهى.

فائدة: صح عند الضياء أنه صلى الله عليه وسلم ولد مختونا مقطوع السرة حتى لا يرى أحد سوأته. زاد الحاكم أن ذلك تواترت به الأخبار. والله تعالى أعلم.

*** ولما فرغ من ذكر معجزات ولادته، شرع في ذكر رضاعه وما فيه من خوارق العادات فقال:**

28 **وبَـدت فـي رضَـاعه معجـزاتٌ ... لـيس فـيها عـن العـيون خفـاءُ**

لا شك أن ظهور سيدنا صلى الله عليه وسلم كان مصحوبا بخوارق العادات مؤيدا بالآيات والمعجزات منذ كان في المهد صبيا إلى أن صار كهلا مرضيا. فقد "**بدت**" أي ظهرت في عصره بطريق العيان ولمن بعدهم بطريق البرهان "**في رضاعه**" وهو مص اللبن من الثدي "**معجزات**" أي خوارق، وتسميتها بذلك مجاز جرى على طريق السلف فإنهم يطلقون المعجزة على كل خارق ليس بسحر سواء وجدت فيه شروط المعجزة أو لا، ولكن الأشهر الذي عليه الأكثر أن المعجزة لا تطلق حقيقة إلا

على الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي الدال على صدق الأنبياء عليهم السلام. وحقيقتها عند المتكلمين أمر خارق للعادة مقارن لدعوى الرسالة متحدي به قبل وقوعه غير مكذب، فخرج بالخارق السحر لأنه يمكن الإتيان بمثله. وبالمقارن لدعوى الرسالة الإرهاصات وهي الخوارق التي قبل النبوة، وكرامة الأولياء، وما يظهر على يد الدجال لدعواه الربوبية، وبالتحدي قبل الوقوع ما ظهر على الأولياء من غير دعوى أصلا. والتحدي هو طلب المعارضة والمغالبة من تحديث فلانا إذا نازعته لأغلبه، وهو هنا مجاز. والتحدي إما حقيقة كانشقاق القمر أو حكما كنبع الماء وتكثير الطعام وغير ذلك مما لا يحصى، لأنها كلها مقرونة بدعوى الرسالة دون طلب المعارضة والله أعلم. وقوله "**ليس فيها على العيون خفاء**" أي هي في غاية الظهور ولا يمكن خفاؤها على أحد إلا من كان خفاشيا.

*** ثم ذكرها مفصلة فقال:**

29	**إذ أبــته ليُــتْمه مرضــعاتٌ**	**قلـن مـا فـي اليتـيم عـنَّا غَـناء**
30	**فَأتــتهُ مـــن آل ســعد فــتاةٌ**	**قــد أبــتْها لفقــرها الرضــعاءُ**

يعني أن هذه المعجزات بدت حين "**أبته**" أي امتنع منه "**ليتمه**" أي لأجل يتمه "**قلن**" أي المرضعات "**أفي هذا اليتيم عنا غناء**" أي ما يغنينا ويزيل فقرنا لموت أبيه، وما عسى أن تصنع أمه وجده، ومن عادة العرب أن لا ترضع المرأة ولدها وهو عار عندهم. ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم رضع أمه وإنما أرضعته ثويبة حتى أتته حليمة والله أعلم. "**فأتته**" بعد أن تركته على ما يأتي "**من آل سعد**" بن بكر ونسبت إليه مع أنه الجد التاسع لأنه أشهر وبه عرفت القبيلة وزوجها منهم أيضا "**فتاة**" أي شابة كريمة كائنة من بعض هذه القبيلة، وفي كونها حليمة السعدية من الفال الحسن والبشارة العظيمة بحصول غايات الحلم والسعد لهذا الرضيع. وقد كان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن "**قد أبتها لفقرها الرضعاء**" جمع رضيع أي أهلهم لأن الفقر يستلزم قلة الأكل المستلزم عادة لقلة اللبن المضرة للرضيع غالبا، وما تعطاه من جعل

تصرفه في حوائجها فلا يفيدها في دفع الجوع المحظور، وأصل ما نظمه الشيخ ما ذكره ابن إسحاق وغيره في قصة رضاعه صلى الله عليه وسلم، قال في الاكتفاء، والتمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرضعاء فاسترضع له من امرأة من بني سعد يقال لها حليمة بنت أبي ذؤيب، وكانت تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسن الرضعاء، قالت وفي سنة شهباء لم تبق لنا شيئا، قالت فخرجت على أتان لي ضمراء له معنا شارف لنا، والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع مع صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه ولا كنا نرجوا الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك فلقد أدمت بالركب حى شق عليهم ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك إنا كنا نرجوا المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول يتيم ما عسى أن تصنع أمه وجده. فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعها غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه. قال لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت فذهبت إليه فأخذته وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره، فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثديان بما شاء من لبن فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى. ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريا وشبعا. فبتنا بخير ليلة. يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة. فقلت والله لأرجوا ذلك. ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي فوالله لقطعت بالركب ما يقدر على شيء من حمرهم حتى إن صواحبي ليقلن يا بنت أبي ذؤيب ويحك أربعي علينا أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها، فأقول لهن بلى والله إنها لهي، فيقلن والله إن لها لشأنا. ثم ذكر بقيته يأتي بعد إن شاء الله. تنبيه: وجه الحكمة في كونه صلى الله عليه وسلم نشأ يتيما هو لئلَّا يبقى عليه حق لمخلوق وفي اليتم انقطاع العلائق وصحة التجرد للمخالف، وتحقيقا للأمر السابق، لأنه بذلك وصف في

الكتب القديمة وذكره سيف بن ذي يزن حيث بشر به عبد المطلب فقال: يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه. فأما أبوه وهو عبد الله فتوفي والنبي صلى الله عليه وسلم في بطن أمه على المشهور، كان خرج إلى غزة في عير لقريش يحملون تجارة، فلما أقبلوا مروا بالمدينة وهو مريض فتخلف بها عند أخواله بني عدي بني النجار وتوفي هناك ودفن في دار النابغة. وأما أمه فتوفيت وهو صلى الله عليه وسلم ابن ست سنين أو سبع على ما يأتي إن شاء الله، فبقي صلى الله عليه وسلم في كفالة الله ثم في كفالة جده عبد المطلب ثم عمه أبي طالب حتى بعثه الله رحمة للأنام.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

31 **أرضعتْه لبانَها فسقَتها وبنِيها ألبانَهن الشاءُ**

32 **أصبحت شوَّلا عجافا وأمْسَت ما بها شَائل ولا عجفاء**

33 **أخصب العيش عِندها بعد مَحْل إذ غَدا للنبي منها غِذاء**

لما أرضعت حليمة سيدنا صلى الله عليه وسلم أفاض الله عليها من لبن شياهها فأكفاها وولدها بعدما كانوا أشرفوا على الهلاك إظهارا لبركته واصطناعا لمكافأته. فهذا معنى قوله "**أرضعته لبانها**" واللبان بالكسر والمد يختص بزمن الرضاع بخلاف اللبن "**فسقتها**" أي حليمة "**وبنيها**" بعدما أجهدوا "**لبانهن**" فيه استعمال اللبان في غير لبن الرضاع وهو هنا مجاز للمشاكلة. الشاء جمع شاة. وإنما سقته مع شدة المحل لأنها ببركته صلى الله عليه وسلم "**أصبحت**" فهو من أسلوب الحكيم فيجوز أن تكون الجملة حالا أو نعتا لكون (أل) فيه جنيبة "**شولا**" بتشديد الواو، جمع شائل، وهي في الأصل الناقة التي تشول بذنبها للقاح ولا لبن بها أصلا، فاستعمالها في الشاء مجاز علاقتهما المشابهة "**عجافا**" أي: هزيلات "وأمست" لم يرد بأصبح وأمسى معناهما، بل إنها كانت في حال فاعتراها نقيضه في أقرب وقت وأسرع زمن، ففيهما الطباق وإن لم يرد بهما موضوعهما، أي صارت "**ما بها**" أي: فيها شائل مبتدأ أو فاعل الظرف "**ولا عجفاء**" أي: هزيلات "**أخصب**" أي: صار خصبا وهو من الخصب بكسر الخاء ضد

الجذب "**العيش**" وهو القوت لجنس الحيوان "**عندها**" أي حليمة أو الشياه "**بعد محل**" أي شدة جذب، وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ والزرع "**إذ**" أي: وقع ذلك الخصب لأجل أو وقت إن "**غدا**" أي: صار للنبي الأعظم صلى الله عليه وسلم "**منها**" من حليمة أو الشياه "**غذاء**" بالمعجمة أي من لبانها تغذية. وبين غدا وغداء الجناس الناقص. قال في الاكتفاء إثر ما تقدم. قالت يعني حليمة وقدمنا منازلنا من بني سعد وما أعلم أرضا من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح على حين قمنا به معنا شباعا لبنا فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضر معنا من قومنا يقولون لرعاتهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذويب فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعا. انتهى. المراد منه هنا.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

34 **يا لها منَّةً لقد ضوعف الأجْـ ـرُ عليها من جنْسها والجزاءُ**

هذا تعجب من حال حليمة رضي الله عنها حيث كان أجرها من جنس عملها. فلما سقته صلى الله عليه وسلم من لبنها، سقاها الله من لبن شياهها مع أنها كانت وقت أخذه من أمه على غاية الضعف والهزال وعدم اللبن. فلأجل أن غذاءه صلى الله عليه وسلم كان من لبانها، أزال الله عنها المحل والجذب وأبدلها الله بالخصب والخير الكثير جزاء وفاقا لأنها لم تطلب على إرضاعها أجرا دنيويا، فضاعف الله لها الأجر مرتين. فقوله "**يا لها**" كلمة تعجب و"**منَّة**" تمييز، أي ما أعظمها أي: هذه الفعلة، **منَّةً**، ونظير هذا قوله في بردة المديح: "يا طيب مبتدأ منه ومختتم" في كون الياء للتعجب، وقوله "**لقد ضوعف**" أي تكرر وتكثر "**الأجر**" أي أجر رضاعها عليها أي حال كونه مستوليا "**عليها**" فالاستعلاء مجاز "**من جنسها**" أي من جنس فعلها أو من تلك الفعلة فكما سقت لبانها النبي صلى الله عليه وسلم سقاها الله لبن شياهها كما تقدم.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

35 وإذا سخَّر الإله أُناسًا ... لسعيد فإنَّهُم سُعداء

لما سخر الله حليمة السعدية لخدمة سيدنا صلى الله عليه وسلم عادت بركاته عليها ونالت سعادة الدارين. أما في الدنيا، فلما تقدم من تمام خصبها ورغد عيشها في وقت الجدب والمحل وظهر تمام ذلك في غزوة حنين حتى رد رسول الله صلى الله عليه وسلم سبي هوازن لأجل بنتها الشماء. وأما في الآخرة فتوفيقها للإسلام هي وزوجها وبنوها وهكذا مكن خالط السعداء وخدمهم ينال من بركتهم عاجلا وآجلا لقوله عليه السلام: <<المرء مع من أحب>>. و<<من أحب قوما حشر معهم وإن لم يعمل بعملهم>>. و<<الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر مكنها اختلف>>. والتسخير يكون بالخدمة والمبرة والمحبة. وفي كلام الشيخ من فن البديع ما يسمى بالكلام الجامع، وهو أن يأتي الشاعر ببيت يكون جملته حكمة أو موعظة أو تنبيها إلى غير ذلك من الحقائق الجارية مجرى الأمثال كقول أبي الطيب:

وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مرادها الأجسام

*** ثم شبه ما حصل لحليمة من تضعيف الأجر في زمن الجدب بمن زرع حبة أنبتت سنابل كثيرة في وقت لا يعهد ذلك لشدة القحط فقال:**

36 حبّة أنْبتت سنَابل والعصـ ... ـف لديْه يسْتشرف الضُّعفاء

أي هذه الفعلة الواقعة لحليمة كـ"**حبة**" فهو تشبيه بليغ بحذف الأداة، كقوله صم بكم. وأشار إلى وجه الشبه الذي هو تضاعف أجزاء بقوله "**أنبتت سنابل**" كثيرة "**والعصف**" والجملة حالية أي حصلت تلك المضاعفة الكثيرة في تلك السنابل. والحال أن الوقت وقت عدم النبات أي الحبة سنابل كثيرة والعصف وهو الورق اليابس أو التبن "**لديه**" أي عند ذلك الوقت المجدب يستشرف أي يتطلع إليه "**الضعفاء**" والجملة حالية أي حصلت تلك المضاعفة الكثيرة في تلك السنابل والحال أن الوقت وقت عدم النبات بالكلية بحيث أن الفقراء يتطلعون إلى ورق النبات فضلا عن النبات فضلا عن الحب كما أن حليمة حصل لها ذلك الخصب والحال أن قومها يتطلعون إلى ورقة حبة أو قطرة لبن فلا يجدونه. قالت حليمة إثر ما تقدم فلم نزل نتعرف من الله

الزيادة والخيرة حتى مضت سنتان وفصلته وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا فقدمنا به على أمه ونحن أحرص بشيء على مكثه فينا فقلنا لأمه دعيه عندنا حتى يغلظ فإني أخشى عليه وباء مكة فلم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه لفي بُهْم لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ذلك القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه، قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعا وجهه، قالت: فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا: ما لك يا بني، قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئا لا أدري ما هو، قالت: فرجعنا به إلى خبائنا وقال لي أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به، قالت: فاحتملته فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظيروف لقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك، قلت: قد بلغ الله أمانتي وقضيت ما علي وتخوفت الأحداث عليه فأديته عليك كما تحبين، قالت: ما هذا شأنك فأصدقيني خبرك، قالت فلم تدعني حتى أخبرتها قالت: أفتخوفت عليه الشيطان قلت: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإن لبني لشأنا أفلا أخبرك خبره؟ قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ووقع حين ولدته وأنه لواضع يديه بالأرض رافعا رأسه إلى السماء دعيه عنك وانطلقي راشدة.

*** وإلى هذا أشار الشيخ في هذه الأبيات إلا أن فيها تقديما وتأخيرا يظهر بتأمل ما تقدم فقال:**

37	**وأتَت جده وقَد فصلته**	**وبها من فِصاله البرحاء**
38	**إذ أحَاطت بِه ملائكة اللـ**	**ـه فظنَّت بأنَّهم قرناء**
39	**ورأى وجْدها به ومن الوجـ**	**ـد لَهيب تصلى به الأحشاء**
40	**فارقته كرها وكان لَديها**	**ثاويا لا يمل منه الثواء**

قوله: "**وأتت جده**" الذي في الرواية، إنما كان إلى أمه، ولعلها لما كانت لا تفعل

إلا بمشاورته أسنده إليه والله تعالى أعلم. وقوله "**وقد فصلته**" أي فطمته "**وبها**" أي والحالة أن بها من خوف فصاله عنها أي زواله من عندها "**البرحاء**" أي الحمى القوية. "**إذ**" أي أتت به لأجل أنه "**أحاطت به ملائكة الله**" جمعهم لأن أقل الجمع اثنان، وقيل كانوا ثلاثة، "**فظنت**" حليمة "**بأنهم قرناء**" أي شياطين يريدون أذاه. ظاهره أن الإتيان إلى أمه بعد الفطام كان سببه رؤية الملائكة وليس كذلك يعلم مما تقدم. فلو أخر قوله "إذ أحاطت" عن قوله "فارقته كرها" لكان حسنا. والله أعلم. "**ورءا**" أي جده وأمه "**وجْدها**" أي شدة محبتها وشوقها إليه تعلقا "**به**"، فرده إليها، "**ومن**" أجل "**الوجد**" الذي بها "**لهيب**" أي نار "**تصلى به**" أي تحترق به "**الأحشاء**" جمع حشى وهو ما انضم عليه الضلوع والجملة حالية مبنية لعظمة وجدها، وإن وجدها به من هذا القبيل. "**فارقته**" أي المصطفى صلى الله عليه وسلم "كرها" أي حالة كونها كارهة لفراقه، وحق لها ذلك. "**وكان**" صلى الله عليه وسلم "**لديها**" أي عندها "**ثاويا**" أي مقيما "**لا يمل**" بالبناء للمفعول منه متعلق بقوله "**الثواء**" أي الإقامة وفيه جناس الاشتقاق والجملة من قوله "**كان**" حالية أي فارقته في حالة لا تمل إقامته بل ترغب فيها لما شاهدت في إقامته عندها من الخيرات الكثيرة. والنفس مجبولة على حب من أحسن إليها.

*** ثم ذكر قصة شق صدره فقال:**

41 **شُقَّ عَنْ قَلبِهِ وأُخرِجَ منْهُ ... مُضْغَةٌ عِنْدَ غَسْلهِ سوْداءُ**

42 **خَتَمتْه يُمْنى الأمينِ وقدْ أو ... دِعَ ما لَمْ تُذِعْ لهُ أنْباءُ**

43 **صَانَ أسْرارهُ الخِتامُ فلاَ الفَـ ... ضُّ مُلمٌّ بهِ ولا الإفْضاءُ**

قد تقدم أنه لما رجع سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم مع ظِئرِه حليمة كان ذات يوم مع الغلمان، فجاءه جبريل وميكائيل فشقا عن قلبه وأخرجا منه مضغة أي قطعة لحم وإنما خلقت هذه القطعة فيه ثم أخرجت لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية فعدمها نقص في البدن. وأيضا فإخراجها بعد خلقها على هذه الصورة البديعة أدل على مزيد الرفعة وعظيم الاعتناء والرعاية. وفي رواية: أنه أخرج منه علقتان سوداوان. فعلى

هذا يكون المراد بقوله قطعة الجنس فيصدق بأكثر من واحدة والله أعلم. فقوله: "**شق عن قلبه**" استيناف لبيان حكمة الشق. وتقدمت كيفيته قبل هذا. وفي حديث آخر عند أبي يعلى وأبي نعيم وابن عساكر قال: كنت مسترضعا في بني ليث ابن بكر، فبينما أنا ذات يوم في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان وإذا برهط ثلاثة معهم طست من ذهب ملئ ثلجا فأخذوني من بين أصحابي وانطلق الصبيان هربا مسرعين إلى الحي فعمد أحدهم فأضجعني إلى الأرض إضجاعا لطيفا ثم شق ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك ألما ثم أخرج أحشاء بطني ثم غسلها ثم أعادها مكانها ثم قام الثاني فقال لصاحبه تنح فأدخل يده في جوفي وأخرج قلبي وأنا أنظر إليه فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ثم قال أي أشار بيده وتناول شيئا فإذا الخاتم من نور يحار النظر دونه فختم به قلبي فامتلأ نورا وذلك نور النبوة والحكمة ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهرا. ثم قال الثالث لصاحبه تنح فأمرّ بيده من مفرق صدري فالتأم ذلك بإذن الله ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضا لطيفا. الحديث. والقلب مضغة في الفؤاد معلقة بالنياط، فهي أخصر من الفؤاد. قال الواحدي والذي في الصحاح أنهما مترادفان. قال البدر الزركشي: والأحسن قول غيره، الفؤاد غشاء القلب، والقلب جثه، وسويداؤه. ويؤيد الفرق قوله صلى الله عليه وسلم: ألين قلوبا وأرق أفئدة. وسمي القلب قلبا لتقلبه واضطرابه. وفي الحديث ومثل هذا القلب كمثل ريشة ملقاة بفلاة يقلبها الريح بطنا لظهر "**وأخرج منه**" أي ذلك القلب "**مضغة**" أي قدر ما يمضغ "**عند غسله**" ظرف لأخرج "**سوداء**" وعلى أنهما مضغتان كما تقدم يكون مراده الجنس. "**ختمته**" أي ذلك الشق المفهوم من قوله شق استيناف أو معطوف بحذف العاطف. "**يمنى الأمين**" على الوحي وهو جبريل عليه السلام. "**وقد أودع**" أي ملئ وحشي ذلك القلب الكريم من الإيمان والحكمة والعلوم والحقائق والأسرار الإلهية "**ما**" أي شيئا أو الذي "**لم تذِع له**" اللام زائدة وتذع بضم التاء وكسر الذال المعجمة بمعنى تنشر وتظهر. أما ما لم تنشره وتظهره أنباء أي أخبار لا يعلمه إلا المتفضل به عليه. قال العلماء رضي الله عنهم: جعل الله القلب في الإنسان هو الذي

يعقل عنه، وهو أصل وجوده، وبه صلاحه وفساده، وهو محل أسرار الله التي يودعها قلب من يشاء، فأول قلب أودعها قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أول خلق وآخر صور الأنبياء عليهم السلام فهو أولهم وآخرهم فلذا حاز كمالاتهم وزاد عليهم ما لا يعلمه إلا الله تعالى "**صان**" أي حفظ "**أسراه**" التي أودعت فيه. "**الختام**" فاعل صان أي حفظ تلك الأسرار ختام جبريل عليه السلام، وهو ما يختم به الشيء من طين أو غيره بسبب هذه الصيانة "**لا الفض**" أي الكسر والتفرقة "**ملم**" أي واقع به، أي بذلك الختم "**ولا الإفضاء**" أي الإشاعة والإظهار واقعة لذلك السر، وبين الفض والافضاء التجنيس المطلق ويجري في قوله "**يمنى الأمين**". **تنبيه:** شق صدره صلى الله عليه وسلم قد تعدد أربع مرات، أحدها في حالة الصبا وهو المتقدم وحكمته تطهيره عن نقائص الصبا ليكون على أكمل صفة الرجولية. ولذلك نشأ على أكمل الأحوال. قال بعض العلماء: وهل هذا الشق كان سببا لإسلام قرينه وإشارة إلى حظ الشيطان المباين له. قيل وهذا الشق هو المراد بقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١** ﴾. الثاني: وهو ابن عشر سنين في قصة له مع عبد المطلب رواها أبو نعيم في الدلائل ورواها عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد مسند أبيه بلفظ: قال أبو هريرة، قلت: يا رسول الله أول ما بدئت به من أمر النبوة. قال: إني لفي صحراء واسعة أمشي وأنا ابن عشر حجج إذ أنا برجلين فوق رأسي يقول احدهما لصاحبه أهو هو قال فأخذاني وأضجعاني بحناوة القفا ثم شقا بطني وكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب والآخر يغسل جوفي. فقال أحدهما لصاحبه أفلق صدره فإذا صدري فيما أرى مفلوق لا أجد له وجعا. ثم قال: أشقق قلبه فشق قلبي، فقال: أخرج الغل والحسد منه، فأخرج شبه العلقة فنبذه ثم قال: أدخل الرحمة والرأفة قلبه، فأدخل شيئا كهيئة الفضة ثم أخرج ذرورا كان معه فذر عليه ثم نقر بإبهامه وقال اغد فرجعت بما لم أغد به من رحمتي للصغير ورأفتي للكبير. الثالث: في غار حراء عند ابتداء الوحي. رواه الطيالسي والحارث في مسندهما، وكذا أبو نعيم ولفظه: أن جبريل وميكائيل شقا صدره وغسله، ثم قال: ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ** ﴾ [العلق: 1] الآية. والحكمة فيه كمال التهيء والتقوى على

ما يلقى إليه من القول الثقيل. قلت: وهذا ضعيف جدا. الرابع: ليلة الإسراء وهذا صحيح متفق عليه في البخاري ومسلم والله تعالى أعلم. وهذا الشق على هذه الكيفية البديعة المبالغة من خرق العادة من خواصه صلى الله عليه وسلم، إذ لم يثبت أنه حصل للأنبياء قبله. نعم، تطهير قلوبهم عليهم الصلاة والسلام حاصل قطعا والله تعالى أعلم.

*** ولما فرغ من ذكر رضاعه وما وقع فيه من خوارق العادات من شق صدره وغيره، شرع يتكلم في كيفية نشأته صلى الله عليه وسلم حالة طفوليته وما بعدها فقال:**

44 **أَلِـف النُّسك والعـبادة والخلـ ـــوة طِفــلا وهكــذا النُّجــباءُ**

لا شك أن نبينا صلى الله عليه وسلم قد نشأ في عبادة الله وحفظه وعصمته مما يريد به من كرامته، فلذلك "**ألف النسك والعبادة**" عطف تفسير أي اعتادهما. "**والخلوة**" عن الناس في حال طفولته "**طفلا**"، وأولى ما بعده، فما زال متبتلا منذ كان طفلا إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم. قال الشيخ البلقيني: ولم يجئ في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده عليه الصلاة والسلام، لكن روى ابن إسحاق وغيره أنه كان يخرج إلى حراء شهرا، أي: كل عام من السنة يتنسك فيها. وكان من نسك قريش أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين، حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة. انتهى. والظاهر كما قاله غير واحد، أن عبادته كانت الذكر والتفكر، مع إكثاره للخلوة والاعتزال للناس بحراء وغيره، قاله ابن حجر. "**وهكذا النجباء**" تظهر نجابتهم في صغرهم، وسيدنا صلى الله عليه وسلم أعظم النجباء، ويليه في ذلك أبوه إبراهيم عليه السلام فإنه اعتزل قومه وانقطع إلى الله تعالى. وفي كلام الشيخ التناسب والتذييل.

*** ثم بين وجه إلفه النسك والعبادة صلى الله عليه وسلم فقال:**

45 **وإذا حَلَّــتِ الهِدايــةُ قَلْــبًا نَــشِطتْ للعِــبَادةِ الأعــضاءُ**

أي إنما ألف سيدنا صلى الله عليه وسلم النسك والعبادة للهداية التي حلت قلبه صلى الله عليه وسلم من شق صدره وامتلاء قلبه بالأنوار والأسرار. والمراد بالهداية هنا الوصول إلى الحق لا الدلالة عليه. وتطلق على أربعة أنواع: **الأول**: إفاضة القوى التي بها يتمكن القلب من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة. **والثاني**: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد، وإليه الإشارة بقوله تعالى:﴿ **وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ** ۝ ﴾ [البلد: 10] وقوله :﴿ **فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ** ﴾ [فصلت: 17]. **والثالث**: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإياها عنى بقوله ﴿ **وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** ﴾ [الأنبياء: 73] وقوله: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ** ﴾ [الإسراء: 9]. **والرابع**: أن يكشف عن قلوبهم السرائر ويريهم الأشياء كما هي بالوحي والإلهام والمنامات الصادقة، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت: 69]. انتهى. قاله البيضاوي. قلت: ومن القسم الأول قوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ۝ ﴾ [الأعلى: 3] على أحد التفاسير. والقسم **الرابع** هو الذي حل قلبه صلى الله عليه وسلم على ما يليق بمنصبه الشريف.ونشاط الأعضاء خفتها وسهولة الفعل عليها مع فرح القلب وسروره. وإنما كانت الهداية سببا لهذا؛ لأن القلب ملك وسلطان الجسد، فإذا صلح صلح الجسد، وإذا فسد فسد الجسد، كما في الحديث. وقد تكلم الشيخ رضي الله عنه في هذين البيتين على كيفية نشأة سيدنا **محمد** صلى الله عليه وسلم في صغره إلى أن بلغ زمن الوحي والنبوة، إلا أنه أتى به مجملا فلا بد فيه من تفصيل لينظر المحب فيه صلى الله عليه وسلم: كيف كانت عناية الله به صلى الله عليه وسلم في صغره وكبره فيزداد إيمانا ومحبة، جعلنا الله من خواص محبيه وأهلنا لاستعمال خدمته واتباع سنته بحق قدره ومقداره آمين. قال ابن إسحاق: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة وجده عبد المطلب في كلاءة الله وحفظه لينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه

بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيره إياهم، وهي راجعة به إلى مكة. قال غير ابن إسحاق: فأقامت عندهم شهرا ومعه مملوكته أم أيمن. وأخرج ابن سعد أنه صلى الله عليه وسلم لما رءا دار النابغة قال: <<هنا نزلت بي أمي وأحسنت العوم في بيار بني النجار وكان قوم من اليهود يختلفون وينظرون إلي>>. وقالت أم أيمن: فسمعت بعضهم يقول هو نبي هذه الأمة وهذه دار هجرته فوعيت ذلك كله من كلامهم. ولما ماتت أمه صلى الله عليه وسلم حضنته بعدها مملوكته أم أيمن بركة. قال ابن إسحاق: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه فياخذه أعمامه ليؤخروه فيقول عبد المطلب إذا رءا ذلك: دعوا ابني فوالله إن له لشأنا. ثم يجلسه معه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع. قالوا وكانت أم أيمن تحدث تقول: كنت أحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم فغفلت عنه يوما فلم أدر إلا بعبد المطلب قائما على رأسي يقول: يا بركة، قلت: لبيك، قال: تدري أين وجدت ابني؟ قلت: لا أدري، قال: وجدته مع غلمان قريبا من السدرة، لا تغفلي عن النبي فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا نبي هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم. وكان لا يأكل طعاما إلا قال: علي بابني، فيوتى به إليه. وجلس عبد المطلب يوما في الحجر وعنده أسقف نجران وكان صديقا له وهو يحادثه وهو يقول: إنا نجد صفة نبي بقي من ولد إسماعيل هذا بلده من صفته كذا وكذا، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الحديث فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدميه فقال: هو هذا، فقال الأسقف ما هذا منك. قال:ابني قال: لا نجد أباه حيا. قال عبد المطلب: هو ابني، مات أبوه وأمه حبلى به. قال: صدقت: قال عبد المطلب لبنيه: تحفظوا من ابن أخيكم ألا تسمعون ما يقول فيه. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يلعب مع الغلمان حتى بلغ الردم فرآه قوم من بني مدلج فدعوه فنظروا إلى قدميه وإلى أثره ثم خرجوا في طلبه حتى صادفوا عبد المطلب قد لقيه فاعتنقه، فقالوا لعبد المطلب: ما هذا منك، قال: ابني. قالوا:

فاحتفظ به فإنا لم نر قدما قط أشبه بالقدم الذي في المقام من قدمه. فقال عبد المطلب لأبي طالب اسمع ما يقول هؤلاء. وكان أبو طالب يحتفظ به. انتهى. ولما بلغ سيدنا صلى الله عليه وسلم ثمان سنين مات جده عبد المطلب عن سن عالية مختلف في حقيقتها، أدناها خمس وتسعون سنة وأعلاها مائة وأربعون سنة فكفله عمه أبو طالب. وكان عبد المطلب يوصيه به وكان أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طالب أخوين لأب وأمّ. فكان أبو طالب هو الذي يلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إليه ومعه. وذكر الواقدي أن أبا طالب كان مقلا من المال، وكانت له قطعة من الإبل تكون بعرنّة فيبدوا إليها فيكون فيها ويوتى بلبنها إذا كان حاضرا بمكة. فكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعا وفرادى لم يشبعوا. وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يعشيهم ويغديهم يقول كما أنتم حتى يأتي ابني فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم، وإن كان لبنا شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم ثم يناول العيال القعب فيشربون منه فيروون من عند آخرهم من القعب الواحد وإن كان أحدهم ليشرب قعبا وحده فيقول أبو طالب إنك لمبارك. وكان الصبيان يصبحون شعثا رمدا ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دهينا كحيلا. وقالت أم أيمن؛ وكانت تحضنه: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم شكا جوعا قط وعطشا. وكان يغدوا إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة، فربما عرضنا عليه الغذاء فيقول لا أريده أنا شبعان. انتهى. وقعت قريش في قحط فقالت يا أبا طالب أقحط الوادي وأجهد العيال فهلم فاستسق. قال: قطعة قدمت مكة في سنة قحط فقالت قريش يا أبا طالب أقحط الوادي وأجذب العيال فهلم فاستسق فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس الضحى انجلت عنه سحابة قائما وحوله غليمة. فأخذ أبو طالب الغلام وألصق ظهره بالكعبة ولاذ الغلام بأصبعه وما في السماء قزعة فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا واغدودق المطر وانفجر الوادي وأخصب النادي. وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبـيض يستـسقى الغمـام بـوجهه ... ثمـال اليتامـى عـصمة للأرامـل

يلـوذ بـه الهُـلاّك مـن آل هاشـم ... فهـم عـنده فـي رحمـة وفواضـل

في قصيدة له طويلة يمدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم حتى أخذ الشيعة منها إسلامه. وثبت في رواية ضعيفة عن العباس أنه أسر إليه الإسلام ولكنه يعارض ما في الصحيح أنه في الضحضاح من نار والله تعالى أعلم. والثمال بالكسر: اللجاء. والعصمة: الحفظ من الضياع. والأرامل: المساكين رجال أو نساء لكنه في النساء أكثر استعمالا وقد وقع الاستسقاء به صلى الله عليه وسلم لجده عبد المطلب كما للطبراني وغيره. ونسبة هذا البيت له غلط وإنما هو لولده كما تقدم. وقد ثبت في حديث أخرجه البيهقي عن أنس في قضية الاستسقاء الذي كان بالمدينة قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أتيناك وما لنا صبي يغط ولا بعير يبيظ، أي: ما لنا بعيرا أصلا، لأنه لو وجد لا بد أن يبيظ وأنشد أبياتا، فقام صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى صعد المنبر فرفع يديه إلى السماء ودعا فما رد يديه إلى نحره حتى التقت السماء بأبارقها وعادوا يضحون فضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجده ثم قال لله ذر أبي طالب لو كان حيا لقرت عيناه. من ينشدنا قوله فقال علي رضي الله عنه يا رسول الله كأنك تريد قوله:

وأبـيض يستـسقى الغمـام بـوجهه ثمالـى اليتامـى عـصمة للأرامـل

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: << أجل>>. فهذا صريح في كون الأبيات لأبي طالب. ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثنتي عشرة سنة خرج أبو طالب إلى الشام، قال ابن إسحاق ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرًا إلى الشام فلما تهيأ للرحيل صبا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له أبوطالب وقال والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدا. وكما قال فخرج به معه فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له، وكان إليه علْم النصرانية. فلما نزلوا ذلك العام ببحيرا وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا وذلك فيما يزعمون عن شيء رءاه وهو في صومعته يزعمون أنه رءا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم، فلما أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبا من صومعته، فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة،

وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها، فلما رءا ذلك بحيرا نزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم إني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، وأحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم، حركم وعبدكم، فقال له رجل منهم: والله يا بحيرا، إن لك اليوم لشأنا ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرا: صدقت قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم. فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم، فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجدها عنده، فقال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي، قالوا له يا بحيرا ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنا فتخلف في رحالهم. قال: لا تفعلوا، ادعوه ليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش واللات والعزى إن كان للؤما بنا أن يتخلف ابن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رءاه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تسئلني باللات والعزى شيئا، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما. فقال له بحيرا: فوالله إلا ما أخبرتني عما أسئلك عنه. قال له: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله من قومه ويقظته وهيئته وأموره، ويخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، فلما نظر إلى ظهره فرءا خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده. فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال ما هذا الغلام منك؟ قال ابني، قال: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، قال إنه ابن أخي، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنّه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فاسرع به إلى بلده. فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام، فزعموا أن نفرا من أهل

الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما رءا بحيرا وذكرهم الله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفاته وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا لم يخلصوا إليه حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه فيما قال وتركوه وانصرفوا، فيشب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله ويحفظه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأكرمهم حسبا وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزها وتكرما، حتى ما كان اسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة. ذكر الواقدي عن أم أيمن قالت: كانت بوانة صنما تحضره قريش وتعظمه وتنسك له وتحلف عنده وتعكف عليه يوما إلى الليل في كل سنة، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ويكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معهم فيأبى ذلك، قالت: حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه ويقلن ما تريد يا محمد ان تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعوبا فزعا، فقلن له ما دهاك؟ فقال إني أخشى أن يكون بي لمَمٌ فقلن ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت؟ قال كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي وراءك يا محمد لا تمسه. فما عاد إلى عيدهم حتى تنبأ صلوات الله عليه وعلى آله. وذكر البخاري أنه قال: ما هممت بسوء من أمر الجاهلية إلا مرتين. وروى غيره أن أحدى المرتين كان في غنم يرعاها هو وغلام من قريش فقال لصاحبه: اكفني أمر الغنم حتى آتى مكة وكان بها عرس فيها لهو فلما دنا من الدار ليحضر ذلك، ألقي عليه النوم فنام حتى ضربته الشمس عصمة من الله تعالى له. والمرة الأخرى مثل الأولى سواء. ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد وستأتي حكايتهما تامة إن شاء الله عند تعرض الشيخ لها. ولما بلغ صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين (35) سنة خافت قريش أن تهدم السيول الكعبة فاجتمعت لبنائها، وكان رجل سرق طيب الكعبة فأرادوا أن يشيدوا بنيانها وأن يرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا، وأعدوا لذلك نفقة وأعمالا ثم عمدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر من

أن يمنعهم الله الذي أرادوا. قال ابن إسحاق وكانوا يهابون هدمها، وإنما كانت رضما فوق القامة فزادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفرا سرقوا كنز الكعبة، وإنما يكون في بير في جوف الكعبة وكان الذي وجد عنده الكنز دويك رجل من خزاعة فقطعت قريش يده. قال وكان البحر ألقى سفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطي نجار فتهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها. وكانت حية تخرج من بير الكعبة التي كان يطرح فيها ما يهدى فتشرف على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنوا منها أحد إلا احزألت وكشت وفتحت فاها فكانوا يهابونها. فبينما هي يوما تشرف على جدار الكعبة بعث الله إليها طائرا اختطفها فذهب بها فقالوا إنا لنرجوا أن يكون الله قد رضي ما أردنا وعندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله أمر الحية. قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاجزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال، فمكث قريش على ذلك أربع ليال ثم اجتمعوا في السمد فتشاوروا وتناصفوا، فقال أبو أمية بن المغيرة المخزومي وكان أسنهم يومئذ: اجعلوا فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم، ففعلوا فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا هذا الأمين رضينا هذا محمد، فلما انتهى إليهم واخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم هلم على ثوب فأتي به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال لياخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم ثم بني عليه وكانت الكعبة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثمان عشرة ذراعا. انتهى الغرض منه. ولما قرب مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدث بذلك الأحبار والرهبان والكهان. أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فمما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم. وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين فيما يسترق من السمع إذ كانت لا تحجب عن ذلك. وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره ولا تلقى العرب لذلك فيه بالاً حتى بعثه الله ووقعت تلك

الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها. فلما حضر مبعثه حجبت الشياطين عن السمع وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها ورموا بالنجوم.

* **وإلى ذلك أشار الشيخ بقوله:**

46	**بعــث الله عــند مبعــثه الــشُّهــ**	**ـبَ حِرَاسا وضاق عنها الفضاء**
47	**تطـرد الجـن عـن مقاعـد للسمـ**	**ـع كمـا تطـردُ الـذئابَ الـرُّعـاءُ**
48	**فمحــت آيــة الكهانــة آيـــا**	**تٌ من الوحي ما لهن انْمحاء**

لما بعث الله سيدنا صلى الله عليه وسلم بالوحي والتنزيل وكانت الشياطين تسترق السمع وتتنزل بالأخبار الغيبية على الكهان. منع الله الشياطين بالشهب ليلا يختلط الوحي بغيره. فهذا معنى قول الشيخ "**بعث الله**" أرسل "**عند مبعثه**" أي قربه وعند مثلث العين أي عند زمن إرساله أرسل "**الشهب**" على الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع فيخطف الكلمة ثم يضم إليها مائة كذبة كما في الحديث، ثم يلقيها للكاهن. والشهب جمع شهاب، وهو شعلة من نار تحرق الشيطان أو تخبله. "**حراسا**" أي لأجل الحراسة للشريعة المحمدية كي لا يخلطوا فيها شيئا. ولكثرة تلك الشهب وعمومها للمسترقين في نواحي السماء "**ضاق عنها الفضاء**" أي المفازات الواسعة فلم يبق مكان يسترقون منه وقوله "**تطرد**" حال من الشهب أو صفة له. "**الجن**" وهم أجسام نارية لها قدرة على التشكل "**عن مقاعد**" أمكنة قريبة من السماء يقعدون فيها "**للسمع**" من الملائكة المتكلمين بما سيقع في الأرض من أقضية المغيبات فيطردونهم طردا عنيفا "**كما تطرد الذياب الرعاء**" فالذياب مفعول والرعاء، بكسر الراء وضمها، فاعل. "**فمحت**" أي بسبب ذلك الطرد محت "**آية الكهانة**" بفتح الكاف مصدر كهن بالضم، أي صار كاهنا أي مخبرا بالأمور الخفية التي تلقي إليهم الشياطين. وأما الكهانة بالكسر فحرفة التكهن الذي هو المصدر وآية مفعول مقدم، أي محت "**آية من الوحي**" التي "**ما لهن انمحاء**" أي ليس لها محو أي نسخ على مر الأعصار والدهور آية الكهانة، فلم يبق لها أثر. والوحي يطلق على الإشارة والكتابة والإلهام والكلام

الخفي. وأصل ما ذكر في هذه الأبيات ما ذكره أهل السير، قال في الاكتفاء: فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثه حجبت الشياطين عن السمع وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها، ورموا بالنجوم، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد لقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يقص عليه خبرهم إذا حجبوا: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن: 1] إلى قوله: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝ ﴾ [الجن: 9 - 10] فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها منعت من السمع قبل ذلك لئلَّا يشكل الوحي السماء فيلبس على أهل الأرض ما جاءه من الله لوقوع الحجة وقطع الشبهة، فآمنوا به وصدقوا ثم ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. وفي رواية أخرى أنهم لما حيل بينهم وبين خبر السماء قالوا إن ذلك لأمر حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما حل بينهم وبين خبر السماء، فخرجت طائفة منهم من جن نصيبين باليمن قبل تهامة فوجدوا النبي صلى الله عليه وسام بنخلة قديمة على ليلة من مكة مع أصحابه يصلي الصبح وهو يقرأ القرآن فاستمعوا ثم قالوا هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء وأسلموا وولوا إلى قومهم منذرين. وفي ذلك نزل ﴿ قُلْ أُوحِيَ ﴾ [الجن: 1] الآيات. ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الأحقاف: 29] الآية. وذكر ان أول العرب فزع للرمي بالنجوم حين رمي بها ثقيف وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمر بن أمية وكان أدهى العرب فقالوا له يا عمر ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم؟ قال: بلى فانظروا، فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس في معايشهم هي التي ترمى بها فهو والله طي الدنيا وهلك هذا الخلق الذي فيها. وإن كانت نجوما غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه لنفر من «الأنصار ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به» قالوا يا نبي الله كنا

نقول حين رأيناها يرمى بها مات مَلِكٌ مُلِكَ مَلِكٌ ولد مولود مات مولود: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس ذلك كذلك، ولكن الله تبارك وتعالى إذا قضى في خلقه أمرًا. سمعه حملة العرش فسبحوا فسبح من تحتهم لتسبيحهم، فسبح من تحت ذلك فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا ثم يقول بعضهم لبعض مم سبحتم فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم، فيقولون مثل ذلك حتى ينتهوا إلى حملة العرش فيقال لهم مم سبحتم؟ فيقولون قضى الله في خلقه كذا وكذا للأمر الذي كان، فيهبط به الخبر من سماء إلى مساء حتى ينتهي إلى سماء الدنيا فيتحدثوا به فيسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدثونهم فيخطئون ويصيبون فيتحدث به الكهان، فيخطئون بعضا ويصيبون بعضا. ثم إن الله حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها فانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة» انتهى. قلت: قال بعض العلماء: كان هذا في زمنه صلى الله عليه حين نزول الوحي، فلما مات صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحي رجعت الشياطين للاستراق، ويعضده وجود بعض الكهان في ما بعده صلى الله عليه وسلم والله تعالى أعلم. وذكر أبو جعفر العقيلي بإسناد إلى لهيب بن مالك اللهبي قال: حضرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده الكهانة فقلت: بأبي أنت وأمي نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم وذلك إنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك فكان شيخا قد أتت عليه مائة سنة وثمانون سنة فقلنا يا خطر هل عندك علم بهذه النجوم التي يرمى بها فإنا قد فزعنا لها وخفنا سوء عاقبتها؟ فقال: إيتوني بسحر، أخبركم الخبر. لخير أم لضرر، أو لأمن أو حذر. قال فانصرفنا عنه يومنا فلما كان من غد في وجه السحر أتيناه فإذا هو قائم على قدميه، شاخص في السماء بعينيه، فناديناه يا خطر يا خطر، فأومأ إلينا أن أمسكوا فأمسكنا، فانقض نجم عظيم من السماء وصرخ الكاهن رافعا صوته: أصابه إصابة. خامره عقابه. عاجله عذابه. أحرقه شهابه. زايله جوابه. يا ويله ما حاله. بلبله بلباله. تقطعت حباله، وغيرت أحواله، ثم أمسك طويلا وقال: يا معشر بني قحطان أخبركم بالحق والبيان، أقسمت بالكعبة والأركان، والبلد المؤتمن الشدان. لقد منع السمع عتاة الجان، بثاقب

بكف ذي سلطان، من أجل مبعوث عظيم الشان، يبعث بالتنزيل والقرآن، وبالهدى وفاصل الفرقان، تبطل به عبادة الأوثان، قال فقلت يا خطر إنك لتذكر أمرا عظيما فماذا ترى لقومك، قال: أرى لقومي ما أرى لنفسي أن يتبعوا خير نبي الانس، برهانه مثل شعاع الشمس، يبعث في مكة في دار الحُمس، يحكم بالتنزيل غير اللبس. فقلنا له يا خطر فمن هو فقال والحياة والعيش، إنه لمن قريش، ما في حلمه طيش، ولا في خلقه كيش، يكون في جيش وأي جيش، من آل قحطان وآل أيش، فقلنا له بين لنا من أي قريش هو؟ فقال: والبيت ذي الدعائم، والركن والأحايم، إنه من نجل هاشم، من معشر الحارم، يبعث بالملاحم، وقتل كل ظالم، ثم قال: هذا هو البيان، أخبرني به رئيس الجان. ثم قال الله أكبر. جاء الحق وظهر. وانقطع عن الجن الخبر، ثم سكت وأغمي عليه فما أفاق إلا بعد ثالثة فقال لا إله إلا الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله لقد نطق عن مثل النبوة، وإنه ليبعث أمة وحده. انتهى. والرجم بالشهب منفصلة لا بالكوكب على الصحيح. وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه أن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السماوات وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة. فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات. فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السماوات كلها فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب وهو: الشعلة من النار، فلا تخطئ أبدا. فمنهم من يقتله ومنهم من يحرقه ومنهم من يخبله فيصير غولا في البراري. انتهى.

*** ثم قال رضي الله عنه: (ص83)**

49	**ورأتــه خَديجَـة والتقـى والـ**	**ـزُّهدُ فـيه سـجِية والحـياءُ**
50	**وأتاهــا أن الغمامــة والـسَّـر**	**حَ أظلَّــته مــنهما أفْــياءُ**
51	**وأحاديـث أن وعْـد رسُـول اللـ**	**ـه بالـبعث حـانَ مـنْهُ الـوفاءُ**
52	**فدعَـتْه إلـى الـزواج ومـا أحـ**	**ـسنَ مـا يـبْلغُ المُنـى الأذكـياءُ**

قد تقدم أنه لما بلغ سيدنا صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة تزوج خديجة رضي الله عنها فذكر الشيخ رضي الله عنه هنا سبب ذلك الباعث لها على

تزوجها به صلى الله عليه وسلم بعدما سبق لها في الأزل من الخير العظيم ثلاثة أمور، أحدها: ما رأت فيه صلى الله عليه وسلم من خصال الخير. والثاني ما وصل إليها ورأته من تظليل الغمام. والثالث ما سمعته من أخبار الكهان والأحبار ببعث رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأشار إلى الأول بقوله: "**ورأته**" أي علمته وأبصرته لما سبق لها من الفضل "**خديجة**" بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، وكانت ذا شرف ظاهر، ومال وافر، وحسب فاخر، "**والتقى**" وهو: البراء من كل شيء سوى الله تعالى فهذا غايته، ومبدؤه اتقاء الشرك، ووسطه اتقاء المحارم، والواو للحال. وفي الصحيح: <<إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا>>. "**والزهد**" وهو: طرح الدنيا من القلب والرغبة فيما عند الله تعالى. وقد كان صلى الله عليه وسلم قبل البعث وبعدها لا يلتفت إليها ولا يعبأ بها، شهدت بذلك الآثار، وتواترت به الأخبار، فقد كان صلى الله عليه وسلم بعدما فتحت عليه البلدان، وجبيت إليه الأموال، يبيت طاويا هو وأهله الأيام، وإنما كان خبزهم الشعير، وقد كان تمضي الشهران والثلاث لا يوقد في بيته نار وإنما طعامهم التمر والماء، وهذا كله بعدما خيره الله في أن يصير معه جبال تهامة ذهبا وزمردا، فترك ذلك. ففي الحديث أن جبريل عليه السلام نزل عليه فقال: إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: أتحب أن أجعل لك هذه الجبال ذهبا تكون معك حيث كنت. فأطرق ساعة ثم قال: << يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من مال له، قد يجمعها من لا عقل له>>. فقال جبريل: ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت. وروي عنه أيضا عليه السلام أنه قال: <<عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا. فقلت: لا يا رب، أجوع يوما وأشبع يوما، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك>>. إلى غير ذلك. وقوله "**فيه سجية**" بالسين المهملة، أي خلق غريزي طبيعي ليس بمكتسب، بخلافها في غيره صلى الله عليه وسلم، فقد تكون مكتسبة. وقد اختلف العلماء في ذلك، فقيل: حسن الأخلاق. وكلها غريزة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: <<إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم>>. وقيل: كلها مكتسبة، بدليل ما كان يدعوا به صلى الله عليه وسلم من

قوله: <<اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي>>. والتحقيق أن أصول الأخلاق غرائز وملكات، وإنما التفاوت في الثمرات. وهذا هو الذي يكلف به العبد دون الغريزي، قاله ابن حجر هنا. "**والحياء**": خلق يمنع صاحبه من ارتكاب القبيح والتقصير في حق من له حق. وكان صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها كما في الصحيح. ثم أشار إلى الثاني بقوله: **وأتاها**" الخبر بكرامتين عظيمتين وقعتا له قبل النبوة: "**أن الغمامة**" أي السحابة "**والسرح**" وهي شجر عظام أو كل شجر لا شوك فيه أو كل شجر طال، والمراد الأول أو الثالث "**أظلته منهما أفياء**" أي ظلال جمع فيء، وهو ما بعد الزوال، من الظل من فاء إذا رجع لرجوعه من جانب إلى جانب. والمراد هنا مطلق الظل، وتظليل الغمام له صلى الله عليه وسلم قد كثرت به الآثار، وتواترت به الأخبار، فمنها قضية سفره مع ميسرة إلى بصرى. ذكر الواقدي بإسناد له إلى نفيسة بنت منية قالت: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين لِمَا تكاملت فيه من خصال الخير. قال له أبو طالب: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة، وليست لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في عيراتها فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها من طهارتك، وإن كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود، ولكن لا نجد من ذلك بدا. وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فتكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم المال مضاربة، وكانت قريش قوما تجارا، ومن لم يكن تاجرا من قريش فليس عندهم بشيء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلها ترسل إلي في ذلك. فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك فتطلب أمرا مدبرا. فافترقا وبلغ خديجة ما كان من محاولة عمه له وقبل ذلك ما قد بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه. فقالت: ما علمت أنه يريد هذا. ثم أرسلت إليه فقالت: إنه دعاني إلى البعثة إليك ما

بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلا من قومك. ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتى أبا طالب فذكر ذلك له فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك. فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشام، وجعل عمومته يوصون به أهل العير حتى قدم الشام فنزل في سوق بصرى في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب يقال له نسطور، فاطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي. ثم قال: أفي عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم، لا تفارقه. قال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج. فوعى ذلك ميسرة، ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى. فكان بينه وبين رجل اختلاف، فقال له الرجل: احلف باللات والعزى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حلفت بهما قط. فقال الرجل: القول قولك. ثم قال لميسرة وخلا به: يا ميسرة هذا نبي، والذي نفسي بيده إنه لهو، وتجده أحبارنا منعوتا في كتبهم، فوعى ذلك ميسرة، ثم انصرف أهل العير وكان ميسرة يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره. قال وكان الله عز وجل ألقى على رسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة من ميسرة، فكان كأنه عبد لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما رجعوا وكانوا بالظهران، تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة، وخديجة في علية لها، تنظر معها نساء فيهن نفيسة بنت أمية، فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل وهو راكب على بعيره، وملكان يظلانه، فأرته نساءها معجبين لذلك، ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخبرها بما ربحوا، فسرت بذلك. فلما دخل عليها ميسرة، أخبرته بما رأت. فقال لها ميسرة: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام. وأخبرها بقول الراهب نسطور، وقول الآخر الذي خالفه في البيع. قالوا وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارتها فربحت ضعف ما كانت تربح، وأضعفت له ما سمت له. انتهى من الاكتفاء. وسيأتي بقيته. وروى أن حليمة رأت غمامة تظله وهو عندها. وروى ذلك أيضا عن أخيه من

الرضاعة، وأشار غير واحد إلى أن تظليله بالغمام إنما كان قبل النبوة إرهاصا وتأسيسا لنبوته صلى الله عليه وسلم. وأما بعد النبوة فقد ثبت أن الصديق كان يظله في الهجرة حين لحقته الشمس وكان الصحابة إذا أتوا على شجرة ظليلة تركوها له صلى الله عليه وسلم. ثم أشار على الأمر الثالث بقوله: وأتاها أيضا "**أحاديث**" الأحبار والرهبان والكهان "**أن**" أي بأن "**وعد رسول الله**" من إضافة المصدر إلى المفعول "**بالبعث**" أي الإرسال إلى الخلق كافة. "**حان**" أي قرب "**منه الوفاء**"، أي قرب الوفاء من وعد الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالبعث. "**فدعته إلى الزواج**" أي فبسبب ذلك خطبته إلى التزوج بها وعرضت نفسها عليه، فقالت: يا ابن عم، إني قد رغبت في نكاحك لما رأيته وعرفته منك، وسنها حينئذ أربعون سنة. وكانت تزوجت قبله رجلين "**وما أحسن**" صيغة تعجب "**ما**" مصدرية تؤول مع "**يبلغ**" بالمصدر منصوب على التعجب "**المنى**" أي الأماني جمع أمنية وهو ما يتمنى الإنسان أي: شيء عظيم أحسن بلوغ "**الأذكياء**" ما يتمنونه والأذكياء جمع ذكي وهو العاقل اللبيب، ومن أكملهم خديجة رضي الله عنها، فإنها أدركت بقوة ذكائها وتفرسها فيه صلى الله عليه وسلم كل ما تمنته وأملته مما لم تبلغه امرأة من هذه الأمة، وهي أفضل أزواجه صلى الله عليه وسلم كما جزم به السبكي وعليه الجمهور. فهي أفضل نساء هذه الأمة بعد السيدة فاطمة رضي الله عنها. قال في الاكتفاء في قصة تزوج خديجة بإثر ما تقدم من حديث نفيسة وكانت تعني خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير وهي يومئذ وسط نساء قريش نسبا، وأعظمهن شرفا، وأكثرهن مالا، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو يقدر عليه. عرضت نفسها عليه فقالت له فيما يزعمون يا ابن عم إني قد رغبت لقرابتك ووسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، فلما قالت له ذلك ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب يرحمه الله حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها. هكذا ذكر ابن إسحاق. وذكر الواقدي وغيره من حديث نفيسة أن خديجة أرسلتها إليه دسيسا فدعته إلى تزوجها، فلما أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد فحضر ودخل رسول الله صلى الله

عليه وسلم في عمومته وزوجه أحدهم، وقال عمرو هذا الفحل لا يقرع أنفه. قال ابن هشام: وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت. قال ابن إسحاق: فولدت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أولاده كلهم إلا إبراهيم وهم: القاسم والطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه. انتهى. وقال ابن حجر الهيثمي في قصة تزوج خديجة لما خطبها عمه من خويلد فأجاب، فتزوجها صلى الله عليه وسلم وأصدقها عشرين بكرة، وحضر أبو بكر ورؤساء مضر فخطب أبو طالب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسُوّاس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا، وحرما آمنا وجعلنا حكاما على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به، فإن كان في المال قلّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد من عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي كذا وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، فزوجها أبوها منه. وذكر الدلائي وغيره أنه صلى الله عليه وسلم أصدقها ثنتي عشرة أوقية ذهبا ونصف أوقية وكانت الأوقية إذ ذاك أربعين درهما. انتهى. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

53	**وأتــاهُ فــي بيــتِها جبــرائيل**	**ولِـذي اللُّـبِّ في الأمـور ارتـياءُ**
54	**فَأماطـت عـنها الخمـار لـتدري**	**أهُــو الوحــي أم هــو الإغمــاءُ**
55	**فاختفى عند كشفها الرأس جبر**	**يـل فمـا عـاد أو أعـيد الغطـاءُ**
56	**فاســتبانت خديجــة أنــهُ الكـنْـ**	**ـزُ الــذي حاولـته والكيمـياءُ**

هذا أيضا من كمال ذكائها وحصافة عقلها. وكان ما ذكره الشيخ في أول البعثة، قال في الاكتفاء، ويروى عن خديجة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي ابن عمي أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك. قال نعم. قالت فإذا

جاءك فأخبرني. فجاءه جبريل كما كان يصنع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا خديجة هذا جبريل قد جاءني قالت قم يا ابن عمي فاجلس على فخذي اليسرى فجلس عليها قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحول فاقعد على فخذي اليمنى. فتحول فقعد على فخذها اليمنى فقالت هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحول فاجلس في حجري، فتحول فجلس في حجرها ثم قالت: هل تراه؟ قال: نعم. فتحشرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها ثم قالت: هل تراه؟ قال لا. قالت يا ابن عمي أثبت وأبشر فوالله إنه لملك ما هذا بشيطان. انتهى. أرادت خديجة رضي الله عنها أن تنتقل من علم اليقين إلى عين اليقين كما وقع لإبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿ **وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى** ﴾ [البقرة: 260] فقوله "**وأتاها**" أي بعد النبوة والرسالة في أولها "**في بيتها**" أي خديجة "**جبرئيل**" لغة في جبريل "**ولذي**" أي صاحب "**اللب**" أي العقل الكامل وخديجة رضي الله عنها من أكمل أولي الألباب في الأمور والأحوال التي تعرض. "**ارتياء**" أي نظر واستبصار، مشتق من الرؤية بالعين أو القلب. يقال ارْأتيته أي نظرته، والجملة اعتراضية لإفادة كمال عقلها واستبصارها مع إفادة أن هذا أمر كلي جار مجرى المثل فهو من إرسال المثل. "**فأماطت**" أي أزالت عنها أي عن رأسها "**الخمار**"؛ وهو ما يخمر أي يغطي الرأس "**لتدري**" أي لكي تعلم علم اليقين "**أهو**" أي هذا الذي عرض له صلى الله عليه وسلم "**الوحي**" أي حامله وأمينه الذي كان يأتي الأنبياء قبله. "**أم**" معادلة الهمزة المطلوب بهما التعيين "**هو الإغماء**" الذي هو من بعض الأمراض العادية، ومن ثم جاز على الأنبياء دون الجنون. "**فاختفى عند كشفها الرأس**" مفعول كشف المضاف إلى فاعله "**جبريل فما عاد أو أعيد الغطاء**" أي فما عاد جبريل إلى أن أعادت غطاء رأسها، وقد اعترض ابن حجر على المؤلف تعبيره بالماضي بعد أو الغائية لأنها مختصة بالمضارع. "**فاستبانت خديجة**" أي ظهر لها أتم ظهور لأنها علمت من ابن عمها ورقة، ومن غيره أن جبريل لا يأتي محلا فيه امرأة مكشوفة الرأس "**أنه**" أي: النبي صلى الله عليه وسلم والذي طلبت الوقوف على عين

اليقين فيه. "**الكنز**": أي الشيء النفيس الذي لا أنفس منه "**الذي حاولته**" أي أرادت حيازته والظفر به وأنه "**الكيمياء**" أي العلم البديع الذي يقلب الأعيان الردية إلى الأعيان النفيسة، واستعار الكنز وهو المال المدفون. والكيمياء وهو الإكسير إلى الوحي لأنه به تحصل الذخائر النفيسة المنتفع بها حالا ومآلا، كما أن الوحي كذلك. وأيضا هما لا يظفر بهما إلا الفرد النادر، كما أن الوحي لا يظفر به إلا أكمل البشر وهم في غاية الندرة والقلة بالنسبة لبقية الناس. وكانت بعثته صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنة، وقيل: بعثه الله يوم الاثنين، كما في خبر مسلم، لسبع عشرة من رمضان، وقيل: في رجب. بعثه الله رحمة للعالمين، ورسولا إلى كافة الناس أجمعين. أخرج البخاري وغيره أن أول ما بديء به صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وكان يأتي حِراء فيتعبد فيه الليالي الكثيرة ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى مجيئه الحق، أي: جاءه جبريل وهو بغار حِراء، فقال له: اِقرأْ، قال: ما أنا بقارئ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان أميا. فغطَّه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. فغطَّه ثم أرسله كذلك، وقال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ، فغطه ثم أرسله كذلك. وحكمة الغطِّ وتكريره مزيد التأهل إلى لقاء الملك، ولتسري فيه حالة الملك لما بين البشرية والملكية من التباين. ثم قال اقرأ بسم ربك حتى بلغ ما لم يعلم. فرجع بها صلى الله عليه وسلم ترجف فؤاده ثم دخل على خديجة فقال زملوني زملوني، فزملوه صلى الله عليه وسلم حتى ذهب عنه الروع. والتزميل التغطية بالثياب كحال المحموم. ثم قال لخديجة ما لي؟ وأخبرها الخبر، فقال: يا خديجة، لقد خشيت على نفسي، فقالت: كلا. أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة، وكان شيخا كبيرا قد عمي، وكان ممن تنصر في الجاهلية وعرف الإنجيل. فقالت له: اسمع من ابن أخيك، فأخبره صلى الله عليه وسلم ما رءا، فقال: هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا أي شابا لأُبالغ في نصرتك إذ يخرجك قومك. فقال أو مخرجي هم؟ قال: نعم. لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم

لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي حتى حزن صلى الله عليه وسلم حتى كان يأتي إلى شواهق الجبال ليرمي نفسه فيتبدى له جبريل ويقول: يا محمد، إنك لرسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه. انتهى. وحكمة فترة الوحي ذهاب الروع الذي وجده صلى الله عليه وسلم ومزيد تهييجه إلى الاشتياق للعود.

*** ثم أنزلت سورة والضحى ثم تتابع الوحي ونهض صلى الله عليه وسلم في تبليغ رسالة ربه جاهدا محتسبا كما قال المصنف:**

57 **ثـم قَـام النبـي يَدْعـو إلـى اللـ ـــهِ وفـي الكُفـر نجْـدة وإبـاءُ**

58 **أُمَمًـا أُشْـربتْ قلـوبُهم الكفـ ـــرَ فـداءُ الـضلالِ فـيهمْ عَـياءُ**

لما أمر الله جل جلاله سيدنا صلى الله عليه وسلم بإنذار العباد ودعائهم إليه سبحانه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۞ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۞ ﴾، وقوله: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۞ ﴾ [الشعراء: 214] قام ونهض صلى الله عليه وسلم يدعوا إلى عبادة الله وتوحيده وترك ما هم عليه من عبادة الأصنام. فأول ما فرض الله عليه صلى الله عليه وسلم الإنذار والدعاء إلى التوحيد - ثم فرض الله عليه من قيام الليل ما ذكره في سورة المزمل، ثم نسخه كما في آخرها. قيل نسخه بإيجاب الصلوات الخمس ليلة الإسراء بمكة. قاله النووي وفيه نظر لقوله في الناسخ: وآخرون يقاتلون ولم يكن بمكة قتال. قال في فتح الباري: كان صلى الله عليه وسلم قبل الإسراء يصلي قطعا وكذلك الصحابة لكن اختلف هل فرض قبل الخمس صلاة أو لا؟ فقيل: إنه فرض صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، لقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: 130] وروي أن جبريل بدا له صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وأطيب رائحة فقال يا محمد، إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: إنك رسول الجن والإنس فادعهم إلى قول لا إله إلا الله. ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين فتوضأ منها جبريل، ثم أمره أن يتوضأ وقام جبريل فصلى، وأمره أن يصلي معه، فعلمه الوضوء والصلاة ثم عرج إلى السماء ورجع صلى الله عليه وسلم لا يمر بحجر ولا

شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله، حتى أتى خديجة فأخبرها فغشي عليها من الفرح ثم أمرها وتوضأت وصلى بها كما صلى به جبريل، فكان ذلك أول فرضها ركعتين. الحديث. وذكره في الاكتفاء ولم يذكر فغشي عليها والله أعلم. قوله "**ثم قام النبي يدعوا إلى الله**" أي حين أكرمه الله تعالى بالرسالة قام ونهض يدعوا الخلق إلى الله ويدلهم عليه، "**وفي الكفر نجدة**" أي قوة تامة وتحزب عليه "**وإباء**" أي امتناع من رسول الله صلى الله عليه وسلم والإيمان به. و"**أمما**" مفعول يدعوا أي جماعات وهم أمة الدعوى "**أشربت**" بالبناء للمفعول نعت لأمم "**قلوبهم الكفر**" أي اختلط فيها وتمكن منها حتى صارت لا تقبل غيره ولا تلتفت إليه لامتزاجها به امتزاج المشروب لها، فاستعار لفظ أُشرب للمخالطة وشدة الممازجة وحينئذ "**فداء الضلال**" الذي استقر فيهم أي مرضه داء "**عياء**" أي أعيا الأطباء مداواته وحصول الشفاء. ولما قام صلى الله عليه وسلم يدعوا إلى الإسلام دخل في الإسلام رجال ونساء حتى كمل السابقون الأولون. وأولهم على الإطلاق خديجة، ثم من الرجال أبو بكر، ومن الصبيان علي، ومن الموالي زيد. ومن الأرقاء بلال. وروي أن ورقة أسلم فيكون أولا. ولما أسلم أبو بكر وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتون إليه ويألفونه لعلمه وتجارته وحسن مجالسته. فجعل يدعوا إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه. فأسلم بدعائه عثمان ابن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد ابن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا وصلوا. وكان صلى الله عليه وسلم يقول: <<ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كان منه تردد ونظر، إلا ما كان من أبي بكر ما عكم عنه حين ذكرته له>>. فهؤلاء النفر الذين سابقوا إلى الإسلام. ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخوه قدامة، وعبد الله ابنا مظعون، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وامرأته فاطمة بنت عمه الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وعائشة أختها وهي صغيرة، وخباب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص، أخو سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن

مسعود، وجماعة سوى هؤلاء. ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشى ذكر الإسلام بمكة، وكان صلى الله عليه وسلم مخفيا أمره إلى أن امره الله بإظهار أمره بقوله ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ [الحجر: 94] قالوا وكان ذلك بعد النبوة بثلاث سنين ولم يبعد منه قومه ولا ردوا عليه حتى عاب آلهتهم سنة أربع من النبوة فأجمعوا على عداوته إلا من عصمه الله بالإسلام، أو صدق المحبة كأبي طالب، فإنه حدب عليه ومنعه وقام دونه فاشتد الأمر وتضارب القوم وتآمرت قريش على من أسلم منهم يعذبونهم، ومنع الله رسوله بعمه أبي طالب وبني هاشم، غير أبي لهب فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف على الناس في منازلهم يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأبو لهب وراءه يحذر منه، ورموه بالسحر والكهانة والشعر والجنون. وكان بعضهم يحثواه بالتراب، ووطئ عقبة بن أبي معيط عنقه وهو ساجد عند باب الكعبة، وخنقوه خنقا شديدا فقام أبو بكر يمنعه منهم. ثم أسلم حمزة رضي الله عنه سنة ست من النبوة فعزّ به وكفت قريش عنه قليلا. وسألوه أن يملكوه عليهم ويبذلوا له من الأموال ما شاء ويترك ما هو فيه، فأبى. وقال: أصبر على أمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم. وفي سنة خمس أذن الله لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة فكان أولهم عثمان مع زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأسلم عمر رضي الله عنه بعد حمزة بثلاثة أيام فعز رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعت قريش على قتله صلى الله عليه وسلم، فبلغ ذلك أبا طالب فجمع بني هاشم والمطلب فأدخلوه صلى الله عليه وسلم شعبهم ومنعوه، فبقوا في الشعب سنتين أو ثلاثا حتى كان من أمر الصحيفة ما كان. وسيتكلم المؤلف على قضية الصحيفة بعد إن شاء الله. ومن أراد ذلك مطولا فليطالع كتب السيرة، وبالله التوفيق.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

59 **ورأيـــنا آياتـــه فاهتديـــنا   وإذا الحـقُّ جـاء زال المِـراءُ**

هذا من التحدث بالنعم وهو نوع من الشكر عليها. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ [الضحى: 11]. ومن أجل النعم وأعظمها الهداية إلى الإسلام،

فلذلك قال "**ورأينا**" أي أبصرنا أو علمنا. "**آيات**" الله الدالة على صدقه من خوارق العادات الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وهي لا تحصى. ومن أعظمها القرآن العظيم "**فاهتدينا**" إلى الإيمان به والاتباع له فضلا من الله ونعمة. "**وإذا الحق جاء**" زهق الباطل. وإليه أشار بقوله "**زال المراء**"، أي الضلال والجدال فيه، وفيه التعريض بكفار قريش حيث لم يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم مع ما شاهدوه من كماله الأعظم خلقا وخلقا وعلما وسيرة وبالله التوفيق.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

60 **ربِّ إنَّ الهُــدى هُــداك وآيَــا ... تُــك نـورٌ تهـدي بهـا مـن تـشاءُ**

ما قاله في غاية الوضوح لا يحتاج إلى بيان، إما لكون الهدى هدى الله فقد قال تعالى في كتابه المبين: ﴿ **قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ** ﴾ [آل عمران: 73]. وقال تعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ** ﴾ [الأنعام: 125]. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ [القصص: 56]. الآية. إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى. وأما كون الآيات نور فقد قال تعالى:﴿ **قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ** ﴾ [المائدة: 15]. وقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾** ﴾ [النساء: 174]. وكلام المصنف واضح.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

61 **كـم رأينا ما ليس يَعقِلُ قد أُلْـ ... ـهِــمَ مـا لـيْس يُـلْهمُ العُقـلاءُ**

هذا كالدليل له على ما قبله، يعني أن الهداية بيد الله لا تنال بعقل ولا رأي ولا تدبير بل هي بيد من هو على كل شيء قدير. كم رأينا كثيرا ما رأينا ما ليس يعقل من الحيوانات والجمادات قد ألهم من الصواب، والحق ما ليس يلهم العقلاء مثله. فقد كانت الحيوانات والجمادات تفصح برسالته صلى الله عليه وسلم وتشتاق إليه كقضية الظبي وحنين الجذع واهتزاز الجبل وغير ذلك، وكثير من دواهي العقلاء لو يوفقوا

لذلك.

*** ثم استشهد بقضية الفيل مع صاحبه فقال:**

62 **إذْ أبَى الفيلُ ما أتَى صاحبُ الفِيـ ـلِ ولـمْ يـنْفعِ الحِجَا والـذَّكاءُ**

أي ذكر قضية الفيل حيث "**أبى**" امتنع من أن يفعل ما أتى إليه "**صاحب الفيل**" من هدم بيت الله الحرام وهو أبرهة ملك صنعاء "**ولم ينفعه الحجا**" أي العقل الوافر ولا "**الذكاء**" الذي اتصف به فلم يوفق لما وفق له الفيل مع وضوح فرق ما بينهما من الذكاء والعقل، فعلم أن الهداية والضلال ليس إلا بتوفيق الله وهدايته وخذلانه وعدم رعايته، وبسط هذه القصة: أن أبرهة وهو صاحب الفيل كان ملك اليمن من قبل النجاشي، فبنى كنيسة بصنعاء وكتب إلى النجاشي قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، وأريد صرف حج العرب إليها. فجاء رجل من بني كنانة فأحدث فيها ثم لحق بأرضه، فأخبر بذلك أبرهة فقال من صنع هذا فقيل له رجل من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب لما سمع قولك، أصرف إليها حج العرب، أي: أنها ليست لذلك بأهل، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه. ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج إليه رجل كان من أشراف اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريد من هدمه. فأجابه من أجابه إلى ذلك. ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر فأتي به أسيرا، فلما أراد قتله قال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني، فإني عسى أن يكون بقائي خيرا لك من قتلي، وكان أبرهة حليما فتركه وحبسه عنده في وثاق ثم مضى أبرهة على وجهه ذالك يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتين خثعم وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيرا فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم شهران وناهس بالسمع والطاعة، فخلى سبيله وخرج به معه يدله

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك الثقفي في رجال ثقيف فقالوا له أيها الملك إنما نحن عبيدك ساعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف وليس بيننا هذا البيت الذي تريد يعنون اللات إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة. فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنوله المغمس، فلما أنزله به مات أبو رغال هناك فرجمت قبره العرب. فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا ألا طاقة لهم به، فتركوا ذلك. وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم. ثم قال له إن الملك يقول لك إني لم آت لحربكم، إني إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حربي فائتني به. فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك طاقة. هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمته، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال له حناطة فانطلق إليه فقد أمرني أن آتيه بك. فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى المعسكر فسأل عن ذي نفر وكان له صديقا حتى دخل عليه في محبسه. فقال له يا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا. فقال له ذو نفر وما غناء رجل أسير عند ملك ينتظر أن يقتله غدوا أو عشيا، ما عندي غناء إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لي، فسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسئله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك. قال حسبي فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عير مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده ما استطعت. قال أفعل، فكلم أنيس أبرهة قال له أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك فأْذن له فيكلمك في حاجته، ووصفه له

بما وصفه ذو نفر لأنيس. فأذن له أبرهة وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجمله وأعظمه، فلما رءاه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه. فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه. ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان فقال حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه قل له كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك. فقد جئت لهدمه ولا تكلمني فيه. قال عبد المطلب إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه. قال ما كان ليمتنع مني. قال أنت وذاك. ويزعم بعض أهل العلم أنه كان ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة يعمر بن نفاثة وهو يومئذ سيد بني بكر، وخويلد بن وائلة الهذلي، وهو يومئذ سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت. فأبى عليهم فالله أعلم أكان ذلك أم لا. فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له. فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شغف الجبال والشعب تخوفا عليهم من معرة الجيش، فلما أرادوا الخروج قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنوده. فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة: اللهم إن العبد يمنع رحله، فامنع حِلالَك لا يغلبنَّ صليبُهم ومَحالُهم عدْوا مَحَالك. ثم أرسل حلقة الباب وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعب الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبأ جيشه وكان اسم الفيل محمودا وأبرهة مجمع على هدم البيت والانصراف إلى اليمن، فلما وجهوا الفيل إلى مكة قام نفيل بن حبيب إلى الفيل ثم أخذ بأذنه فقال ابرك محمودًا وارجع راشدًا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أنه فبرك الفيل وخرج نفيل يشتد حتى صعد في الجبل وضربوا الفيل ليقوم فأبى وضربوه في رأسه بالطّبرزين ليقوم فأبى فأدخلوا محاجن لهم في مراقد فيزغوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف

والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها، حجر في منقره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب أحدا منهم إلا هلك. وليس كلهم أصابت وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا ويسئلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن فقال نفيل حين رءا ما أنزل الله بهم من نقمته

أيـــن المفـــر والإلـــه الطالـــب والأشـــرم المغلـــوب لـــيس الغالـــب

وقال أيضا في أبيات:

حمـــدت الله إذ أبـــصرت طيـــرا وخفـــت حجـــارة تلقـــى علينـــا

فكـــل القـــوم يـــسئل عـــن نفـــيل كـــأن علـــي للحبـــشان ديـــنا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها مدة تَمُث قيحا ودما حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون. ويقال إنه أول ما رئي بها الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام وأنه أول ما رئي بها قرائر الشجر والحرمل والحنظل ذلك العام . فلما بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم كان مما يعد لله على قريش من نعمة عليهم وفضله ما رده عليهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم. فقال تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ ﴾ السورة. وقالت عائشة رضي الله عنها: لقد لقيت سائس الفيل وقائده بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. قال ابن إسحاق: فلما رد الله الحبشة عن مكة وأصابهم ما أصابهم من النقمة أعظمت العرب قريشا وقالوا هم أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم. فقالوا في ذلك أشعارا يذكرون ما صنع الله بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم تركناها مخافة التطويل وذكرها ابن إسحاق والكلاعي وغيرهما.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

63 **والجمـاداتُ أَفْصحتْ بالذي أُخْـ ـــرِسَ عـنْهُ لأحْمـدَ الفُـصحاءُ**

لا شك أن "**الجمادات**" التي لا عقل لها ولا روح فيها "**أفصحت**" ونطقت برسالة سيدنا صلى الله عليه وسلم ونبوته التي أنكرها وأعرض عنها من سبقت له الشقاوة من كثير من العقلاء. فمن ذلك الحجر الذي كان يسلم عليه صلى الله عليه وسلم بمكة. قال صلى الله عليه وسلم: <<إني لأعرف حجرًا كان يسلم علي قبل النبوة>>. قيل هو الحجر الأسود وقيل غيره. وعن علي رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فما استقبلنا حجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله. وصح أنه صلى الله عليه وسلم طلب رجلا للإيمان فقال هل من شاهد. فقال: <<هذه الشجرة>> فدعاها صلى الله عليه وسلم وهي على شاطئ الوادي فأقبلت وهي تخد الأرض أي تشقها شقا. فقامت بين يديه فاستشهدها ثلاثا فشهدت، ثم رجعت إلى منبتها. وفي رواية فقال له قل لتلك الشجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك فمالت عن يمينها وشمالها ومن بين يديها ومن خلفها فتقطعت عروقها فجاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يديه صلى الله عليه وسلم فقالت: السلام عليك يا رسول الله. فقال الأعرابي مرها فلترجع إلى منبتها فرجعت فدلت عروقها في ذلك الموضع فاستقرت. فقال الأعرابي إيذن لي أن أسجد لك. فقال صلى الله عليه وسلم: << لو كنت آمرُ أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها>>. انتهى. ومن هذا المعنى اهتزاز جبل أحد فقال له صلى الله عليه وسلم: <<أسكن فإنما عليك نبي وصديق وشهيد>>. ومن ذلك أيضا تسبيح الحصى في يديه ويدي صاحبيه، وتسبيح الطعام. ومن ذلك أيضا حنين الجذع، فقد أفصحت هذه الجمادات بالأمر "**الذي أخرس**" العرب من قريش وغيرهم مع كونهم أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة، امتنعت ألسنتهم من النطق له صلى الله عليه وسلم بالإيمان والشهادة بالرسالة. ويشهد له بذلك الجمادات الصم بأفصح لسان وأبلغ بيان. واختلف في كيفية نطق هذه الجمادات، فقيل خلق الله فيها حياة وعقلا حتى عرفت ما نطقت، ويدل عليه حنين الجذع فقد خلق الله فيه حياة وشوقا حتى حنَّ وأنَّ، فنزل صلى الله عليه وسلم والتزمه. ومذهب الأشعري أن ذلك لا يتوقف على عقل ولا حياة. وما ذكره الشيخ تقرير أيضا لقوله: رب إن الهدى هداك.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

64 **ويح قومٍ جفَوْا نَبِيًّا بأرضٍ　　　أَلِفَتْهُ ضِبابُها والظِّبَاء**

"**ويح**" كلمة ترحم، تقال لمن وقع في مهلكة لا يستحقها. وويل كلمة عذاب، واستشكل استعمال ويح هنا ويجاب بأن الترحم من حيث القرابة التي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم من عموم نسبه وجلدته، والترحم لهم من هذه الحيثية لا محظور فيه، وويح منصوب على المصدرية، وعامله محذوف وجوبا. وقيل على حذف النداء، كقوله تعالى: ﴿ يَـٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ ﴾ [يس: 30] ويجوز رفعه. وقال ابن طاهر: متى أضفت ويح وجب النصب وامتنع الرفع لأنه مبتدأ لا خبر له، ومتى أفردته كقولك ويحا له جاز كل منهما، وكذا ويل، والنصب فيه غير قوي لأنه مصدر لا فعل له بخلاف نحو حمدا وشكرا ومن ثم غلب على ويح الرفع بل قال ابن الربيع: يجب رفعه دون ويل وقوله "**جفوا نبيا**" اجهلوا عليه وآذوه أذى شديدًا حتى عزموا على قتله مرارًا فعصمه الله منهم. وقوله "**ألفته ضبابها**" جمع ضب. "**والظباء**" جمع ظبي ولعل الشيخ أشار إلى قضية معجزة الضب والظبي. أما الضب فأخرج حديثه البيهقي بسند ضعيف وهو أن أعرابيا من بني سليم اصطاد ضبا وجعله في كمه ليذهب به إلى رحله لياكله فلما رءا النبي صلى الله عليه وسلم مع جماعة من أصحابه قال من هذا قالوا هذا نبي الله فأخرج الضب من كمه وقال واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب وطرحه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا ضب فأجابه بلسان مبين يسمعه أناس جميعا لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة، قال: من تعبد؟ قال الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه. قال فمن أنا؟ قال رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك، وخاب من كذبك، فاسلم الأعرابي. الحديث بطوله ذكره في الشفا، والحق أنه ضعيف لا موضوع. وأما قضية الظبي وهي الغزالة. فأخرج حديثها البيهقي في دلائل النبوة، والطبراني وأبو نعيم وعياض في الشفاء وضعفه جماعة من الأئمة، وذكره الحافظ المنذري في الترغيب، وهو عن أم

سلمة قالت : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي في صحراء من الأرض إذ هاتف يهتف يا رسول الله ثلاث، مرات فالتفت فإذ ظبية مشدودة في وثاق. وأعرابي منجدل في شملة نائم في الشمس، فقال: ما حاجتك؟ فقالت صادني هذا الأعرابي ولي خشفان في ذلك الجبل فاطلقني حتى أذهب فأرضعها وأرجع. قال وتفعلين قالت عذبني الله عذاب العشار إن لم أعد فأطلقها فذهبت ورجعت فأوثقها النبي صلى الله عليه وسلم فانتبه الأعرابي وقال يا رسول الله ألك حاجة قال تطلق هذه الظبية فأطلقها فخرجت تعدوا في الصحراء فرحا وهي تضرب برجلها الأرض وتقول أشهد أن لا إله إلا الله وإنك رسول الله. انتهى. فقد ألفت سيدنا صلى الله عليه وسلم بأرض مكة حيوانها وأشجارها وأحجارها وجميع ما خلق الله فيها وجفاه قومه حتى أخرجوه منها، فلذلك تعجب الشيخ وترحم عليهم. فإن قلت ذكر الضب هنا ينافي حديث الترمذي لم يكن بأرض قومه، فالجواب أن في الكلام حذفا أي لم يكن بأرض قومي مما يوكل، يدل عليه قوله فأجدني أعافه والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

65 **وسلَوْهُ وحَنَّ جِذعٌ إلَيْه وقَلَوْهُ وَوَدَّهُ الغُرباءُ**

يعني أن قومه عليه الصلاة والسلام تباعدوا عنه "**وسلوه**" أي نفرت قلوبهم منه وهجروه مع نشأته فيهم وإقرارهم له بغاية النزاهة وكمال النهاية في مكارم الأخلاق، فهو مدخول للترحم في قوله ويح قوم. وقوله: "**وحن جذع إليه**" يعني أن قريشًا مع كونهم من أهل العقل والتمييز جفوا نبيهم مع طول نشأته معهم وإقامته فيهم. والجذع مع كونه جامدا لا عقل له لما وقف معه واستند إليه صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات حين فارقه بكى عليه واشتاق إليه ولم يصبر عليه صلى الله عليه وسلم حتى التزمه وضمه إليه فهو يتعجب منه أيضا. وحديث الجذع مشهور منتشر، وقصته من الأمور الظاهرة التي حملها الخلف عن السلف، والخبر به متواتر. ونقله من الصحابة بضعة عشر رجلا قال جابر بن عبد الله كان المسجد مسقوفا من جذوع نخل فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك

الجذع صوتا كصوت العشار. وفي رواية أنس بن مالك حتى ارتج المسجد لخواره. وفي رواية سهل بن سعد وكثر بكاء الناس لما رأوا بها. وفي رواية أبي بن كعب حتى تصدع وانشق حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت، زاد غيره فقال النبي صلى الله عليه وسلم <<والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة>> تحننا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فدفن تحت المنبر.انتهى. وقوله "**وقلوه**" أي أبغضوه "**ووده**" أحبه "**الغرباء**". والمراد بهم الأنصار وهم الأوس والخزرج، لأنهم ليسوا من قومه ولا عشيرته ولا عرفوا ما عرفته قريش من كماله. وسبب إكرامهم الله تعالى بهذه الكرامة بعدما سبق لهم في الأزل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل كما كان يصنع في كل موسم، فلقي بعض الخزرج عند العقبة فقال من أنتم؟ قالوا نحن الخزرج، فقال: ألا تجلسون حتى أكلمكم، فجلسوا فدعاهم إلى الإسلام وتلى عليهم القرآن وما كان عندهم علم منه، فعرفوا نعته لأن اليهود كانوا يقولون أن نبيا يبعث الآن نتبعه نقتلكم معه فأجابوه لئلَّا تسبقهم اليهود إليه وأسلم منهم ستة نفر فقال لهم: تمنعون ظهري حتى أبلغ رسالة ربي، فقالوا: ندعوا قومنا إلى ما دعوتنا إليه فإن أجابوا فلا أحد أعز منك وموعدنا موسم العام القابل، فلما وصلوا المدينة لم تبق دار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقيه في العام القابل اثنا عشر رجلا وهذه هي العقبة الثانية فأسلما، وقبلوا ما اشترطه عليهم ثم رجعوا، فأظهر الله الإسلام فيهم، فكان أسعد بن زرارة يجمع بالمدينة بمن أسلم ثم أرسلوا يطلبون من يعلمهم القرآن، فأرسل إليهم مصعب بن عمير فأسلم على يديه جمع كثير منهم سيد الأوس سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، واسلم بإسلامهم جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد رجالهم ونسائهم إلا واحدا أسلم يوم أحد. ثم قدم في العام القابل في الموسم نحو ستين راكبا وهي العقبة الثالثة فبايعهم على أنهم يمنعونه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وعلى حرب الأحمر والأسود، وحضر العباس هذه المبايعة فأكد عليهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أمر صلى الله عليه وسلم من بقي معه بالهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالا وبقي صلى الله عليه وسلم ينتظر الإذن في الهجرة فاستأذنه أبو بكر

فقال لا تفعل لعل الله أن يجعل لك صاحبا، فطمع أبو بكر أن يهاجر معه صلى الله عليه وسلم ولما بلغ قريشا أنه صلى الله عليه وسلم بويع وظهر أمره بالمدينة وأنه يريد اللحاق بهم تشاوروا في قتله بدار الندوة وحضرهم إبليس في صورة شيخ فقالوا له: من أنت؟ فقال: شيخ من نجد بلغني أنكم تريدون أن تدبروا أمرا فلعلكم لا تعدمون مني رأيا. فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن تبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيا فتشاوروا، ثم قال قائل: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب غيره من الشعراء وما مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدي لا والله ما هذا برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب إلى أصحابه فلأوْشَكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم فيغلبوكم على أمره ما هذا برأي، ثم قال قائل منهم نخرجه من بين أظهرنا ننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع وفرغنا منه وأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. قال الشيخ النجدي لا والله ما هذا برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته قلوب الرجال، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يجعل على حي من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك حتى يتابعوه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيا غير هذا، فقال أبو جهل والله إن لي لرأيا ما أراكم وقعتم عليه قالوا وما هو يا أبا الحكم؟ قال أرى أن ناخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا وسيطا ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل، فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فرضوا منا بالعقل فعقلناهم فقال الشيخ النجدي القول ما قال الرجل فلا رأي غيره فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وقال له لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رءا رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلي نم على فراشي وتسج بردي هذا الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه، وكان صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك فاجتمعوا له

وفيهم أبو جهل فقال وهم على بابه: إن محمدًا يزعم أنكم إن تبعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم جنا كجنان الأردن وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون بها. وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: نعم، أنا الذي أقول ذلك أنت أحدهم، وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل بنثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلوا يس والقرآن الحكيم إلى يبصرون. ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه التراب ثم انصرف إلى حيث أراد، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدًا قال: خيبكم الله قد والله خرج عليكم محمد ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا وانطلق إلى حاجته، أفترون ما بكم؟ فوضع كل واحد منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ثم رجعلوا يطلعون فيرون عليا على الفراش مُسجّى بُرْد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائما على فراشه فلم يبرحوا حتى أصبحوا فقام علي عن الفراش فقالوا: والله لقد صدقنا ذلك الرجل الذي حدثنا. فكان مما نزل الله من القرآن في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ الآية.

*** فأذن الله تعالى لنبيه عليه السلام في الهجرة، فأشار الشيخ إلى ذلك بقوله:**

66 **أخْـرَجوه مِـنهَا وآواه غَـار ... وحمـتْه حمامـةٌ ورْقَـاءُ**

67 **وكَفَـتْهُ بنـسْجِها عَنْكَـبُوتٌ ... مـا كفَـتْه الحمامـةُ الحـصْداءُ**

68 **واختفى منهم على قربِ مَـرْآ ... ه ومِـن شِـدَّةِ الظُّهـور الخفـاءُ**

يعني أن كفار قريش كانوا سببًا في خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة، التي هي وطنه ومولده ومرباه، ووطن آبائه قبله، بعد ما سبق في علم الله تعالى. وبذلك كان موصوفا في الكتب المتقدمة، ولما أجرى الله تعالى العادة التي من تمام الحكمة، إضافة الأحكام الظاهرة إلى الأسباب العادية، وكان سبب خروجه صلى الله عليه وسلم، باعتبار الظاهر، هو إذاية الكفار له ولأصحابه، وعدم استقامة إظهار الدين. نسب الإخراج إليهم بقوله "**أخرجوه منها**" وكان خروجه بعد العقبة الثالثة بنحو ثلاثة أشهر

يوم الاثنين هلال ربيع الأول أو الخميس الذي يليه. ووصل المدينة ثاني عشر الشهر، وخلف عليا ليؤدي ما عنده من الودائع. قال عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بكرة أو عشية حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله صلى الله عليه وسلم في الهجرة والخروج من مكة، أتانا في الهاجرة في ساعة لا يأتيها فيها. قالت: فلما رءاه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الساعة إلا من حدث. فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<أخْرِج عني مَن عندك>>. فقال: يا نبي الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي. فقال: إن الله قد أذن في الخروج والهجرة. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. فقال: الصحبة، قالت: فوالله ما شعرت قط قبل أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي من الفرح. ثم قال: يا نبي الله إن لي راحلتين قد كنت أعددتهما لهذا، فخذ إحداهما. فقال: بالثمن. أي لتكون الهجرة لا منة لأحد فيها، بل خالصة لله. وكان أبو بكر رجلا ذا مال، فكان حين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فقال له: لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبا. قد طمع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعني نفسه، فابتاع راحلتين فحبسهما في داره يعلفهما إعدادا لذلك، واستأجر عبد الله بن أريقط رجل من بني الديل وكان مشركا يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما. قال بن إسحاق: ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج أحد إلا علي ابن ابي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر. أما علي فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس. ولم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته. فلما أجمع عليه السلام الخروج أتى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار ثور جبل بأسفل مكة، فدخلاه. وأمر أبو بكر عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر. فكان يفعل ذلك. وأمر عامر بن فهيره مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها

عليهما إذا أمسى. فكان عامر يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما فاحتلبا وذبحا، فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة تبع عامر أثره بالغنم حتى يعفي عليه. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام ما يصلحهما. وذكر ابن هشام عن الحسن بن أبي الحسن قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الغار ليلا، فدخل أبو بكر قبله، فلمس الغار أفيه سبع أو حية، يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه. انتهى. وإلى هذه أشار بقوله: "**أخرجوه منها وآواه غار**" ولما فقدت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة يتبعون أثره في كل وجه، فوجد الذي ذهب قبل ثور أثره هناك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع له لما انتهى إلى ثور. وشق على قريش خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجزعوا لذلك، فطفقوا يطلبونه بأنفسهم فيما قرب منهم، ويرسلون من يطلبه فيما بعد عنهم، وجعلوا مائة ناقة لمن رده عليهم. ولما انتهوا إلى فم الغار وقد كانت العنكبوت ضربت على بابه بعشاش بعضها على بعض بعد أن دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكروا. قال قائل منهم: ادخلوا الغار. فقال أمية بن خلف: وما أربكم إلى الغار أن عليه لعنكبوت أقدم من ميلاد محمد. فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل العنكبوت. وقال إنها جند من جنود الله. وخرج أبو بكر البزار في مسنده من حديث أبي صعصعة المكي قال: أدركت زيد بن أبي أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يحدثون أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة بات في الغار، أمر الله تبارك وتعالى شجرة فنبتت في وجه الغار وسترت وجه النبي صلى الله عليه وسلم. وأمر الله العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأمر الله عز وجل حمامتين فوقفتا بفم الغار. وأتى المشركون من كل وجه حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعا معهم قسيهم وعصيهم، تقدم رجل منهم فنظر فرءا الحمامتين فرجع فقال لأصحابه: ليس في الغار شيء، رأيت حمامتين على فم الغار، فعرفت أن ليس فيها أحد. فسمع قوله النبي صلى الله عليه وسلم فعرف أن الله قد درأ بهما عنه فشمت عليهما وفرض جزاءهما واتخذت في حرم الله ففرخن أحسبه قال فأصل كل حمامة في الحرم فراخهما، والى هذا أشار بقوله "**وحمته حمامة ورقاء**" وهي ما في لونها بياض يخالطه سواد. وأشار

إلى حديث البزار المتقدم بقوله: "**وكفته بنسجها عنكبوت**" وهو يقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى "**ما**" أي: الأمر الذي "**كفته**" منه "**الحمامة الحصداء**" أي الكثيرة الريش. أخذه من قولهم شجرة حصداء، أي كثيرة الورق، فاستعاره للحمامة لكثرة ريشها. ووصف الحمامة بورقاء وحصداء لاجتماعهما فيها. والممتنع إنما هو الوصف بمتضادين أو المتماثلين. وروي أن الحمامتين باضتا في أسفل النقب ونسج العنكبوت على أعلاه. فقالوا لو دخلنا لتكسر البيض وتفسخ نسج العنكبوت. قال الأئمة: وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود.وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: اللهم أعم أبصارهم. فعميت عن دخوله، وجعلوا يضربون يمينا وشمالا حول الغار لظنهم أنالحمام لا يحول حوله وأن العنكبوت لا ينسج عليه:

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على   خير البرية لم تنسج ولم تحم

وقاية الله أغنت من مضاعفة   من الذروع وعن عال من الأطم

وصح أن أبا بكر قال: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرءانا. فقال صلى الله عليه وسلم: ما ظنك باثنين الله ثالثهما. وقد أخبر الله تعالى بنصرهما في ذلك الموضع فقال: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: 40] إلى قوله:﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: 40] أي هو غني عن نصركم بنصري إياه. "**واختفى**" صلى الله عليه وسلم، أي استتر "**منهم على**" أي مع "**قرب مرءاه**"، أي محل رؤيته. وفي ذكر الناظم لهذا تعجيب السامع وبيان لهذه المعجزة العظيمة في كونه خفي عنهم مع ظهوره لهم، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآه، وإنما خفي عنهم مع شدة قربه منهم وظهوره لهم، لأن من "**شدة الظهور الخفاء**"، أي قد يبلغ الشيئ من شدة الظهور والوضوح إلى أن يصير خفيا، كوجود البارئ سبحانه، فإنه من شدة ظهور أمره خفي على بعض العقول والأوهام. قال بعضهم: من المعلوم أن شدة قرب المرئي من العين يوجب عدم إدراكه. وكلام الشيخ هنا على طريق المبالغة كما هو عادة الشعراء. وقال ابن حجر: أنه من باب التورية. فمراده بالظهور الغلبة والمعونة، وهو المعنى البعيد، ومقابلته بالخفاء يوهم أنه المعنى الغريب الذي هو الحسي. والتورية أن يكون للافظ معنيان بالاشتراك

أو التواطيء أو الحقيقة والمجاز، أحدهما بعيد والآخر قريب فيقصد البعيد ويوري عنه بالقريب فيتوهمه السامع من أول وهلة، وهو هنا ضد الخفاء الموهم له حتى قال الزمخشري: لا أرى بابا أرق ولا ألطف من التورية. ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات في كلام الله ورسوله نحو: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ ﴾ أريد من الاستواء معناه البعيد الذي هو الاستيلاء دون القريب الذي هو الاستقرار في المكان الذي هو مستحيل على الله تعالى. انتهى. ملخصا. وقد أطال في ذلك، يعني ابن حجر. والذي يظهر أن الشيخ لم يقصد التورية وإنما هو على طريق المبالغة في الكلام، والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

69 **ونَحَا المُصطفى المدينةَ واشْتا قَتْ إليهِ مِنْ مكَّةَ الأنْحاءُ**

ولما أذن الله تعالى سيدنا صلى الله عليه وسلم في الهجرة تنحى وانتقل إلى المدينة لتكتسب الشرف التام، فلذلك أشار بقوله "**ونحا المصطفى**" أي قصد "**المدينة**" المسماة بطيبة، لأن الله تعالى طيبها بهجرته إليها "**واشتاقت إليه**" صلى الله عليه وسلم "**من مكة**" التي هي مولده صلى الله عليه وسلم وأم القرى. "**الأنحاء**" أي الجهات والنواحي، لأنها كانت معمورة بأنفاسه صلى الله عليه وسلم، فاستوحشت لفقده ولا بعد في اشتياقها إليه حقيقة، كما اشتاق إليه الجذع وحن إليه، وكما انحنا عليه الشجر، وسلم عليه الحجر. ولا يتوقف ذلك على عقل ولا حياة. ولذلك قال بعض المحققين: أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الجمادات لتصريح خبر مسلم بذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: أرسلت إلى الخلق كافة. وقد وقعت في هجرته صلى الله عليه وسلم معجزات وخوارق، فمن ذلك أنه مر على خيمتي أم معبد وكانت امرأة برزة جليدة تحتبي بفناء القبة ثم تسقي وتطعم، فسألوها لحما وتمرا ليشتروه منها فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك. وكان القوم مرملين مسنتين. فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر الخيمة فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ فقالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. قال: هل لها من لبن ؟ قالت: هي أجهد من ذلك. قال: أتأذنين أن

أحلبها ؟ قالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبا فاحلبها. فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيديه ضرعها وسمى الله ودعا لها في شاتها فتفاجت عليه ودرت ودعا بإناء يربض الرهط، فحلب فيه ثجا حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم، ثم أراضوا ثم حلب ثانيا بعد بدء حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا عنها. فقل ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق عنزا عجافا يشاركهن هزلا فلما راى أبو معبد اللبن عجب وقال: من اين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاء عازب حيال ولا حلوب في البيت؟ فقالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا، قال: صفيه لي يا أم معبد، قالت: رأيت رجلا ظاهرا الوضاءة أبلج الوجه حسن الخلق لم يعبه نحله، ولم يزر به صقله، وسيم نسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره غطف، وفي عنقه سطح، وفي صوته صحل، ووفي لحيته كثاثة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأهيبه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هدر، كأن منطقه خرزات نظمن ينحدرن، ربعة لا يباين من طول ولا تقحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن قال تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند. قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة. ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا. وقال قيس بن النعمان: لما انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يستخفيان في الغار، فمر بعبد يرعى غنما فاستسقياه من اللبن، فقال والله ما لي شاة تحلب غير أن ها هنا عناقا حملت أول الشتاء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إيتنا بها، فدعا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة، ثم حلب عسا، فسقى أبا بكر، ثم حلب آخر فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال العبد: من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك قط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتراك إن حدثتك تكتم علي؟ قال: نعم. قال: فإني رسول الله. قال: أنت الذي تزعم قريش أنك صابئ. قال: إنهم ليقولون ذلك. قال العبد: فإني أشهد أنك رسول الله، وإن ما جئت به الحق، وإنه ليس يفعل فعلك إلا نبي. ثم قال العبد: أتبعك.

قال: لا، حتى تسمع بنا قد ظهرنا. انتهى.

ومن المعجزات التي وقعت في طريقه أيضا صلى الله عليه وسلم، قضية سراقة بن مالك بن جعشم، وستأتي إن شاء الله قريبا. وذكر ابن إسحاق الطريق التي سلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي بكر الصديق رضي الله عنه، دليلهما عبد الله بن أريقط والمناقيل التي سار بهما عليها إلى أن قدم بهما قباء على بني عمر بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول يوم الاثنين حين اشتدت الضحى وكادت الشمس تعتدل. وقال غير ابن إسحاق قدمها لثمان خلون من ربيع الأول. قال ابن الكلبي: خرج من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول، ودخل المدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة منه. فالله تعالى اعلم. انتهى. وذكر ابن إسحاق من حديث عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة قال: حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة توكفْنا قدومه، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظره، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلا دخلنا وذلك في أيام حارة، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا. وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت، فكان أول من رءاه رجل من يهود وقد رءا ما كنا نصنع، وإنا ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا جدكم قد جاء، فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رءا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك، وركبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك. قال ابن إسحاق: فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على كلثوم بن الهدم أخي بني عمر بن عوف. ويقال نزل على سعد بن خيثمة. ويقول من يذكر نزوله على كلثوم: أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من منزل كلثوم جلس للناس في بيت سعد، لأنه كان عزبا لا أهل له. فمن هنالك يقال: نزل عليه، وكان يقال لبيت سعد بيت العزاب، لأنه كان منزل المهاجرين. ونزل أبو بكر على خبيب بن إساف بالسنح. ويقال على خارجة بن زيد بن

أبي زهير منهم. وأقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل معه بقباء. قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم ثم أخرجه الله تبارك وتعالى من بين أظهرهم يوم الجمعة، وبنو عمر بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك، فالله أعلم. فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة في بني سالم بن عوف فصلا معا في المسجد الذي في بطن الوادي، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة. فأتاه عتبان بن مالك في رجال من بني سالم فقالوا: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة. قال: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة، لناقته، فخلوها حتى إذا وازت دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمر في رجال من بني بياضة فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا في العدد والعدة والمنعة، قال: خلوا سبيلها، حتى إذا مرت بدار بني عدة اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمر في رجال منهم فقالوا: يا رسول الله، هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة. قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة. فخلوا سبيلها حتى إذا وازت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وخارجة ابن زيد وعبد الله بن رواحة في رجال من بلحارث، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة. قال: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة. حتى إذا مرت بدار عدي بن النجار وهم أخواله دنيا اعترضه سليط وأبو سليط في رجال منهم فقالوا: يا رسول الله هلم إلى إخوالك إلى العدد والعدة والمنعة. قال: خلوا سبيلها، حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار، بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم، وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار في حجر معاذ ابن عفراء، فلما بركت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل، وثبت وسارت غير بعيد ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت ورجعت إلى مبركها الأول فبركت فيه ثم تحلحلت ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاحتمل أبو أيوب رحله فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بنى مسجده ومساكنه. وسال عن المربد لمن هو. فقال له معاذ بن عفرا: هو يا رسول الله لسهل وسهيل،

وسأرضيهما منه، فاتخذه مسجدا. فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى، فبني. وحدث أبو أيوب قال: لما نزل علي رسول الله صلى الله عليه سلم في بيتي، نزل في أسفل، وأنا وأم أيوب في العلو. فقلت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، فاظهر أنت فكن أنت في العلو وننزل نحن فنكون في السفل. فقال: يا أبا أيوب، أن ارفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في أسفل البيت. فلقد انكسر قب لنا فيه ماء فنمت أنا وأم أيوب بقطيفة ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه. فكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه فإذا رد علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا ليلة بعشائه وقد جعلنا له في بصلا أو ثوما فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر ليده فيه أثرا، فجئته فزعا فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك نبتغي بذلك البركة. فقال: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي.وأما أنتما فكلوه، فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد. انتهى.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

70 **وتغـنَّت بِمدْحـهِ الجِـنُّ حَتَّـى　　　أطـرب الإنـس مـنه ذاك الغـناء**

ولما فارق سيدنا صلى الله عليه وسلم مكة وانقطع خبره عن أهلها، "**تغنت**" الجن بأشعار يمدحون فيها سيدنا صلى الله عليه وسلم يسمع صوته ولا يرى شخصه، فتعجب من ذلك الناس، ففرح بذلك من سمعه من المؤمنين، وحزن بذلك الكافرون، وهذا معنى الشيخ "**حتى أطرب الإنس**" إلخ فالطرب خفة تعتري الإنسان من الفرح أو الحزن. والتقدير وتغنت بمدحه صلى الله عليه وسلم الجن حتى أطرب "**ذاك الغناء**" الناشئ منه الإنس. قالت أسماء رضي الله عنها: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر. فقلت: لا أدري والله. فرفع أبو جهل يده وكان فاحشا خبيثا فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي ثم انصرفوا. فمكثت ثلاث ليال ما ندري أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب

وأن الناس يتبعونه يسمعون صوته ولا يرونه حتى خرج من أعلا مكة وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهني بني كعب مكان قباتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا اختكم عن شاتها وانائها ... فإنكم إن تسئلوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حامل فتحلبت ... له بصريح صرة الشاة مزبد
فغادرها رهجا لديها بحالب ... يرددها في مصدر ثم مورد

قالت أسماء: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن وجهه إلى المدينة. ولما سمع حسان بن ثابت هذه الأبيات جعل يجاوب الهاتف ويقول:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم ... وقدس من يسري إليهم ويغتدي
ترجل عن قوم فضلت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم ... وأرشدَهم من يتبع الحق يُرشد
وهل يستوي ضلال قوم تسكعوا ... عمى وهداة يهتدون بمهتد
لقد نزلت منه على أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلوا كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى غد
ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد

نسأل الله سبحانه أن يسعدنا بشفاعته الخاصة، وأن يجعلنا من أهل محبته التامة، وأن يختم لنا بخاتمة السعادة، بحق ما له عنده من الجاه المكانة صلى الله عليه وسلم.

*** ثم قال الشيخ رضي الله عنه:**

71 **واقْتَفى إِثْره سُراقةُ فاستهْـ ... ـوتْه في الأرض صافنٌ جرداءُ**

72 **ثُمَّ نَاداه بعدما سيمت الخسـ ... ـف وقَدْ يُنْجِدُ الغريقَ النداءُ**

قال ابن إسحاق فيما أورده عن سراقة بن مالك بن جعشم قال: لما خرج

رسول الله صلى الله عليه سلم من مكة مهاجرا إلى المدينة، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم. قال: فبينما أنا جالس في نادي قومي، أقبل رجل حتى وقف علينا فقال: والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا علي آنفا إني لأراهم محمدا وأصحابه. قال: فأومأت إليه بعيني أن اسكت. ثم قلت: إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة. قال: لعله. ثم سكت. فمكثت قليلا ثم دخلت بيتي فأمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي وسلاحي، فأخرج لي من دبر حجرتي ثم أخذت قداحي التي أستقسم بها، ثم انطلقت فلبست لامتي، ثم أخرجت قداحي فاستقسمت فخرج السهم الذي أكره لا يضره، وكنت أرجوا أن أرده على قريش فآخذ المائة، فركبت على إثره، فبينما فرسي يشتد بي عثر فسقطت عنه فقلت ما هذا، ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره لا يضره، فأبيت إلا أن أتبعه. فركبت في إثره، فلما بدا لي القوم عثر بي فسقطت فقلت: ما هذا ؟ ثم أخرجت القداح فاستقسمت، فخرج السهم الذي أكره. لا يضره. فأبيت إلا أن أتبعه، فلما بدا لي القوم عثر بي فرسي فذهبت يداه في الأرض وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني وأنه ظاهر، فناديت القوم: أنا سراقة بن جعشم أنظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يلقاكم مني شيء ترهبونه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل له ما يبتغي. قلت: تكتب كتابا يكون لي آية بيني وبينك. قال: اكتب له يا أبا بكر، فكتب لي في عظم أو رقعة ثم ألقاه إلي فأخذته فجعلته في كنانتي ثم رجعت. وفي صحيح البخاري عن أبي بكر الصدق رضي الله عنه قال: لما أدركنا سراقة بن جعشم قلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا، وبكيت. فقال: لا تحزن إن الله معنا. قال: فلما دنا فكان بيننا وبينه قدر رمحين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب يا رسول الله قد بلغنا، فبكيت. فقال: ما يبكيك فقلت: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكني أبكي عليك، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<اللهم اكفناه بما شئت>> فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها، فوثب عليها وقال: يا محمد لقد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب وهذه كنانتي فخذ منها سهما فإنك ستمر على إبلي وغنمي بمكان كذا وكذا فخذ منها حاجتك. فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا حاجة لي في إبلك، ودعا له فانطلق راجعا إلى أصحابه، فجعل لا يلقى أحدا إلا قال له قد كفيتكم ما هاهنا فلا يلقى أحدا إلا رده. قال: ووفى لنا. انتهى. وفي ذلك يقول سراقة المذكور وكان شاعرا مجيدا يخاطب أبا جهل بعد انصرافه عن رسول الله صلى الله عليه وسم:

أبـا الحكـم والله لـو كـنت شـاهدا   لأمـر جـوادي إذ تـسوخ قـوائمه

علمـت ولـم تـشكك بـأن محمـدا   رسـول ببـرهان فمـن ذا يقاومـه

علـيك بكـف القـوم عـنه فإننـي   أرى أمـره يـوما سـيبدو معالمـه

وسراقة بن مالك هذا هو الذي أظهر الله فيه هذا العلم العظيم من أعلام نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أظهر الله فيه أثرا آخر من الآثار الشاهدة له عليه السلام بأن الله أطلعه على الغيب في حياته ما ظهر مصداقه بعد وفاته. روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك:<<كيف بك إذا لبست سواري كسرى>>. فلما أتى عمر رضي الله عنه بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما. وكان سراقة رجلا آزب، كثير شعر الساعدين. وقال له: ارفع يديك وقل الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس. وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابيا من بني مدلج ورفع عمر رضي الله عنه صوته. وإلى المعجزة الأولى أشار الشيخ بقوله: "**واقتفى**"، أي تبع "**أثره**"، أي طريقه، "**سراقة**" ابن مالك، "**فاستهوته**"، أي أهوت به، "**في الأرض**"، أي ساخت وغاصت، و"**الصافن**" من الخيل الذي يقوم على ثلاثة قوائم ويقيم الرابعة على طرف الحافر. ومنه الصافنات الجياد. و"**الجرداء**": الرفيعة السرة مع قصرها، وهي صفة مدح في الخيل، وأصله من الشجرة التي قطع ورقها، فاستعير للفرس. "**ثم ناداه**"، أي سراقة، النبي صلى الله عليه وسلم "**بعدما سيمت الخسف**"، أي أوليت الفرس الذل والهوان. يقال: سامه خسفا إذا أولاه ذلا، ومنه يسومونكم سوء العذاب. وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء، يقال سمت الشيء إذا طلبته، ومعنى كلام الشيخ بعدما أوليت وكلفت الخسف فيحتمل الخسف، الحقيقي،

أي الغوص في الأرض، وقد وقع، ويحتمل الذل والهوان، "**وقد ينجد**"، وفي بعض النسخ: "**ينقذ**" ومعناهما واحد، وقد يخلص "**الغريق النداء**" كما خلص يونس عليه وعلى نبينا السلام.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

73	**فطوى الأرضَ سائرًا والسماوا**	**ت العُلَى فوْقها لهُ إسراءُ**
74	**فصف الليلة التي كان للمُخـ**	**ـتارِ فيها على البُراق استِواءُ**
75	**وترقى به إلى قَاب قوسَيـ**	**ـنِ وتلك السيادةُ القَعْسَاءُ**
76	**رُتَبٌ تسقط الأمانيُّ حسْرى**	**دُونهَا ما وراءهنَّ وراءُ**

لما انفصل سيدنا صلى الله عليه وسلم عن مكة وكفاه الله أمر من طلبه، صار في حفظ الله وكلاءته تطوى له الأرض وتتقارب، كما طويت له السماوات ليلة الإسراء فجاوزها في أسرع وقت، حتى قطع في ليلة واحدة نحو ثمانية آلاف سنة. فصف أيها الناظر في سيره صلى الله عليه وسلم وتعجب في شأن الليلة التي كان للمختار سيد الخلق فيها على البراق استواء واستقرار بالركوب وتمكن. "**وترقى**": أي ارتفع وعلا "**به**" البراق مع جبريل "**إلى قاب قوسين**" أو أدنى. وقاب قوسين ما بين مقبضه وآخر وتره. فلكل قوس قابان، قاله ابن حجر. والمراد تشبيه قربه صلى الله عليه وسلم المعنوي من ربه قرب قاب قوسين، أو مقدار قوسين، وقاب قوسين أي: قدر طولها الجوهري يقال بينهما قاب قوسين. "**وتلك**" المنزلة العظيمة والرتبة العلية التي بلغ سيدنا صلى الله عليه وسلم هي "**السيادة القعساء**" أي الثابتة الدائمة التي لا يطرقها تغير ولا زوال. فقد ترقى سيدنا صلى الله عليه وسلم وجاوز المراتب كلها. قال في بردته:

وبت ترقى إلى أن نلت منزلة ... من قاب قوسين لم تدرك ولم تحم

فإذا تأملت ما أدرك صلى الله عليه وسلم من المقامات، وما حاز من الرتب والكمالات، علمت أنها "**رتب تسقط**"، فقد جاوز منازل ورتبا في ليلة تسقط

"**الأماني**"، جمع أمنية، وهي ما يتمناه الإنسان. "**حسرى**" جمع حسير بمعنى عييي، أي عاجز. "**دونها**" ظرف لتسقط، أي لجلالة هذه الرتبة وعزتها على الخلق سقطت أمنياتهم وتخلفت طلباتهم وآمالهم عن نيل هذه الرتب فلم يستطيعوا التوجه إليها حالة كونها عاجزة عن التأهل لها. وكيف لا وهي رتب "**ما وراءهن وراء**" أي ما قدامهن قدام، بمعنى ما بعدها مرتبة ينالها مخلوق غيره صلى الله عليه وسلم. ولا بد من ذكر نبذة من قصة الإسراء: قال ابن إسحاق: ثم أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس من إيليا، وقد فشى الإسلام بمكة في قريش والقبائل كلها، فكان من الحديث فيما بلغني عن مسراه صلوات الله وسلامه عليه، عن عبد الله بن مسعود وكثير من الصحابة ذكرهم. ثم قال: فكان في مسراه وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من الله في قدرته وسلطانه، وعبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق. وكان من أمر الله على يقين. فأسرى به كيف شاء، وكما شاء، ليريه من آياته ما أراد حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما أراد. فكان عبد الله بن مسعود يقول: أُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق، وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها في منتهى طرفها. ثم خرج به صاحبه يرى الآيا فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الملائكة عليهم السلام، قد جمعوا له صلى الله عليه وسلم، فصلى بهم، ثم أتي بثلاثة أوانٍ، إناء فيه لبن وإناء فيه خمر وإناء فيه ماء. قال: فسمعت قائلا يقول إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته، وإن أخذ اللبن هدى وهديت أمته. قال: فأخذت اللبن فشربت. فقال لي جبريل: هديت وهديت أمتك يا محمد. وفي حديث أنس في وصف البراق: فإذا دابة أبيض بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه فيضع يده في منتهى طرفه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته. وفي حديث قتادة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما دنوت منه لأركبه شَمِسَ فوضع جبريل يده على معرفته. فقال: ألا تستحي يا براق، فوالله ما ركبك عبد قبل

محمد، أكرم على الله منه، فاستحيا حتى ارفض عرقا، ثم قر حتى ركبته. قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم، عن أبي سعيد الخدري، أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتي بالمعراج ولم أر شيئا قط أحسن منه، وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر. فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة، عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك، تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك. قال: فلما دخل بي قال: يا جبريل من هذا يا جبريل ؟ قال: محمد، قال: أو قد بعث إليه. قال نعم. فدعا له بخير وقال: حدثني بعض عمن حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: تلقتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا، فلم يلقني ملك إلا ضاحكا مستبشرا. يقول خيرا ويدعوا به حتى لقيني ملك من الملائكة فقال مثل ما قالوا إلا أنه لم يضحك ولم أر منه من البِشْر مثل ما رأيت منهم فقلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا ملك صاحب النار، أما أنه لو كان ضاحكا إلى أحد لضحك لك. ثم قال في حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلا جالسا تعرض عليه أرواح بني آدم فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيرا ويسر به ويقول روح طيبة خرجت من جسد طيب، ويقول لبعضها إذا عرضت أف، ويعبس بوجهه ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث. قلت: من هذا يا جبريل. قال: هذا أبوك آدم، تعرض عليه أرواح بنيه، فإذا مرت به روح المؤمن سر بها، وإذا مرت به روح الكافر، أفف منها وكرهها. قال: ثم لقيت رجالا لهم مشافر الإبل، في أيديهم قطع من نار كالإبهار، ثم يقذفون بها في أفواههم فتخرج من أدبارهم. قلت: من هؤلاء يا جبريل. قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما. ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر قط مثلها يمرون عليهم كالإبل المسيومة حين يعرضون على النار يطؤهم لا يقدرون أن يتحركوا من مكانهم ذلك. قلت: من هؤلاء يا جبريل. قال: هؤلاء أكلة الربا. ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث نتن، ياكلون من الغث المنتن ويتركون السمن الطيب. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن. ثم رأيت نساء معلقات بثديهن.

فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللائي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم. ثم أصعدني إلى السماء الثانية: فإذا فيها ابنا الخالة عيسى ويحيى. قال: ثم أصعدني إلى السماء الثالثة فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر. فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف بن يعقوب. ثم أصعدني إلى السماء الرابعة فإذا فيها رجل فسألته من هو؟ فقال: إدريس. قال: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية عظيم العثنون لم أر كهلا أجمل منه. قلت: من هذا يا جبريل ؟ قال هذا المحبب في قومه هارون بن عمران. ثم أصعدني إلى السماء السادسة، فإذا فيها رجل آدم طويل أقنى كأنه من رجال شنوءة. فقلت: من هذا يا جبريل. قال: هذا اخوك موسى بن عمران. ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا كهل جالس على كرسي إلى باب البيت المعمور، يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة، لم أر رجلا أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم. ثم دخل بي الجنة، فرأيت فيها جارية لعْسا، فسألتها: لمن أنت؟ وقد أعجبتني. فقالتِ: لزيد بن حارثة. فبشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا. ومن حديث ابن مسعود: أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السماوات، إلا قال له حين يستأذن في دخوله: من هذا يا جبريل؟ فيقول: محمد. فيقولون: أو قد بعث إليه ؟ فيقول: نعم. فيقولون: حياه الله من أخ صالح ونبي صالح، حتى انتهى به إلى السماء السابعة، ثم انتهى به إلى ربه، ففرض عليه خمسين صلاة كل يوم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأقلبت راجعا، فلما مررت بموسى بن عمران، ونعم الصاحب كان لكم، سألني: كم فرض عليكم من الصلاة؟ فقلت: خمسين صلاة في كل يوم. قال: إن الصلاة ثقيلة وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك، فرجعت فسألت ربي، فوضع عني عشرا، ثم لم يزل يقول مثل ذلك، كلما رجعت إليه فأرجع فأسأل ربي حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عني إلا خمس صلوا في كل يوم وليلة، ثم رجعت إلى موسى فقال لي مثل ذلك. فقلت: قد راجعت ربي فسألته حتى

استحييت منه، فما أنا بفاعل، فمن أداهن منكم إيمانا بهن واحتسابا لهن، كان له أجر خمسين صلاة. انتهى.

تنبيهان: الأول: هل ترتيب هؤلاء الأنبياء في السماوات تعبد أو لحكمة؟ قال الشيخ العارف ابن أبي جمرة رضي الله عنه: وجه الحكمة فيه، والله أعلم، أنه إنما كان آدم عليه الصلاة والسلام في سماء الدنيا لأنه أول الأنبياء وأول الآباء وهو الأصل ومنه تفرع من بعده من الأنبياء، فكان أولا في سماء الدنيا لأجل هذا المعنى، ولأجل تأنيس البنوة بالأبوة. وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فإنما كان في السماء الثانية لأنه أقرب الأنبياء للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا امتحت شريعة عيسى إلا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، ولأنه لا ينزل في آخر الزمان لأمة النبي صلى الله عليه وسلم بشريعته ويحكم بها، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: <<أنا أولى الناس بعيسى>> فكان في السماء الثانية لأجل هذا المعنى. وإنما كان يحيى عليه الصلاة والسلام معه لأنه ابن خالته، وهما كالشيء الواحد. وإنما كان يوسف عليه الصلاة والسلام في السماء الثالثة، لأن على حسنه تدخل أمة محمد صلى الله عليه وسلم الجنة، فأري لها هنالك ليكون ذلك بشارة له صلى الله عليه سلم، فبشر بذلك. وإنما كان إدريس عليه الصلاة والسلام في السماء الرابعة لأنه هناك توفي ولم تكن له تربة في الأرض على ما ذكر. وإنما كان هارون عليه الصلاة والسلام في السماء الخامسة لأنه ملازم لموسى عليه الصلاة والسلام لأنه أخوه وخليفته في قومه، فكان هناك لأجل هذا المعنى. وإنما لم يكن مع موسى عليه السلام في السماء السادسة لأن لموسى مزية وحرمة وهو كونه الكليم واختص بأشياء لم تكن لهارون، فلأجل هذا المعنى لم يكن في السماء السادسة، ولأجل المعنى الأول كان في السماء الخامسة ولم يكن فيما دونها أو في الأرض. وإنما كان موسى عليه الصلاة والسلام في السماء السادسة لأجل ما اختص به من الفضائل ولأنه الكليم وهو أكثر الأنبياء أتباعا بعد النبي صلى الله عليه وسلم فكان فوق ما ذكر لأجل ما اختص به. وإنما كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام في السماء السابعة لأنه الخليل والأب الأخير، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم يصعد من هناك إلى عالم آخر غير ما هو فيه الآن، وهو اختراق الحجب فيحتاج إذ ذاك أن يتجدد له

أنس أيضا لأن الغربة زادت إذ ذاك فكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام هناك لأجل ما يجده النبي صلى الله عليه وسلم الأنس به وذلك لثلاثة معان: لكونه الأب الأخير، ولكونه أبا من الطرفين، النسب بالأبوة وبالاتباع في الملة كما قال تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج: 78] ولأنه الخليل كما تقدم ولا أحد أفضل من الخليل إلا الحبيب. والحبيب ها هو قد علا ذلك المقام فكان الخليل فوق الكل، لأجل خلته وفضله، وارتفع الحبيب فوق الكل لأجل ما اختص به مما زاد به عليه يدل على ما قرره الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة: 253]. وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم: <<آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة>>. وقوله: <<أنا سيد ولد آدم>> فحصل لهم الكمال والدرجة الرفيعة. ومن درجة الرسالة والنبوة، ورفعوا بعضهم فوق بعض درجات بمقتضى الحكمة ترفيعا للمرفوع دون تنقيص بالمتروك والله عز وجل أعلم. انتهى كلام الشيخ ابن أبي جمرة نفعنا الله به.

الثاني: إنما فرضت الصلاة في هذا الموضع دون غيرها لعظم شأنها عند الله تعالى. وقال بعض العلماء: حكمة فرضها في هذه الليلة أنه صلى الله عليه وسلم لما شاهد تعبد الملائكة فيها وإن منهم قياما دائما، ومنهم ركعا دائما ومنهم سجودا دائما أعطاه الله ذلك كله في ركعة واحدة يصليها الواحد منهم بشروطها وآدابها، وإنما اختص موسى صلى الله عليه وسلم بأمره بتلك المراجعة، لأنه اطلع على صفات هذه الأمة مما حمله على قوله: اللهم اجعلهم أمتي، فقال له الله تعالى: تلك أُمة أحمد، فقال اللهم اجعلني منهم، وهو حديث مشهور، فكان اعتناؤه بهم كما يعتني بالقوم من هو منهم ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم مررت بموسى ونعم الصاحب كان لكم. انتهى.

فائدة: اختلف العلماء قديما وحديثا في أن نبينا صلى الله عليه وسلم رءا ربه في المقام الذي وصل إليه دون غيره، والذي صح عن ابن عباس أنه رءاه ببصره، وفي رواية أخرى أنه بقلبه، ولا اختلاف بينهما لما ثبت بإسناد جيد أنه رءاه مرتين، واحدة

بالعين، وواحدة بالقلب بمعنى أنه خلق فيه إدراكا كإدراك البصر وليس المراد به مجرد العلم لأنه حاصل لغيره. وكان الحسن البصري يحلف أنه رءا ربه، وبذلك قال عروة وسائر أصحاب ابن عباس وجزم به كعب الأحبار والزهري وهو قول الأشعري وغالب أتباعه، وأنكرت عائشة رضي الله عنها وابن مسعود الرواية. قال النووي لكن خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا خولف لا يكون قوله حجة إجماعا، ولا حجة لها في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: 103] لأن المراد لا تحيط به بحقيقة ذاته العليا بدليل: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ وإذا جازت في الآخرة جازت في الدنيا لتساويهما في المرآ. وسؤال موسى إياها أظهر دليل على ذلك، إذ لا يجوز لنبي أن يسأل محالا، وأنكرته المعتزلة، قبحهم الله تعالى، حتى في الآخرة. ويرد عليهم الكتاب والسنة، وعلى جوازها في الدنيا لم تقع إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم. وفي صحيح مسلم:<<واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا>> ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر حين سأله عنها: نور أنى أراه. أن النور حال بينه وبين رؤيته ببصره. فكيف أراه وقد مر أنه رءاه مرة ببصره، ومرة بقلبه. فلا ينافي وقوع الأولى. وسئل أحمد عن قول عائشة رضي الله عنها: من زعم أن محمدا رءا ربه، فقد أعظم على الله الفرية بم يدفع. قال: يقول النبي صلى الله عليه وسلم:<<رأيت ربي>> وقول النبي صلى الله عليه وسلم أكثر. انتهى.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

77	**ثـم وافى يحـدِّث الناس شُكرا**	**إذ أتَـــته مـــن ربــه الــنَّعْماء**
78	**وتَحـدَّى فارْتــاب كَـل مُـريب**	**أو يبْقــى مـع الــسيول الغُــثاء**

ولما رجع سيدنا صلى الله عليه وسلم من مناجات ربه فوق السماوات "**وافى**" مكة قبل الصبح فأصبح "**يحدث الناس**" بما رءا من الكرامات، وما شاهد من العجــائب المعجزات، وإلى ذلك أشار بقوله "**شكرا**" لنعمة ربه وامتثالا لقوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴿١١﴾ ﴾ وإلى ذلك أشار بقوله: "**إذ أتته من ربه النعماء**"

أي السرور والفرح الدائم. ولما أخبر صلى الله عليه وسلم بما رءا افتتن الناس كانوا أسلموا وذهب المشركون لأبي بكر وقالوا له إن صاحبك يخبر أنه جاء بيت المقدس ورجع في هذه الليلة فقال صدق. فأنكروا عليه فقال إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك في خبر السماء في غدوة وروحة فلذلك سمي الصديق رضي الله عنه. ذكره ابن إسحاق، وزاد أن أبا بكر جاءه فقال: يقولون إنك أتيت الليلة بيت المقدس قال: نعم. فقال: صفه لي يا رسول الله، فإني جئته، فوصفه له كما هو لأنه رفع إليه فجعل ينظر إليه ويصفه وأبو بكر يصدقه وإنما قال أبو بكر ذلك ليظهر صدقه صلى الله عليه وسلم ويرد على من تشكك في ذلك ورفعه له حتى نظر إليه. رواه البخاري ومسلم. وزاد مسلم:أنهم سألوه عن أشياء لم يتثبتها فكرب كربًا لم يكرب مثله قط فرفعه الله إليه حتى نظر إليه. والأقرب أنه رفعه بعينه لا مثاله، ونظيره مجيء عرش بلقيس إلى سليمان عليه السلام، وبهذا ظهرت الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس، ثم العروج منه إلى السماء لما تقرر أن فيهم من رءا بيت المقدس فوصفه لهم كما هو مع علمهم أنه لم يذهب إليه قط أوضح دليل على صدقه في جميع ما أخبر به من أمر السماء. ومما أخبرهم به أنه قال لهم إن من آية صدق ما أقول لكم أني مررت بعيركم في مكان كذا وقد أضلوا بعيرا لهم فجمعه فلان وأن مسيرهم ينزلون بمكان كذا ويأتوكم يوم كذا يتقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان. فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون، حتى إذا كان قريبا من نصف النهار أقبلت العير. وفي رواية أخبره بقدوم العير يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم وكادت الشمس تغرب دعا الله فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف. قوله "**وتحدى**" أي طلب المعارضة بما وقع له ليلة الإسراء وما رءا من العجائب. ولما كان إخباره صلى الله عليه وسلم بهذه المعجزة العظمى بمحفل الكفار وأهل العناد كان ذلك بمنزلة التحدي وطلب المعارضة. وقوله "**فارتاب كل مريب**" أي شك وتزلزل كل من لم يرسخ الإيمان في قلبه. وتقدم أنه ارتد جماعة ممن كان أسلم. وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: 60] وكيف يمكن بقاء الشك مع هذا البيان، فما تردد بعد هذا إلا من العمى. ولذلك قال

الشيخ "**أو يبقى مع السيول الغثاء**" والغثاء ما يحمله السيل مما يخف من النبات أي كما أن السيول تحمل ما لا ثبات له من النبات وتذهب به في أسرع وقت، فكذلك ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات والبراهين القطعيات لا يبقى معها شيء من الشك والتردد، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. وتشبيهها بالأمطار لأن بها الحياة الحسية، وجعلنا من الماء كل شيء حي. فكذلك ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الحق به الحياة المعنوية وهي حياة الأرواح.

تنبيه: همزة الاستفهام في مثل هذا داخلة على محذوف، وتقديره ليستمر ويبقى. ومنه قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُواْ** ﴾ أي امكثوا ولم يسيروا. وقوله: ﴿ **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء: 10] أي تجهلون فلا تعقلون. وقس على هذا قول الزمخشري. فالهمزة في محلها الأصلي، والعطف على جملة مقدرة بينهما محافظة على إقرار حرف العطف على حاله من غير تقديم ولا تأخير، وخالفه في ذلك سيبويه والجمهور وجعلوه من باب التقديم والتأخير. واعلم أن الهمزة أصل ذوات الاستفهام، ولذلك اختصت بجواز حذفها لقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ [الأنعام: 76] في المواضع الثلاثة أي هذا ربي وكقوله: ﴿ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ** ﴾ [الشعراء: 22] أي أو تلك نعمة وبأنها لطلب التصور والتصديق، وهل تختص بالثاني والبقية بالأول وبأنها تتقدم على العاطف كان هنا تنبيها على أصالتها وبأنها تدخل على الشرط نحو:﴿ **أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ** ﴾. انتهى. قاله ابن حجر.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

79	**وهـو يدْعُـو إلـى الإلَـه وإن شَــ**	**ـــقَّ علــيه كفْــرٌ بـــه وازدراءُ**
80	**ويــدُل الــورى علــى الله بالــتَّو**	**حــيد وهــو المحجــة البيــضاءُ**

هذه الجملة حال من فاعل تحدى. ولا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم لما كذبوه قومه وأنكروا ما جاء به لم يبال بتكذيبهم له وازدرائهم به وإن شق ذلك عليه لما كان يعلم ما يئول إليه أمره من الظهور والنصر. فلم يزل جادا في تبليغ رسالة ربه

جاهدا في نصر دينه وإعزاز كلماته، فلم يدخله في ذلك فتور ولم يحصل له كلل ولا قصور. يدل الورى أي الخلق على الله، ويرشدهم إلى توحيده وترك ما كان عليه آباؤهم من عبادة الأصنام والأوثان من دونه فدلهم على المحجة البيضاء. وهداهم إلى الحنيفية السمحاء، فجزاه الله عنا أحسن الجزاء. قال سيدنا صلى الله عليه وسلم: <<تركتكم على الواضحة البيضاء، ليلها كنهارها، ونهارها كليلها، لا يزيغ عنها إلا هالك>>. وقال أبو البلخ: الحق لائح، والطريق واضح، والداعي قد أسمع، وما التحير بعد هذا إلا من العمى. ولما نهض سيدنا صلى الله عليه وسلم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الله تعالى، كان أول من أظهر الإسلام معه أبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد. فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب. وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصمدوهم في الشمس، وأما بلال فجروه وأعطوه إلى الولدان فجعلوا يطوفون به في شعب مكة وهو يقول أحد أحد ليمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان. ومر اللعين أبو جهل بسمية أم عمار بن ياسر وهي تعذب فطعنها في فرجها فقتلها. وأخرج البيهقي عن عروة أن أبا بكر أعتق سبعة ممن كان يعذب في الله، منهم الزِنّير، بكسر الزاي وتشديد النون، فعميت عيناها، فقالوا: ما أعماها إلا اللات. فقالت: كلا والله ما هو لذلك، فرد الله عليها بصرها تكذيبا لهم.

*** ثم قال رضي الله عنه: (ص142)**

81 **فــيما رحْمــة مِــن الله لانَــت صــخرةٌ مــن إِبــائِهم صــمَّاء،**

لما صبر سيدنا صلى الله عليه وسلم على إذاية الكفار وتحمل مشقة عنادهم واستهزائهم به تداركهم الله برحمته العظمى، وألآن صخرة امتناعهم الصماء حتى أسلم كثير ممن كان من أهل العداوة والعناد، ولانت قلوبهم من بعد القساوة والبعاد. هذا كله بيمن بركة سيدنا صلى الله عليه وسلم ولين جانبه الأكرم لهم. ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾. ولو أراد سيدنا صلى الله عليه وسلم هلاكنا لأمر ملك الجبال أن يطبق علينا الأخشبين ولهلك أصلنا الأول حين ردوا أمره صلى الله عليه وسلم كما هلكت

عاد وثمود وقوم لوط، ولكن سيدنا صلى الله عليه وسلم كان رءوفا رحيما حليما صبورا. لمّا قوبل بالإذاية. قال: <<اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون>>. جزاه الله عنا أفضل ما جزا نبيا عن قومه، ورسولا عن أمته. فقوله لانت إلخ استعارة الصخرة التي في غاية الصلابة لامتناعهم وإبائهم عنه إذ كانوا في غاية النفرة عنه والبغض والإذاء له. ومن نيابية وما زائدة ورحمة مجرور بالياء. أي فبسبب رحمة من الله لانت صخرة إيبائهم الصماء.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

82 **واستجابت لـه بنـصرٍ وفَـتْحٍ بعْـد ذاكَ الـخـضْـراء والغبـراءُ**

فما زال سيدنا صلى الله عليه وسلم يبلغ رسالة ربه ويصبر على من خالفه من قومه حتى أظهره الله على سائر الأديان، "**واستجابت له بالنصر والفتح**" الأماكن والأزمان، فانقادت لأمره السماوات الخضراء، واحتوى ملكه على من كان في الأرض الغبراء. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. فقوله "**بعد ذاك**" أي بعدما قاس من الشدائد والأذى. وقوله: "**الخضراء والغبراء**" يحتمل أهلهما، فقد كانت الملائكة لا تفارقه في حروبه وسائر أموره، ويحتمل أنفسهما بانقيادهما لأمره. فائدة: خضرة السماء قيل من صخرة تحت الأرض خضراء. وسئل ابن عباس السماء من أي شيء. قال من موج مكفوف. وقال كعب الأحبار: السماء أشد بياضا من اللبن. وقال الربيع بن أنس: السماء الدنيا موج مكفوف والثانية زمردة بيضاء والثالثة حديد والرابعة نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة بيضاء. وجاء عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: السماء الدنيا من زمردة خضراء، والثانية من فضة، والثالثة من ياقوتة حمراء، والرابعة من درة بيضاء، والخامسة من ذهبة حمراء، والسادسة من ياقوتة خضراء، والسابعة من نور. انتهى. واما الأرض فجميع طبقاتها من طين ولذلك سميت غبراء. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما أراد الله أن يخلق الأشياء إذ كان عرشه على الماء وإذ لا أرض ولا سماء. خلق الريح فسلطها على الماء حتى اضطربت أمواجه وآثار ركامه، فأخرج من الماء

دخانا وطينا وزبدا فأمر الدخان فعلا وسما فخلق منه السماوات، وخلق من الطين الأرضين، وخلق من الزبد الجبال. انتهى. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

83 **وأطاعت لأمره العرَب العـزْ ـبـاء والجَاهلـية الجهْـلاء**

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم قد أظهره الله على سائر الأديان وانقاذت له العرب العرباء من ولد عدنان، والعرب العرباء هي الخالصة، يقال العرب العرباء والعرب العاربة والمستعربة أي الصرفة الخالصة. قال في القاموس: العرب بالضم وبالتحريك خلاف العجم وهم سكان الأمصار أو عام. والأعراب منهم سكان البادية، لا واحد له ويجمع على أعاريب وعرب عاربة وعربة وعربات وعرباء. ومنعربة ومستعربة. ثم قال: ويعرب ابن قحطان أبو اليمن، قيل: أول من تكلم بالعربية. انتهى. وذكر ابن قتيبة: أن الأعرابي هو البدوي والعربي المنسوب إلى العرب وإن كان بدويا. والأعجمي الذي لا يفصح وإن كان بدويا والعجمي المنسوب إلى العجم. انتهى. وقال المبرد: جميع العرب ترجع إلى عدنان وقحطان، وعدنان هو الجد الأعلى للنبي صلى الله عليه وسلم ومنه سائر العرب العرباء. وبينه وبين إسماعيل ثمانية آباء. وقحطان قال الكلبي: هو الهميسع ابن بنت إسماعيل عليه السلام، وفيه نظر، لأن قحطان قبل إسماعيل بل قبل هود وصالح على ما قيل. "**والجاهلية الجهلاء**" مبالغة في الجهل، لأن تصميمها على الكفر أشد وأعظم فانقادت له صلى الله عليه وسلم ودخلت في دينه طوعا وكرها والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

84 **وتـوالت للمـصطفى الآيـة الكبْـ ـرى علـيهم والغـارةُ الـشعواءُ**

قد أيد الله سبحانه سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات، و"**توالت**" عليهم خوارق العادات، كانشقاق القمر ونبع الماء وحنين الجذع إلى ما لا يحصى كثرة من البراهين القطعيات الدالة على ظهور أمره وإعلاء دينه، ولذلك قال أبو سفيان: فما زلت موقنا أنه سيظهر أمره حتى أدخل الله علي

الإسلام وأنا كاره. ولما انتقل صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جعل يغير عليهم في كل وجه ويفتح ما حوله من القبائل حتى فتح مكة والطائف، ودخل الناس في دين الله أفواجا. فما مات صلى الله عليه وسلم حتى أسلم الحجاز كله أو جله. وهذا معنى قوله "**والغارة الشعواء**" أي وتوالت عليهم الغارة على بلادهم وأموالهم ونفوسهم وذراريهم، وهو اسم مصدر لأَغار. ومعنى الشعواء أي الغاشية المحيطة بهم من كل جانب التي لم تظفر لهم بنفس ولا مال إلا هلكته.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

85 **وإذا ما تَلا كتابا من اللـــــهِ تلَتْه كتيبة خضراءُ**

كان سيدنا صلى الله عليه وسلم "**إذا تلى**" كتاب الله العزيز استمع إليه أصحابه وأنصتوا كأن على رؤوسهم الطير، وتبعوا ما جاءهم به من الأحكام والشرائع، وإلى هذا أشار بقوله "**تلته**" أي تبعته "**كتيبة**" أي جيش، وإنما سمي كتيبة لكتبه في الديوان. وقوله "**خضراء**" أي من أجل ما كساها من سلاح الحرب ولباس الزرد حتى كأنها يعلوها خضرة قريبة السواد. ولذا قالوا: سواد العراق لكثرة شجره حتى يرى من بعيد أسود، وكثر سواد المسلمين أي جيشهم وبالله التوفيق.

*** ثم قال:**

86 **وكفاهُ المستهزئين وكم ساء نَبِيًّا من قومه استهزاءُ**

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم قد كفاه الله سبحانه من المستهزئين به وتولى إهلاكهم بنفسه فضلا منه سبحانه وإحسانا، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾. وهم النفر الأشقياء الذين كانوا يبالغون في إذايته والسخرية به وسيذكرهم الشيخ بعد هذا بأسمائهم وما أصاب كل واحد منهم. وقوله "**ساء**" إلخ وكم مرات كثيرات ساء نبيا عليه وعليهم السلام استهزاء من قومه، يعني أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يوذون ويستهزأ بهم فيسوؤهم ذلك، ثم يتولى الله سبحانه هلاكهم. وهذا اقتباس من قوله تعالى تسلية لرسوله

صلى الله عليه وسلم:﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: 10] أي نزل بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب. وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

87 **ورماهم بدعوة من فِناء الـ — بيت فيها للظالمين فَناء**

لما بالغ الأعداء في إذاية سيدنا صلى الله عليه وسلم رماهم بدعوة من فناء البيت أصابتهم كما يصيب السهم الرمية كان فيها فناؤهم واستئصالهم، ووضع الظاهر موضعُ المضمر في قوله "**الظالمين**" إشارة إلى أن سبب إهلاكهم هو الظلم وتسجيلا عليهم بذلك.

*** ثم فسر ذلك الظالمين أو المستهزئين فقال:**

88 **خمسةٌ كلُّهم أُصِيبوا بِداءٍ — والرَّدى من جُنُوده الأدواءُ**

89 **فَدهَى الأسود بن مُطلب أ — ي عَمَى مَيِّتٌ بِه الأحْياءُ**

90 **ودهَى الأسْود بن عبد يغُوث — أن سقَاه كأس الردى استسْقاءُ**

91 **وأصَاب الوليدَ خَدْشة سَهْمٍ — قَصُرت عَنها الحيَّة الرقْطاءُ**

92 **وقضت شوْكة على مُهْجة العا — صِي فلله النَّقْعة الشَّوْكاءُ**

93 **وعلى الحَارث القُيوح وقد سا — ل بها رأسُه وساء الوعَاءُ**

94 **خمسة طُهِرت بقطْعهم الأر — ض فكَفُّ الأذى بهمْ شلاءُ**

أشار رضي الله عنه بالبيت الأول إلى أن المستهزئين به والمبالغين في إذاية سيدنا صلى الله عليه وسلم كانوا خمسة، وأنهم كلهم أصيبوا بدعوته صلى الله عليه وسلم. قال ابن إسحاق: وكان عظماء المستهزئين خمسة نفر، وكانوا ذوي الشأن والشّرف في قومهم: "**الأسود بن المطلب**" الأسدي أبو زمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال:

<<اللهم أعم بصره، وأثكله ولده>>. **والأسود بن عبد يغوث** الزهري، "**والوليد**" ابن المغيرة المخزومي، "**والعاصي**" بن وائل السهمي، "**والحارث**" بن الطلاطلة الخزاعي، فلما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء، أنزل الله عليه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ الآية. فأتى جبريل عليه السلام وهم يطوفون بالبيت فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه فمر "**الأسود بن المطلب**" فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي، وسيأتي بعد أنه أصيب له يوم بدر ثلاثة من ولده ابناه زمعة وعقيل وابن ابنه الحرث بن زمعة، فاستوفى الله لرسوله صلى الله عليه وسلم إجابة دعوته عليه بالعمى والثكل. ثم مر به "**الأسود بن يغوث**" فأشار إلى بطنه فاستسقى فمات منه حينا. ومر به "**الوليد**" بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر نبله فانتقض به فقتله. ومر به "**العاصي**" ابن وائل فأشار إلى أخمص رجله، فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شبرقة فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته. ومر به "**الحارث**" بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخض قيحا فقتله. انتهى. فنظم الشيخ في هذه الأبيات الستة كلام ابن إسحاق بعينه. فقوله: "**خمسة**" هم المستهزئون به صلى الله عليه وسلم "**كلهم أصيبوا بداء**" عضال. وقوله "**والردى من جنوده الأدواء**" جملة تعليلية لما قبلها أي وإنما أصيبوا بذلك الداء ليقعوا في الردا أي الهلاك، لأن الردا من جنوده المعينة عليه الأدواء، أي الأمراض. وقوله: "**فدهى**" أي أصابته داهية عظيمة. وقوله "**عمى ميت به الأحياء**" أي بسببه يصير الأحياء بمزلة الأموات لا يدركون شيئا لعظمه وإعدامه البصر والبصيرة. وهو أي ميت مبتدأ والأحياء فاعل أغنى عن الخبر. وقوله "**أن سقاه**" إلخ فاعل دهى أي دهاه سقياه الاستسقاء. "**كأس الردى**" والاستسقاء، مرض خبيث وهو هنا امتلاء الأمعاء بالماء الفاسد المبطل للحرارة الغريزية المفضي إلى الهلاك. و"**الحية الرقطاء**"

التي يخالط سوادها نقط بيض وهي الأفعى. والمهجة: النفس، وقيل الدم. وقوله "**فلله** الشوكة تعجب منها و"**النقعة**": القتلة. من قولهم: الناس نقائع الموت. أي يجزرهم كما يجزر الجزار النقيعة. و"**الشوكاء**": الشديدة. من قولهم: بردة شوكاء، أي خشنة. أي فلله هذه القتلة القبيحة قوله على الحارث أي وقضت "**على الحارث القيوح**" والحال أنه "**قد سال بها رأسه وساء**" أي قبح ذلك الرأس الذي هو "**الوعاء**" لتلك القيوح وقوله خمسة إلخ أي طهرت بإهلاكهم الأرض أي مكة ونواحيها أو جميع الأرض. وقوله فكف الأذى إلخ أي إن الأذى الذي كان يحصل منهم لنبينا صلى الله عليه وسلم ولغيره قد انقطع بقطعهم فشبه الأذى بإنسان من باب تشبيه المعقول بالمحسوس وإن ذلك الإنسان كان يؤذي بيده فشلت وانقطع أذاه.

* **ثم قال رحمه الله:**

95	**فُـديَتْ خمسةُ الصَّحيفة بالخمـ**	**ـــسة إن كــان للكِــرام فِـــداءُ**
96	**فتـيةٌ بيَّـتوا علـى فعـل خيـر**	**حَمِـدَ الصُّبْحُ أمْرَهـمْ والمَساءُ**
97	**يَــالَ أمــرٍ أتَــاه بعْــد هِــشَامٍ**	**زَمْعَـــةٌ إنـــه الفَتـــى الأتَّـــاءُ**
98	**وزُهيْـرُ والمُـطْعِمُ بـنُ عَــدِيٍّ**	**وأَبـو البختري من حيث شاءوا**
99	**نقـضوا مُبْـرمَ الـصحيفةِ إذْ شَـ**	**ـدَّت عليهمْ من العِـدا الأنْـداءُ**
100	**أذْكَــرَتْنَا بأكْلِهــا أكْــل مِنْــسا**	**ةِ سُــليمانَ الأرَضَــةُ الخرْســاءُ**
101	**وبِهــا أخبـر النبــيُّ وكَــم أخْــ**	**ـــرج خَبْـئا لـهُ الغـيوبُ خِـباءُ**

أشار بهذه الأبيات إلى قصة الصحيفة وقضية الشعب. قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدا وأصابوا به أمنا ودارا وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم وكان إسلامه بعد حمزة بثلاث، فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل الإسلام يفشوا في القبائل، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يتبايعوا منهم، فلما

اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم. فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه، وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهروا لا يصل إليهم شيء إلا سرًا مستخفيا به ممن أراد صلتهم من قريش وقد كان أبو جهل فيما يذكرون لقي حكيم بن حزام ومعه غلام يحمل قمحا يريد به عمته خديجة وهي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ فقال له البختري: طعام كان لعمته عنده، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه. فأخذ البختري لحى بعير فضربه به فشجه ووطئه وطأ شديدا. وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيشمتوا بهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك يدعوا قومه ليلا ونهارا وسرا وعلانية مبادئا بأمر الله لا يتقي فيه أحدا. ثم قال ابن إسحاق ثم قام في نقض الصحيفة نفر من قريش ولم يبل أحد فيها أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن الحارث، وكان ذا شرف في قومه فكان يأتي ليلا بالبعير وقد أوقره طعاما حتى إذا أقبله فم الشعب خلع خطامه ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب ويأتي به قد أوقره برًّا فيفعل به مثل ذلك. ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال زهير: أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح منهم، أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم، ثم دعوْته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا. فقال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع، إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها. قال: قد وجدت رجلا. قال: من هو؟ قال: أنا، قال له زهير: ابغنا ثالثا. فذهب إلى المطعم بن عدي فقال: يا مطعم، أرضيت أن يهلك بَطْنَانِ من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه، فوالله لئن أمكنتموهم من هذه لنجدنهم إليها منكم سراعا. قال: ويحك، فماذا أصنع وأنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانيا. قال: من هو؟ قال: أنا. قال: أبغنا ثالثا. قال: قد

فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير. قال: ابغنا رابعا. فذهب إلى أبي البختري بن هشام. فقال له نحوا مما قال لمطعم بن عدي. فقال: وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي: وأنا معك. قال: ابغنا خامسا. فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم فتواعدوا خطم الحجون ليلا بأعلا مكة، فاجتمعوا هنالك فأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبدأكم فأكُون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الضالة. قال أبو جهل وكان في ناحية المسجد: كذبت والله، لا تشق. قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت. قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به. قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. قال هشام بن عمر نحوا من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل تشاوروا فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد. وقام المطعم إلى الصحيفة يشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم، وقد كان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة فشلت يده فيما يزعمون. وذكر بعض أهل العلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب: يا عم، إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسما هو لله إلا أثبتته، ونفت منها القطيعة والظلم والبهتان. قال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم. قال: فوالله ما يدخل عليك أحد. ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كان كما قال فانتهوا عن قطيعتنا، وإن كان كاذبا دفعت إليكم ابن أخي. قال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك. ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزادهم ذلك شرًا، فعند ذلك منع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا. انتهى. وذكر ابن حجر: إن قضية الشعب كانت سنة خمس من النبوة، وسببها أن كفار قريش لما رأوا عز الإسلام

وإفشاءه في القبائل، أتوا أبا طالب فقالوا له نعطوك عمارة بن الوليد شابا نجيبا وتدفع لنا محمدا نقتله، فلما منعهم ذلك تعاقدوا على فعل الصحيفة وفعلوا ما تقدم. وقد نظم الشيخ كلام ابن إسحاق. ثم نرجع إلى حل كلامه فنقول: قوله "**فديت خمسة الصحيفة**" أي فداهم الله من كل سوء "**بالخمسة**" المتقدم ذكرهم "**إن كان للكرام فداء**"، فإن الخمسة الذين نقضوا الصحيفة من الكرام الذين يستحقون الفدا "**فتية**" جمع فتى، وهو: السخي الكريم وهو تصريح بما أجمل أولا. "**بيتوا**": أي دبروا ليلا "**على فعل خير**" وهو نقض الصحيفة والمخاطرة دونه بالنفوس لشدة الكفار في بقائها وكثرتهم "**حمد الصبح**" وهو هنا من الفجر للزوال بدليل قوله "**والمساء**" أي حمد الصبح والمساء أمر هذا الفعل وشأنه. وإذا كان الزمان يحمده فالعقلاء أحق بحمده. "**يا للأمر**"، بفتح اللام. والمراد بالأمر: نقض الصحيفة وناداه تعجبا منه، كقولهم يا للماء ويا للدواهي إذا تعجبوا من كثرتها. "**أتاه بعد هشام**" بن عمر بن الحارث وقدمه لأنه السبب الأول في نقض الصحيفة، "**زمعة**" بن الأسود بن المطلب وهو فاعل أتاه. "**أنه**" أي زمعة "**الفتى الإتاء**" مبالغة في الإتيان، لأنه أول من كذب أبا جهل كما تقدم، ولو عاد على هشام لكان حسنا لأنه هو الذي كثر منه الإتيان، لكنه بعيد من حيث التركيب. "**وزهير والمطعم بن عدي وأبو البختري**" فهؤلاء الخمسة نقضوا الصحيفة ولم يرتبهم في الكلام ولا في الإتيان. وقوله "**من حيث شاءوا**" متعلق بمحذوف، أي أتوه من حيث قصدوا وأرادوا وهو تدبيرهم ذلك ليلا من حيث لا يشعر به أحد. "**نقضوا مبرم**"، أي محكم، من برم الحبل إذا فتل بعضه ببعض. "**الصحيفة**" استئناف بياني أي نقضوا الصحيفة التي توافقت قريش على إبقائها. "**إذ**"، أي وقت أو لأجل "**إذ شدت عليه**" أي على ذلك الأمر المبرم وهو عدم نقضها. "**من العداء**" بيان لقوله "**أنداء**" جمع ناد، وهو العشيرة، ومنه ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ وأصله المكان الذي يجلس فيه للتحدث والسمر ثم سمي به من فيه. أي نقضوا هذا الأمر المبرم حين شدت العشائر

من الأعداء عليه وصمموا على بقائه. "**أذكرتنا**" بعد نسياننا "**بأكلها**" أي بسببه "**أكل منسأة**" أي عصا "**سليمان**" بن داوود صلى الله عليهما وسلم. ولما مات وهو متكئ عليها فبقي كذلك سنة والجن تعتقد حياته فيدأبون فيما سخرهم فيه من الأعمال الشاقة، وما علموا موته إلا بأكل الأرضة منسأته فخرَّ ساقطا، وعلموا حينئذ أن لهم سنة مسخرين وأنهم كاذبون في ادعائهم علم الغيب. قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ** ﴾. "**الأرضة**" بفتح الراء وقد تسكن كما هنا، وهي دويبة تأكل كل خشب أكلا ذريعا. "**الخرصاء**" فيه تعجب من شأنها إذ ليس من شأن الأخرص التذكير، "**وبها أخبر النبي**" صلى الله عليه وسلم. وقد تقدم. "**وكم**" مرات "**أخرج**" أي أظهر صلى الله عليه وسلم "**خبئا**" أي شيئا مخبئا خفيا "**من الغيوب**" أي من علم الغيوب. "**خفاء**" أي هي خفايا ساترة أو مستورة عن أعين علم الخلق. وإخباره صلى الله عليه وسلم بعلم الغيب بحر لا يدرك قعره، منها ما هو في القرآن وهو معلوم، ومنها ما هو في الحديث، منها ما أخرجه الطبراني أنه صلى الله عليه وسلم قد رفع لي الدنيا فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة، كما أنظر إلى كفي هذه. وأخرج أبو داوود قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فما ترك شيئا إلى قيام الساعة إلا حدثنا به. ومثله في مسلم، وزاد حفظه من حفظه ونسيه من نسيه. وفي الحديث الصحيح: فعلمت علم الأولين والآخرين. وصح أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بموت النجاشي يوم موته بالحبشة، وصعد أُحُدا بأصحابه الثلاثة فاهتز فضربه برجله وقال له: <<اثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان>>، فاستشهدا. وقال: <<إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده>>، وإذا هلك قيصر فلا قيصر، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله>>، فتحقق في زمن عمر. وقال لسراقة <<كيف بك إذا لبست سواري كسرى>>. فألبسهما له عمر. وأخبر عمه العباس ببدر بما تركه بمكة من المال ولم يطلع عليه أحد. وأخبر بكتاب حاطب إلى مكة، وبموضع ناقته حين ضلت وتعلقت بخطامها في الشجرة،

وبأن قريشا بعد الأحزاب يغزوهم ولا يغزونه. وباستشهاد أمرائه يوم موته بأرض الشام. وبأن فاطمة أول أهل بيته لحوقا به، فلحقته بعد ستة أشهر. وبأن أشقى الأولين والآخرين قاتل علي وهو ابن ملجم. وبأن عثمان يقتل مظلوما. وبوقعة الحرة من عسكر يزيد فاستبيحت نفوس أهلها وأبضاعهم وأموالهم، وقتل سبعمائة يحفظون القرآن، منهم ثلاثمائة صحابي. وافتض فيها ألف عذراء بوقعة الجمل وصفين وبقوله للحسن: <<إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين>>. فكان كذلك. فإنه بويع بعد أبيه فمكث ستة أشهر ثم سار لمعاوية بأربعين ألفا فلما تراأى الجمعان علم بكثرة الفريقين، وأنه لا يغلب أحدهما حتى يقتل الآخر، فرق على المسلمين وترك الملك في جنب ذلك ابتغاء وجه الله. وقصته مشهورة. وأخبر بقتل الحسين. وأخبر أم ابن عباس بأنها ستلده، وأنه أبو الخلفاء. وأخبر بوجود مالك، وقال: <<يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة>>. قال ابن عيينة وغيره: هو مالك بن أنس. ومن ثم كانوا يزدحمون على بابه لأخذ العلم حتى يقتتلون. وأخبر بالخوارج الذين خرجوا على علي كرم الله وجهه، وأن فيهم رجلا أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، فقاتلهم علي كرم الله وجهه، فالتمس ذلك الرجل فوجده على النعت الذي نعت صلى الله عليه وسلم. وأخبر بالرافضة والمرجئة والقدرية. وأن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، وبأنها كلها في النار إلا الفرقة التي تتبع ما كان عليه هو وأصحابه. نسئل الله بمنه وفضله وبجاه نبيه أن يجعلنا من المتمسكين بسنته، المتبعين لشريعته، المحبين لذاته الشريفة حتى نتوفى على ذلك، وأن يحشرنا في زمرته وحزبه وتحت لوائه، وأن يجعلنا من رفقائه، آمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

*** ثم قال الشيخ، رضي الله عنه:**

102 **لا تخَل جانب النَّبي مُضامًا ... حين مسَّته منهمُ الأسْواءُ**

103 **كل أمر ناب النبيين فالشِّـ ... ـدَّة فيهِ محْمودةٌ والرخاءُ**

اعلم أن ما أصاب سيدنا صلى الله عليه وسلم وكذا سائر الرسل عليهم الصلاة

والسلام من الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية، كإذاية الخلق لهم، وكالأمراض الخفيفة والجوع وغير ذلك، إنما حد ذلك الظاهر. وأما ما في باطنهم من الأنوار فلا تحل منهم قلامة ظفر بل لم يزل جانبهم المنيع ومقامهم الرفيع في مقام الترقي والظهور، فلا يطلبون إلا معالي الأمور، ف"**لا تخل**" أي تظن "**جانب النبي**" الأعظم، ومقامه الأكرم، "**مضاما**" أي مضيقا أو مظلوما "**حين مسته**" أي أصابته "**منهم**" أي من قومه "**الأسواء**" أي الإذايات الكثيرة، كضربه وخنقه وإغراء سفهائهم به فرموه حتى سال الدم على نعله، وكشج وجهه وكسر رباعيته، وغير ذلك مما لو حمله جبل لم يتحمله، بل لم يزل مقامه في زيادة العلو والاتفاع، ومقامهم في الانخفاض والتسفل حتى وصل إلى حضيض الذل والهوان، وكذا سائر الرسل عليهم السلام. ولذا قال: "**كل أمر ناب النبيين**"، أي أصابهم من الإذايات والأمراض، "**فالشدة فيه**"، أي فيما يصيبهم "**محمودة**" لأنها أرفع لدرجاتهم العلية، "**والرخاء**" محمود أيضا ككثرة الأتباع ونفي الأعداء، فإنها سبب لإظهار الدين ونشر أعلام الإسلام، وقواعد الأحكام.وبالله التوفيق.

*** ثم ضرب لذلك مثلا من المحسوس فقال رضي الله عنه:**

104 **لَوْ يَمَسُّ النُّضارَ هوْنٌ من النَّا ر لـمـا اخْتيـر للنُّضَار الـصِّلاءُ**

"**النُّضار**"، بضم النون، هو الذهب. يقول رضي الله عنه: إن الذهب لا يزيده مس النار إلا جودة وتصفية وتشحيرا. فلو كان يلحق "**النضار هون**" ونقص "**من**" مس "**النار ما اختير**" له "**الصلاء**" أي العرض على النار والشيُّ بها، لعزته على النفوس. وشحها عليه من أدنى نقص يصيبه. فكذلك خواص الله وأحباؤه، لا تزيدهم الشدائد والمحن إلا رفعة وتعظيما. ولذا قال سيدنا صلى الله عليه وسلم:<<أشدكم بلاء الأنبياء فالأمثل فالأمثل>>. وكذا ما يصيب المؤمنين من الأمراض والمحن، لا تزيدهم إلا تصفية وتطهيرا للنفوس، وتمحيصا للذنوب كما ورد في الأحاديث على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

* **ثم قال رحمه الله:**

105 **كـــم يــدٍ عــن نبـيه كفَّهـا اللــ ـــهُ وفـي الخلـقِ كثْـرةٌ واجْتِـراءُ**

106 **إذ دعـا وحْـده العبـادَ وأمْســتْ مــنْه فــي كــلِّ مُقلــةٍ أَقْـــذاءُ**

قد كان سيدنا صلى الله عليه وسلم في حفظ الله وكلاءته يدعوا الخلق كلهم إلى الله. وهو وحده، وينادي عليهم في أنديتهم بتسفيه أحلامهم وسب آلهتهم، فيبالغون في إذايته حتى أقرب أقاربه كعمه أبي لهب، وهو مع ذلك محفوظ منهم بحفظ الله متماد على ما هو فيه غير ملتفت لإذايتهم، بل صابر عليه الصبر الجميل، وأمره لا يزداد إلا ظهورا وعلوا، وأصحابه يكثرون ويتقوون على أعدائهم شيئا فشيئا إلى أن مكنه الله من نواصي أعدائه وحكمه الله فيهم بحكمه وعدله. "**كم يد**" أي كثيرا من الأيدي قصرت إذايته صلى الله عليه وسلم بالبطش والهلاك "**عن نبيه كفها الله وفي الخلق**" من الكفار "**كثرة واجتراء**" أي شجاعة وإقدام على ما يخطر بالنفس. "**إذ**" ظرف لكف "**دعا وحده العباد**" إلى عبادة الله وتوحيده "**وأمست**" أي صارت منه صلى الله عليه وسلم "**في كل مقلة**" وهي شحمة العين التي تجمع السواد والبياض "**أقذاء**" وهو ما يسقط في العين مما يؤلمها ويكدرها، وهي استعارة لما كان يلحقهم منه صلى الله عليه وسلم من تسفيه أحلامهم وسب آلهتهم، وإضلال آبائهم وإفساد دينهم. ذكر الزبير بن العوام رضي الله عنه: أن أشراف قريش اجتمعوا في الحجر فذكروا ما يفعله بهم صلى الله عليه وسلم من سبهم وسب آلهتهم، فطلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستلم الركن وطاف، فلما مر بهم انتقصوه فساءه ذلك، ثم مر بهم كذلك، ثم مر بهم ففعلوا كذلك، فوقف عليهم ثم قال: <<أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح>>. فأخذتهم كلمته وارتعدت فرائصهم، فألانوا له القول،وقالوا انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولا. الحديث.

* **ثم ذكر رضي الله عنه ما كف الله عنه ممن أراد قتله، فقال:**

107 **هَــمَّ قــومٌ بقــتْله فأبـى الـسَّيـ ـــف وفَـــاء وفــاءت الــصفواءُ**

108 **وأبو جهل إذ رأى عنقَ الفَحْـ ـــلِ إلـــيه كأنـــه العـــنْقاءُ**

فأهم قوم بقتل سيدنا صلى الله عليه وسلم، فدفع الله ذلك عنه ورد كيد من يريده في نحره. فمن ذلك قضية غورث وهي في الصحيح، وهو أنه كان إذا نزل منزلا اختار له أصحابه شجرة تظله، فبينما هو ذات يوم نائما تحت شجرة قد علق بها سيفه، إذ جاء أعرابي فاخترط سيفه، فاستيقظ صلى الله عليه وسلم فوجد السيف في يده، مصلتا، فقال: من يمنعك مني؟ فقال:<<الله>> فشاح السيف من يده. زاد في حديث آخر: فأخذه صلى الله عليه وسلم وقال:<<من يمنعك مني>> فقال: كن خير آخذ. فعفا عنه. فرجع إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس. وروي أنه وقع مثل هذا لرجل سيد لقومه شجاعة وغيرها أغروه على قتله فجاءه فرجع إليهم مسلما فأنكروا عليه فقال نظرت إلى رجل أبيض طويل دفع في صدري فوقعت لظهري وسقط السيف من يدي فعلمت أنه ملك وأسلمت. ووقع في غزوة حنين مثل هذا. ووقع لليهود مثله، حيث أرادوا طرح الصخرة عليه، فأعلمه جبريل بذلك، فقام سريعا. وقضية الشاة المسمومة، وغير ذلك مما هو كثير. وإلى ذلك أشار بقوله "**هم قوم**" إلخ وقوله "**وفاء**" تمييزا أي امتنع من الوفاء بما أراد منه ربه. وقوله "**وفاءت الصفواء**": رجعت الصخرة فامتنعت من أن تقع عليه صلى الله عليه وسلم، وذلك أن أبا جهل اللعين كان ذات يوم جالسا مع أشراف قريش، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فبالغ في إنذارهم وتسفيه أحلامهم وسب آلهتهم. فأظهروا له شدة الإباء والتعنت. فانصرف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال لهم أبو جهل اللعين: يا معشر قريش إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون، وإني أعاهد الله لأجلس له غدا بحجر ما أطيق حمله، أو كما قال. فإذا سجد في صلاته رضخت رأسه به، فأسلموني عند ذل أو امنعوني، فلتصنع بي عبد مناف ما بدا لهم. فقالوا: والله ما نسلمك لشيء أبدا. فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف، فلما سجد صلى الله عليه وسلم كعادته، وقريش ينظرون احتمل اللعين الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا يبست يداه على الحجر فقاموا إليه فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: قمت إليه لأفعل ما قلت إليكم، فلما دنوت منه

عرض لي فحل من الإبل لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل صورته وأنيابه لفحل قط، فهَمّ بي ان يأكلني. ذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: <<ذاك جبريل، لو دنا مني لأخذه>>. وإلى ذلك أشار بقوله: "**وأبو جهل**" أي ورجع أبو جهل "**إذ رءا**" أي حيث رءا "**عنق الفحل**" قد برز "**إليه كأنه العنقاء**" والعنقاء طائر عظيم كان يخطف الصبيان حتى دعا عليه نبي الله خالد بن سنان، كما قيل. والله تعالى أعلم.

*** ثم ذكر ما وقع لأبي جهل حيث ماطل الأعرابي دينه فقال:**

109 **واقتضاه النبي دين الإراشـ ـيِّ وقد ساء بيعُه والشراءُ**

110 **ورأى المصطفى أتاه بما لم ينج منه دون الوفاء النجاءُ**

111 **هو ما قد رآه من قبل لكن ما على مثله يُعد الخطاءُ**

هذه معجزة أخرى ظهرت لسيدنا صلى الله عليه وسلم، أذل الله بها عدوه أبا جهل لعنه الله. وقصتها أن كهلة بن عاصم بن إراش، قدم مكة بإبل يبيعها، فاشتراها منه أبو جهل ، ثم ماطله بأثمانها، فوقف الإراشي على نادي قريش فقال: من رجل يخلصني من أبي الحكم، فإني غريب وابن سبيل، وقد غلبني على حقي. فقالوا له: لا يخلصك منه إلا ذاك الرجل. وأشاروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في طائفة المسجد. قالوا ذلك استهزاء لما يعلم ما بينهما من العداوة. فجاء الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا عبد الله، إن أبا الحكم قد غلبني على حقي، وقد سألت أولئك القوم فأشاروا إليك، فخلصني منه يرحمك الله. فقام معه صلى الله عليه وسلم ليخلصه منه، وأمروا واحدا منهم لينظر ماذا يصنع. فضرب صلى الله عليه وسلم بابه عليه فقال: من ذا؟ قال: محمد، فأخرج إلي. فخرج إليه. وقد تنقع لونه. فقال: أعط هذا الرجل حقه. فقال: نعم، لا تبرح حتى تاخذه. فدخل وأخرجه إليه. فجاء إلى أولئك النفر وأخبرهم بما وقع. فجاء أبو جهل فقالوا له: ويلك، والله ما رأينا مثل هذا الذي صنعت، أذللت نفسك لمحمد. فقال: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب على بابي فسمعت صوته فملئت رعبا. ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا صورته ولا أنيابه لفحل قط. والله لو أبيت لأكلني. انتهى. وهو

معنى قوله: "**واقتضاه**" أي طلب منه تخليصه "**النبي**" صلى الله عليه وسلم "**دين**" مفعول ثان أو أول إن جعلنا اقتضاه على نزع الخافض، أي اقتضى منه دين "**الإراشي**" بكسر الهمزة، "**وقد ساء**" أي قبح "**بيعه والشراء**". والواقع منه الثاني وذكر الأول ليدل على قبح معاملته كلها . والجملة حالية ."**ورءا**" أبو جهل "**المصطفى**" صلى الله عليه وسلم "**أتاه بما**"، أي بأمر عظيم "**لم ينج منه دون الوفاء**" أي وفاء دين الإراشي "**النجاء**" أي رءا ما لم ينج منه نجاء، ففيه من المبالغة ما لا يخفى، كقول الشاعر:

مـــــلأ الـــــوجد فـــــؤادي وقـــــــــرح التبـــــــــريح

"**هو**" ما رءا الآن "**ما قد رءاه من قبل**"، وهو عنق فحل كأنه العنقاء، "**لكن**" لا استغراب في وقوع هذا الفعل منه لأنه قد عرف بالخبث ف"**ما على مثله**" في العتو والفحش "**يعد الخطاء**"، لأن خطأه أكثر من صوابه، فلا تعد خطاياه، وإنما لم يقل عليه لأنه أبلغ، فهو على مثلك لا يبخل لأنه كإثبات الحكم ببينة، ومدّ الخطأ: لغة شهيرة قاله الشارح. قلت: ويجوز ضبطه بكسر الخاء وهو الإثم، والله تعالى أعلم. وذكر الواقدي عن يزيد بن رومان قال: بينما رسول الله جالسا في المسجد ومعه رجال من أصحابه، أقبل رجل من بني زبيد يقول: يا معشر قريش، كيف تدخل عليكم المادة أو يحل تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم حرمكم، يقف على الحلق حلقة حلقة حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال له صلى الله عليه وسلم : ومن ظلمك ؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال كانت خيرة إبله فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها ثم لم يسمه بها لأجله سائم قال فأكسد علي سلعتي وظلمني. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأين جمالك قال هي هذه بالجزورة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام أصحابه ينظر إلى الجمال فرءا جمالا برها فسام الزبيدي حتى لحقه برضاه فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بعيرا باعه وأعطى أرامل بني عبد المطلب ثمنه وأبو جهل جالس في ناحية السوق لا يتكلم. ثم أقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا عم، لا تعد

لمثل ما فعلت فترى مني ما تكره. فجعل يقول: لا أعود يا محمد. فانصرف عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنما كان سيدنا صلى الله عليه وسلم تلحقه بعض الإذايات ويمنعه الله من البعض لينفذ فيهم أمر الله بدعائه صلى الله عليه وسلم عليهم فيهلكهم الله ليظهر دينه القويم، كقضية السلاء، فإنه دعا عليهم، فهلكوا عن آخرهم ببدر.

*** ثم قال الشيخ رضي الله عنه:**

112 وأعـدَّت حمَّالـة الحطـب الفِهـ ـرَ وجـاءتْ كأنهـا الـورقاءُ

113 يوم جاءت غضبى تقول أفي مثـ ـلي مـن أحمـدٍ يُقـال الهجـاءُ

114 وتَـولّت ومَـا رأتـه ومـن أيـ ـن تـرى الـشمسَ مُقلـةٌ عمْـياءُ

لما نزلت سورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ جاءت أم جميل امرأة أبي لهب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها بقوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ ﴾ إلخ فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفي يديها فهر من الحجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك، فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة: مذمّما عصينا، وأمره أبينا، ودينه قلينا. ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك. فقال:<<ما رأتني لقد أخذ الله ببصرها عني>>. انتهى. قاله في الاكتفا. وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب، لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر. وكلام الشيخ في غاية الوضوح. والورقاء هي الحمامة التي يخالط لونها سواد. وقيل الكثيرة الريش. والتشبيه في الإسراع والحدة.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

115 ثـم سـمَّـت لـه الـيهوديةُ الـشَّا ةَ وكـمْ سـامَ الـشِّقوةُ الأشـقياءُ

لما فتح سيدنا صلى الله عليه وسلم خيبر لسنة سبع من الهجرة، سمّت له يهودية اسمها زينب بنت الحارث بن مشكم شاة مصلية وأرسلتها إليه. فلما تناول منها الذراع وأكل منه لقمة كلمه وقال إن بي سما. فقال صلى الله عليه وسلم: <<اجمعوا لي من هنا من اليهود>>. فجمعوا له، فسألهم عن أشياء. فقال لهم: <<من أبوكم>>. قالوا فلان، فقال لهم: <<كذبتم بل أبوكم فلان>>. فقالوا: صدقت. ثم قال لهم: <<من أهل النار؟>>. قالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها. فقال لهم صلى الله عليه وسلم:<<اخسئوا فيها والله لا نخلفكم أبدا>>. ثم قال: <<هل جعلتم في هذه الشاة سما>>. قالوا: نعم. قال: <<ما حملكم عليه>>. قالوا: إن كنت كذابا استرحنا منك، وإن كنت نبيا لم يضرك. انتهى. رواه البخاري وغيره. وفي رواية أبي داوود أنها جعلت تسل أي الشاة أحب إليه فقالوا لها الذراع. فعمدت إلى عنز لها فذبحتها وصلتها ثم عمدت إلى سم ساعة فسمتها به وأكثرت منه في الذراع والكتف، ثم وضعتها بين يديه ومن حضر من أصحابه، وفيهم بشر بن البراء فتناول منها صلى الله عليه وسلم الذراع فانتهش منها وتناول بشر عظما آخر فازدرد لقمتيها، وأكل القوم. فقال صلى الله عليه وسلم: <<ارفعوا أيديكم فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة>>.

*** وإلى هذا أشار الشيخ بقوله:**

116 **فأذاعَ الذراعُ ما فيه من شـــ ـــرٍّ بـنطقٍ إخفـاؤهُ إبْـــداءُ**

ثم إن بشرا مات من أكلته تلك. قال رضي الله عنه: لما لُكْتُها علمت أن فيها سما، فنظرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكرهت أن أقذر عليه طعامه، فلما ساغ لقمته. قلت ما كنت لأوثر نفسي عليه صلى الله عليه وسلم. فسغتها. ولما مات بشر دفعها إلى أوليائه فقتلوها به ولم يعاقبها صلى الله عليه وسلم لأجل نفسه، لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينتصر لنفسه.

*** وهذا أشار بقوله:**

117 **وبخُلْــق مــن النبــي كــريمٍ لــمْ يقاصَص بجُرمها العجْماءُ**

وقيل إنها أسلمت فتركها. وقوله في البيت الأول: وكم سام الشقوة إلخ. أي كثيرا ما يطلب الشقا ويختاره الأشقياء، فهو من سوم البيع. وقوله "فأذاع" أي أظهر وأبدا ما فيه من شر أي سم. وقوله بنطق إخفاؤه أي عن الحاضرين أبداء له صلى الله عليه وسلم أو إسراره في غاية الوضوح والإبداء لا يخفى على أحد. والله أعلم. وقوله "**وبخُلُق**" أي بسبب خُلُقه "**الكريم لم يقاصص العجماء**"، وهي اليهودية، وجعلها عجماء لكثرة جهلها بهذا الجانب الأعظم. فهي كالبهيمة أو أضل.

*** ثم ذكر الشيخ أنواعا من أخلاقه الكريمة وشمائله العطيرة فقال:**

118 **منَّ فضْلا على هوازِنَ إذ كَا ن لــــهُ قـبلَ ذاك فـيهم رَبَـاءُ**

هوازن هي قبيلة حليمة السعدية رضي الله عنها، وهم أهل حنين المذكورين في القرآن. وحنين واد بين مكة والطائف. غزاهم صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة، فخرج إليهم في اثني عشر ألفا، العشر الذين حضروا مكة، وألفان الذين انضموا إليهم من الطلقاء هوازن وثقيفا، فلما التقوا قال نبي صلى الله عليه وسلم أو أبو بكر: لن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة، إعجابا لكثرتهم. واقتتلوا قتالا شديدا فأدرك المسلمين إعجابهم واعتمادهم على كثرتهم، فانهزموا حتى بلغ أولهم مكة، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مركزه ليس معه إلا عمه العباس آخذ بلجامه، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وناهيك بهذا شاهدا على شجاعتهما. فقال للعباس وكان صيتا: صح بالناس، فنادى: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عنقا واحدا يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة والتقوا مع المشركين، فقال عليه السلام:هذا حين حمي الوطيس. ثم أخذ كفا من تراب فرماهم. ثم قال: انهزموا ورب الكعبة، فانهزموا، وغنم المسلمون من نسائهم وذراريهم ستة آلاف رأس، ومن الإبل أربعة وعشرين ألفا، ومن الغنم فوق أربعين ألفا، وأربعة آلاف أوقية فضة، وذلك أنهم حين أرادوا حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوا بأموالهم ونسائهم ليقاتلوا دونهم خوف الفرار ، فهزمهم الله عز وجل، وغنم أموالهم بالجعرانة حتى يأتيهم، ولما رجع من الطائف انتظر هوازن بضع عشر يوما ليقدموا عليه مسلمين، ثم أخذ في قسم

الغنائم، فجاؤوا مسلمين فقالوا: يا رسول الله، إنا أهلك وعشيرتك، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا، من الله عليك. وقام رجل من فخذ حليمة فقال: يا رسول الله إنما في الحضائر عماتك وخالاتك، أي من الرضاعة، لأنهن قرابات حليمة، ولو أنا أرضعنا الحارث بن سمرة والنعمان بن منذر ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت فيه لرجونا عطفه، وأنت خير المكفولين. فقال صلى الله عليه وسلم: إن أحسن الحديث لصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين، إما السبي وإما المال، فقالوا: إنا نختار سبينا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما ما كان لي ولعمي عبد المطلب فهو لكم، وإذا صليت الظهر فقوموا وقولوا: إنما نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسر لكم، ففعلوا ذلك فقال صلى الله عليه وسلم: أما ما كان لي ولعبد المطلب فهو لكم. وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقالت الأنصار مثل ذلك. وامتنع بنو تميم وبنو فزارة وعباس بن مرداس من بني سليم، فوعدهم صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم من أول سبي يصيبه بما طابت به نفوسهم. فردوا من بقي عندهم. وهذا معنى قوله: من إلخ. و"**منّ**" صلى الله عليه وسلم "**على هوازن**" "**فضلا**" منه وإحسانا إليهم، لأجل أنه صلى الله عليه وسلم "**كان له قبل ذلك فيهم رباء**" بفتح الراء، أي تربية، يقال ربوت في بني فلان وربيت فيهم، إذا نشأت بينهم.

*** ومن حسن أخلاقه وكرم شمائله ما فعل مع أخته من الرضاعة فأشار إلى ذلك بقوله:**

119	**وأتـى السبيُ فيه أختُ رضاعٍ**	**وضَـع الكُفـر قـدْرها والـسِّبـاءُ**
120	**فحـباها بِـرًّا تـوهَّمت الـنـا**	**سُ بـه أنمـا الـسباء هِـداءُ**
121	**بـسط المـصطفى لها مـن رداء**	**أي فـضل حـواه ذاك الـرِّداءُ**
122	**فغـدت فـيه وهـي سيدة الـنسـ**	**ـوة والـسيدات فـيه إمـاءُ**

لما أتى سبي هوازن وجيء به إلى سيدنا صلى الله عليه وسلم ليقسمه، جاءت إليه أخته من الرضاعة واسمها الشماء فقالت: يا رسول الله إني أختك، قال: وما علامة ذلك ؟ قالت: عضة منك في ظهري، فعرف ذلك سيدنا صلى الله عليه وسلم، فأعتق السبي كله من أجلها مع ما تقدم من طلبهم منه. فقوله "**وأتى السبي**" أي المسبي، فهو المأسور حالة كونه "**فيه أخت رضاع**" وهي الشماء، "**وضع الكفر قدرها**" كما وضع قدر أبي لهب وأبي طالب ووضع قدرها أيضا "**السباء**" فلما أسلمت وعرفها سيدنا صلى الله عليه وسلم سارت سيدة نسائها "**فحباها**" أي أعطاها وبذل لها "**برا**" أي برورا وإحسانا "**توهمت الناس**" الذين رأوا ذلك البر والإحسان أي وقع في وهمهم به، أي بسبب ذلك البر والإحسان الذي وصل إليها منه صلى الله عليه وسلم. أنما، بفتح الهمزة، للحصر "**السباء**" أي النساء التي يسبين معها "**هداء**"، بكسر الهاء، مصدر هديت المرأة لزوجها هدى، أي مهديات وجملة إنما سدت مسد مفعولي توهمت. أي توهم الناس أن النسوة اللاتي معها في السبي لم يسبين لما وصل إليهن من البر والإكرام ببركة أخته صلى الله عليه وسلم، وإنما هي عرائس مهديات لأزواجهن. "**بسط المصطفى**" بدل من قوله برا أو معطوف على حبا "**لها من رداء**" فمن زائدة أو تبعيضية. أي بسط لها صلى الله عليه وسلم رداء كان عليه، أي نشره وجعله فراشا لها لتجلس عليه، فما أكرم ذلك الرداء، وما أكرم صاحبه، "**أي فضل حواه**"، أي جمعه "**ذاك الرداء**" لمماسته لجسده الشريف صلى الله عليه وسلم. "**فغدت**" أي صارت "**فيه**"، أي في ذلك الفضل أو الرداء. والحالة أنها "**هي سيدة النسوة**" اللواتي معها من سبي هوازن لما حصل لها من التمييز الباهر عليهن. "**والسيدات**" أي وتلك النسوة فيه أي في ذلك الفضل "**إماء**"، أي صارت كأنها سيدتهن وكأنهن معها إماءا. حصل لها من الفضل والكرم منه صلى الله عليه وسلم، ولمّا أجلسها صلى الله عليه وسلم على ردائه خيرها وقال لها: إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت. فاختارت قومها، فمتعها وزاد في الإحسان إليها كما هو شأنه صلى الله

عليه وسلم. وأعطاها غلاما يقال له مكحول وجارية فزوجته بها، فلم يزل فيهم من نسلها بقية. نفعنا الله بالجميع.

*** ولما ذكر ما اختصت به ذاته الشريفة صلى الله عليه وسلم، من الرفعة والترقي إلى ما لم يصل إليه مخلوق وما يتعلق بذلك من صفات تنقطع أعناق الأطماع أن تمتد إليها، وخصال لم يعول آمال الكل إلا عليها، طلب من كل سامع فاته مشاهدة رؤيته أن ينزه سمعه في محاسن صفاته، ويستحضر تلك في قلبه لتزداد المحبة فيه والشوق إليه فقال:**

123 **فتنزَّه في ذاتهِ ومعانيـ ـه استماعا إن عزَّ منها اجتلاء**

التنزه في محاسن ذاته الشريفة وصفاته الجميلة والاطلاع على سيره وأخباره ومحاسن أخلاقه وشمائله من أعظم القرب وأكمل الرتب، لأنه يكسب محبته الذي هو عقد من عقود الإيمان. وتوجب معرفته الخاصة فتثمر له القرب والتقرب وهو في حقه صلى الله عليه وسلم الاطلاع على الأسرار المكنونة، والأنوار المصونة، فتستلزم الرضى للعارف وأيضا بالاطلاع على تلك المحاسن والكمالات يضطر المطلع إلى تعظيمه وإجلاله صلى الله عليه وسلم لما يشهده مما يبهر عقله ويسبي لبه. ولله در القائل:

تكامل حسن الخلق فيمن أحبه فلله كم عقل لنا حسنه سبا

وحينئذ يسارع إلى خدمته بكل ما يمكنه ويقدر عليه، ويوثر استرضاءه على هوى نفسه ويشتاق إلى كل ما له رائحة من جنابه وانتساب إليه. قال بعضهم: كنا ذات يوم مع سيدي رضوان فجاءه رجل شريف من مكة أراد زيارته فأخبرناه به وقرب الرجل منه ليسلم عليه فأخذ رأسه وضمه إليه وقبله بين عينيه وهو يبكي، والرجل بين يديه مطأطئا رأسه وكان يقول في بكائه: يا رب هذه رائحة مكة، ويكررها مرات. يا رب هذا جاء من نحو الحبيب. يا رب إني أحب هذه الرائحة الطيبة. ثم أرسله، وأخذ يسأله فكان الرجل يخبره عن تلك المعاهد وهو يبكي، وبكى كثير من الحاضرين. وأنشدوا في المعنى:

ألا يا قادما من نحو رامة شممت عليك الطيب من ساكن قبا
عن الجذع حدثني وكيف نسيمه وكيف غصون البان مال بها الصبا
أيحسب سكان الحجاز بأنني سلوت الذي قد حل في ذلك الخبا
فلأن وداد بيننا ما سلوته ولا كان في قلبي إلى غيره صبا
تخلل مني مسلك الروح حبه ألفت هواه والصبابة في الصبا
تكامل حسن الخلق فيمن أحبه فلله كم عقل لنا حسنه سبا
وفي آل عاد شاع من قبل حسنه وآل ثمود والقبائل من سبا
رفعت على العشاق راية حبه سيظهر لي في الحشر من حبه نبا

ثم إن الشيخ رضي الله عنه طاب قلبه وتحرك وشرع في مدحه صلى الله عليه وسلم وذكر شمائله، ونظم في تلك الساعة هذه الأبيات، وأمر أهل المجلس أن يعملوا بها، فقطعنا بذكرها ساعة وهي هذه:

وكان رسول الله أكرم عشرة وكان رسول الله أكرم نسمة
وكان إذا مشى الطوال يطولهم وينعته رائي سناه بربعة
فصلى الله عليه ملء جنانه وسلم تسليما بغير نهاية

انتهى. وإذا استحضر العارف به أوصافه الجليلة وحلاه الجميلة تمنى أن لو كان معه في عصره، وأنفق عليه ماله وقوته وروحه وفداه بنفسه وأولاده وأهله، فيكون له ثواب ذلك الخبر: من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة. وفي الإسرائيليات: أن رجلا مر بكتبان رمل في مجاعة. فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته على الناس. فأوحى الله إلى نبيهم أن قل له: إن الله قد قبل صدقتك، وشكر حسن بيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به. ويرحم الله سيدي رضوان المتقدم حيث قال:

فلو كنت يوم الغار كنا ثلاثة ولو كنت في بدر لكنت من المدد
ويوم حنين لو حضرت فديتكم بنفسي وأولادي وأهلي وما ولد
وما أنا ما أهلي وما قدر قيمتي ولكن ممدوحي لأفضل من قصد

*** وبالجملة فسماع محاسنه صلى الله عليه وسلم والتنزه في سيره وأخباره من أقرب الوسائل إلى الاحتظا بمحبته، والاختصاص بالقرب منه. فيكون أولى الناس به في الدنيا والآخرة. ولا سيما إن كانت منظومة مع موافقة النغم فلا شك أن ذلك يزيد طربا ولذة ويغمر العقل غيبة وسكرا. ولذا قال:**

124 **واملأ السمْع من محاسنِ يُمليـ ـهـا عليك الإنشاد والإنشاءُ**

ملء السمع من محاسنه صلى الله عليه وسلم، هو استفراغ الوسع في تتبعها والبحث عنها والاستماع إلى ذكرها بقلب فارغ، وقريحة شاحذة. و"**الإنشاد**": هو الإتيان بالكلام موزونا مقفا. "**والإنشاء**" فعل ذلك. ويقال أمليت الكتاب وأمللته، إذا قرأت ما فيه. ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ** ﴾. وقوله في البيت قبله فتنزه إلخ. قال الشارح هو من قولهم خرجنا نتنزه في الرياض. انتهى. قال ابن حجر وكأنه جرى في ذلك على العرف إذ التنزه كما في القاموس التباعد. ثم قال: وأرض نزهة أي بعيدة عن الريف أي الخصب والزرع وعفن المياه. ثم قال: واستعمال التنزه في الخروج إلى البساتين والخضر والرياض غلط قبيح. انتهى. وقوله "**في ذاته**" أي في محاسن ذاته الباطنة الذاتية. وقوله "**ومعانيه**" أي الأوصاف المعنوية كالعلم والكرم والشجاعة والنجدة والزهد والحلم والصبر والتحمل والتقى وغير ذلك مما يفوت الحصر. وقوله "**استماعا**" تمييز أي من جهة إصغائك إلى تلك المحاسن التي كان عليها. وقوله "**إن عز منها اجتلاء**"، أي إن عظم من تلك المحاسن اجتلاء العروسة لينظر إليها مزينة فتنزه فيها. جواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، ولا شك أن المصنف بهج محاسنه صلى الله عليه وسلم وزينها في نظمه حتى صارت في غاية الحسن. وانظر أيضا إلى قوله في الدرة اليتيمة:

فالدر يزداد حسنا وهو منتظم ولیس ينقص قدرا غير منتظم

*** ولما أوهم أنه استقصى جميع محاسنه وأحاط بكل كمالاته وصف ذلك**

بقوله:

125 كل وصْف له ابتدأت به استوْ عــبَ أخْبار الفضل منه ابتداءُ

لا شك أن ما اشتمل عليه سيدنا صلى الله عليه وسلم من أوصاف الكمال ومحاسن الجمال لا نهاية لها ولا يمكن استقصاها، بل كل وصف من أوصافه صلى الله عليه وسلم لا يمكن استيفاء الأخبار عن فضائله ومحاسنه، بل تستوعب جميع ما عندك من الأخبار عن فضله وأنت في محل ابتدائه، وأما انتهاؤه فلا مطمع فيه. ولله ذر أبي القاسم بن جزي حيث قال:

ومـن لـي بحـصر البحـر والبحـر زاخـر ومـن لـي بإحـصاء الحـصا والكـواكب

وهذا معنى قول الشيخ رضي الله عنه ونفع به: "**كل وصف له**" صلى الله عليه وسلم "**ابتدأت به**" أي بالكلام على فضله "**استوعب**"، أي: أحاط ابتداؤه جميع "**أخبار الفضل**" الناشئة "**منه**" دون أن تبلغ نهايته ولا تقارب. وبالجملة، فكل وصف من أوصاف سيدنا صلى الله عليه وسلم لا يمكن استيعاب فضائله بل تستوعب ما عندك وأنت في ابتدائه، هذا مراد الشيخ والله أعلم. فقوله "**ابتداء**" فاعل استوعب. و"**أخبار الفضل**" مفعول مقدم ومنه متعلق بمحذوف.

*** ثم ذكر شيئا من أوصاف ذاته الكريمة، وأخلاقه الجميلة، إلا أن الشيخ لم يذكر كثيرا من أوصاف ذاته الشريفة، وإنما ذكر بعضها، وسنكمل إن شاء الله ما وفقنا عليه بعد شرح ما ذكر الشيخ في قوله:**

126 سـيِّدٌ ضَـحْكُهُ التبـسُّم والمـشْـ ــي الهُوَيْـنَا ونــومُه الإغفــاءُ

أما كونه سيدًا صلى الله عليه وسلم فقد ورد في أحاديث كثيرة صحيحة كما في حديث الترمذي:<<أنا سيد ولد آدم يوم القيامة>>. الحديث. وفي حديث الشفاعة: انطلقوا إلى سيد ولد آدم. وفي حديث الصحيحين:<<أنا سيد الناس يوم القيامة>>. والسيد هو الذي يسود قومه، أي يتقدم عليهم بما فيه من خصال الكمال، والشرف التام. وقيل هو الكامل المحتاج إليه بإطلاق، أو العظيم المحتاج إليه غيره. وقيل هو

الذي يرأس قومه. وقيل هو الملك الذي تجب طاعته. هذا قول أهل اللغة. وأما أهل التفسير: فقال ابن عباس: السيد هو الكريم على ربه عز وجل. وقال قتادة: السيد هو العابد الورع الحليم. وقال عكرمة: السيد هو الذي لا يغلبه غضبه. وسيادته صلى الله عليه وسلم أجلى وأوضح من أن يستدل عليها، فهو سيد العالم بأسره من غير تقييد ولا تخصيص في الدنيا والآخرة. وإنما قال في الحديث: <<أنا سيد الناس يوم القيامة>> لظهور انفراده بالسؤدد والشفاعة فيه عن غيره حين يلجأ إليه الناس في ذلك فلا يجدون سواه، وجميع الخلائق مجتمعون أولهم وآخرهم إنسهم وجنهم وفيهم الأنبياء والمرسلون، وتلك الدار دار الدوام والبقاء، فهي المعبرة. وقد كان صلى الله عليه وسلم معلوما بالسيادة نسبا وطبعا وخلقا وأدبا إلى غير ذلك قبل ظهوره بالنبوة وبعدها، يعرف ذلك من اعتنى بالسير، وتعرف أحواله من الصغر إلى الكبر، صلوات الله عليه. وقال صلى الله عليه وسلم: <<آدم فمن دونه من الأنبياء تحت لوائي يوم القيامة>>. وحديث الشفاعة المشهور في تقدمه صلى الله عليه وسلم على غيره من أكابر الرسل عليهم السلام، وظهوره بالسيادة عليهم من غير منازع. وقوله: <<أنا أول شافع وأول مشفع، وأنا أول من تنشق عنه الأرض>>. وقوله صلى الله عليه وسلم<<كنت نبيا وآدم بين الطين والماء>>. يقضي بسيادته على جميع الخلق. ثم اعلم أن أوصافه صلى الله عليه وسلم على قسمين: ما لا كسب فيها للعبد ككمال خلقته وجمال صورته، وقوة عقله وصحة فهمه، وفصاحة لسانه وقوة حواسه وأعضائه، واعتدال حركته وشرف نسبه وكرم أرضه. ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه من غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه. والقسم الثاني: ما يكون مكتسبا، وقد يكون جبليا كما في حق سيدنا صلى الله عليه وسلم: كالحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع، والعفو والعفة والجود والشجاعة والمروءة، والصمت والتؤدة والوقار والرحمة، وحسن الأدب والمعاشرة، وأخواتها وهي التي جمعها حسن الخلق. قاله في الشفا. والقسم الأول هو الذي عبر عنه الشيخ : بحسن ذاته، والقسم الثاني هو الذي عبر عنه الشيخ بمعاني ذاته، وكذلك فعل في بردته حيث قال: فهو الذي تم معناه وصورته. إلخ. ولم يستوعب الكلام على القسم الأول، وإنما أشار إلى

البعض، فقال: "**سيد**" تقدم تفسيره "**ضحكه التبسم**" أي الذي يظهر سوره من الضحك إنما هو التبسم. قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيته مستجمعا قط ضاحكا، إنما يتبسم، ولا ينافيه ما ورد أنه ضحك حتى بدت نواجذه بالذال المعجمة، وهي الأضراس، لأن ذلك إنما كان في مواطن قليلة. والغالب إنما كان التبسم، والمكروه إنما هو الإكثار منه والإفراط فيه، سواء كان بقهقهة أو لا، لما ورد أنه يميت القلب. والتبسم مبادئ الضحك من غير صوت. والضحك انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفي، وإن كان فيه صوت يسمع من بعيد فهو القهقهة. وأما بكاؤه صلى الله عليه وسلم فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ولا رفع صوت، ولكن قد تدمع ويسمع لصدره أزيز غليان من خشية الله تعالى وعند سماع القرآن أو غيره من محركات البكاء. وجاء أنه صلى الله عليه وسلم لم يتثاءب قط، بل كل نبي كذلك، لأنه من الشيطان. وأما مشيه فهو "**الهوينا**"، تصغير الهون، وهو السكينة والوقار. وقد مدح الله تعالى من يمشي كذلك، فقال عز من قائل: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ولا ينافي ذلك رواية الترمذي عن أبي هريرة: ما رأيت أسرع من مشيه صلى الله عليه وسلم، كأن الأرض تطوى له، إنا لنُجهِد أنفسنا وإنه غير مكترث لأن عجزهم عن لحوقه ليس لأنه يجهد نفسه في المشي كما يدل عليه قوله: غير مكترث، بل لأنه كان يبارك له في مشيه، كما يدل عليه قوله: كأن الأرض تطوى له، فهو مع هون مشيته لا يلحق. وقال ابن القيم في روايته: كان إذا مشى تقلع. والتقلع الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط في الصبب، وهي مشية أولي العزم والهمة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، بخلاف مشية المتكبر لا يكاد يتحرك، ومشية أهل الخفة والطيش بالانزعاج والالتفات. وكان صلى الله عليه وسلم إذا مشى معه أصحابه قدمهم أمامه وقال: <<خلوا ظهري للملائكة>>. وكان إذا مشى في شمس أو قمر لا يظهر له ظل، لأنه صلى الله عليه وسلم كله نور. وقد قال صلى الله عليه وسلم في دعائه: <<واجعلني نورا>>. وأما "**نومه**" فهو "**الإغفاء**"، أي خفة النوم بحيث لا يستغرق لأن الاستغراق إنما يولد عن نوم القلب، وغفلته المتولدين

من الشبع المفرط، وهو صلى الله عليه وسلم كسائر الأنبياء تنام عينه ولا ينام قلبه، ومن ثم لم ينتقض وضوءه بالنوم، وذلك من كمال حياة قلبه ويقظته ودوام شهوده لربه، ولا ينافيه قضية الوادي حيث نام حتى طلعت الشمس، لأن رؤيتها من وظيفة العين، والقلب إنما يدرك ما يتعلق به نحو الألم. وأما العين فهي نائمة. والله تعالى أعلم. هذا ما ذكر الشيخ من أوصاف ذاته الشريفة. وسنشير إلى لمحة يسيرة مما بقي من أوصافه صلى الله عليه وسلم، فنقول: أما قامته صلى الله عليه وسلم فكان ربعة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، ومع ذلك لم يكن يماشيه أحد فينسب إلى الطول إلا طاله صلى الله عليه وسلم. وأما وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم فكان مدور الوجه مع سهولة الخدين، واسع الجبين كث اللحية. وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئا أحسن منه، كأن الشمس تجري في وجهه. وقيل للبراء: أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف. قال: لا كالقمر. أي لم يكن كالسيف في الطول واللمعان، بل كالقمر في التدوير وفوق لمعان السيف. وعن علي رضي الله عنه: لم يكن بالمكلثم، أي شديد استدارة الوجه بل بتدوير قليل وهو أحلى عند العرب. وهو معنى قول غيره: أسيل الخدين، أي فيهما طول وسلامة من ارتفاع الوجنة. وفي حديث الحسن قال: سألت خالي هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان وصافا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخما مفخما، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظم الهام، رجل الشعر إن انفرقت عقيقته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنه إذا هو وفر، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب، سوابغ من غير قرن بينهما، عرق يدره الغضب، أقنى القرنين، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، أدعج، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية، في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادنا متماسكا، سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور متجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخيط، عاري الثديين مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين وسائر الأطراف، سبط العصب.

وفي رواية القصب، وهو أشبه خمصان الأخمصين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء، إذا زال زال تقلعا، ويخطو تكفيا، ويمشي هونا، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعا، خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام. قلت: صف لي منطقه. قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، يتكلم بجوامع الكلم فصلا لا فضول فيه ولا تقصير، دمثا، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئا، لم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه، ولا يقاوم لغضبه إذا تعرض للحق شيء، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى على اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، ويفتر عن حب مثل الغمام. إلى آخر الحديث. رواه الترمذي. فقد اشتمل هذا الحديث على جل أوصافه صلى الله عليه وسلم. فلنقصر عليه ففيه الغنية والكفاية. وتقدم كلام أم معبد حين مر بها في هجرته صلى الله عليه وسلم حيث وصفته لزجها ببعض صفته فراجعه.

*** ثم أشار الشيخ إلى القسم الثاني من معاني ذاته الشريفة، وهي أخلاقه الطيبة، فقال:**

127 **ما سوى خُلُقِه النسيمُ ولا غيـ ـرُ محـيَّاهُ الرَوْضــةُ الغَــنَّاءُ**

الخُلُق، بضمتين، وقد يسكن، قال الراغب: هي والمفتوح في الأصل بمعنى واحد. لكن خص المفتوح بالهيئات والصور المبصرة، والمضموم بالسجايا والقوى المدركة بالبصيرة. واختلف في المضموم: هل هو غريزة أو مكتسب. والحق أن أصله غريزي وتمامه مكتسب، لقوله صلى الله عليه وسلم للأشج: <<إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناءة>>. قال: يا رسول الله <<قديما>> كان في أو حديثا. قال: قديما. قال: الحمد له الذي جبلني على خلقين يحبهما. ومن دعائه صلى الله عليه وسلم: <<كما أحسنت خلقي، فحسن خلقي>>. فهو جبلة في نوع الإنسان، وهم

متفاوتون فيه. فمن عدم جنسه أو كماله أمر بالمجاهدة والرياضة حتى يقوى أو يصير محمودًا. وتعريف الخلق الحسن: ملكة يقتدر بها على فعل الجميل وترك القبيح. و"**النسيم**" الريح اللطيفة اللينة، أو التي تحمل الرائحة الطيبة والمحيا: الوجه، لظهور الحياء فيه. و"**الروضة الغناء**" الكثيرة النبات والأزهار والثمار. وفي البيت تقديم وتأخير. وعكس التشبيه مبالغة. والتقدير: ما النسيم سوى خلقه أي ليس النسيم الطيب إلا خلقه صلى الله عليه وسلم، والأصل تشبيه خلقه بالنسيم ثم قلب التشبيه مبالغة. وكذا قوله "**ولا غير محياه**" إلخ أي ليس الروضة الغناء إلا وجهه الكريم، من عكس التشبيه أيضا، وفيه تشبيه الأعلى بالأدنى، فإن خلقه ومحياه صلى الله عليه وسلم لا يوازيه شيء أو يفوقه. والتشبيه بالنسيم من حيث كونه حياة للقلوب وتقوية للنفوس. فكما أن النسيم الطيب تتقوى به النفوس وتحيا، فكذلك خلقه صلى الله عليه وسلم تحيى به الأرواح وتتغذى به القلوب. وأما تشبيه محياه بالروضة فمن حيث البهجة والسرور والنضرة والحبور. ولا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم قد أعطاه الله من خصال المال وصفات الإجلال والجمال ما لا يحصره حد ولا يحيط به عد حتى أثنى عليه بقوله في كتابه الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ ﴾ فوصفه بالعظم، وزاد في المدحة بإتيانه بعلى المشعرة بأنه صلى الله عليه وسلم استعلى على معاني الأخلاق واستولى عليها فلم يصل إليها مخلوق غيره، ووصف بالعظم دون الكرم الغالب وصفه به لأن كرمه يراد به السماحة والرأفة، وخلقه صلى الله عليه وسلم غير مقصور على ذلك، فكما كان عنده غاية الرحمة للمؤمنين، كان عنده غاية الغلظة والشدة على الكافرين، فاعتدل فيه الإنعام والانتقام، ولم يكن له همة سوى الله تعالى، فباشر الخلق بخلقه، وباينهم بقلبه. وقد قال صلوات الله وسلامه عليه: <<بعثت لأتمم مكارم الأخلاق>> فكل خلق حميد اندرج تحت خلقه صلى الله عليه وسلم. ومن ثم قالت عائشة رضي الله عنها : كان خلقه القرآن. قال السهروردي رضي الله عنه في عوارفه في قولها ذلك: رمز غامض وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت الحضرة الإلاهية أن تقول: كان متخلقا بأخلاق الله تعالى، فعبرت عن المعنى بقولها: كان خلقه القرآن،

استحياء من سبحات الجلال، وسترا للحال بلطيف المقال. وهذا من وفور عقلها وكمال أدبها. انتهى.

وقال بعض العارفين: لما كان خلقه أعظم خلق بعثه الله إلى جميع العالمين، وخلقه صلى الله عليه وسلم لم يكن باكتساب وإنما كان في أصل خلقته بالجود الإلهي والإمداد الرحماني الذي لم تزل تشرق أنواره في قلبه إلى أن وصل لأعظم غاية وأتم نهاية. انتهى. قاله ابن حجر وابن جزي. وتفصيل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع كل فضيلة، وحاز كل خصلة جميلة، فمن ذلك شرف النسب، ووفور العقل، وصحة الفهم، وكثرة العلم، وكثرة العبادة، وشدة الحياء والسخاء والصدق والشجاعة، والصبر والشكر والمروءة والتؤدة والاقتصاد والزهد والتواضع والشفقة، والعدل والعفو وكظم الغيظ وصلة الرحم وحسن المعاشرة، وحسن التدبير وفصاحة اللسان وقوة الحواس وحسن الصورة وغير ذلك، حسبما ورد في أخباره وسيره صلى الله عليه وسلم. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:<<بعثت لأتمم مكارم الأخلاق>>. وقال الجنيد: سمي خلقه عظيما، لأنه لم تكن له همة سوى الله عز وجل.انتهى. قال في الشفا، بعد أن ذكر جملة شافية من أخلاقه صلى الله عليه وسلم ما نصه: أما أصل فروعها وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتها، فالعقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرع من هذا ثقوب الذهن وجودة الفطنة والإصابة وصدق الظن والنظر للعواقب ومصالح النفس ومجاهدة الشهوة وحسن السياسة والتدبير وإنشاء الفضائل وتجنب الرذائل. وقد أشرنا إلى مكانه منه صلى الله عليه وسلم وبلوغه منه من العلم الغاية التي لم يبلغها بشر سواه. وإن جلالة محله من ذلك ومما تفرع منه محققة عند من تتبع مجاري أحواله واطراد سيره وطالع جوامع كلامه وحسن شمائله، وبدائع سيره وحكم حديثه، وعلمه ما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء، وسير الأمم الخالية وأيامها، وضرب الأمثال وسياسة الأنام وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفيسة والشيم الحميدة، إلى فنون العلم التي اتخذ أهلُها كلامه عليه السلام قدوة، وإشارته حجة، كالعبارة والطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك دون تعلم ولا مدارسة ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم، بل نبي أمي لم يعرف

بشيء من ذلك حتى شرح الله صدره وأبان أمره وعلّمه واقرأه، يُعلم ذلك بالمطالعة والبحث من أحواله ضرورة، وبالبرهان القاطع على نبوته نظرا، ولا نطول بسرد الأقاصيص وأحاديث القضايا. إذ مجموع ذلك لا يأخذه حصر. وبحسب عقله كانت معارفه صلى الله عليه وسلم إلى سائر ما علمه الله تعالى وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان، وعجائب قدرته وعظيم ملكوته. قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: 113]. حارت العقول في تقديم فضله عليه، وخرست الألسن دون وصف محيط بذلك أو ينتهي. انتهى. وتتبع شرح أخلاقه صلى الله عليه وسلم يخرج عن المقصود ومن أراد ذلك فعليه بالشفا.

*** ثم ذكر الشيخ نبذة من ذلك فقال:**

128 **رحْمـةٌ كُلُّـهُ وحـزْم وعـزْم ... وَوَقَـارٌ وعـصمةٌ وحـيـاءُ**

أما كون سيدنا صلى الله عليه وسلم كله رحمة فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: 107] وقال صلى الله عليه وسلم: <<أنا رحمة مهداة>>. وقال بعض العلماء: زينه ربه بزينة الرحمة، فكان وجوده وجميع شمائله رحمة للعالمين وللمؤمنين. وقال الشيخ سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو عين الرحمة. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: 107]. وقال سيدي عبد الجليل القصري على هذه الآية: فهو صلى الله عليه وسلم المرحوم به العالم بنص هذه الآية. وإن كل خير ونور وبركة شاعت وظهرت في الوجود وتظهر من أول الإيجاد إلى آخره إنما ذلك بسببه صلى الله عليه وسلم. وقال الإمام أبو عبد الله الترمذي في نوادر الأصول: جعل تعالى للجنة بابا زائدا وهو باب محمد صلى الله عليه وسلم، وهو باب الرحمة، وهو باب التوبة، فهو منذ خلقه الله مفتوح لا يغلق، فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق فلم يفتح إلى يوم القيامة، وسائر الأبواب: أبواب الأعمال مقسومة على أعمال البر. ثم قال: فأما باب التوبة من الجنة الزائد على الأبواب فليس هو

بالعمل، إنما هو باب الرحمة العظمى، إليه تدخل توبة العباد إلى الله. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:<<أنا نبي التوبة، وأنا رحمة مهداة>>. فنفس محمد رحمة للعالمين، وسائر الأنبياء مبعثهم رحمة، فلذلك سعد من أجاب ما بعثوا به من الهدى. وعوجل بالعذاب من أعرض عنهم. ومحمد عليه السلام مولده ونفسه رحمة وأمان، وكذا مدفنه إلى نفخ الصور فحرمة تلك الرحمة وأماني قائم. انتهى. وفي الشفا: وحكي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لجبريل: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت. انتهى. ولما شج وجهه صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته يوم أحد، قالوا: لو دعوت عليهم. فقال: <<إني لم أبعث لعَّانا، ولكن بعثت داعيا ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون>> إني أغفر لهم هذا الشيء المخصوص لا مطلقا، وإلا لأسلموا كلهم. ذكره ابن حبان. وإنما دعا عليهم يوم الخندق لأنهم شغلوه عن الصلاة الوسطى، فكان الدعاء لله لا لحظ نفسه. قاله ابن حجر. وأما كونه صلى الله عليه وسلم كله حزم فلا شك أنه صلى الله عليه وسلم كان حازما في دين ربه، مشمرا عن ساعد جده، مستوفزا في مرضاته، لم يحصل له من ذلك عي ولا فتور، ولا نقص في ذلك ولا قصور، حتى أظهر دين ربه عز وجل غاية الظهور، فذلك كان معروفا منذ بعثه الله إلى أن قبضه إليه، صلوات الله وسلامه عليه. وأما كونه صلى الله عليه وسلم كله عزم، فلا شك أنه صلى الله عليه وسلم سيد أهل العزم، وقد صبر صلى الله عليه وسلم على مكابدة الأعداء ومداومة الأعمال ومشاهدة الحق مع مكابدة الخلق ودوام التبليغ، وتحمل أعباء الرسالة، امتثالا لقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: 35] فالعزم هو القطع، تقول عزم على الشيء أي قطع به، وجزم عليه من غير إخلال ولا فتور. وقد قالت عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: كان عمله ديمة، وأيكم يطيق ما كان يطيق رسول الله صلى الله عليه وسلم. انتهى. وكان إذا فعل فعلا داوم عليه ويقول: <<أحب الأعمال إلى الله ما دام عليه صاحبه وإن قل>>. انتهى. وقال لأبي بكر حين كان يقدم الوتر: أخذت بالعزم، أي حيث نوى القيام ومداومة العمل نفعنا الله بهم أجمعين. وأما كونه صلى الله عليه وسلم كله وقار، فلا

شك أنه صلى الله عليه وسلم أوقر الناس وأكثرهم مهابة وجلالة. قال خارجة بن زيد رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئا من أطرافه. وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه إذا جلس في المجلس احتبى بيديه. وكذلك كان أكثر جلوسه صلى الله عليه وسلم محتبيا. وعن جابر بن سمرة: أنه تربع، وربما جلس القرفصا، وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة، يعرض عمن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسمًا، وكلامه فصلا لا فضول فيه ولا تقصير. وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به. مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ولا توبن فيه الحرم، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير. وفي صفته يخطو تكفؤا، ويمشي هونا. وجاء إليه رجل فقام بين يديه فأخذته رعدة شديدة ومهابة، فقال له: هون عليك، فإني لست بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة. فنطق الرجل بحاجته. فقام صلى الله عليه وسلم فقال: <<يا أيها الناس إني أوحي إلي أن تواضعوا، ألا فتواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد. وكونوا عباد الله إخوانا>>. ورأته قيْلةٌ في المسجد قاعدًا القُرفصاء فارتعدت من الفرق. رواه أبو داوود. وروى مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما ملأت عيني منه قط حياء منه، وتعظيما له. ولو قيل لي صفه لما قدرت. انتهى. وإذا كان هذا السيد وهو من أجل الصحابة كذلك، فما بالك بغيره، ولولا أنه صلى الله عليه وسلم كان يمازحهم ويباسطهم ويتواضع لهم ويؤنسهم ما قدر أحد أن يجالسه أو يحادثه لما ألقى الله عليه من المهابة والجلالة صلى الله عليه وسلم.

وأما كونه صلى الله عليه وسلم عصمة كله، فلا مرية أن العصمة راجعة في حقه صلى الله عليه وسلم وهي حفظ الجوارح الظاهرة والباطنة من الوقوع في المحرم أو المكروه، فيستحيل أن يقع منه صلى الله عليه وسلم ذنب صغير أو كبير عمدًا ولا سهوًا قبل النبوة وبعدها في سائر حركاته وسكناته، في باطنه وظاهره، وسره وعلانيته، وجده وهزله، ورضاه وغضبه، والخلاف في بعض ذلك لا يعول عليه. وقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على اتباعه والتأسي به في كل ما يفعله من قليل وكثير، وصغير

وكبير. لم يكن عندهم في ذلك توقف حتى في أعماله في السر كانوا يحرصون على العلم بها وعلى اتباعها علم بهم أو لم يعلم. ومن تأمل أحوالهم معه استحيا من الله أن يخطر له شك في أنه معصوم في كل ما ذكرناه. قاله التقي السبكي. وكذا الأنبياء كلهم معصومون كما ذكر. وفي عصمتهم من الصغائر قبل النبوة خلاف، وكذا بعد النبوة، وهو غاية الضعف، بل ألزم قائله بخرق الإجماع، وما لا يقوله مسلم ومحله في غير صغائر الخسة وفي غير ما يتعلق بطريق التبليغ. أما هذا فهم معصومون منه إجماعا، وكذا ما يخل بمعرفة الله وصفاته، فهم معصومون مه إجماعا قبل النبوة وبعدها، بل لم ينشئوا إلا على أكمل الأحوال من الإيمان بالله ومعرفته كما ينبغي. وأما قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى: 7] فأحسن ما فسر به ما قاله ابن عباس رضي الله عنه وجماعة: أن معناه وجدك ضالا عما أتاك من معالم النبوة فهداك إليها، كقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: 52] أي الدعاء إليه والأحكام. وأما قوله ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ فأحسن ما فيه: وخففنا عنك أعباء النبوة التي أثقلت حقوقها والقيام بها ظهرك حتى كاد أن يكون له نقيض أو صوت. أو عصمناك من الوزر الذي لو تحملته صوت ظهرك من ثقله. وأما قوله: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: 2]. فأحسن ما فيه قول ابن عباس رضي الله عنهما: أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أن لو كان. ويحتمل أن يريد بالعصمة الحفظ من الأعداء الحارصين على قتله، فقد كان أصحابه يحرسونه حتى نزل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فأخرج صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة وقال: <<أيها الناس انصرفوا فقد عصمني ربي>>. وقد هم جماعة من الناس بقتله فسمعوا صوتا مهولا فغشي عليهم، ثم تواعدوا مرة أخرى فحالت بينه وبينهم الصفا والمروة. وواعد أبو سفيان قريشا إن رآه ليطأن عنقه، فأعلموه به فذهب إليه فولى هاربا فسئل فقال: لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء نارا فكدت أن أهوي فيه، وأبصرت هولا عظيما وخفق أجنحة؟ قال صلى الله عليه وسلم: تلك الملائكة، لو دنا

لاختطفته عضوا عضوا. وقد تقدم ما فعله أبو جهل وغيره، ووفد عليه عامر بن الطفيل وأربد بن قيس ليقتلاه فشغله عامر، فأراد أربد قتله م روائه فلم ير إلا شخص عامر. انظر الكلاعي. وأما كونه صلى الله عليه وسلم كله حياء فقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها. وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه. وكان صلى الله عليه وسلم لطيف البشرة رقيق الظاهر، لا يشافه أحدا بما يكرهه حياء وكرم نفس، وإنما شبهه بالعذراء في خدرها لأن العذراء في خدرها أشد حياء من كونها خارجة عنه، لأن الخلوة مظنة وقوع الفعل بها. وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا، وإنما يقول: ما با أقوام يصنعون، أو يقولون كذا، ينهى عنه ولا يسمي فاعله. ودخل عليه رجل به أثر صفرة، فلم يقل له شيئا، وكان لا يواجه أحدا بما يكره، فلما خرج قال: لو قلتم له يغسل هذا، ويروى: ينزعها. وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يثبت بصره في وجه أحد، وأنه كان يكني عمل ما أضطره الكلام إليه مما يكره. وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه ولا رءا مني، يعني الفرج. وقال علي رضي الله عنه في وصفه: كان صلى الله عليه وسلم أوسع الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة. انتهى. وكان صلى الله عليه وسلم يؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن احد منهم بشره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه. من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول، قد وسع الناس خلقه، وبسطه فصار لهم أباً، وصاروا في الحق عنده سواء، بهذا وصفه ابن أبي هالة قال: وكان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه. وقال أنس: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته. انظر الشفا. وحقيقة الحياء رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما تتوقع

كراهته، أو ما يكون تركه خيرا من فعله. وقيل: تغير يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به. وشرعا: خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، وهذا الحياء بالمد. وأما الحيا بالقصر فهو المطر. وقوة الحياء وضعفه بقوة حياة القلب وضعفها. وهو أقسام: حياء الكرم كحيائه صلى الله عليه وسلم من الجالسين في بيته في وليمة زينب، حيث أطالوا، ولم يأمرهم بالقيام. وكذا مع غيره كما تقدم. وحياء المحبة، وهو ما يخطر في قلب المحب في غيبة محبوبه، فيهيجه إليه. وحياء العبودية: وهو ممتزج بين محبة وخوف، وغايته شهود عدم صلاح عبوديته لمعبوده، فيستحي منه لا محالة. وحياء المؤمن من نفسه إن رضيت بالنقص، أو قنعت بالدون حتى كأن له نفسين، يستحيي بإحداهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون منه، وهو حياء النفوس الشريفة. وهذا الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: <<الحياء لا يأتي إلا بخير>>، و<<الحياء من الإيمان>>. رواهما البخاري، وجعله من الإيمان وإن كان غريزة؛ لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وعلم. فالحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان وهو المكلف به دون الغريزي، غير إن كان فيه غريزة منه، فإنها معينة على المكتسب حتى يكاد أن يكون غريزيا. وهو صلى الله عليه وسلم جمع الله له النوعين، ومدار عقله صلى الله عليه وسلم أوفر العقول، ولذلك اتسعت أخلاق نفسه الكريكة اتساعا لا يحد. قاله ابن حجر.

*** ومن أخلاقه الشريفة: الصبر والعفو والشجاعة والتؤدة، وإلى ذلك أشار الشيخ رضي الله عنه ونفع به لقوله:**

129 **لا تحلُّ البأساءُ منه عُرى الصبـ ـرِ ولا تستخِفُّه السراءُ**

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم قد أعطي من الصبر والحلم والاحتمال والعفو مع القدرة ما لا تحيط به العبارة، ولا تلحقه الإشارة، وقد أمره الله تعالى بذلك قال: ﴿ **فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ** ﴾. وقال: ﴿ **وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ** ﴾ [النحل: 127]، وقال تعالى: ﴿ **خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩** ﴾ [الأعراف: 199]. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه هذه الآية، سأل

جبريل عن تأويلها، فقال: حتى أسأل العالم، ثم ذهب، ثم أتاه فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك. والصبر: حبس النفس عند الآلام والمؤذيات، والعفو: ترك المؤاخذة. ومن أعظم صبره صلى الله عليه وسلم ما فعله يوم أحد حين شج وجهه وكسرت رباعيته، وسال الدم على وجهه الشريف، فشق ذلك على أصحابه فقالوا: يا رسول الله، لو دعوت الله عليهم. فقال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. وفي رواية: فقال: إني لم أبعث لعانا ولكني بعثت داعيا ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: 26] الآية. ولو دعوت علينا لهلكنا من عند آخرنا. فلقد وطئ ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك، فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلت: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. وقد صح عن زيد بن سعنة، بمهملة ونون مفتوحتين، وهو أجل أحبار اليهود الذين أسلموا أنه قال: لم يبق من علامات النبوة شيء إلا عرفته في وجه محمد صلى الله عليه وسلم، حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمُه جهله، ولا يزيد شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه، فابتعت منه تمرا إلى أجل، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ وقلت: ألا تقضيني يا محمد حقي، فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مطل، فقال عمر: أي عدو الله، أتقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع. وانتهره وشدد له في القول ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال: أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، تأمرني بحسن الأداء، وتامره بحسن التقاضي، اذهب به يا عمر فاقضه وزده عشرين صاعا مكان ما روعته. ففعل، فقلت: يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه محمد صلى الله عليه وسلم إلا اثنتين، وذكر له ما مر، وقد عرفتهما فأشهدك أني قد أسلمت. وعن أنس رضي الله عنه: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد غليظ الحاشية، فجذبه أعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه عليه السلام ثم قال: يا محمد احملني على

بعيري من مال الله، فإنك لا تحملني من مالك ولا مال أبيك. فسكت النبي صلى الله عليه وسلم وقال: المال مال الله، وأنا عبده. ثم قال: ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي؟ قال: لا، قال: لم، قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير، وعلى الآخر تمرًا. انتهى. قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله، وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادما ولا امرأة قط. انتهى. وجيء إليه برجل قيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال له: لن تراع، لن تراع، ولو أردت ذلك لم تسلط علي. وقضية غورث حين أراد أن يفتك به وهو نائم فسقط السيف من يده وأخذه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من يمنعك مني، فقال: كن خير آخذ، فعفا عنه. فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس. وكذلك عفوه عن اليهودية التي سمته بعد إقرارها على الصحيح. وعن لبيد بن الأعصم الذي سحره وقد أعلم به، وأوحى إليه بشرح أمره، فلم يعاتبه فضلا عن معاقبته. وكذلك لم يؤاخذ عبد الله بن أبي وأشباهه من المنافقين بعظيم ما تفل في وجهه قولا وفعلا. وقال لمن شاوره في قتلهم: لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه. والحديث عن حلمه وصبره صلى اله عليه وسلم أكثر من نأتي عليه، وما من حليم إلاّ نقلت عنه هفوة، وحفظت له زلة، وهو صلى الله عليه وسلم لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرا على مقاسات قريش، وأذى الجاهلية، ومصابرته الشدائد الصعبة معهم إلى أن أظفره الله تعالى عليهم، وحكمه فيهم وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم، وإبادة خضرائهم، فما زاد على أن عفا وصفح. وقال: ما تقولون إني فاعل بكم ؟ فقالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [يوسف: 92] اذهبوا فأنتم الطلقاء. وقال أنس رحمه الله: هبط ثمانون رجلا من التنعيم بعد صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذوا، فأعتقهم صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ الآية. وقال لأبي سفيان، وقد سيق إليه، بعد أن جلب عليه الأحزاب، وقتل عمه وأصحابه، ومثل

بهم، فعفا عنه، ولاطفه في القول وقال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يان لك أن تعلم أن لا إله إلا الله. فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أحلمك وأوصلك وأكرمك. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضى، فلا تحل البأساء، أي الشدة، وإن عظمت منه صلى الله عليه وسلم، متعلق بما بعده من المضاف أو المضاف إليه. أو بتحل. عرى جمع عروة، وهي ما يمسك الثوب بعضه ببعض، كالأزرار ونحوها، أي لا تحل البأساء والشدة عرى الصبر منه. شبه ما اشتمل عليه صلى الله عليه وسلم من الصبر بثوب سابغ ذي أزرار وعرى محكمة، استعارة بالكناية، وذكر لا تحل ترشيح فصبره صلى الله عليه وسلم في غاية الكمال والإتقان والإحكام، فلا تنقضه الشدة ولا تحل عراه الوثقى ما يصيب ظاهره من الأزمة، ولا تستخفه، أي لا تخرجه عن ثباته وتواضعه ووقاره، السراء، أي الرخاء والسعة، في الجيوش والفتوح التي فتحها في أواخر حياته بل هو صلى الله عليه وسلم في حالة الشدة كهو في حالة الرخاء، لم يزده في حالة الرخاء والفتح إلا تواضعا وحلما وعفوا. ومن ثم لما دخل صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح في تلك الجيوش الهائلة التي لما رءاها أبو سفيان قال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك ملكا عظيما. فقال: ويحك، إنه ليس بملك، ولكنها النبوة. قال: نعم، وهو على ناقته القصوى في كتيبة خضراء، طأطأ رأسه تواضعا لما رءا ما أكرمه الله تعالى به من الفتح حتى إن رأسه يكاد يمس رحله شكرًا وخضوعا لعظمته أن أحل له بلده ولم يحله لأحد قبله. قاله ابن حجر. ولقد تخلق أصحابه رضي الله عنهم بهذا الخلق الحسن، وبهذا وصفهم كعب في قوله

لا يفـــرحون إذا نالـــت رمـــاحهم ... وليـــــسوا بمجازيـــــع إذا نـــــيلوا

نفعنا الله بهم أجمعين.

*** وإنما اتصف صلى الله عليه وسلم بهذه الكمالات والأخلاق الطيبات، لأنه كريم على الله عظيم القدر عنده فلذلك قال الشيخ رضي الله عنه:**

130 **كرُمت نفْسه فما يخطرُ السُّو ... ءُ علـــى قلـــبه ولا الفحـــشاءُ**

131 **عظُمـــت نعمـــةُ الإلـــهِ علـــيهِ ... فاســـتقلَّت لذكـــره العظمـــاءُ**

كرم النفس من التحقق بالمعرفة، ارتواء القلب باليقين حتى لا يبقى في القلب متسع لغير الحق تعالى، ولا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم قد حاز من ذلك مقاما لم ينله بشر، ولم يطمع فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وكيف لا وهو صلى الله عليه وسلم واسطة الجميع، ونوره أصل جميع الأنوار، ووجوده سابق الموجودات، لأنه تعالى لما أراد إيجاد خلقه، أبرز الحقيقة المحمدية من أنواره الصمدية في حضرته الأحدية، ثم سلخ منها العوالم كلها، علوها وسفلها، على ما اقتضاه كمال حكمه، وسبق في إرادته وعلمه، ثم أعلمه تعالى بكمال نبوته، وأبوه آدم بين الروح والجسد، بل لا روح ولا جسد، ثم انبجست منه عيون الأرواح، فظهر مُمِدا لها في عالمها المتقدم على عالم الأشباح. وكان هو الجنس العالي على جميع الأجناس، والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس، فهو وإن تأخر وجود جسمه، متميز على العوالم كلها برفعته وتقدمه، إذ هو خزانة السر الصمداني، ونخبة المدد الرحماني، فلذلك "**كرمت نفسه**"، أي: صارت كريمة طيبة مطهرة من كل نقص ووصم، "**فلا يخطر السوء على قلبه ولا الفحشاء**" لأنه قد طهره الله وقدسه بشق الملائكة له قلبه، وغسله المرات المتعددات، وحشي من العلوم ما لا يحيط بها إلا مَنْ مَنَّ عليه بذلك. والسوء والفحشاء: ما أنكره العقل واستقبحه الشرع. والعطف لاختلاف الوصفين، فإنه سوء لاغتمام العاقل به وفحشاء باستقباحه إياه. وقيل الأول ما لا حد فيه، والثاني ما فيه الحد. قاله البيضاوي. وذكر الثاني من باب الإطناب لفهمه بالأولى. وإذا تأملت ما تقدم، فما خص به صلى الله عليه وسلم من الكمالات، علمت أنه قد "**عظمت نعمة الإله عليه**" عظمة قطعت الأطماع أن تنال منها ابتداء ولا غاية، فلذلك "**استقلت**" أي: استصغرت وصارت قليلة "**لذكره**"، أي عند ذكره أو وقت ذكره "**العظماء**"، جمع عظيم، وهو كل مَنْ مَنَّ الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية. فإذا نظر إلى ما نال سيدنا صلى الله عليه وسلم من النعم والكمالات، استصغر نفسه لذلك.

*** ولما كان الحلم وسخاوة النفس هما السبب في السيادة وحيازة الرياسة. وكان سيدنا صلى الله عليه وسلم قد نال من ذلك الحظ الأوفر، أشار الشيخ**

إلى الأول فقال:

132 **جهِلتْ قَومه عليه فَأَغْضى وأخُو الحلْم دأبه الإغضاءُ**

133 **وسِعَ العالمين علْما وحلْما فهو بحرٌ لم تُعْيِهِ الأعْباءُ**

أما جهل قومه عليه صلى الله عليه فهو معلوم من الأخبار، ومشهور من السير، فقد آذوه صلى الله عليه وسلم إيذاء لا يتحمله إلا هو صلى الله عليه وسلم، فقد ضربوه وخنقوه، وأغروا به سفهاءهم وصغارهم، فضربوه ورجموه بالحجارة إلى أن أدموا رجليه، فسال منها الدم على نعليه، وشجوا وجهه، وكسروا رباعيته، ورموه بالسحر والهانة والجنون، وتواعدوا عليه بالقتل مرات، وحصروا لأجله بني هاشم والمطلب حتى كادوا يهلكون من الجوع كما تقدم. وجاء إليه أبو سفيان بالجيوش، وحصر عليه المدينة، ولما ظفر بهم صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وأجلسوا في المسجد الحرام وأصحابه ينتظرون أمره فيهم من قتل أو غيره، قال لهم: ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ** ﴾ ، اذهبوا فأنتم الطلقاء. ولهذا أشار بقوله "**جهلت قومه عليه**" أي فعلوا معه فعل أهل الجهل والسفه من قلة الأدب وارتكاب ما يجر إلى العطب. ومصدر جهل هذا جهالة، وهو فعل الشيء القبيح عمدا مع علم قبحه لغلبة الهوى، أو لقلة التدبير. ومنه قول الشاعر:

على أنها قالت عشية زرتها جهلت على عمد ولم تك جاهلا

انتهى.

وأما جهِل: إذا لم يعلم، فمصدره جهلا. قالت عائشة رضي الله عنها: قلت يا رسول الله، هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، وذكر ما مر من ذهابه إلى ثقيف، فأغروا به سفهاءهم وصبيانهم، فضربوه ورجموه، "**فأغضى**"، أي تغافل عنهم حلما وتكرما، لا سيما وقد جاءه ملك الجبال فقال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. ففي الحديث السابق، بعد

أن ذكر ما آذاه به ثقيف لما خرج إليهم بعد موت أبي طالب يدعوهم إلى الله، ويستنصر بهم على قريش. قال: <<فانطلقت وأنا مهموم، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، أي ميقات أهل الحجاز، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك. وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فناداني فسلم علي، وقال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال صلى الله عليه وسلم: بل أرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا>>. فكان الأمر كما رجا صلى الله عليه وسلم. والحديث في البخاري ومسلم. وهذا من عظيم حلمه صلى الله عليه وسلم. "**وأخو الحلم**"، أي التأني وعدم الانتقام عند الأسباب المحركة، وقد يعظم حتى يصير غريزة. "**دأبه**"، أي شأنه وعادته "**الإغضاء**"، أي التغافل عن أن يتلفت إلى من آذاه فضلا عن الانتقام ممن آذاه، كفعله صلى الله عليه وسلم، بل كان يقابلهم بالدعاء بالهداية والمغفرة، كقوله: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. اللهم اهد دوْسًا وآت بهم، إلى غير ذلك. فقد وصل من الحلم غاية لم يصل إليها مخلوق لأن الله تعالى هو الذي تولى تأديبه بنفسه، وأفاض عليه من حقائق علمه وقدسه حيث قال: ﴿ **خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ** ﴾ الآية. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيته منتصرا من مظلمة ظلمها قط إلا أن تكون حرمة من محارم الله، فينتصر لله. وقد تقدم الكلام على حلمه صلى الله عليه وسلم مستوفى عند قوله: "**لا تحل البأساء منه عرى الصبر**". وأما كونه صلى الله عليه وسلم "**وسع العالمين علما**"، فلا شك أنه صلى الله عليه وسلم أطلعه الله على مكنون غيبه، فأحاط علمه بعلم الملائكة والإنس والجن، وعلم ما كان وما يكون إلى يوم الدين. قال تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ [النساء: 113] وقد أتى بالقرآن من عند الله، وقال فيه: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ** ﴾ [الأنعام: 38] وقال بعض المحققين: ما مات صلى الله عليه وسلم حتى أعلمه الله علم

كل شيء حتى الساعة التي قال فيها: ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف: 187] راجع ما تقدم عند قوله: "**لك ذات العلوم**" إلخ. والعالمين، جمع عالم، وهو اسم لكل ما سوى الله تعالى من الجواهر والأعراض، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب الوجود، تدل على وجوده. وما من شيء إلا وفيه علامة تدل على صانعه، فلذلك سمي عالما. وجمع لاختلاف أجناسه وأنواعه، وغلب فيه العقلاء فجمعه بالياء والنون كسائر أوصافهم. وقيل اسم وضع لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وتناوله لغيرهم على سبيل الاستتباع. وقيل: عنى به الناس، فإن كل احد منهم عالم من حيث أنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض، يعلم بها الصانع كما يعلم بما أبدعه في العالم. قاله البيضاوي. ووجه الاشتمال: أن العالم الكبير ثلاثة: ملك وملكوت وجبروت. فالملك: ما يدرك بالحس والوهم. والملكوت: ما يدرك بالعقل والفهم. والجبروت: ما يدرك بهما في ثاني حال. وكذلك الإنسان، فظاهره ملك، وباطنه ملكوت، وحيث جمع بينهما كان جبروتيا، فيدرك بالبصر والبصيرة. والله تعالى أعلم. وأما كونه صلى الله عليه وسلم وسع العالمين "**حلما**"، فلا خفاء في وسع حلمه وصبره وتحمله الأذى من جفاة العرب، وما من حليم قط إلا وقد عرفت له زلة أو هفوة تخدش في كمال حلمه، إلا سيدنا صلى الله عليه وسلم، فإنه لا تزيده شدة الأذى والجهل عليه إلا حلما وعفوا وصفحا، "**فهو بحر**" واسع العلم والحلم وغيرهما من الكمالات.

"**لم تعيه**" أي: لم تتعبه وتثقل عليه، كقوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾.

"**الأعباء**"، جمع عِبء، بكسر العين، كحِمْل وزنا ومعنى، أي: لم يكدر بحر علمه غفلة ولا فتور، ولا بحر علمه غضب ولا جهالة ولا قصور، فاستعار الإعياء للكدورة، والأعباء للغفلة والجهالات. وإذا تأملت ما تقدم من أوصاف كماله الباهرة، وعصمته ونزاهته الظاهرة. وإنه البحر الذي اندرجت البحار كلها في علمه. والحليم الكريم الذي دخل كل كريم وحليم في حيطة كرمه وعلمه، علمت أن الكون كله مستمد من كرمه، وأن الدنيا بأسرها ذرة من ذرة جوده وفيضه.

* **فكيف يلتفت إليها منعا ولا عطاء ولذلك قال رضي الله عنه:**

134 **مُسْتقلٌّ دُنياكَ أن يُنْسبَ الإمْـ ـــساك مــنها إلــيه والإعطـــاءُ**

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم "**مستقل**"، أي محتقر ومقلل قدْر "**دنياك**" **أيها السامع نزاعة عنها وعدم التفات إليها، امتثالا لقوله تعالى وصية له: «ولا تعد عيناك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه» فتنزه** صلى الله عليه وسلم أن ينسب الإمساك، أي الأخذ منها إليه والإعطاء، بل همته صلى الله عليه وسلم أجل من أن تلتفت إلى الدنيا حتى "**ينسب**" إلى الأخذ "**منها والإعطاء**"، بل كان غنيا بربه، متصرفا فيها بحكمه وأمره. قيل لمحمد بن واسع، فلان زاهد في الدنيا، قال: وما قدر الدنيا حتى يزهد فيها. ودليل إعراضه صلى الله عليه وسلم عنها أشد الإعراض، أخبر الترمذي، قال: عرض علي ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوما وأوجع يوما، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك. وأخبر الطبراني، أنه صلى الله عليه وسلم كان هو وجبريل واقفا بالصفا، فقال: يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة دقيق ولا كفا من سويق. فلم يكن كلامه أسرع من أن يسمع هدة من السماء أفزعته، فقال صلى الله عليه وسلم: ما هذا يا جبريل، أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا، ولكن أمر إسرافيل أن ينزل إليك حين سمع كلامك، فناداه إسرافيل فقال: إن الله سمع ما قلت، فبعثني إليك بمفاتح خزائن الأرض، وأمرني أن أسيّر معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة، فإن شئت نبيا ملكا، وإن شئت نبيا عبدا، فأومأ إليه جبريل أن تواضع، فقال: <<بل نبيا عبدا>>. وفي الشفا أن جبريل عرض على النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله ذلك ذهبا وفضة، فأطرق النبي عليه السلام ساعة ثم قال: <<يا جبريل، إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، قد يجمعها من لا عقل له>>. فقال جبريل: ثبتك الله بالقول الثابت يا محمد. وقالت عائشة رضي الله عنها: لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعا قط، ولم يبث شكواه إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنا، وإن كان ليظل جائعا يلتوي طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها، ولقد كنت

أبكي له رحمة مما أرى به. فأمسح بيده على بطنه مما به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفدا، لو تبلغت من الدنيا ما يقوتك، فيقول: <<يا عائشة، ما لي والدنيا، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم، فأكرم مقامهم وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم، وما من شيء هو أحب إلي من اللحوق بإخواني وأخلائي>>. قالت: فما أقام بعد إلا شهرا حتى توفي صلوات الله وسلامه عليه. انتهى. قلت: ولهذا تركت الأكابر الشهوات واللذات، ورأوا ذلك نقصا وتعجيلا للثواب، وانحطاطا عن درجات القرب لرب الأرباب. قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: أوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام: إني إنما خلقت الدنيا لضعفاء خلقي، فإياك أن تعلق قلبك منها بشيء، فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبي من قلبك. انتهى. وفي أخبار داوود عليه السلام: يا داوود تمسك بكلامي، وخذ من نفسك لنفسك، لا توتى من قبلها فأحجب حلاوة محبتي عنك. اقطع شهوتك لي فإنما أبحتُ الشهوات لضعفة خلقي، ما بال الأقوياء إن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتي، فإني لم أرض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها. يا داوود تجعل بيني وبينك عالما سكرانا بحبها يحجبك بشكره عن محبتي، أولائك قطاع الطريق على عبادي المريدين. استمر على ترك الشهوات بإدمان الصوم يا داوود تحبب بمعاداة نفسك، امنعها الشهوات، أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة. انتهى.

وقد ورد في ذم الدنيا أحاديث وأخبار، والقرآن العظيم مشتمل على ذمها وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة. بل هو المقصود بالذات من سائر الشرائع. كيف وهي عروة الله لقطعها طريق الوصلة إليه، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها، وعدوة لأوليائه، لأنها تزينت ببهجتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها، وعدوة لأعدائه، لأنها استدرجتهم بمكرها، واقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها. وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه رءا شاة ميتة فقال: <<والذي نفسي بيده، الدنيا أهون على الله عز وجل من هذه الشاة على أهلها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها جرعة ماء>>. رواه الترمذي. وفي الخبر:

الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم. وصح أن أبا بكر الصديق دعا بشراب، فأتي بماء وعسل فبكى حتى أبكى أصحابه، ثم مسح عينيه فسالوه، فقال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع عن نفسه شيئا ولم أر معه أحدا. فقلت: يا رسول الله، ما الذي تدفع عن نفسك. قال: <<هذه الدنيا، مثلت لي، فقلت لها: إليك عني، ثم رجعت، فقالت: إنك إن أفلتّ مني لم يفلت مني من بعدك>>. وفي الصحيح: <<والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككهم كما أهلكتهم>>. انتهى. هذا ولتعلم أن الدنيا المذمومة إنما هي ما يخشى من فتنتها وشغلها، فإن أمنت فتنتها فهي نعم المطية للمؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر، كما في الحديث. وفي حدث آخر: <<نعم المال الصالح للمرء الصالح>>. وعلى هذا يحمل دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأنس: <<اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما رزقته>>. انتهى. وقال بعض العارفين: الدنيا كالحية، وليس الشأن في قتل الحية، إنما الشأن في إمساكها حية، أي مع عدم ضررها.

*** هذا وإذا تأملت ما اشتمل عليه سيدنا صلى الله عليه وسلم من أوصاف الكمال ومحاسن الخلال، علمت أنه نور هذا العالم وشمس ضحاه، وسرُّ هذا الكون وتمامُ بهاه، ولذلك أشار بقوله:**

135 **شمسُ فضْلٍ تحقَّق الظَّن فيه   أنَّـه الـشمْسُ رِفعـةً والـضيـاءُ**

136 **فـإذا ما ضحى محا نورُهُ الظـ   ـلَّ وقد أثبت الظِّلالَ الضُّحَاءُ**

لا شك أن نور سيدنا صلى الله عليه وسلم هو أصل الأنوار، فمن نوره الباهر اقتبست الأنوار، ومن معدن سره الكامل التمست الأسرار، فكل فضل وصل لغيره فمن فضله السابق، حسبما أهله لذلك الملك الخالق،

فإنـه شـمس فـضل هـم كواكـبها   يظهـرن أنـوارها للـناس فـي الظلـم

قال الشيخ أبو عثمان الفرغاني: لم يكن داع حقيقي من الابتداء إلى الانتهاء إلا هذه الحقيقة الأحمدية التي هي أصل جميع الأنبياء، وهم كالأجزاء والتفاصيل

لحقيقته، فكانت دعوتهم من حيث جزئيتهم عن خلافة من كلهم لبعض جزائه، وكانت دعوة الكل لجميع أجزائه إلى كليته. والإشارة إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ والأنبياء والرسل وجميع أممهم، وجميع المتقدمين والمتأخرين داخلون في كافة الناس، وكان داعيا بالأصالة وجميع الأنبياء والرسل يدعون الخلق إلى الحق عن تبعيته صلى الله عليه وسلم، وكانوا خلفاءه ونوابه في الدعوة. انتهى. وقال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الله تعالى حين شاء تقدير الخليقة وذرء البرية، وإبداع المبدعات، نصب الخلق في صور كالهباء، قبل دحْو الأرض ورفع السماء، وهو في انفراد ملكوته، وتوحُّد جبروته، فأساحَ نورا من نوره، فلمع قبس من ضيائه، فسطع ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفية فوافق لك صورة نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، فقال الله عز وجل: أنت المختار المنتخب، وعندك مستودع نوري وكنوز هدايتي، من أجلك أسطّح البطحاء وأموّج الماء وأرفع الماء وأجعل الثواب والعقاب والجنة والنار. ثم أخفى الله الخليقة في غيبه، وغيبها في مكنون علمه، ثم نصب العوالم وبسط الزمان، ومرج الماء وأثار الزبد وهاج الريح، فطفَى عرشه على الماء فسطح الأرض على ظهر الماء ثم استجابها إلى الطاعة فأذعنت بالاستجابة، ثم أنشأ الله الملائكة من أنوار ابتدعها، وأنوار اخترعها، وقرن بتوحيده نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فشهدت في السماء قبل مبعثه في الأرض، فلما خلق الله آدم أبان فضله للملائكة وأراهم ما خصه به من سابق العلم من حيث عرفهم عند استنبائه إياه أسماء الأشياء، فجعل الله آدم محرابا وكعبة وبابا وقبلة أسجد إليها الأبرار والروحانيين والأنوار. ثم نبه على مستودعه وكشف له خطر ما ائتمنه عليه بعد أن سماه إماما عند الملائكة فكان حظ آدم من الخير نبيئا ونطفة مستودع نور لم يزل الله يخبّئ النور تحت الزمان إلى أن فصل محمد صلى الله عليه وسلم طاهر القنوات فدعا الناس ظاهرا وباطنا، وندبهم سرا وإعلانا، واستدعى صلى الله عليه وسلم التنبيه على العهد الذي قدمه إلى الذر قبل النسل، فمن وافقه قبس من منساح النور المتقدم اهتدى إلى سره واستبان واضح أمره، ومن أبلسته الغفلة استخفه السخط. انتهى. فتأمل هذا الكلام

العظيم واعترف بجلالة القائل: وكيف لا وهو باب مدينة علم سيدنا صلى الله عليه وسلم، وبه تفهم ما قاله الشيخ رضي الله عنه "**شمس فضل**"، أي فكل فضل من شمس فضله اقتبس وبواسطته أخذ. ثم أكد التشبيه بقوله "**تحقق**" أي ثبت "**الظن**"، أي رسخ الاعتقاد "**فيه**"، أي في ذاته الشريفة "**أنه**" في إشراقه ورفعته "**الشمس**"، أي المشرقة على هذا العالم، البائنة عنه "**رفعة**"، فلا يمكن الوصول إليه "**والضياء**" المفيض على الكون كله، مع سهولة الاقتباس. ولما كان في عرف الاستعمال أن المشبه به أقوى من المشبه، وقد يعكس الأمر كما هنا. نبه الشيخ على ذلك وأزال الإبهام فقال، عاطفا بياء السببية إشعارا بهذه النكتة: "**فإذا ما ضحى**"، أي مشى عقب طلوع الشمس، وخص بالذكر لقوة ضياء الشمس فيه، "**محى نوره**" الباهر "**الظل**". كأن نوره صلى الله عليه وسلم أصل جميع الأنوار، وهو لا يبقى معه ظلمة، ومنه الظل. وقد محى به صلى الله عليه وسلم ظلمة الجهل والشرك، واستنارت بنوره القلوب والأسرار. "**وقد أثبت الظلال**"، أي محَى نوره الظل في الحالة التي يشتد فيها الظلال، جمع ظل، وهو ما تنسخه الشمس، والفيء أخص منه، لأنه اسم لما بعد الزوال، و"**الضحاء**"، بالمد، ما قرب من انتصاف النهار، وهو فاعل أثبت، والجملة حالية، أي محى نوره الظل في حالة اشتداده، وإثبات الضحاء له، فتبين أن سيدنا صلى الله عليه وسلم أبهى وأكمل من الشمس رفعة وضياء، لأن نورها يثبت الظل، ونور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يمحوه وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه إذا مشى في الشمس لا يظهر له ظل لطهارة ذاته، ولغلبة نورها نور الشمس. وفي دعائه المشهور: <<اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي سمعي نورا>>. حتى قال في آخره: <<واجعلني نورا>>. فاستجاب الله دعاءه حتى كان كله نورا. نسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن ينور قلوبنا بمحبته، ويشرح صدرنا بمعرفته، بحق قدره ومقداره، آمين.

* **ولما قدَّم الشيخ أن نوره صلى الله عليه وسلم محى ظل الشمس لغلبته،**

خشي أن يتوهم أن ظل الغمامة له كان من أجل حرها، فأزال ذلك الإيهام بقوله:

137 **فكـأنَّ الغمامـةَ اسْـتوْدعتْـهُ ... مـن أظَلَّـتْ مـن ظِلِّـه الـدُّفَفَاءُ**

فإظلال الغمام لسيدنا صلى الله عليه وسلم إنما وقع لحكمتين: حسية ومعنوية. **الأولى**: إرهاصا وتأسسا لنبوته صلى الله عليه وسلم، وإعلاما بما يصير إليه أمره من العناية والعز. **والثانية**: إشارة إلى أن من اتبعه من أمته واستظل بظله نال الأمن الشامل والعز الدائم، فلا يلحقه حر النيران، ولا ذل الهوان، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم غني عن ظل الغمام، بل هو ظل وأمان لغيره من الأنام. وأيضا وقع التظليل باعتبار الشاهد زيادة في حفظه وصيانته والاعتناء بشأنه، وتنبيها على ما يجب له من حفظ حرمته وتعظيم أمره حيث سخر له الغمام وهو جامد، فاستودعه وحفظه، فما بالك بالعقلاء، ولهذا أشار بقوله "**فكأن الغمام استودعته**" أي اشتاقت إليه وطلبت أن يكون عندها وديعة تحفظه وتصونه حتى يظهر أمره، ولذلك لما بعث وظهرت نبوته صلى الله عليه وسلم لم تظله بعدها وأدت وديعتها، وكيف يحتاج سيدنا صلى الله عليه وسلم إلى من يظله وهو الذي "**أظلت**"، أي أوقعت الظل وأكسبت العز "**من ظله**" الكامل وعزه الشامل "**الدففاء**" وهم أصحابه وجيوشه الذين اظهروا دينه وأشاعوا عزه وأدخلوا تحت أمان ظله من قدروا عليه. وكل قرن يظل من بعده بما استمد ممن قبله وهكذا إلى يوم القيامة. والدففاء كعلماء، جمع دافٍّ بالتشديد، بمعنى الدافع، وسميت الجيوش بذلك لأنها تدفع العدو وتستأصله. ومن بدل من الضمير المنصوب، أي استودعت من هو غني عن ظلها الذي أظلت من ظله أتباعه وجيوشه من سبق له في الأزل خير عند الله تعالى. وهذا الظل الذي تظللت به الصحابة رضي الله عنهم وظللوا به غيرهم، هو الأمن الذي حصل لهم به صلى الله عليه وسلم، والعز والشرف الذي اكتسبوا بصحبته عليه الصلاة والسلام، فقد كانوا قبله صلى الله عليه وسلم في جهد شديد وبؤس وضيق، يمصون النوى من الجوع، ويأكلون الجلود والميتة، ويعبدون الشجر والحجر، لا يدينون بدين، ولا ينقاذون لملك، ولا يتسعون في بلاد، ولا يعرفون

نبوة ولا كتابا منذ زمان إسماعيل عليه السلام. وكان غيرهم من الأمم يستضعفهم ويحتقرهم ولا يقيمون لهم وزنا، ويتطاولون عليهم بالكتاب والملك والظهور وكثرة الأموال، فجاءهم الله بسيد أهل النبوات والرسالات، وخيرة أهل الأرض والسماوات، عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيات، رسولا من أنفسهم، فصلح به حالهم، واستقام دينهم، وظهروا به على سائر البلاد والعباد، واستولوا على الأمم، وشرفوا عليهم، وانقادوا لهم، ودانوا بدينهم، وحازوا ملك كسرى وقيصر وغيرهما، وظفروا بعز الدنيا والآخرة، وصار الناس يحجون بلادهم، ويتعلمون لغتهم، ويأخذون بلسانهم، ويروون أشعارهم، ويحفظون أمثالهم، وينقدون عن سيرهم وأيامهم، ويتنافسون في ذلك، ويتعبدون لله عز وجل ومحبته الخاصة. آمين.

*** وإذا علمت أن سيدنا صلى الله عليه وسلم شمس الفضائل، ومعدن الكمالات، علمت أن فضل غيره لا يظهر مع فضله، لكونه شمس الفضائل، وغيره نجوم، فأشار إلى ذلك فقال:**

138 **خفيتْ عندهُ الفضائلُ وانْجَا   بَت بهِ عنْ عقُولنا الأهواءُ**

139 **أمَع الصُّبح للنجومِ تَجَلٍّ   أمَع الشمْس للظلام بقاءُ**

لا شك أن فضائل سيدنا صلى الله عليه وسلم في غاية الإشراق والظهور، فلا يمكن أن يبقى بفضائل غيره معها ظهور. فإذا طلعت الشمس فلا ضوء للنجوم، وقد انكشفت بطلوع شمسه عن عقولنا الأهواء، وحلت فيها أنوار المعرفة والهدى، هذا معنى قوله "**خفيت**" أي سترت "**عنده**"، أي في جنب ما أوتيه "**الفضائل**" التي أوتيها غيره من الإنس والجن، "**وانجابت**" أي انكشفت به، أي بسببه، "**عن عقولنا**" معشر الإسلام، وفي العقل خلاف طويل، والحق أنه نور روحاني، به تدرك النفوس العلوم الضرورية والنظرية، وابتداء وجوده عند اختتان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ. قاله صاحب القاموس. والعقل أشرف ما أوتي الإنسان، فقد قيل: خير ما أعطي الإنسان عقل يزجره، فإن لم يكن، فحياء يمنعه، فإن لم يكن فمال يستره، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه، يستريح منه البلاد والعباد. و"**الأهواء**" جمع هوى بالقصر، وهو

ما تشتهيه النفس وتميل إليه، والمراد به هنا الضلال والشك، أي انكشفت عن عقولنا الضلالات والشكوك، فلم تقع في ورطة شيء منها كما وقع فيها من أعرض عن الهدى، وسلك سبيل الردى. ثم استدل على ذلك الخفاء وكشف الهواء بما هو محسوس، فقال على سبيل الاستفهام الإنكاري "**أمع**" وجود "**الصبح للنجوم تجل**" أي ظهور واستنارة، "**أم**" يوجد مع "**الشمس للظلام بقاء**"، أي إنما خفيت الفضائل عنده، لأنه كالشمس وغيره من الكمل، كالنجم. والنجوم لا بقاء لها مع الشمس، وإنما تجلت عن عقولنا الأهواء لأنه صلى الله عليه وسلم شمس، والأهوية والنقائص ظلام. ولا بقاء للظلام مع طلوع الشمس.

*** ثم رجع إلى ذكر محاسنه الذاتية والمعاني الجبلية فقال:**

140 **معجزُ القَوْل والفعال كريم الـ ــخَلْـقِ والخُلُـقِ مُقسطٌ معطـاءُ**

أما كون سيدنا صلى الله عليه وسلم "**معجز القول**"، فلا ريب أنه صلى الله عليه وسلم أعطي من فصاحة اللسان وبلاغة الكلام ما لم يعطه أحد قبله ولا بعده. وقد خص بجوامع الكلم ونطق ببدائع الحكم، مع سلامة طبع، وبراعة منزع وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغاتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسئلونه عن شرح كلامه، وتفسير قوله. ومن تأمل كلامه وسيره، علم ذلك وتحققه. وقد كتب إلى همدان وغيرهم بلغاتهم التي لا يعلمهما إلا هم. وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين، وجمعت فيها الكتب، ومنها ما لا يوازن فصاحة، ولا يباري بلاغة، كقوله صلى الله عليه وسلم: <<المسلمون تتكافؤا دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم>>. وقوله:<<الناس كأسنان المشط>>. و<<المرء مع من أحب>>. و<<لا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له>> و<<الناس معادن>> و<<ما هلك امرؤا عرف قدره>>. و<<المستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم>> و<<رحم الله عبدا قال خيرا فغنم، أو سكت فسلم>> وقوله: <<أسْلِم

تسْلَم، يؤتك الله أجرك مرتين>> و<<إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون>>. وقوله <<لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يعنيه .>> وقوله: << ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها.>> وقوله: <<اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن>> و<<خير الأمور أوسطها>> وقوله <<أحْبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما>> وقوله عليه الصلاة والسلام <<الظلم ظلمات يوم القيامة>> وقوله في بعض دعائه: <<اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء. اللهم إني أسألك الفوز في القضاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء،>> إلى ما روته الكافة عن الكافة، وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق إليها، ولا قدر أحد أن يفرغ في قالبه عليها، كقوله <<حمي الوطيس>> و<<مات حتف أنفه>> و<<لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين>> و<<السعيد من وعظ بغيره، والسعيد من سعد في بطن أمه>> و<<دع ما يريبك إلى ما لا يريبك>> و<<من حسن إسلام المرء، تركه ما لا يعنيه>> في أخواتها مما يدرك الناظر العجب في مضمنها، ويذهب الفكر في أداني حكمها. وقد قال أصحابه رضي الله عنهم: ما رأينا أفصح منك. فقال <<وما يمنعني، وإنما أنزل القرآن بلساني، لسان عربي مبين>> وقال مرة أخرى: << بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد>> فجمع له بذلك صلى الله عليه وسلم فوق عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة وررونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشر. وقالت أم معبد في وصفها له: حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هدر، كأن منطقه خزرات نظمن، وكان جهير الصوت، حسن النغمة، صلى الله عليه وسلم. قاله في الشفاء. وأما كونه صلى الله عليه وسلم معجز "**الفعال**"، فلا شك أنه صلى الله عليه وسلم أعطي من حسن التدبير وسياسة الخلق، وتدبير الحروب، وتجهيز الجيوش، وتمهيد الملك، ما لم يعطه من مارس الملك وبقي فيه زمانا طويلا، وهو صلى الله عليه وسلم لم يكن خالط شيئا من ذلك، ولا استعد له،

وإنما هي خلافة ربانية، وسياسة نبوية، وتأييد إلهي مع ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من دوام عبادة ربه، ومشاهدة حضرة قدسه. قد جمع بين مخالطة الخلق، ومشاهدة الحق، وذلك لايطيقه إلا من وجبت له العصمة، ونال من الله المكانة والقربة، عصمنا الله بجاهه عنده. وأما كونه صلى الله عليه وسلم كريم الخلق، فقد تقدم ما في محاسن وصفه عند قوله تنزه في محاسن ذاته. وفي حديث الترمذي يقول ناظره: ما رأيت قبله ولا بعده مثله. وأما كونه صلى الله عليه وسلم "**كريم الخلق**"، فقد تقدمت جملة صالحة من حسن خلقه عند قوله: ما سوى خلقه النسيم. وأما كونه صلى الله عليه وسلم "**مقسطا**"، أي عادلا في حكمه، فلا يشك فيه، وكيف وهو أمين أهل الأرض والسماء، فقد أمنه على سر وحيه، واختاره لتبليغ رسالته، وقد اكتنفته العصمة، وأحاطت به النصرة فلا يصدر منه شيء إلا على غاية العدل ظاهرا وباطنا من أقواله وأفعاله وأحكامه حتى شهدت بذلك أعداؤه وكان يسمى في الجاهلية الأمين. وقد تحاكموا إليه في قضية الحجر الأسود بعد تنازعهم واختلافهم، حتى أفضوا إلى القتال. فقالوا نحكم أول داخل، فدخل صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذا الأمين، رضينا به. فأمر بوضعه في ثوب، ثم أمر كل رئيس قبيلة أن يمسك بطرف الثوب، ثم يرفعوه، ففعلوا إلى أن بلغوا به محله. وقال لذي الخويصرة لما قال له: اعدل. <<ويلك إن لم أعدل، خبتَ وخسرتَ إن لم أعدل>>. وفي رواية: <<أيأمنني أهل السماء ولا تأمنني>>، أو كما قال صلى الله عليه وسلم. وقال الحسن: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ياخذ أحدا بقذف أحد ولا يصدق أحدا على أحد. وقال علي في وصفه: كان أصدق الناس لهجة. وقال صلى الله عليه وسلم: <<إني لأمين في السماء وأمين في الأرض>>. وأما كونه صلى الله عليه وسلم "**معطاء**"، أي كثير العطاء والجود، فلا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم كان لا يوازى في جوده ولا يبارى فيه، بهذا وصفه كل من عرفه. قال جابر رضي الله عنه: ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فقال لا. وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح

المرسلة. وعن أنس رضي الله عنه، أن رجلا سأله، فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى بلده فقال: أسلموا، فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وأعطى غير واحد مائة من الإبل، وأعطى صفوان مائة ثم مائة ثم مائة. وهذه كانت خلقه صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث. وقال له ورقة: إنك لتحمل الكل، وتكسب المعدوم. وقالت خديجة أيضا كما في الصحيح. وردّ على هوازن سباياها ستة آلاف وأعطى العباس من الذهب ما لم يقدر على حمله. وحمل إليه تسعون ألف درهم على حصير. فما رد سائلا حتى فرغ منها. وجاءه رجل يسأله فقال: ما عندي شيء، ولكن ابتع علي، فإذا جاء شيء قضيناه. فقال له عمر: ما كلفك الله بما لا تقدر عليه. فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك. فقال له رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا. فتبسم صلى الله عليه وسلم، وعرف البشر في وجهه. وقال: <<بهذا أمرت>>. ذكره الترمذي. وذكر عن معوذ بن عفرا: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بقناع من رطب، يريد طبقا، وآخر زغب، يريد قثا، فأعطاني ملء كفه حليا وذهبا. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم يسئله، فاستسلف له رسول الله صلى الله عليه وسلم نصف وسق، فجاءه الرجل يتقاضاه فأعطاه وسقا، فقال له: <<نصفه قضاء ونصفه نائل>>. والأخبار بجوده وكثرة عطائه لا تحصى. ولما تكلم أبو علي الدقاق، أحد مشاهير الصوفية على الفتوة، وأنها غاية الكرم والإيثار. قال: وهذا الخلق لا يكون بكماله إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قاله في الشفا.

*** وإذا تأملت هذه الأخلاق العظيمة والكمالات الجسيمة، علمت أنه لا يقاس بها ، ولا يمكن الوصول إلى شيء منها. ولذلك قال:**

141 **لا تَقِسْ بالنبي في الفضلِ خَلْقًا فهـو البحـرُ والأنـامُ إضَـاءُ**

لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم بحر الفضائل والكرامات، ومعدن المحاسن والكمالات. فمن بحر جوده التمست المكارم، ومن نور سره استمدت العوالم،

وكلهـم مـن رسـول الله ملـتمس غـرفا مـن البحـر أو رشـفا مـن الـديم

ف"**لا تقس**" من قست الشيء بغيره قدرته على مثاله، أي: لا تشبه "**بالنبي**" صلى الله عليه وسلم "**في الفضل**" العظيم الذي أوتيه، لأن كل وصف من أوصافه وصل فيه إلى غاية لا يبلغها مخلوق، "**فهو**" لا غيره "**البحر**"، لكونه جامعا لأوصاف الكمال بالغا فيها غاية الأمل. "**والأنام**" على وزن سحاب، الخلق أو الجن والإنس، أو جميع ما على وجه الأرض، كما في القاموس. "**أضاء**" جمع أضاة على وزن قناة، وهي الغدير، أي هو صلى الله عليه وسلم البحر المحيط، والأنام غدر مستمدة من بحره ولذلك قال:

*

142 كل فضل في العالمين فمن فضْـ ـــل الـنبـيِّ اسـتعارةُ الفـضلاءُ

قد تقرر أن سيدنا صلى الله عليه وسلم هو بذرة الوجود وأصل ينبوع المكارم والجود، فلا فاضل إلا به، ومن فضله استعار فضله. ولا كامل إلا ومن كماله اقتبس كماله وفخره. وكل آية ظهرت على أيدي الأكابر، فإنما أصلها من نوره الباهر.

وكـل آي أتـى الرسـل الكـرام بهـا فإنمـا اتـصلت مـن نـوره بهـم
فإنـه شـمس فـضل هـم كواكـبها يظهـرن أنـوارها للـناس فـي الظلـم

وكل معجزة ظهرت على أيدي الرسل فقد أعطي سيدنا صلى الله عليه وسلم ما يماثلها، واختص بمعجزة القرآن العظيم المستمرة على مرور الأزمان والدهور، دامت لدينا ففاقت كل معجزة، من النبيين إذ جاءت ولم تدم، وعبر الشيخ بالاستعارة ليقتضي أن ما ناله أهل الكمال والفضل إنما هو مستعار عندهم لا على وجه الأصالة فهو مردود إلى أصله، كما هو شأن المستعار.

*** ثم بين أنواعا من وجه اختصاصه بجمع الفضائل فقال:**

143 شُقَّ عـن صـدره وشُقَّ لـه البَدْ رُ ومـنْ شرطِ كل شرطٍ جزاءُ

أما شق صدره صلى الله عليه وسلم، فقد تحقق وقوعه مرارًا، وقد تقدم الكلام عليه في معجزة رضاعه، وأما شق البدر له صلى الله عليه وسلم، فقد أخبر به القرآن

العظيم، وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه. وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسل الله صلى الله عليه وسلم فرقة، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهدوا. وفي رواية الأسود: حتى رأيت الجبل بين فرجتي القمر. ورواه عنه مسروق وزاد: فقال كفار قريش: قد سحركم ابن أبي كبشة. فقال رجل منهم: إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها. فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر رأوا هذا، فأتوا فسألوهم، فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك. وفي رواية: فقالوا، أي الكفار، لما أخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقا، هذا سحر مستمر. والصحيح عند الأكثر: أنه لم يتعدد. وأما من طعن في هذا من أهل الزيغ والخذلان، بأنه لو كان ذلك لم يخف على أهل الأرض إذ هو شيء ظاهر لجميعهم، فلا يلتفت إليه بعد تصريح الآية به. ونقل الجم الغفير له. ولم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه، ولو نقل ذلك لم يكن حجة، إذ ليس القمر في حد واحد لأهل الأرض، إذ قد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين، وقد يحول بينه وبين قوم سحاب أو جبال. ولهذا تجد الكسوف يقع في بعض البلاد دون بعض، وهذه الآية كانت ليلا، والعادة من الناس بالليل السكون والهدوء وإيجاف الأبواب . ولذلك يقع كسوف القمر كثيرا فلا يتفطن إليه إلا القليل. وكثيرا ما يحدث الثقات بعجائب وأنوار ونجوم وطوالع عظام تظهر في الأحيان، ولا علم لأحد بذلك. قاله في الشفاء. فقوله "**شق عن قلبه**"، وفي نسخة أخرى عن صدره، إنما ذكره هنا توطئة لمعجزة شق القمر، والبدر هو القمر ليلة أربعة عشر، وفيما قبلها وما بعدها يسمى قمرا، إلى ليلة ست وعشرين يسمى محاقا. وفي الليلة الثانية والثالثة من أوله يسمى هلالا. وتعبير الشيخ بالبدر يقتضي أنه وقع الشق له في تلك الليلة، ولم يثبت ذلك صحيحا، فالله أعلم أي وقت كان منه، ولعله أراد مطلق القمر. وقوله "**ومن شرط كل شرط جزاء**"، أي ومن علامة كل شرط يقع له جزاء، فلما روع سيدنا صلى الله عليه وسلم بشق قلبه المرة بعد المرة، جوزي على ذلك بجزاء عظيم مشابه له في الصورة وهو شق القمر الذي هو أظهر معجزاته وأبهرها بعد القرآن. ومثل هذه المعجزة: حبس الشمس له صلى الله عليه وسلم، فقد روى

الطحاوي في مشكل الحديث، عن أسماء بنت عميس، من طريقين، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه، ورأسه في حجر علي رضي الله عنه، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أصليت العصر يا علي؟ فقال: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس. قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصهباء في خيبر. قال: وهذان الحديثان ثابتان، ورواتهما ثقات. وكان أحمد بن صالح يقول: لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء، لأنه من علامة النبوة. انتهى. قاله في الشفاء.

*** ثم ذكر الشيخ رضي الله عنه معجزة رمي الحصا فقال:**

144 **ورمَـى بالحصى فأقصَدَ جيْشًا ... مـا العَـصَا عـندهُ ومـا الإلقـاءُ**

أما رميه صلى الله عليه وسلم "**بالحصا**" على أعدائه فهلكوا، فقد وقع مرتين، أحدهما يوم بدر، وذلك أنه لما التقى الجمعان، يومئذ تناول سيدنا صلى الله عليه وسلم كفا من الحصا فرمى به في وجوههم وقال: شاهت الوجوه أي قبحت وانهزمت. فلم يبق مشرك مع كثرتهم إلا دخل في عينيه ومنخريه منها شيء فانهزموا. فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ** ﴾ ولما بلغت تلك الرمية ما بلغت من خرق العادة الذي ليس في طوق البشر، نفى الله نسبتها لنبيه صلى الله عليه وسلم باعتبار التأثير، وأضاف إليه سببها الأول فأضاف إليه رمي الخزف وهو مبدؤه ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته. والرمي الثاني يوم حنين وذلك حين استقبل المسلمين من جيش هوازن ما لم يروا مثله في السواد والكثرة، فحملوا حملة واحدة فانهزم المسلمون ولم يبق معه صلى الله عليه وسلم إلا ناس قليلون العباس وأبو سفيان بن الحارث وعلي والفضل وأصحابه، وأبو بكر وعمر وآخرون رضي الله عنهم، فأمر صلى الله عليه وسلم أن يُنادى في الناس ليرجعوا، فلما سمعوا النداء أقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها يقولون لبيك لبيك، فاقتتلوا مع الكفار واشتد القتال حتى قال صلى الله عليه

وسلم:<<حمي الوطيس>> وهو التنور. أي اشتد حر الحرب حتى أشبهت التنور. وحينئذ تناول صلى الله عليه وسلم حصيات وقال: <<شاهت الوجوه>> ورمى بها في وجوه المشركين، فما خلف الله إنسانا إلا امتلأت عينيه. وفي رواية أحمر. وغيره: أن المسلمين لما ولوا قال صلى الله عليه وسلم: <<أنا عبد الله ورسوله>> ثم اقتحم عن فرسه وأخذ كفا من تراب فضرب وجوههم وقال: <<شاهت الوجوه>> فلم يبق منهم أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابا. وجاءه المهاجرون والأنصار سيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب، وولى المشركون الأدبار. وأما يوم الأحزاب، فلم يكن فيه رمي وإنما دعا عليهم، فأرسل الله عليهم الريح، فرمتهم بالحصباء وقلعت أوتاد أخبيتهم فسقطت عليهم وكفأت قدورهم، وسمعوا في أرجاء عسكرهم التكبير وقعقعة الرماح فارتحلوا خاسئين. قال الله تعالى: ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾. قوله "**فاقصد**" أي أصاب فأهلك "**جيشا**". و"**ما**" استفهام إنكاري أي: أيُّ شيء "**العصا**" الذي ألقاها سيدنا موسى عليه وعلى نبينا السلام على سحرة فرعون وعصيهم حتى ابتلعت ذلك عنده، أي عند هذه الحصا الذي رمى بها سيدنا صلى الله عليه وسلم. "**وما الإلقاء**" لتلك العصا على تلك الحبال والعصي التي فعلتها سحرة فرعون. أي لا تقاس معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم في إلقاء ذلك الحصباء بمعجزة سيدنا موسى عليه السلام. لأن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم أظهر وأبهر، إذ وصول تلك الحصيات القليلة إلى جميع ذلك الجيش الكثير الذي هو ألوف مؤلفة حتى هزمهم عن آخرهم وشتت شملهم، أبهر من قلب العصا ثعبانا من حيث إنها لم تقهر أعداءه، بل زادوا طغيانا وعداوة حتى أظهر الله نصره بعد ذلك. والله يؤيد بنصره من يشاء. تنبيه: أكثر معجزات الأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه وسلم كانت حسية ظاهرة، وذلك لبلادة أممهم وعمى بصرهم. وأكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم كانت عقلية لذكاء هذه الأمة، وكمال عقولهم. ولأن هذه الشريعة لما خصت بالبقاء على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذووا البصائر كما قال صلى الله عليه وسلم: <<ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما الذي أوتيته وحيا

أوحاه الله إلي، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة>>. وذلك أن معجزة القرآن تشاهد بالبصيرة وتستمر إلى القيامة، لا يمر عصر إلا ويظهر فيه شيء أخبر بأنه سيكون فكان، من يتّبعه من أجلها أكثر، إذ ما يدرك بالعقل يشاهده كل من جاء بعد الأول بخلاف ما يدرك بالحس فينقرض بانقراض صاحبه. والله تعالى أعلم.

*** ثم ذكر الشيخ إجابة دعوته صلى الله عليه وسلم في المطر فقال:**

145 **ودعـــا للأنـــام إذ دهمـــتهم ســـنة مـــن محـــولها شـــهباءُ**

146 **فاســتهلت بالغـيث سـبعة أيـا مٍ علـــيهم ســـحابةٌ وطفـــاءُ**

147 **تتحـرَّى مواضـع الرعـيِ والـسقـ يِ وحيث العطاشُ تُوهى السِّقاءُ**

في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: أصاب الناس سنة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب، دخل رجل فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وجاع العيال، وقحط المطر، فادع الله يسقينا. قال أنس: فوالله ما نرى في السماء قزعة ولا سحاب، فرفع يديه صلى الله عليه وسلم فقال:<<اللهم أغثنا، اللهم أغثنا>> فثار السحاب أمثال الجبال، فلقد رأيت المطر يتحاذى على لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم. فما زلنا نمطر من الجمعة إلى الجمعة الأخرى، وفي رواية، فما رأينا الشمس سبتا، فلما كان يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب، قام ذلك الرجل، أو رجل آخر، فقال: يا رسول الله، تهدمت البيوت، وغرق المال، فادع الله يمسكها عنا. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:<<اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الأكمام والظراب وبطون الأودية، ومنابت الشجر>> فلقد رأيت السحاب تنقطع يمينا وشمالا حتى صارت المدينة في مثل الإكليل، فخرجنا في الشمس، وسال وادي قناةُ شهرا. وما جاء أحد من ناحية إلا حدث بالجوْد، وهو بالفتح، المطر الواسع الغزير. وهذه معنى قوله "**ودعا للأنام إذ دهمتهم**" أي غشيتهم "**سنة من محولها**" أي من أجل شدة جذبها وقحطها "**شهباء**" لأنها لا خضرة فيها ولا مطر. والمحل والمحول هو شدة القحط. "**فاستهلت**" أي صبت المطر بشدة "**سبعة أيام عليهم سحابةٌ**" فاعل استهلت

"**وطفاء**" أي مسترخية الجوانب لكثرة مائها "**تتحرى**" أي تقصد تلك السحابة مجاز، أي الملائكة الموكلون بها "**مواضع الرعي**" إي الكلأ الذي يُرعى، ومواضع "**السقي**" الذي يجمع فيها الماء لتشرب منه البهائم، وتتحرى "**حيث العطاش**" أي: مواضعهم التي "**يوهى**" بالبناء للمفعول، أي يضعف وتخرق "**السقاء**" منهم فيها يعني أن تلك السحابة عمّت جميع تلك الأماكن بمائها حتى أنها تتحرى الأمكنة المعطشة التي تخترق السقية العطاش فيها فيحتاجون إلى الغدران للشرب.

*** ولما استهلت عليهم سبعة أيام، أتى الناس إلى سيدنا صلى الله عليه وسلم يشتكون أذاها، فأشار إلى ذلك بقوله:**

148	**وأتــى الـنَّاس يـشتكون أذاهَــا**	**ورخــاء يــوذي الأنــام غَــلاءُ**
149	**فدعَا فانجَلى الغمام فقُل في**	**وصـفِ غيْثٍ إقلاعه استسقاءُ**
150	**ثـم أثْـرى الثَّـرى فقرَّت عيُون**	**بِقُــراها وأُحْيِــيَتْ أَحْــيَاءُ**
151	**فتَــرى الأرض غــبه كـــسماء**	**أشـرقتْ مـن نُـجومها الظلمـاءُ**
152	**تخْجل الـدر واليواقيت مِن نُو**	**رِ رُبـاهــا البيــضاءُ والحمــراءُ**

وقد تقدم في حديث أنس: فلما كان يوم الجمعة قام ذلك الرجل أو رجل آخر، فقال: يا رسول الله، تهدمت البيوت، وغرق المال، فادع الله يمسكها عنا. فقوله: "**وأتى الناس**" عامّ أريد به خاصّ كقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ الآية. ولما كانوا متفقين له شاكين بلسان حالهم، أسند الشكوى إليهم كلهم، وفي بعض الروايات: فصاح الناس: يا رسول الله، تهدمت البيوت. إلخ. وقوله "**ورخاء يؤذي الأنام غلاء**"، يعني إن المطر الواسع يكون سببا في رخص الأسعار، فإذا كثر حتى أذى صار سببا في الغلاء والشدة. وبيْن أذاها ويوذي جناس الاشتقاق، والرخاء والغلاء جناس التضاد. فبسبب أن هذا الرخاء انتقل إلى الشدة، "**دعا**" صلى الله عليه وسلم ليكشف عنهم، "**فانجلى**"، أي انكشف "**الغمام**"، أي السحاب عقب دعائه صلى الله عليه وسلم،

وخرجوا يمشون في الشمس كما مر. وإذا تقرر هذا، "**فقل**" أيها المتأمل في هذه المعجزة، وتعجب "**في وصف غيث إقلاعه**" أي انكشافه "**استسقاء**"، أي ذو استسقاء على خلاف المتعارف، إذ الاستسقاء غالبا إنما يكون لطلب وجوده لا لطلب رفعه. "**ثم**" بعد ذلك الغيث الواسع النافع ببركة دعائه صلى الله عليه وسلم "**أثرى الثرى**"، وهو التراب، أي كثر المطر الواقع عليه حتى كثرت فوائد التراب بكثرة إنباته الزرع والثمار المؤدية إلى كثرة الأموال، مشتق من أثرى الرجل، كثر ماله. فبسبب هذه الكثرة قرت، أي فرحت، واطمأنت، من أقر الله عينه، أي أعطاه حتى لا تطمح عينه إلى من هو فوقه. قاله ابن حجر. وقال بعض العلماء: دمْع الفرح بارد، والقر هو البرد. فقولهم: قرت عينه، أي دمعت من شدة الفرح، وأقر الله عينه، أعطاه ما يوجب غاية الفرح المفضي إلى البكاء كبكاء سيدنا عمر حين بشره سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقصره في الجنة، أي فرحت عيون بسبب ما زال عنهم من الكرب وحصل لهم من الخصب. قال أنس: ولم يأت أحد من ناحية إلا حدث بالجود. وإنما "**قرت عيون**" الناس بعمارة "**قراها**" وكثرة فوائدها بعد خلائها بانجلاء أهلها، "**وأحييت**" بعد ما حصل لها الجذب والشدة ما صيرها كالموات. "**احياء**" جمع حي، أي قبائل العرب بواسطة إحياء نفوسها ومواشيها، وفيه تجنيس الاشتقاق في أثرى الثرى وقرت قراها وأحييت إحياء. "**فترى**" أيها الرائي لو شاهدت تلك الواقعة "**الأرض غبه**" أي عقبه وإثره. قال في القاموس الغب بالكسر عاقبة الشيء كالمغبة بالفتح. ثم قال: وفي الزيارة أن تكون كل أسبوع. ومن الحمى: ما يأخذ يوما ويدع يوما إلخ. يعني أن الأرض تزخرفت وتزينت بكثرة الأنوار والأزهار عقب هذا الغيث العميم، فحاكت السماء في نجومها. فقوله: "**كسماء**" حال إن جعلت رءا بصرية وهو الظاهر. "**أشرقت**" أي: زالت عنها "**من**" أجل "**نجومها الظلماء**"، ففيه تجوز. إذ الإشراق يستعمل للنور، ووجه الشبه ما حصل للأرض بإصابة الغيث. وللسماء بالنجوم من زوال ظلمته الحقيقية في السماء، والمجازية في الأرض، وبين السماء والإشراق والظلماء الطباق وتراها أيضا

"**تخجل**" أي: تحير وتدهش. يقال خجل كفرح، استحيا ودهش وبقي ساكتا لا يتحرك. "**الدر**" أي: اللؤلؤ "**واليواقيت**" وهي كبار اللؤلؤ؛ وهو فارسي معرب، وإسناد الخجل إليها مجاز، وكذا إسناد الإخجال إلى الأرض، من بيان لفاعل تخجل الآتي. "**نَوَر**"، بفتح النون، أي زَهَر "**رُباها**" بضم الراء جمع ربوة، وهو ما ارتفع من الأرض كالكدى، لأن ما بها أنظر وأبهى. "**البيضاء والحمراء**" فاعل تخجل، أي: يخجل نورها الأبيض الدر، ونورها الأحمر اليواقيت ففيه لف ونشر مرتب، ومراعات النظير بذكر المعدنين، والتقابل بذكر الضدين. وما ذكره الشيخ من معجزة المطر وقعت بمكة والمدينة فيصح أن يراد كل منهما. وفي الصحيح أن قريشا لما أبطئوا عن الإسلام دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقحط فأصابتهم سنة حتى هلكوا وأكلوا الجلود والميتة، فجاء أبو سفيان فقال يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله. فدعا فسقوا الغيث فأطبق عليهم سبعا، فشكا الناس كثرة المطر. فسأل الله رفعه.

*** ولما ذكر من صفاته الباهرة ما يشوق السامع لشيء منها، تمنى رؤيته فقال:**

153 **لَيْتَهُ خَصَّنِي بِرُؤْيَةِ وَجْهٍ   زالَ عَنْ كُلِّ مَنْ رآهُ الشَّقَاءُ**

لا شك أن رؤيته صلى الله عليه وسلم من أعظم الكرامات، وأفضل المراتب والكمالات، وهي لا تحصل غالبا إلا لمن قويت محبته، ورق حجابه، وائتلفت روحه بروحه صلى الله عليه وسلم. ويكون ذلك بكثرة الصلاة عليه على قصد المحبة والحضور، مع شدة المتابعة له صلى الله عليه وسلم. قال الشيخ أبو عبد الله الساحلي رضي الله عنه، في بغية السالك: إن من أعظم الثمرات، وأجل الفوائد المكتسبات بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، انطباع صورته الكريمة في النفس انطباعا ثابتا متأصلا، وذلك بالمداومة على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بإخلاص القصد وتحصيل الشروط والآداب، وتدبر المعاني حتى يتمكن حبه من الباطن تمكنًا صادقًا خالصًا يصل بين نفس الذاكر ونفس النبي صلى الله عليه وسلم، ويؤلف بينهما في محل القرب والصفا تأليفا بحسب تمكن حبه من النفس، فالمرء مع من أحب، والحب

يوجب الاتباع للمحبوب، والاتباع يوذن بالوصال للمحبوب. قال الله عز وجل: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ الآية. والأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف. فإذا تمكن حب النبي صلى الله عليه وسلم في النفس لم تغب صورته الكريمة عن عين البصيرة لمحة، وهي الرؤية الحقيقية، لأن رؤية البصر إنما هي لتأدية حقيقة المبصر إلى عين البصيرة، فيحصل عند البصيرة الاطلاع على حقيقة ما أداه إليها البصر من المبصرات. ولا شك أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إذا خلص مشربها سطعت أنوارها في الباطن، فصارت النفس مرآة صورته صلى الله عليه وسلم، ولا تغيب عنها، وهو العلم الحقيقي الذي لا شك فيه. وما قرُب السَّندُ، بعُد عن العلم تطرُّق الظُّنون. وفرق بين من يروي عن بصره ومن يروي عن بصيرته، فرؤية البصر ربما احتملتها الأوهام، ورؤية البصيرة الصافية لا وهم فيها ولا خيال فافهم هذه الإشارة. قال: ثم الناس في انطباع صورته صلى الله عليه وسلم الكريمة على طبقات بحسب مشاربهم وأذواقهم في الصدق والحضور. قال: فمنهم من لا تثبت الصورة الكريمة في نفسه إلا بعد تأمل وتثبت وإعمال فكر، وهذا أضعف القوم، لتعلق بعض البقايا الخاصة بهذا المنزل بالنفس. وهذا قليل لرؤيته إياه في النوم، وإن رآه فإنما يراه على غير كمال الرؤية. ومنهم تثبت الصورة الكريمة في نفسه أحيانَ ذكْره إياه، لا سيما في الخلوات، وعندما يتمخض الفكر في معنى التصفية، فإذا فتر غاب عنه. وهذا أنهض من الأول، لكن مع بقية فيه مما تقتضيه منزلته، وهذا يراه في النوم على صورته الكاملة. ومنهم من إذا سد عينيه يقظة ونوما رءاه بعين بصيرته على كل حال. ومنهم أهل النهايات، الذين اطمأنت قلوبهم حتى رقت نفوسهم إلى فراديس التقريب، وظفرت بمجاورة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ومنهم ما هو أعلى من هذا، وهو أن يراه بعين رأسه عيانًا ومباشرة صورته الكريمة في عالم الحس، لا سيما في أوقات الذكر، وذلك أن الأرواح إذا ائتلفت ائتلافا بليغا بكثرة الصلاة عليه، فإن روحه الكريمة تتشكل بجسده الطيب الطاهر حتى ينظر المصلي إليه، تارة عيانا، وتارة إدراكا بالباطن بحسب

قوة ائتلاف الروحين، أو ضعفه، مع أن رؤية البصيرة أقوى من رؤية البصر. انتهى. وقال الشيخ كمال الدين البارني الحنفي في شرح المشارق في حديث من رءاني: الاجتماع بالشخصين يقظة ومناما لحصول ما به الاتحاد وله خمسة أصول، كلية الاشتراك في الذات أو في الصفات فصاعدا أو في حال فصاعدا أو في الأفعال أو في المراتب. وكل ما يتعقل من المناسبة بين شيئين أو أشياء لا تخرج عن هذه الخمسة، وبحسب قوته على ما به الاختلاف وضعفه يكثر الاجتماع ويقل. وقد يقوى على ضده فتقوى المحبة بحيث يكاد الشخصان لا يفترقان. وقد يكون بالعكس. فمن حصل الأصول الخمسة، وثبتت المناسبة بينه وبين أرواح الكُمَّل الماضين، اجتمع معهم متى شاء.انتهى. هذا، وتمني الشيخ تخصيصه بالرؤية يحمل على أكملها، وهي اليقظة، ويحتمل المنامية لأنها وسيلة لها لقوله صلى الله عليه وسلم: <<من رآني في النوم فسيراني في اليقظة>>. ولا يلزم من وقوع ذلك لهم على جهة الكرامة الباهرة أنهم صحابة. لأن الصحبة انقطعت بموته صلى الله عليه وسلم. وإذا كان من رآه بعد موته وقبل دفنه غير صحابي فهؤلاء أولى، فاندفع قول فتح الباري هذا مشكل جدا، ولو حمل على ظاهره كانوا صحابة أشهر. ومما يؤيد أن الناظم أراد ذلك أنه تلميذ القطب أبي العباس المرسي، فهو الذي حلت عليه بركته حتى وصل إلى النظم البالغ الدرجة العليا، وأن القطب المذكور وارث القطب الأكبر أبي الحسن الشاذلي، وكل منهما حفظت عنه رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة، بل قال أبو الحسن: لو حجب عني النبي صلى الله عليه وسلم ما عددت نفسي مسلما. وقد روى ذلك عن تلميذه والقطب علي بن الوفا ممن حفظت عبه رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة مرارا، وطريقة الوفائية هي خلاصة طريقة الشاذلية، والناظم منسوب لهؤلاء السادات، فيقرب أنه سأل ذلك له. نفعنا الله ببركتهم أجمعين.

تنبيه: اختلف في قوله صلى الله عليه وسلم: <<من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي>> وفي رواية: << من رآني فقد رءا الحق>> هل ذلك عام أو مخصوص بمن رآه بصفته المعهودة. فقال بعضهم: إن رئي على صورته التي كان عليها. وقال بعضهم: إن رئي بصفته التي قبض عليها حتى عدد شيبه. وصح هذا

عن ابن سيرين وعن ابن عباس ما يفهمه. وفي حديث ضعيف: إني أرى في كل صورة. وصحح النووي: أنه يرى حقيقة ولو على غير صفته. قال ابن العربي: لكن رؤيته على غير صفته مثال، فرؤيته مقبلا بصورة حسنة تدل على خير، وعكسه بعكسه. وقال الغزالي: رؤيته على صفته ليس المراد رؤية ذاته حقيقة، بل مثال يحكيها على التحقيق، كما في رؤية الله تعالى، إذ لا صورة له ترى، بل معرف لها من نور أو غيره. قاله ابن حجر. وقوله: "**زال عن كل من رآه الشقاء**" لا شك أن من خصه الله برؤيته صلى الله عليه وسلم يقظة أو نومًا لا يلحقه شقاء أبدا، دنيا وأخرى. أما يقظة فإن كان في حياته صلى الله عليه وسلم فهو صحابي، وقد اتفق الناس على فضلهم وعدالتهم، ويشهد لذلك الكتاب والسنة نحو: <<أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم>>. وطعن بعضهم في هذا الحديث. وقال لا أصل له. وقال صلى الله عليه وسلم : <<لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم ملء الأرض ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه>>. وقال صلى الله عليه وسلم: <<خير القرون قرني>> إلخ. وبالجملة فمزية الصحبة لا يعادلها شيء، ومن ثم سئل ابن المبارك عن عمر بن عبد العزيز ومعاوية رضي الله عنهما أيهما أفضل. قال: لَلْغبار الذي دخل في أنف فرس معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من مائة مثل ابن عبد العزيز. وذهب ابن عبد البر إلى أنه يمكن فيمن بعدهم من هو أفضل من بعضهم للخبر الحسن أو الصحيح مثل: <<أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أو آخره>>. وللخبر الحسن أيضا: ليدركن المسيح أقوام أنهم لمثلكم أو خيركم، ثلاثا. وفي حديث أبي داوود والترمذي: <<أتي أيام للعامل فيها أجر خمسين منكم>>. وقد يجاب بأن يكون قال هذا قبل أن يعلم أفضلية أصحابه. وأشار بعضهم إلى محل الخلاف في صحابي لم له إلا مجرد الرؤية. وأما من زاد على ذلك بنحو رواية أو غزو فلا نزاع فيه، وإن كان الرائي له صلى الله عليه وسلم يقظة بعد موته. فهذا من أكابر الأولياء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وإن كان في النوم على صفته التي كان عليها. فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه سيراني يقظة، إما في الدنيا فيلحق بما قبله، وإما في الآخرة على الحوض أو في الجنة بحيث يحصل له القرب منه صلى الله عليه وسلم والدخول تحت شفاعته. اللهم اجمع بيننا وبينه كما

آمنا به ولم نره، ولا تفرق بيننا وبينه حتى تدخلنا مدخله وتوردنا حوضه وتجعلنا من رفقائه مع المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بمنك وفضلك يا أرحم الراحمين.

*** ولما ذكر ذلك الوجه الكريم، وزوال الشقاء عن كل من رءاه، أتبعه بذكر محاسن وخصوصيات فيه، ذاكرا مع كل ما يناسبه، كما هو شأن البلغاء، فقال:**

154 **مُسْفِرٌ يَلْتَقي الكَتيبةَ بَسَّا ... ما إذا أَسْهَمَ الوجُوهَ اللِّقَاءُ**

لا شك أن جماله صلى الله عليه وسلم كان في غاية الكمال والتمام، ومن إسفار نور وجهه الكريم أشرقت الغياهب والظلام. إذا تبسم كأنما يفتر عن اللؤلؤ الرطب وحب الغمام، وإذا كان في الحرب لا يناله من شدة بأسه تغير ولا اشهام،

إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول،

فقوله "**مسفر**" صفة ثابتة لوجه، أي مشرق نوره الذي يكاد أن يخطف الأبصار، "**يلتقي**" ذلك الوجه "**الكتيبة**" أي الجيش، بالمثناة، لأنها تكتب في الديوان، أو بالمثلثة، من تكثبت بنوا فلان، إذا اجتمعت. حال كونه "**بساما**" أي كثير التبسم، يفتر عن مثل سنا البرق. وفي حديث أبي هريرة: إذا تبسم يتلألأ أبْحر. "**وإذا أسهم**" أي غيَّر، يقال: سهم، بفتح العين وضمها، إذا أضمر وتغيَّر، وقوله "**الوجوه**" مفعول "أسهم" و"**اللقاء**" فاعل. وأشار بهذا إلى ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الطمأنينة والثبات، حين ملاقاته العدو، وعدم اكتراثه بكثرة جموعهم، لما أعطاه الله من الشجاعة التي لم يصل غيره إلى أدنى شيء منها. وقد صح عن أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان أحسن الناس وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلا، فخرج صلى الله عليه وسلم قِبَلَ الصوت إلى أن بعد، فلم ير شيئا، فرجع فتلقاه الناس فقال: <<لن تراعوا>>. وصح انه صلى الله عليه وسلم صرَع ركانة مرات ولم يُصرع قط. فقال متعجبا منه: إن شأنك لعجيب. وصرع آخر بلغ من شدته أنه كان يقف

على جلد البقرة ويتجاذب أطرافه عشرة لينزعوه من تحت قدمه فيفري الجلد ولم يتزحزح عنه. وصح أنه صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين لما تفرق عنه أصحابه، ثبت على بغلته ويضربها إلى جهة العدو، ويظهر نفسه بقوله: <<أنا النبي لا كذب>>، مع كون البغلة لا تصلح لكر ولا فر. ومن ثم قال الصحابة رضي الله عنهم: كنا إذا حمي الوطيس أن اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، أي جعلناه أمامنا واستقبلنا العدو به صلى الله عليه وسلم وكنا خلفه. ومن قال أنه صلى الله عليه وسلم هزم، فهو مرتد، فإن تاب وإلا قتل.

*** ثم ذكر بقية الخصوصيات، فقال:**

155 **جُعِلَتْ مَسْجِدًا لَهُ الأَرْضُ فَاهْتَـ ـــزَّ بِــهِ للـصَّلاةِ فِـيهَا حِـرَاءُ**

أما جعل الأرض لسيدنا صلى الله عليه وسلم مسجدا، فقد خصه الله بذلك زيادة في إكرامه والتوسعة على أمته. قال صلى الله عليه وسلم: <<أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيُّما رجل أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة. وكل النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للناس عامة>>[1]. فقوله "**جعلت له الأرض مسجدا**" أي موضع سجود بحيث لا يختص بموضع منه دون غيره، ويمكن أن يكون مجازا عن الموضع المبنى للصلاة، من مجاز التشبيه، لأنها لما جازت الصلاة في جميعها كانت كالمسجد، بخلاف من قبلنا، فكانوا لا يصلون إلا في أماكن مخصوصة كالبيع والكنائس والصوامع، يدل على ذلك ما ثبت في بعض الروايات: وكان من قبلي إنما يصلون في كنائسهم، وفي رواية أخرى: ولم يكن أحد من الأنبياء يصلي حتى يبلغ محرابه. وقد ورد أن عيسى عليه السلام كان يسبح ويصلي حيثما أدركته الصلاة، فعلى فرض صحته يكون خاصة به دون أمته، بخلاف هذه الأمة. وأما اهتزاز الجبل فرحا به صلى الله عليه وسلم، فقد ثبت ذلك في جبل حِرَاء أو في جبل

(1) رواه الشيخان.

أحد، ولعله تعدد ذلك. قال ابن حجر العسقلاني، ويؤيده أن الذي معه بحِراء أزيد ممن معه بأحد. انتهى. أما حديث حِراء، فقد أخرجه مسلم والترمذي، وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان على حِراء، هو وأبو بكر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال صلى الله عليه وسلم: <<اسكن حِراء، فما عليك إلا نبي وصديق أو شهيد>>. وفي رواية سعد بن أبي وقاص، ولم يذكر عليا، خرجها مسلم. وأما حديث أُحد، فأخرجه البخاري بلفظ أنه كان معه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه صلى الله عليه وسلم برجله، وقال <<اثبت أُحُدْ فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان>>. ووجه التعليل بقوله "**للصلاة**" أنه لما أقطع الله لنبيه الأرض وجعلها كلها مسجدا، دخل في ذلك جبالها. فإذا صعد صلى الله عليه وسلم جبلا، فرح بكونه صار أهلا لصلاة النبي عليه السلام فيه. والله تعالى أعلم بمراد الشيخ. والحكمة في قوله صلى الله عليه وسلم إنما عليك نبي إلى آخره، أنه أراد صلى الله عليه وسلم أن يبين أن هذه الرجفة ليست من جنس رجفة الجبل بقوم موسى عليه السلام لما حرفوا الكلم، وأن تلك رجفة الغضب وهذه هزة الطرب، ولهذا نص صلى الله عليه وسلم على مقام النبوة والصديقية والشهادة التي توجب سرور ما اتصلت به، لا رجفانه، فأقر الجبل بذلك واستقر. انتهى. قاله ابن التين. والضمير في "له" يعود على وجهه الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وحِرَا ممدود، ويجوز قصره وصرفه وعدمه باعتبار البقعة والمكان.

*** ثم ذكر ما كان في وجهه الكريم من أثر الجرح الذي أصابه يوم أحد في جهاد عدوه، فقال:**

156 **مُظْهِرٌ شَجَّةَ الجَبينِ عَلَى البُرْ ءِ كَمَا أَظْهَرَ الهِلالُ البَرَاءُ**

أخرج ابن هشام، أن عتبة بن أبي وقاص، أخا سعد بن أبي وقاص، رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد، فكسر رباعيته السفلى، وجرح شفته اليسرى، وأن عبد الله بن هشام شجه في جبهته، وأن ابن قميئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من المغفر فيها. وفي رواية: وهشموا البيضة على رأسه، ورموه بالحجارة حتى رموه لشقة.

الحديث. وروى الطبراني وغيره، أن ابن قميئة رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فشج وجهه، وكسر رباعيته، فقال خذها وأنا ابن قميئة. فقال صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه: أقمأك الله. فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة. وقال أنس": كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وشج وجهه، وجعل يمسحه ويقول: <<كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم>>. الحديث. فقول الناظم: "**مظهر**" أي: ذلك الوجه الكريم، لا حرمنا الله من رؤيته، "**شجة الجبين**" أي: جرح جبينه، وتجمع على شجاج، أي: جراح، والجبين: المنحرف عن الجبهة فوق الصدغين، والجبهة بينهما، وفي العبارة مسامحة، أن الذي شج جبهته كما تقدم. وقوله "**على البُرء**" أي مصاحبة له. يقال برئ من المرض بالكسر، برءا بالضم، وبرأ برءًا بالفتح فيهما، فكان أثرها ظاهرا في جبهته. "**كما أظهر الهلال البراء**" وهو بفتح الموحدة، أول ليلة من الشهر، يعني أن وجهه الأكرم أظهر آثار تلك الشجة مع برئها ظهورا واضحا كظهور الهلال ليلة استهلاله، لحكمتين يتذكر من رءا أو سمع ذلك، فيتسلى عندما ينزل به من المحن ويقتدي به صلى الله عليه وسلم، وليعلم أن تلك الشجة لم تشنه صلى الله عليه وسلم، بل زادته جمالا على جماله، لأنها صارت بعد البرء كالهلال في وجهه الأحسن من الهلال.

*** كما أشار لذلك بقوله:**

157 **سُتِرَ الحُسْنُ مَنْهُ بِالحُسْنِ فَاعْجَبْ   لِجَمَـــالٍ لَـــهُ الجَمَـــالُ وِقَـــاءُ**

جمال سيدنا صلى الله عليه وسلم في غاية الظهور والبيان، فلا يحتاج إلى دليل ولا برهان، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة. فكان صلى الله عليه وسلم باهر الجمال في الظاهر والباطن، لكن "**ستر الحسن منه**" الباطني "**بالحسن**" الظاهر، فأظهرت شجة الجبين لمحة من باهر حسنه الباطني. "**فاعجب**" أيها السامع "**لجمال**" باهر باطن "**له الجمال**" الظاهر "**وقاء**" أي ساتر، فقد ستر الجمال بالجمال، ولذلك تعجب منه.

* **ثم ضرب لذلك مثلا فقال:**

158 **فَهْوَ كَالزَّهْرِ لاَحَ مِنْ سَجَفِ الأَكْـ مَـامِ والعُـودُ شُـقَّ عَـنْهُ اللِّحَـاءُ**

يعني أن ما ظهر من حسنه صلى الله عليه وسلم بسبب شجة جبينه "**كالزهر**" جمع زهرة وهي نُوَرُ النوات. "**لاح**" أي ظهر "**من سجَف**" أي ستر وهو بفتح السين وكسرها، "**الأكمام**" جمع كم وهو غطاء النُّوَرِ، فكان جماله الباطني صلى الله عليه وسلم، كالزهر المستور بالأكمام. فلما ظهر منه بالشجة صار غالبا على جماله الظاهر وهو أيضا مثل "**العود**" الذي يتطيب به إذا "**شق عنه اللحاء**" أي قشره الظاهر من لحوته ألحوه إذا قشرته. فظاهر الجلد كاللحاء، وباطنه كالعود، فكان جمال باطنه أبهر، وطيبه أكثر.

* **ولذا قال:**

159 **كَـادَ أَنْ يُغْشِيَ العُيُونَ سَنًى مِنْـ ـهُ لِـسِرٍّ فِـيهِ حَكَـتْهُ ذُكَـاءُ**

"**كاد**" أي قرب ما ظهر بالشجة "**أن يُغْشِيَ**" أي يغطي "**العيون سنى**" بالقصر، أي ضوء عظيم خارج منه "**لسر**" عظيم "**فيه**" أي في ذلك الباطن الذي ظهر منه. ولما كان نوره صلى الله عليه وسلم أبهر من نور الشمس وضيائها، شبّه نور الشمس بنوره صلى الله عليه وسلم في قوله "**حكته**" أي شابهته "**ذكاء**" بضم المعجمة وعدم الصرف ولا يدخلها الألف واللام، لأنه علم جنس للشمس، أي يشابهه في باهر ضوئه الشمس.

* **ثم ذكر كمال حسنه الظاهر فقال:**

160 **صَـانَهُ الحُسْنُ والـسَّكِينَةُ أَنْ تُظْـ ـهِـرَ فِـيهِ آثَارَهَـا البَأْسَـاءُ**

يعني أن وجهه الشريف، عليه الصلاة والسلام، لما اشتمل عليه من "**الحسن**" مع ما انضم إليه من "**السكينة**" والوقار، لا تغيره الشدائد والبأساء، ولا "**تظهر آثارها فيه**" فالضمير "صانه" يعود على الوجه و"**الحسن**" فاعل. "**والسكينة**" فَعِيلَةٌ من السكون، وهي الطمأنينة وعدم الاضطراب عند هيجان المحن ومحركات الأسباب

"**وآثارها**" مفعول مقدم و"**البأساء**" فاعل وعليها يعود ضمير "**آثارها**" والكلام على إسقاط الخافض. ولأجل ما خُص به سيدنا صلى الله عليه وسلم من السكينة والوقار، لم يظهر عليه عند تلك الشجة أثر الغضب، وما ظهر منه إلا غاية الحسن الحسي، وهو ملاءمة وتناسب بين الأجزاء والأعضاء من جهة هيآتها وألوانها وبهجتها ونضارتها. والثاني الحسن العقلي وهو في المعاني التي يتعلق إدراكها بالعقل: كالعدل والرحمة والوقار وغير ذلك. والثالث: الحسن الروحاني وهو في الأخلاق الخاصة كالعلوم والمعارف وأنواع التجليات الباطنية. والرابع: الشرعي، وذلك في الأمور الدينية، كرعاية أمر الشارع، ولزوم الجماعة، والاعتقاد الصحيح، ونحو ذلك. وقد اجتمعت هذه الأقسام في سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم على غاية الكمال كما لا يخفى، وبالله التوفيق.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

161 **وتَخَالُ الوُجُوهَ إِنْ قَابَلَتْهُ   أَلْبَسَتْهَا أَلْوَانَهَا الحِرْبَاءُ**

من كمال جماله صلى الله عليه وسلم "**وتخال**" أي تظن "**الوجوه إن قابلته**" أي رأته وعاينت وجهه الشريف من شدة خجلها وفرط تلونها أنها "**ألبستها**" أي كستها "**الحرباء**" "**ألوانها**" والحرباء دويبة صغيرة، وهي التي يسميها العامة أَتَت، ومن شأنها أنها تستعمل الشمس وتدور معها كيف دارت وتتلون بالألوان العجيبة المختلفة، أي تظن الوجوه من شدة ما غشيها من الخجل وما كساها بسببه من الألوان المختلفة عند رؤية وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم، أن الحرباء كستها ذلك الألوان.

*

162 **فَإِذَا شِمْتَ بِشْرَهُ وَنَدَاهُ   أَذْهَلَتْكَ الأَنْوَارُ وَالأَنْوَاءُ**

فمن باهر جمال سيدنا صلى الله عليه وسلم، وكمال جوده وفضله صلى الله عليه وسلم، أنك "**إذا شمت**" أي تلمحت وأبصرت "**بشره**" أي سروره وطلاقة وجهه، "**ونداه**" أي عطاءه وجوده، "**أذهلتك**" أي أنستك نفسك وأدهشتك "**الأنوار**" الباهرة

التي تحصل من مقابلة وجهه الشريف، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت، رضي الله عنه:

لما نظرت إلى أنواره سطعت	وضعت من خيفتي كفي على بصري
خوفا على بصري من حسن صورته	فلست أنظره إلا على قدري
الأنوار من نوره في نوره غرقت	والوجه منه طلوع الشمس والقمر
روح من النور في جسم من القمر	كحلة نسجت بالأنجم الزهر

وإذا نظرت إلى سحائب جوده، وغزير فضله ونواله، أذهلتك "**الأنواء**" جوع نوء، وهو ما تضيف العرب الأمطار إليه من النجم أو وقته، تقول مطرنا بنوء كذا، وهي كناية عن عموم خيره وشمول إحسانه وفضله، له راحة لو أن معشار جودها على البَرِّ كان البَرُّ أندى من البحر.

* **ولما تمنى الشيخ رؤية الوجه الشريف ووصفه بما يناسب، أخذ في تمني تقبيل راحته الكريمة، واستتبعها بأوصافها العظيمة فقال:**

163 **أَوْ بِتَقْبِيلِ رَاحَةٍ كَانَ للَّـ ـهِ وَبِاللهِ أَخْذُهَا وَالعَطَاءُ**

أَوْ ليْتَه خصّني "**بتقبيل راحته**" التي "**كان لله**" ابتغاء مرضاته "**وبالله**" قد اكتنفته العصمة وحفت به النصرة فيعطي عطاء من لا يخشى الفقر ويرهن درعه في وسق من شعير "**والعطاء**" اسم مصدر بمعنى الإعطاء. أفاض الله علينا من سيب عطاياه، ومنحنا محبته ورضاه بجاهه العظيم عند الله.

* **ثم قال الشيخ:**

164 **تَتَّقِي بَأْسَهَا المُلُوكُ وتَحْظَى بِالغِنَى مِنْ نَوَالِهَا الفُقَرَاءُ**

كانت كفه الشريفة شديدة البأس في حرب الكفار، فكانت "**تتقي**" أي تخاف وتحذر "**بأسها الملوك**" ككسرى وقيصر والمقوقس وغيرهم، "**وتحظى بالغنى**" أي تظفر وتفوز به "**الفقراء**" لعظم نوالها، وثرة عطائها، فيصير الفقير بها غنيا، والذليل عزيزا، أعزنا الله بعزه المتين بجاهه. آمين.

* **ثم قال الشيخ:**

165 لا تَسَلْ سَيْلَ جُودِهَا إِنَّمَا يَكْـ ـفِيكَ مِنْ وَكْفِ سُحْبِهَا الأَنْدَاءُ

مطر سحائب جود سيدنا صلى الله عليه وسلم غزير وغمر نداه بحر زخير، فلا ينبغي لك أن "**تسل سيل جودها**" الكثير، و"**إنما**" ينبغي لك أن تسال ما "**يكفيك من وكف**" أي قطر "**سحبها**" جمع سحاب، فيكفيك من ذلك "**الأنداء**" جمع ندى، وهو البلل، يعني انك إن سالت جميعه لا تقدر قدره، فيكفيك من ذلك بلل هذا الندا ففيه الغنية والاكتفاء. والجود بالفتح هو المطر الواسع، الوكف: القطر.

* **ثم تمم وصف راحته صلى الله عليه وسلم بقوله:**

166 دَرَّتِ الشَّاةُ حِينَ مَرَّتْ عَلَيْهَا فَلَهَا ثَرْوَةٌ بِهَا وَنَمَاءُ

قد تقدمت قصة شاة أم معبد، حيث هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ومر عليها، فوجد عندها شاة عجفاء قد حبسها المرض، فمسح صلى الله عليه وسلم بكفه المباركة على ضرعها ف"**درت**" لبنًا غزيرًا، فسقى من معه، وبقي في البيت حتى أتى بعلها. وذلك أنه لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من غار ثور ومعه أبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة والدليل، فأخذتهم طريق الساحل، فمروا بغدير قرب رابغ على أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية، وكانت بزْرَةً أي تظهر للرجال تسقي وتطعم، وكانوا في غاية القحط والجهد، فطلبوا منها لحما ولبنا يشترونه، فلم يجدوا عندها شيئا، فنظر صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر الخيمة تخلفت عن الغنم لشدة الجوع، فسألها هل بها من لبن، فقالت: هي أجهد من ذلك، والله ما ضر بها من فحل قط. فقال: ألا تأذنين لي أن أحلبها، فقالت: نعم، إن رأيت بها حلبان فاحلبها، فدعا بالشاة فعقلها ومسح ضرعها وسمى الله، فتفاجت ودرت، ودعا بإناء يشبع الجماعة، فملأه من حلبها وسقى القوم حتى رووا، ثم شرب آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى عللا بعد نهل، ثم تركوه عندها، وذهبوا. ذكر ذلك ابن إسحاق والكلاعي وغيره. ومعنى "**درت**" أرسلت لبنا غزيرا، ودرت السحاب: أرسلت المطر. "**والثروة**" كثرة المال، واستعير هنا لكثرة اللبن "والنماء" الزيادة، فلها بسبب تلك الراحة الكريمة كثرة عظيمة ونماء عظيم.

*** ثم ذكر معجزة نبع الماء من هذه الراحة المباركة، وإثمار النخل ببركتها، وتسبيح الحصا فيها، فقال:**

167 **نَبَعَ المَاءُ أَثْمَرَ النَّخْلُ فِي عَا ... مٍ بِهَا سَبَّحَتْ بِهَا الحَصْبَاءُ**

أما "**نبع الماء**" فقال القرطبي: قصة نبع الماء من بين أصابعه قد تكررت منه صلى الله عليه وسلم في عدة مواطن في مشاهير عظيمة، ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة من غير نبينا صلى الله عليه وسلم حيث نبع الماء من بين عظمه ولحمه وعصبه ودمه، وذكر المدني أن هذا أبلغ من نبع الماء من الحجر من ضرب موسى عليه السلام، لأن الحجر يؤلف منه خروج الماء، وليس كذلك البدن. فمن جملة تلك المواطن ما في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه، أن الناس احتاجوا لصلاة العصر فلم يجدوا الماء، فأتى صلى الله عليه وسلم بوَضوء فوضع يده الشريفة في ذلك الإناء، فنبع الماء من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضئوا كلهم. زاد ابن شاهين: أنه وقع نظير ذلك في غزوة تبوك، لما شكوا إليه فطلب فضلة ماء فأتي بها فصبها في صفحة، ثم وضع صلى الله عليه وسلم راحته فيها، فتخللت عيون بين أصابعه، فرووا هم وإبلهم، وتزودوا منه. وفيها عن جابر: أنه صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ من ركوة، فجاءوه يشتكون العطش، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فتوضؤوا كلهم، وكانوا ألفا وخمسمائة. بل قال جابر: لو كنا مائة ألف لكفانا. وفي رواية لأحمد: والذي ابتلاني ببصري، لقد رأيت العيون، عيون الماء يخرج من بين أصابعه. وظاهر الروايات أن الماء نبع من نفس اللحم الكائن بين الأصابع وهو ما صححه النووي وجزم به غيره. وإنما استدعى قليل الماء، تأدبا مع ربه، فإنه المنفرد بإيجاد المعدومات. نعم في رواية عند جماعة أنه فعل ذلك مرة من غير ماء، لكن استدعى بشن يابسة. ووضع يده فيها فنبعت عيون الماء. وإنما قال الشيخ "**بها**" ولم يقل منها ليشمل ما نبع منها وما نبع ببركتها من غيرها، كعيون تبوك وقصة المرادتين كما في الصحيحين، والحديبية وغير ذلك. أما تبوك ففي صحيح مسلم: أنه صلى الله

عليه وسلم قال: إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عيون تبوك، وإنكم لم تأتوها حتى يضحى النهار. فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي. فسبق رجلان ومساه قبل أن يأتي، فسبهما ثم اغترفوا له قليلا، فغسل وجهه ويديه ثم صب الغسالة في العين فجرت العين بماء كثير. ثم قال: يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى هاهنا قد ملئت بساتين وعمران. وفي رواية الموطأ وغيره: فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق، وروي أن العطش اشتد بهم في غزوة تبوك حتى كادت رقابهم تنقطع، فسأله أبو بكر أن يدعوا لهم، فقال صلى الله عليه وسلم: أتحبون ذلك. قالوا: نعم، فرقع صلى الله عليه وسلم يديه ولم يرجعهما حتى سالت السماء وانسكبت، فملئوا ما معهم من آنية، ثم ذهبوا ينتظرون، فلم يجدوها جاوزت العسكر. وفي البخاري في غزوة الحديبية نحو ذلك، مرتين، مرة أمرهم بوضع سهم من كنانة في محل الماء، ففاض. ومرة بوضع يده الشريفة في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم. وأما قصة المزادتين فمذكورة في الصحيحين مشهورة. وقصة المضاءة حيث قال لصاحبها: احفظ علينا مضاءتك، فسيكون لها شأن، فتوضئوا وملئوا ما معهم. هذا ما يتعلق بنبع الماء. وأما إثمار النخل ففي قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه، وحاصلها أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة أتاه سلمان وآمن به، وكان مسترقا، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يكاتب سيده، فكاتبه على غرس ثلاثمائة ودية وتعهدها حتى تثمر، وأربعين أوقية ذهبا. ثم أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فأمر أصحابه أن يعينوه بالودي فأعانوه، ثم وضعه صلى الله عليه وسلم بيده، فما ماتت منه واحدة، بل أثمرت في عامها. وفي رواية توقفت منها واحدة فقلعها صلى الله عليه وسلم وأعادها فساوت البقية، فأداها وبقي عليه الذهب، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم مثل بيضة دجاج من ذهب من بعض المعادن، فأعطاها صلى الله عليه وسلم سلمان، فقال: وأين تقع هذه لما علي، فقال صلى الله عليه وسلم: خذها، فإن الله سبحانه سيؤدي عنك، فوزن لهم منها أربعين. انتهى، وستأتي بأطول منها حيث تعرض المصنف لها إن شاء الله. وأما تسبيح الحصا في كفه صلى الله عليه وسلم، فقد أخرجه البزار والطبراني وغيرهما، وأنه صلى الله عليه وسلم كان عنده أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فقبض

صلى الله عليه وسلم حصيات فسبحن في كفه حتى سمع لهن حنين كحنين النحل، فناولهن أبا بكر فسبحن في كفه كذلك، ثم عثمان كذلك، ثم أخذها الحاضرون فلم تسبح مع أحد منهم. قال الحافظ العسقلاني: ليس لحديث تسبيح الحصا إلا طريق واحدة مع ضعفها، لكنها مشهورة عند الناس. انتهى. نعم أخرج البخاري من حديث ابن مسعود: كنا نأكل مع النبي صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيح الطعام. وفي فتح الباري عن الشفاء أنه صلى الله عليه وسلم مرض فأتوه بطبق فيه رمان فأكل منه، فسبح.

*** ومن أوصاف كفه الشريفة، عليه الصلاة والسلام، تكثير الطعام في وقت الحاجة والجهد التام، فلذلك أشار بقوله:**

168 **أَحْيَتِ المُرْمِلِينَ مِنْ مَوْتِ جَهْدٍ ... أَعْوَزَ القَوْمَ فِيهِ زَادٌ وَمَاءٌ**

يعني أن كفه المباركة، عليه الصلاة والسلام، كانت سببا في حياة أصحابه، عليه السلام، حين أرملوا، أي نفد زادهم، يقال أرمل الرجل، إذا نفد ما عنده وافتقر. والصحابة رضي الله عنهم لما أجهدهم الجوع وأشرفوا على الموت سماهم موتى حتى وصفهم بالحياة مجازا، وإسناد الحياة إلى راحته مجازا أيضا. وأصل ما قاله الشيخ، ما رواه مسلم في صحيحه: أنهم في غزوة تبوك جاعوا، فسئل عمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعوا بفضلة أزوادهم. ثم يدعوا الله لهم عليها بالبركة، ففعل، فاجتمع شيء يسير، فدعا صلى الله عليه وسلم ثم قال: خذوا ما في أوعيتكم، فما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه، فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال صلى الله عليه وسلم: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، الحديث. وقوله "**أعوز القوم فيه زاد وماء**" أي وقع الإحياء حين فاتهم الزاد والماء واحتاجوا إليهما. يقال أعوزه الشيء إذا فاته واحتاج إليه. وبين الموت والإحياء والزاد والماء الطباق.

*** ثم ذكر موضعا آخر وقع الإحياء بكفه الشريفة، فقال:**

169 **فَتَغَذَّى بِالصَّاعِ أَلْفٌ جِيَاعٌ ... وَتَرَوَّى بِالصَّاعِ أَلْفٌ ظِمَاءُ**

أما تكثير الطعام ببركة كفه الشريفة، عليه الصلاة والسلام، حتى تغذى منها

العدد الكثير، فهو مما تواترت به الأخبار، واشتهر عدده وتكرره غاية الاشتهار. فمن ذلك قضية جابر، رضي الله عنه، يوم الخندق، حسبما في الصحيحين، قال جابر رضي الله عنه: لما حفرت الخندق، رأيت برسول الله، صلى الله عليه وسلم، خمصا شديدًا، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت لها: عندك شيء، فإني رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا، فأخرجت لي جرابا من شعير، ولنا بهيمة داجن، قال فذبحتها وطحنت، ففرَغَتْ إلى فراغي فقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه. قال فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله إنا قد ذبحنا بهيمة، وطحنت صاعا من شعير كان عندنا، فتعال أنت في نفر معك، فصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع لكم سورا فحي هلا بكم. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء، فجئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم الناس حتى جئت امرأتي فقالت وبك وبك فقلت: قد فعلت الذي قلت لي، فأخرجت له عجينا فبصق فيها وبارك، ثم عمد إلى برمتها فبصق فيها وبارك، قال ادعوني خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا ليخبز كما هو. انتهى. ومن ذلك قضية أبي طلحة، رضي الله عنه، قال لامرأته أم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ضعيفا، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء ؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصا من شعير، ثم أخذتُ خمارًا لها فلفت الخبز بعضه ببعض، ثم دسته تحت ثوبي وردتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فذهبت به فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم، جالسا في المسجد ومعه الناس، فقمت إليهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسلك أبو طلحة، فقلت: نعم، فقال: الطعام، فقلت نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه: قوموا، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم. قال: فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله صلى الله عليه

وسلم فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه حتى دخلا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما عندك يا أم سليم، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففُتّ وعصرت عليه أم سليم عكة لها فآدمته فيه. ثم قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقول، ثم قال: إيذن لعشرة، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا. ثم قال: إيذن لعشرة فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا. ثم إيذن لعشرة فأذن لهم حتى أكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون رجلا أو ثمانون. انتهى من صحيح مسلم. ومثله في البخاري، وفيهما أيضا عن أنس أن أمه أرسلته بحيسة في تور إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عروس بزينب، فأمره أن يدعو من بقي، فكانوا زهاء ثلاثمائة، فوضع صلى الله عليه وسلم يده في تلك الحيسة وتكلم بما شاء ودعا عشرة عشرة، فأكلوا حتى شبعوا، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت. انتهى. وصح عن سمرة بن جندب أنهم تداولوا قصعة من غدوة إلى الليل يقوم عشرة ويقعد عشرة، قيل له: فمم كانت تمد؟ قال: ما كانت تمد إلا من ها هنا، وأشار إلى السماء. وأما تكثير الماء بكفه الشريفة فقد تقدم الكلام عليه مستوفى عند قوله: "**نبع الماء**" فراجعه. والتعبير بالصاع فيه المراد به الشيء القليل جدا كما يعلم مما مر. وإنما ذره في الماء على مجاز المشاكلة بما قبله نحو ﴿ **وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا** ﴾، ﴿ **وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ** ﴾ والمراد بالألف العدد الكثير، ففي بعض المواطن كالحديبية كانوا ألف وأربعمائة أو خمسمائة، وفي بعضها كانوا ثلاثمائة وفي غزوة تبوك كانوا ألوفا مؤلفة حتى قال بعضهم سبعين ألفا. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رضي الله عنه**

170	**وَوَفّى قَدْرُ بَيْضَةٍ مِنْ نُضَارٍ**	**دِينَ سَلْمَانَ حِينَ حَانَ الوَفَاءُ**
171	**كَانَ يُدْعَى قِنًّا فَأُعْتِقَ لَمَّا**	**أَيْنَعَتْ مِنْ نَخِيلِهِ الأَقْنَاءُ**
172	**أَفَلا تَعْذِرُونَ سَلْمَانَ لَمَّا**	**أَنْ عَرَتْهُ مِنْ ذِكْرِهِ العُرَوَاءُ**

هذا أيضا من جملة معجزاته العظيمة وبركة كفه الشريفة، عليه الصلاة والسلام

وهي كون البيضة على ما هي عليه من الصغر وعظم الدين الذي كان على سلمان الفارسي، رضي الله عنه، ولما مسها سيدنا صلى الله عليه وسلم بكفه المباركة وأدارها على لسانه الشريف، وفَتْ بتلك الدين ورجحتْ به، وكان قدره أربعون أوقية من ذهب. ولما دفعها صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله أين تقع هذه من ديني. فقال صلى الله عليه وسلم، خذها فإن الله سيؤدي عنك. وملخص قصته على ما حكاه غير واحد من أهل السير عنه رضي الله عنه، قال ابن عباس، رضي الله عنه: حدثني سلمان الفارسي من فيه قال: كنت رجلا فارسيا من أهل إصبهان، وكان أبي دهقان، أي كبير قريته، وكنت أحبُّ خلْق الله إليه، لم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت مطن النار التي يوقدها لا يتركها تخبوا ساعة، وكانت لأبي ضيعة عظيمة فشغل في بنيان له، فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطّلعْها، وأمرني فيها ببعض ما يريد. ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي. فخرجت أريد ضيعته فمررت بكنيسة من كنائس النصارى في بيته فلما سمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أَمْرُ الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين ؟ قالوا: بالشام، فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي، وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال أبي: يا بني أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت، قلت: يا أبة مررت بأناس يصلون بكنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم فو الله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال: يا بني ليس في ذلك الدين خير، ودين آبائك خير منه. فقلت له: كلا، إنه لخير من ديننا. قال: فخافني فجعل في رجلي قيدًا ثم حبسني في بيته، وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم، فقدم عليهم تجار من النصارى فأخبروني، فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فأذنوا بي بهم. قال: فلما أرادوا الرجعة أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي ثم رجعت معهم حتى قدمت

الشام، فلما قدمنا قلت: من أفضل في هذا الدين علما، قالوا: الأسقف في الكنيسة. فجئته فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك، وأتعلم منك، وأصلي معك؟ قال: ادخل، فدخلت فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئا اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلل من ذهب وورق، فأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات واجتمعت النصارى ليدفنوه فقلت: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزه لنفسه ولم يعط شيئا، فقالوا: وما علمك بذلك. قلت: أنا أدلكم على كنزه، فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلل مملوءة ذهبا وورقا، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدا، فصلبوه ورجموه بالحجارة، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلا ونهارا منه، فأحببته حبا لم أحبه شيئا قبله، فأقمت معه زمانا ثم حضرته الوفاة فقلت له: يا فلان إذ قد كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه شيئا قبلك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى ما توصي بي وبما تامرني. فقال: إني يا بني والله ما أعلم اليوم أحدا على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا، إلا رجلا بالموصل وهو فلان وهو على ما كنت عليه. فلما مات وغيب لحقت بصاحبه بالموصل، فقلت له: يا فلان إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره فقال لي: أقم عندي فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات. فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلانا أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من الله ما ترى فإلى ما توصي بي وإلى ما تامرني. قال: يا بني والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنصيبين وهو فلان فالحق به. فلما مات وغيب لحقت بصاحبه فأخبرته خبري فقال: أقم عندي، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبه فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبثت أن نزل به الموت، فلما حضرته الوفاة قلت : يا فلان، إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى ما توصي به وبم تامرني؟ فقال: يا بني، ما أعلم أحدًا بقي على أمرنا، وآمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته. فلما مات وغيب، لحقت بصاحبه بعمورية فأخبرته

خبري فقال: أقم عندي، فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان وأوصى به فلان إليك، فإلى ما توصي بي وبم تامرني؟ قال: يا بني والله ما أعلم أصبح على مثل ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أطل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل فيه. فيه علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. ثم مات وغيب. فمكثت في عمورية ما شاء الله، ثم مر بي في نفر من كلب تُجّار فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه. قالوا: نعم، فأعطيتموها وحملوني معهم حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبدا فكنت عنده فرأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي فأقمت به وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل له فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي إذا أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة، فو الله إنهم الآن لمجتمعون لقُباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي، فلما سمعته أخذتني العُرَوَا حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول، فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة فقال: ما لك ولهذا ؟ أقبل على عملك فقلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبت علما. قال: وقد كان عندي شيء جمعته، فلما أمسيت أخذته، ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء، فدخلت عليه فقلت له: إنه بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب غرباء ذووا حاجة، وهذا شيء عندي صدقة فرأيتكم أحق به. فقربته إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلوا، وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي: هذه واحدة. ثم انصرفت عنه. فجمعت شيئا وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ثم جئت به فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمت بها، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه

فأكلوا معه، فقلت في نفسي: هاتان اثنتان. ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة لرجل من أصحابه علي شملتان لي وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم التي وصفها لي صاحبي، فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم أستدير به عرف أني أستثبت شيئا وصف لي، فألقى الرداء عن ظهره صلى الله عليه وسلم فنظرت إلى الخاتم فعرفته فأكببت عليه أقبله وأبكي. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<تحول>> فتحولت بين يديه فقصصت عليه الحديث كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه. ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر وأحد. قال سلمان: ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: كاتب يا سلمان، فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير وأربعين أوقية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعينوا أخاكم، فأعانوني بالنخل، الرجل يجيء بثلاثين ودية والرجل بعشرين ودية والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر يعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية، فقال رسول صلى الله عليه وسلم: اذهب يا سلمان ففَقَر لها فإذا فرغت فأتني أكن أنا أضعها بيدي، ففقرت وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت جئته فأخبرته فخرج معي إليها فجعلنا نقرب إليه الودي ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده حتى فرغت، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة. وفي شمائل الترمذي: فغرس رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل إلا نخلة غرسها عمر، فحملت النخل من عامها ولم تحمل نخلة عمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما شأن هذه، فقال عمر: يا رسول الله إني غرستها، فنزعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فغرسها فحملت من عامها. انتهى. قال سلمان: فأديت النخل وبقي علي المال، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن فقال: ما فعل العارضي المكاتب، فدعيت له فقال: خذ هذه فأدها لما عليك يا سلمان ، فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال: خذها فإن الله سيؤدي بها عنك. فأخذتها فوزنت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية، فأوفيت لهم حقهم ثم شهدت مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم الخندق حُرّا، ثم لم يفتني معه مشهد. وعن سلمان أنه قال: لما قلت: وأين تقع هذه من الذي علي يا رسول الله، أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلبها على لسانه ثم قال: خذها فأوفهم منها، فأخذتها فأوفيتهم منها حقهم كله أربعين أوقية. انتهى من الاكتفاء.

وإلى ما وقع في هذه الحكاية من المعجزات أشار الشيخ بقوله "**ووفّى**" بالتشديد "**قدر بيضة**" أي بيضة دجاج "**من نضار**" أي ذهب "**دين سلمان**" رضي الله عنه، الذي نشأ من الكتابة وهو أربعون أوقية من ذهب كما تقدم آنفا مع صغر البيضة وعظم ذلك الدين، لكن ببركة مسه بكفه الشريفة وقعت التوفيه "**حين**" أي وقت "**حان**" أي قرب "**الوفاء**" أي حين حلول الأجل وبين وفا والوفاء الجناس الناقص ورد العجز على الصدر وبين حين وحان الجناس اللاّحق، وبسبب هذا الذي على سلمان كان يدعى "**قنا**" أي رقيقا ورقيته باطلة لأنه مظلوم كما تقدم فأُعتق لمّا وفّى دينه حين "**أينعت**" أي نضجت. والمراد أثمرت "**من نخيله**" حال من قوله "**الأقناء**" جمع قنو وهو العذق أي العرجون. ولأجل ما ذكر من سلمان أنه بمجرد سماعه لذكر النبي صلى الله عليه وسلم أخذته الرعدة والشدة وهو على النخلة كما تقدم، وأنه بلغ أمر نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الأقارب والأباعد، وأنهم كانوا يعرفونه قبل هجرته كما يعرفون أبناءهم. فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به. عاتب الشيخ موالي سلمان منكرًا عليهم إذ لم يؤمنوا بسيدنا صلى الله عليه وسلم مع ما شهدوه من حال سلمان، بل ازدادوا في الطغيان. فقال "**أفلا تعذرون سلمان**" أي أتظلمون سلمان وتمنعونه من الإيمان، فلا تعذرونه، أي ترون له عذرا يمنعكم من إيذائه حتى تلطمونه. وقد صح الدليل عندكم على نبوته صلى الله عليه وسلم "**لمّا**" أي حين "**أن عرته**" أي غشيته "**من**" أجل "**ذكره**" أي ذكر اليهودي لقريبه النبي صلى الله عليه وسلم واجتماع الناس به بقباء. "**العُوَراءُ**" أي قوة الحمى في أول أخذها، لأنها تكون بالشدة والرعدة، وهذا الذي حصل لسلمان رضي الله عنه، إنما كان من شدة الفرح حتى كاد أن يغيب عن

عقله. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

173 **وَأَزَالَــــتْ بِلَمْـــسِهَا كُــلَّ دَاءٍ   أَكْبَـــرَتْهُ أَطِـــبَّةٌ وَإِسَــــــاءُ**

يعني أن كفه المباركة، عليه الصلاة والسلام، قد "**أزالت بلمسها كل داء**" ومرض "**أكبرته**" أي عظمته وعجزت عن دوائه وبرئه "**أطبة وإساء**" والمراد به الدواء الذي يعمل للجرح. والإساء جمع ءاسي وهو يطلق على الطبيب والدواء الذي يعالج به الجرح. وفي الجوهري: الإساء جمع الأيسي مثل الرعاء جمع الراعي، قال الحطيئة:

* تواكلها الأطبة والإساء*

والإساء أيضا الدواء بعينه. وقد أسوت الجرح أسوه أسْواً داويته فهو ماسو. انتهى. والأقرب في كلام الشيخ أنه الدواء والله أعلم. وإزالة الأمراض بكفه الشريفة صلى الله عليه وسلم معلوم شهير، ووقوع أفراده كثير. فمن ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنه قال: جاءت امرأة بابن لها به جنون، فمسح صدره فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود، فشفي. ومنها قضية محمد بن حاطب وهي أنه انكفأت القدر على ذراعه وهو طفل، فمسح عليه ودعا له وثفل فيه فبرئ لحينه. ومنها قضية شرحبيل الجعفي وهي أنه كان في كفه سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الراية فشكاها للنبي صلى الله عليه وسلم، فما زال يطحنها بكفه حتى رفعها ولم يبق لها أثر. وأصيب سلمة يوم خيبر بضربة في ساقه فنفث فيها النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث نفثات فما اشتكاها قط. وقطع أبو جهل يوم بدر يد معوذ ابن عفراء، فجاء يحمل يده فبصق عليها صلى الله عليه وسلم وألصقها فلصقت. رواه ابن وهب. ومن روايته أن حبيب بن سياق أصيب يوم بدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفث عليه حتى صح. ونفث في رجل زياد بن معاذ حين أصابها السيف حين قتل كعب بن الأشرف فبرئت. وعلى ساق علي بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت فبرئ مكانه وما نزل عن فرسه. وهذا باب واسع لا يكاد يحصر. ولله دره في البردة حيث قال:

كـم أبـرأت وصـبا بـاللمس راحـته وأطلقـت أربـا مـن ربقـة اللمـم

* **ثم قال رضي الله عنه:**

174 **وَعُـيُونٌ مَـرَّتْ بِهَـا وَهْـيَ رُمْـدٌ فَأَرَتْهَـا مَـا لَـمْ تَـرَ الـزَّرْقَاءُ**

هذا أيضا من معجزات كفه المباركة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وهي كونها "**مرت**" على "**عيون**" "**رُمْد**" أي عُمْي فصارت ببركة لمسها ترى "**ما لم تر الزرقاء**" من شدة نظرها وصحة بصرها، والمراد بالزرقاء، زرقاء اليمامة التي كانت ترى مسيرة ثلاثة أيام.فمن ذلك قضية علي رضي الله عنه يوم خيبر وإنه سأل عنه النبي صلى الله عليه وسلم ليعطيه الراية ويكون الفتح على يديه، وفي رواية أخرى: فقالوا: يشتكي عينيه. قال: أرسلوا إليه، فأتى فبصق صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرئ كأن لم يكن به وجع. وعند الطبراني: فما رمدت ولا صدعت منذ دفع إليه الراية صلى الله عليه وسلم. وعند الحاكم: فوضع صلى الله عليه وسلم رأسي في حجره ثم بصق في راحته ثم دلك بها عيني. وعند الطبراني: فما اشتكيتها حتى الساعة. قال: ودعا له صلى الله عليه وسلم، فقال: اللهم اذهب عنه الحر والقر. فما اشتكيتهما حتى يومي هذا. ومن ذلك قضية فديك، ذكر العقيلي عن حبيب بن فديك أن أباه ابيضت عيناه، فكان لا يبصر بها شيئا، فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه فأبصر، فرأيته يدخل الخيط في الإبرة وهو ابن ثمانين سنة. انتهى. وروى النسائي عن عثمان بن حنيف أن أعمى قال: يا رسول الله ادع الله أن يكشف عن بصري. قال: فانطلق فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بالنبي محمد نبي الرحمة. يا محمد أنا أتوجه بك إلى ربك أن يكشف لي عن بصري. اللهم شفعه في. قال: فرجع وقد كشف الله عن بصره. انتهى. من الشفاء.

* **ومن ذلك عين قتادة بن النعمان وإليه أشار بقوله:**

175 **وَأَعَـادَتْ عَلَـى قَـتَادَةَ عَيْـنًا فَهْـيَ حَتَّـى مَمَاتِـهِ الـنَّجْلاءُ**

قال في الشفاء: وأصيب يومئذ أي يوم أحد عين قتادة، يعني ابن النعمان حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت أحسن عينيه. انتهى.

زاد ابن حجر هنا: أنه لما أصيبت عينه ووقعت على وجهه أتى بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن لي امرأة أحبها وأخشى إن رأتني أن تقذرني. فأخذها صلى الله عليه وسلم بيده وردها إلى موضعها وقال صلى الله عليه وسلم: اكسها جلالا وجمالا، فكانت أحسن عينيه وأحدهما قطرا وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى. وقد وفد على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجل من ذريته فقال له عمر: من أنت؟ فقال:

أبـونا الـذي سـالت علـى الخـد عيـنه ... فـردت بكـف المـصطفى أيَّمـا رد

فعـادت كمـا كانـت لأول أمـرها ... فيا حُسن ما عينٍ ويا جُفْنَ ما خد

فوصله عمر رضي الله عنه وأحسن جائزته. قال السهيلي في رواية عنه أصيبت عيناي يوم أحد فسقطتا على وجنتي فأتيت بهما النبي صلى الله عليه وسلم فأعادهما مكانهما وبصق فيهما فعادتا تبرقان. قال الدارقطني: هذا حديث غريب تفرد به عمار بن نصر عن مالك وهو ثقة. وأخرج الطبراني وأبو نعيم عنه: كنت يوم أحد أتقي السهام دون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان آخرها سهما ندرت منه حدقتي، فأخذتها بيدي وسعيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رءاها في كفي دمعت عيناه، فقال صلى الله عليه وسلم: اللهم قِ قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه، واجعلها أحسن عينيه وأحدّهُما نظرا. انتهى. وإلى ذلك أشار بقوله: "**فهي حتى مماته النجلاء**" أي: الواسعة، أي: واسعة النظر حسنة المنظر، ويجمع بين رواية الواحدة ورواية الثنيتين على تقدير صحتها بأن أحد الرواية ظن أن الساقط واحدة وبعضهم علم أنه ثنتان فأخبر كل واحد بحسب علمه، وزيادة العدل مقبولة وبها تترجح رواية الثنتين. انتهى من ابن حجر.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

176 **أَوْ بِلَـثْمِ التُّـرَابِ مِـنْ قَـدَمٍ لاَ ... نَـتْ حَيَاءً مِـنْ مَسِّهَا الصَّفْوَاءُ**

لما تمنى رضي الله عنه رؤية وجه سيدنا صلى الله عليه وسلم وتقبيل راحته صلى الله عليه وسلم، تمنى تقبيل التراب من تحت قدمه صلى الله عليه وسلم، فقال

"**أو**" ليته خصني "**بلثم**" أي تقبيل "**التراب**" المنفصل من "**قدم**" عظيمة موصوفة بأوصاف عظام. ذكر منها الشيخ جملة صالحة منها أنها إذا مرت على حجر لان حتى يبقى أثرها فيه. انتهى. وذكر التبريزي الحنبلي أيضا في خصائصه فقال: وأما إلانة الحديد لداوود عليه الصلاة والسلام، فإن إلانة الحديد معروفة بالنار، وقد ألان الله تعالى الحجر **لمحمد** صلى الله عليه وسلم ولا يعرف لين الحجارة بالنار ولا غيرها. وهذا أبلغ. ثم قال: وأعجب من هذا أنه كان إذا مشى على الصخر لان تحت أقدامه، وإذا مشى على الرمل لا يؤثر فيه، خرقا للعادة الجارية.انتهى. وإلى هذا أشار بقوله "**لانت حياء**" أي: استحياء وإجلالا لها "**من مسها**"، أي تلك القدم الشريفة "**الصفوان**" أي: الحجارة الصلدة، وهب فاعل لانت وأعيد الضمير عليها لتقدم رتبتها، وإذا علمت أيها العاقل أن الحجر كانت تستحيي من سيدنا صلى الله عليه وسلم حتى تلين حياء، فأنت أحق بذلك، فلا ينبغي لك أن تخالف ما جاء به صلى الله عليه وسلم حياء منه وإجلالا له.

*** ثم بالغ الشيخ في محبة ذلك التراب الذي وطئه المصطفى صلى الله عليه وسلم وأخبر أنه محلّ قلبه ووطائه وفراش عقله ومهادُه، فلا سكون له بدونه فقال:**

177 **مَوْطِئُ الأَخْمُصِ الذِي مِنْهُ للقَلْـ ـبِ إِذَا مَضْجَعِي أَقَضَّ وِطَاءُ**

يعني أن ذلك التراب هو "**موطئ**" القدم "**الأخمص**" وهو من أوصاف قدمه صلى الله عليه وسلم "**الذي**" ثبت "**منه للقلب**" "**وطاء**" أي: فراش من ذلك التراب، وهو محل استقرار قلبي وراحة جسمي "**إذا مضجَعي أقض**" أي: علاه التراب. فالقضض هو التراب الذي يعلو الفراش يقال أقض الفراش إذا علاه التراب، والمراد أن ذلك التراب الذي كان يطأه صلى الله عليه وسلم بقدمه الشريفة هو مضجع روحه ووطاء قلبه دائما، والله تعالى أعلم. وقوله "**الأخمص**" المراد الجنس، أي الأخمصين هو الذي لا يلتصق بالأرض عند الوطىء. والخمص البالغ فيه، والمراد به في حقه

صلى الله عليه وسلم الوسط والاعتدال فيه ليوافق ما قاله أبو هريرة: كان صلى الله عليه وسلم إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها، وجواب إذا محذوف، أي إذا أقض مضجعي وصار ترابا ففراشه ووطاؤه ذلك التراب. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

178 **حَظِيَ المَسْجِدُ الحَرَامُ بِمَمْشَا ... هَا وَلَمْ يَنْسَ حَظَّهُ إِيْلِيَاءُ**

هذه أيضا من أوصاف تلك القدم الشريفة، وهو أنها اكتسبت الشرف والحظوة لأماكن كانت تمر عليها، منها المسجد الحرام، فقد كثرت فيه عبادته من طواف وصلاة وغيرهما، وكثر مرورها فيه قبل الهجرة فصارت أفضل البقع، ما عدا قبره الشريف كما عليه أكثر العلماء، وأيضا هو موضع ولادته ونشأته وتربيته، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لمكة: <<والله إنكِ لأحب أرض الله إليَّ، ولولا أني أخرجت منها كرها ما خرجت>>. انتهى. وهو حجة لمن يفضل مكة على المدينة، وذهب مالك رضي الله عنه إلى أن المدينة أفضل لأنها الموضع الذي اختاره الله لرسوله في نصرة دينه، مع ما ورد فيها من الأحاديث. قال ابن حجر: والحديث الذي يرويه ففضل المدينة موضوع كما اعترف به إمام المالكية أبو عمر بن عبد البر، وصرح بأن أفضلية مكة هو الحق عند من ألهم رشده، وبرئ من التعصب. انتهى. فقوله "**حظى**"، بفتح وكسر الظاء، أي فضُل وشرُف وصار له حظوة على ما سواه "**بممشاها**" أي بسبب ممشا تلك القدم العظيمة "**ولم ينس حظه**" منه في الفضل والشرف "**إيلياء**" أي بيت المقدس، بل شرفه بمشيه صلى الله عليه وسلم فيه وصلاته بالأنبياء ليلة الإسراء، فكانت الصلاة فيه بخمسمائة، وفي المدينة بألف، وفي مكة بمثل ذلك أو أكثر، ولم يذكر المدينة لشهرة شرفها حيث دفن فيها. وإذا كان مجرد المشي يكسب الشرف بمقامه واستقراره لا يوازى شرفه والله أعلم.

*** ثم قال:**

179 **وَرِمَتْ إِذْ رَمَى بِهَا ظُلَمَ اللَّيْـ ... ـلِ إِلَى اللهِ خَوْفُهُ والرَّجَاءُ**

هذه أيضا من أوصاف قدمه الشريف صلى الله عليه وسلم، وهو أنه صلى الله

عليه وسلم قام عليها حتى تورمت، أي انتفخت، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر. فقال: <<أفلا أكون عبدا شكورا>>. قالت عائشة: فلما بدن وكثر لحمه، صلى جالسا، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع. انتهى. فقوله: <<أفلا أكون عبدا شكورا>> الفاء سببية، والمعطوف محذوف، أي أأترك تهجدي فلا أكون عبدا شكورا. والمعنى أن المغفرة سبب لكون التهجد لمحض الشكر. قاله ابن حجر. قال في التحبير: الشكر على أقسام، شكر بالبدن وهو ألا تستعمل جوارحك إلا في طاعته، وشكر بالقلب وهو ألا تشغله بغير ذكره ومعرفته، وشكر باللسان وهو ألا تستعمله في غير ثنائه ومدحه، وشكر بالمال وهو ألا تنفقه في غير محبته ورضاه. انتهى. فأراد صلى الله عليه وسلم أن يكون أعظم الناس شكرا بهذا المعنى، والله تعالى أعلم. قال ابن بطال في شرح البخاري بهذا أخذ الإنسان على نفسه بالشدة في العبادة، وإن أخل ذلك ببدنه لأنه صلى الله عليه وسلم إذا فعل ذلك مع علمه بما سبق له صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن لم يعلم ذلك، فضلا عن من يأمن أنه استحق النار. انتهى. فقوله "**ورمت**" بكسر الراء، أي انتفخت. "**إذ رمى**" أي وقت أو لأجل رمى "**الليل**" بها، وفي كلامه استعارة بالكناية، وتخييلية. فتشبيه القدم الشريف بالسهم كناية وإثبات الرمي لها استعارة تخييلية. ولما كان قيام الليل ينشأ إما عن مزيد "**خوف**" أو سعة رجاء بين الناظم رحمه الله أن قيامه صلى الله عليه وسلم لم يكن لأجل ذلك، وإنما كان لمحض الشكر كما أفاده قوله صلى الله عليه وسلم: <<أفلا أكون عبدا شكورا>> مع التلذذ بمناجاة الله تعالى والقيام بين يديه، وإن خوفه ورجاءه صلى الله عليه وسلم إنما كان لمحض التقرب بهما إلى الله، فقال "**إلى الله خوْفُه**" مبتدأ أو خبر، أي خوفه إنما هو تقرب إلى الله ورجاؤه كذلك لا إلى غرض آخر، لأن الله تعالى عصمه عن أن ينظر أو يميل إلى غيره طرفة عين، بل هو دائم المثول في حضرات الشهود الأقدس، والتعلق بمعالي القرب الأنفس. قاله ابن حجر. ثم قال: وما ذكرته في شرح هذا البيت أنسب وأولى بمقامه صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى على متأمل. ثم رأيت القرطبي أشار لما ذكرته حيث قال: ظن من سأله في حديث الصحيحين عن سبب تحمله المشقة في

العبادة، أنه إنما يعبد الله خوفا من الذنوب وطلب المغفرة والرحمة، فمن تحقق أنه مغفور له لا يحتاج إلى ذلك. فأفادهم أن هنا طريق آخر للعبادة وهو الشكر، إذ هو الاعتراف بالنعمة والقيام بالخدمة، فمن كثر ذلك منه سمي شكورا لكنه قليل. كما قال تعالى: ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ** ﴾. وفي الحديث بيان ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الاجتهاد في العبادة والخوف. قال العلماء رضي الله تعالى عنهم: إنما ألزم الأنبياء أنفسهم شدة الخدمة لعلمهم بعظم نعمة الله عليهم، وأنه تعالى ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبذلوا مجهودهم في عبادة الله تعالى ليؤدوا شكره، مع أن حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العباد. وقيام الليل كان في أول الإسلام واجبا عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته، كما ذكر الله في أول سورة المزمل، ثم نسخ كما ذكر في آخرها، ثم نسخ عن الأمة بالصلوات الخمس، وكذا عنه على الأصح، كما نص عليه الإمام الشافعي رضي الله عنه، ولكن أكثر أصحابه على أنه صلى الله عليه وسلم لم ينسخ في حقه لقوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ** ﴾ [الإسراء: 79] أي: عبادة زائدة لك في فرائضك، لأن الأمر للوجوب. وقيل معناه زيادة خالصة لك، لأن تطوع غيره يكفر ذنبه، وتطوعه خالص له لكونه صلى الله عليه وسلم لا ذنب له. فسائر تطوعاته صلى الله عليه وسلم لمحض الدرجات والقرب. وأما حديث: <<اللهم إني أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل>> فهو تعليم لأمته صلى الله عليه وسلم. انتهى. ويحتمل أن يكون قوله "**إلى الله خوفه والرجاء**" تعجبا من عظمتها، أما خوفه صلى الله عليه وسلم فكان على قدر معرفته، ولا معرفة أعظم من معرفته صلى الله عليه وسلم، فيكون خوفه على قدر ذلك. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :<<والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا>> زاد في رواية: <<إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله، لو علمتم ما أعلم، لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجئرون إلى الله، ولوددت أني شجرة تعضد>>. انتهى. وقوله

"ولوددت إلخ" هو من قول أبي ذر على الصحيح. وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ولصدره أزيز كأزيز المِرْجَل. وقال ابن أبي هالة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة. وعن علي رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال: <<المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضى غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرة عيني في الصلاة>>. وفي حديث آخر <<وثمرة فؤادي في ذكره، وغمي لأجل أمتي>>. قاله في الشفاء. وأما عظيم رجائه فهو أيضا مشهور. ومن عظيم رجائه بشارته بدخول الجنة من قال لا إله إلا الله. ومن كان في قلبه أدنى من مثقال ذرة من إيمان. إلى غير ذلك. وبالله التوفيق.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

180 **دَمِيَتْ فِي الوَغَى لِتَكْسِبَ طِيبًا ... مَا أَرَاقَتْ مِنَ الدَّمِ الشُّهَدَاءُ**

هذا أيضا من أوصاف قدمه الشريفة، وإن أصبعه "دميت" في بعض مغازيه صلى الله عليه وسلم فقال:

وهل أنت إلا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

هكذا في الصحيح. وهو من كلام عبد الله بن رواحة، وقيل غيره. والأصبع يطلق على أصابع اليد والرجل وليس في الحديث ما يخصص أنه كان في اليد حتى يعترض على الشيخ بقوله "**دميت**" أي خرج دمها. و"**الوغى**" في الأصل الصوت والجلبة. ويقال للحرب لما فيها من الصوت والجلبة وكثرة اختلاط الأصوات. وهو المراد هنا. وقوله "**لتكسب**" من الرباعي "**طيبا**" أي ليعود بركة ذلك الدم على "**ما أراقت من الدم الشهداء**" فيكتسبون منه طيبا لدمائهم، وكذلك كان. ففي الحديث: <<ما من مسلم يُكْلَمُ كَلَمًا في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم، والريح ريح المسك>> أو كما قال صلى الله عليه وسلم. والشهيد فعيل بمعنى فاعل، سمي به لأنه

يشهد الجنة وما فيها عند خروج روحه. أو بمعنى مفعول لأن ملائكة الرحمة تشهده.

* **ثم قال رحمه الله:**

181 **فَهْيَ قُطْبُ المِحْرَابِ وَالحَرْبِ كَمْ دَا رَتْ عَلَــيْهَا فِــي طَاعَــةٍ أَرْجَــاءُ**

لما وصف قدمه الشريف بكثرة العبادة وطول القيام وبحضوره الجهاد والثبات في مواطنه، كانت حينئذ قطبا تدور عليها أرجاء الطاعات، وقطب الرحى ما تدور عليه. ويسمى أمير الجيش قطب رحا الحرب لأنها إنما تدور عليه. وكل من تقدم في شيء وكان إماما فيه يقال له قطب رحاه. وسيدنا صلى الله عليه وسلم هو قطب دائرة الكون، وشمس ضحاه، من أجله خلق، وفيه يظهر أمره، فكانت قدمه الشريفة "**قطب المحراب**" للصلاة، عليها تدور الطاعات، وبها يقتدى في شأن العبادات. وقطب "**الحرب**" والجهاد، فببركتها والاقتداء بها انتشر الدين في البلاد، وظهر أمر الدين في العباد. فهذا معنى قوله "**فهي قطب المحراب**" لا تتحرك ولا تزول "**والحرب**" لا تنتقل ولا تحول. وعن أنس رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، ثم رجع وقال: لن تراعوا. انتهى. "**فكم**" أي كثيرا ما "**دارت عليها في طاعات**" الله "**أرجاء**" جمع رجى وهي هنا كناية عما وقع ببركة اتباعه صلى الله عليه وسلم، والاقتداء به من الطاعات والعبادات حتى اجتمعت الإنس والجن على عبادة الله وتوحيده. وما وقع أيضا بطلعته المباركة من الفتوحات والغزوات، وما نالت الناس من الغزو، ومن الدرجات والمقامات، وما أدركته الأولياء بعده ببركة اتباعه من الأحوال والكرامات. وفي كلام الشيخ إشارة إلى ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الشجاعة والنجدة. ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم كان منهما بالمكان الذي لا يجهل. فقد حضر المواقف الصعبة. ومن الكماة والأبطال عنه غير مرة، وهو مقبل لا يبْرح، وثابت لا يتزحزح. وما من شجاع إلا وقد أحصيت له فرةْ وحفظت عنه جولة سواه عليه السلام. فقد سئل البراء بن عازب رضي الله عنه أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، لقد رأيته على

بغلته البيضاء، وأبو سفيان آخذ بلجامها، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب. فما رده أحد كان أشد منه. وذكر مسلم عن العباس قال: فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة ألا تسرع. الحديث. وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال علي: إنا كنا إذا حمي البأس اتقينا، ويروى، اشتد البأس واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا. وقال عمران بن حصين: ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب، ولما رآه أبي بن خلف يوم أحد وهو يقول: أين محمد لا نجوت إن نجا. وكان يقول للنبي صلى الله عليه وسلم حين افتدي يوم بدر: عندي فرس أعلفها كل يوم فرَقا من درة أقتلها عليك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أقتلك إن شاء الله. فلما رآه يوم أحد شد أبي على فرسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هكذا خلوا طريقه، وتناول الحربة من الحارث بن الصُمة، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبي صلى الله عليه وسلم وطعنه في عنقه تَرَأْدَأَ منها عن فرسه مرارًا، وقيل بل كسر ضِلَعًا من أضلاعه، فرجع إلى قريش وهو يقول: قتلني محمد، وهم يقولون: لا بأس بك، فقال: لو كان ما بي في جميع الناس لقتلهم، أوَ ليْس قد قال: أنا أقتلك، والله لو بصق عليّ لقتلني. فمات بسرف في قفولهم إلى مكة. انتهى. قاله في الشفاء.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

182 **وَأَراهُ لَوْ لَمْ يَسْكُنْ بِهَا قَبْـ ـلُ حِرَاءُ مَاجَتْ بِهِ الدَّأْمَاءُ**

هذا أيضا من أوصاف تلك القدم الشريفة، وهو أنه ضرب بها حِرَاءُ حين اهتزت به وبأصحابه، أبي بكر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فقال صلى الله عليه وسلم

:<<اسكن حِراء، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد>>. أخرجه مسلم، إلا أنه لم يذكر أنه ضربه برجله، وإنما فيه قوله: اسكن حِراء. وخرجه الترمذي وذكر أنه كان عليه العشرة إلا أبا عبيدة، وقال: اثبت حِراء، وفي رواية: اهدأ حِراء. ورواه البخاري في أُحُد بلفظ: أنه كان معه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه صلى الله عليه وسلم برجله وقال: <<اثبت أُحُد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان>>. وفي مسند أحمد بن أسامة: أُحُدا وحِراء بالشك. فعلى هذا يكون وقع بالضرب أيضا بقدمه الشريف لحِراء، وليس في مسلم ما ينافي الضرب، وإنما هو مسكوت عنه. والله أعلم.

قوله "**وأراه**" بفتح الهمزة، أي اعلم "**لو لم يسكن بها**" أي بقدمه الشريف "**قبل**" بالضم "**حراء**" مفعول يسكن، وهو هنا مصروف للوزن، وفي غير هذا يجوز الوجهان "**ماجت**" أي تحركت واضطربت "**به**" أي بقدمه الشريف أو بذاته الكريمة، وفي نسخة "**بها**" فيكون للقدم "**الدأماء**" أي البحر، قاله في القاموس، "**وماجت**" وما بعده جواب "**لو**" وفي كلامه استعارة تصريحية، لأنه شبه الجبل بالبحر، لأنه لما تحرك به صلى الله عليه وسلم اشبه تحركه حينئذ بتحرك البحر براكبه وماجت، استعارة مرشحة لأنها تناسب المشبه به، وهو البحر، إذ لا يستعمل "**ماج**" إلى في الماء، والمعنى: وأعلمُ أنه لو لم يسكن بقدمه حِراء قبل عند ابتداء تحركه به لماج، أي استمر اضطرابه وتحركه إلى آخر الدهر لما مر أنها هزة الطرب والسرور برقيِّه صلى الله عليه وسلم عليه. وكان القياس أن يقول: لو لم يسكن بها حراء قبل لماج، لكن لِما احتاج إلى تشبيه الجبل بالبحر من البلاغة المبنية على الاستعارتين المذكورتين. انتهى. مختصرا من ابن حجر.

*** ولما ذكر جملة من معجزاته وأوصافه، وكان في ذلك برهان قاطع على نبوته، تعجب من الكفار حيث شاهدوا ذلك، ولم يزدهم إلا ضلالة، فقال:**

183 **عَجَبًا لِلْكُفَّارِ زَادُوا ضَلاَلاً   بِالَّذِي فِيهِ لِلْعُقُولِ اهْتِدَاءُ**

أي اعجبوا "**عجبا**" من "**الكفار**" حيث "**زادوا**" في "**الضلال**" والطغيان بالأمر "**الذي**" فيه "**للعقول**" السالمة "**اهتداء**" إلى الحق الذي جاء به صلى الله عليه وسلم.

والعجب أمر مستغرب خارج عن قياس العقول، ووجه التعجب منهم واضح، لأنهم شاهدوا من المعجزات ما لم يشاهده غيرهم، ومع ذلك استمروا في الضلالة لما غمرهم من الحسد. وهذا الأمر الذي فيه الاهتداء هو القرآن العظيم، فهو توطئة للكلام عليه، ويحتمل عموم معجزاته عليه السلام، فكلها فيها الاهتداء لمن وفقه الله وسلم من الخذلان والحسد والغل، نعوذ بالله من ذلك.

*** ثم قال رحمه الله:**

184 **وَالَّـــذِي يَـسْأَلُونَ مِــنْهُ كِــتَابٌ مُنْـــزِلٌ قَـــدْ أَتَـــاهُمْ وَارْتِقَـــاءُ**

أي وعجبا أيضا من هؤلاء الكفار الذين "**يسئلون**" ويطلبون "**منه كتابا**" على قصد التعنيت والعناد، والحالة أنه "**قد أتاهم**" به وهم يشاهدونه ويطلبون منه * "**ارتقاء**" وصعودًا للسماء ليأتيهم به، وقد حصل ذلك أيضا، فلم يزدهم إلا عنادا. وأشار بهذا إلى ما ذكره أهل السير في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ** ﴾ الآية. وذلك أن كفار قريش عرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أشياء ليقبلها منهم ويرجع عن أمره ذلك. فأبى عليهم، فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا. فسئل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهار كأنها الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن لنا فيمن يبعث منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق فنسئلهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فإن لم تفعل هذا لنفسك، فسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق وتبتغي المعاش حتى نعرف فضلك ومنزلتك عند ربك. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا. ثم قالوا: فأسقط علينا كسفا من السماء كما زعمت، إن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نومن بك إلا أن تفعل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك إلى الله، إن شاء فعل ذلك بكم. وقال قائلهم: لن نومن بك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا. فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قام عنهم. وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة وهو ابن عمته عاتكة. فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم. ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك، فلم تفعل. ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك ومنزلتك عند الله، فلم تفعل. ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل. أو كما قال. فو الله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتينا ثم تأتي معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله إن لو فعلت ذلك ما ظننت إني أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنزلت الآية فيما قالوا. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

185 **أَوَ لَـــمْ يَكْفِهِـــمْ مِـــنَ اللهِ ذِكْـــرٌ فِـــيهِ لِلـــنَّاسِ رَحْمَـــةٌ وَشِـــفَاءُ**

هذا رد على الكفرة الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء فقال "**أو لم يكفهم**" عما سألوا "**ذكر من الله**" يقرأ عليهم بكرة وعشية، وبراهينه قطعية، "**فيه للناس رحمة وشفاء**" وهو القرآن العظيم. أما كونه ذكرًا، أي

مذكرا، فقال تعالى فيه: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: 58] وقد يطلق على الشرف كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: 44] أي شرف لك ولقومك. وأما كونه رحمة فلا شك أنه رحمة للمؤمنين بالهداية للحق والنعيم المقيم ورحمة للكافرين بتأخير العذاب عنهم في الدنيا ورحمة للقلوب بتنزهها في رياض معانيه. وأما كونه شفاء من كل داء فلا ريب أنه شفاء من الأسقام الظاهرة والباطنة، الحسية والمعنوية، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: 44] وتخصيص المؤمنين لأنهم المقصودون بالذات، وغيرهم بالتبع، ويدخل فيهم الملائكة. قال بعض العلماء: إن الملائكة لم يعطوا فضيلة حفظ القرآن، لكنهم حريصون على استماعه من غيرهم. قال بعض الحكماء: لم ينزل الله شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن. فهو للداء شفاء، ولصدأ القلوب جلاء، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء: 82] الآية. قال الفخر الرازي وغيره: من ليست للتبعيض، بل للجنس، والمعنى وننزل من هذا الجنس الذي هو القرآن ما هو شفاء من الأمراض الروحانية كالاعتقادات الفاسدة في الألوهية والنبوءة والمعاد. وفي القرآن العظيم من النصوص القاطعة بفساد تلك، ما يكفي ويشفي، وكالأخلاق المذمومة. وفيه أوضح بيان لأنواعها. وحضَّ على اجتنابها. ومن الأمراض الجسمانية بالتبرك بقراءته عليها لكن مع الإخلاص وفراغ القلب من الأغيار، وقربه وإقباله على الله تعالى بكليته، وعدم أكل الحرام، وعدم رين القلوب، وعدم استيلاء الغفلة على القلب. وفي الحديث: <<إن الله لا يقبل الدعاء من قلب غافل>>. فقراءة مَنْ هذه حاله على أي مرض كان يبرئه، وإن أعيا الأطباء. ومن ثم قال بعض الأئمة: من تخلف عنه الشفاء، إما لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المحل المنفعل، إما لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية الحسية. فقد رُوي حديث: <<من لم يستشف بالقرآن، لا

شفاه الله>>. وروى ابن ماجه: أنه صلى الله عليه وسلم قال: <<خير الدواء القرآن>>. وعن العارف الإمام الكبير أبي القاسم القشيري رضي الله عنه، أن ولده اشتد به مرض، فانزعج عليه، فرءا النبي صلى الله عليه وسلم، فشكى له ما بولده، فقال: أين أنت من آيات الشفاء. وهي ست آيات مشهورة، فكتبها ومحاها بماء، وسقاها له، فكأنما نشط من عقال. انتهى. قاله ابن حجر.

*** ثم شرع يتكلم فيما اشتمل عليه القرآن من المعجزات الباهرة والآيات الطاهرة، فقال:**

186 **أَعْجَزَ الإِنْسَ آيَةٌ مِنْهُ وَالجِـ ــنَّ فَهَلاًّ تَأْتِي بِهَا البُلَغَاءُ**

لا شك أن القرآن العظيم أعجز جميع الخلق عن الإتيان بآية من مثله، بل ولا ببعضها. قال تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: 88] وقال تعالى: ﴿ **فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ** ﴾ [هود: 13] فلما عجزوا عن ذلك قال: ﴿ **فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ** ﴾ [البقرة: 23]، والمشاهدة قاضية بعجزهم حتى عن بعض الآية. فلذلك نسب الشيخ الإعجاز إلى الآية فقط دون السورة. قال العلماء: أقل ما وقع به التحدي أقصر سورة منه، وهي ثلاث آيات، فقوله "**أعجز الإنس**" أي صيرهم عاجزين عن معارضته والإتيان بآية مثله، وكذلك "**الجن**" لأنه صلى الله عليه وسلم مبعوث إليهم، وهم يحسنون اللسان العربي، وسكت عن الملائكة لعصمتهم عن المخالفة، فلم يحسب تحديهم. وبالجملة فعجز الفريقين بل الثلاثة حاصل ضرورة ممن كان موجودا في زمنه صلى الله عليه وسلم ومن يأتي بعده إلى يوم القيامة، فلذلك قال الشيخ "**فهلا تأتي ببعضها البلغاء**" فهلا حرف تحضيض، والمراد بها هنا التهكم كقوله تعالى:﴿ **فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ [الأحقاف: 28] فهي هنا للتوبيخ والتنديم، فكذلك "هلا" هنا للتوبيخ من

يزعم إمكان المعارضة كبعض أهل الضلال. والضمير في بعضها يعود على الآية، وهو أبلغ "**والبلغاء**" جمع بليغ، كالفصحاء جمع فصيح، والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة خلوص اللفظ عن تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي ويوصف به الكلام والمتكلم والكلمة. والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال بأن يدل على ما يقتضيه حال المتكلم أو المخاطب من تنكير وإطلاق وتقديم وإضمار وإيجاز وفصل وضد كل ويوصف بها ما عدا الكلمة، وبلاغة المتكلم ملكة يقتدر بها على إيراد الكلام البليغ. وخص البلغاء ليكون غيرهم أحرا. قال في الشفاء: اعلم وفقنا الله وإياك أن كتاب الله العزيز منْطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه.

أولها حسن تأليفه والْتِئَامِ كلِمه وفصاحته وإعجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحكم ما لا يخص به غيرهم من الأمم، وأتوا من ذرابة اللسان ما لم يوت إنسان من فصل الخطاب ما تقيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة فيهم غريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدنون به إلى كل سبب، يخطبون لديها في المقامات وشديد الخطب ويرتجزون به بَيْنَ الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، ويذللون الصعاب، ويجرئون الجبان، ويبسطون يدا لجعد البنان، ويصيرون الناقص كاملا، ويتركون النبيه خاملا، منهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القوي، ومنهم الخضري ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول، القليل الكلفة، الكثير الرونق، وكلا البابين فلهما في البلاغة الحجة البالغة، والقوة الدامغة، وللقِدْم الفالج، والمهيع الناهج، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حووا فنونها، واستبطنوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعلوا صرحا لبلوغ أسبابها، فغالوا في الخطير والمهين، وتفننوا في الغث والسمين، وتقاولوا في الكل والكثر، وتناجلوا في النظم والنثر، فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم

حميد، أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتنارت في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه، وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالا، وأوسع في الغريب واللغة مقالا، بلغتهم التي بها يتجاورون، ومنازعهم التي عنها يتناضلون، صارخا بهم في كل حين، ومقرعا لهم بضعا وعشرين عاما على رؤوس الملأ أجمعين، أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله إلى قوله ولن تفعلوا وقل لئن اجتمعت الإنس والجن الآية فلم يزل يقرعهم صلى الله عليه وسلم أشد التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم ويشتت نظامهم ويذم آلهتهم وآباءهم ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم وهم في هذا كله ناكصون عن معارضته، مجمعون على مماثلته، مخادعون أنفسهم بالتشغيب وبالتكذيب والاعتداء بالافتراء وقولهم إن هذا إلا سحر يوثر وسحر مستمر وإفك افتراه وأساطير الأولين إلى غير ذلك، والادعاء مع العجز بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا. وقد قال لهم الله ولن تفعلوا ولا قدروا. ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عوراه لجميعهم. انتهى. أي لأنه أتى بخرافة يتضاحك منه إلى يوم القيامة كقوله يا ضفدع كم تنقنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الماء تكدرين ولا الطين تمنعين. وقوله محاكيا للنازعات والذاريات زرعا والحاصدات حصدا والذاريات قمحا والطاحنات طحنا والخابزات خبزا والثاردات ثردا واللاقمات لقما لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر وقال في آخر الفيل: ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وثيل ومشفر طويل فإن ذلك من خلق ربنا لقليل إلى غير ذلك من الهذيان الذي يمجه السمع والطبع ولم يخْف على من له أدنى ميز منهم أن القرآن العظيم ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم بل ولّوا عنه مدبرين وأتوا مذعنين من بين مهتد وبين مفتون ولهذا لما سمع المغيرة من النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية قال والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر. وذكر أبو

عبيد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فسجد، وقال: سجدت لفصاحته. وسمع آخر رجلا يقرأ ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ [يوسف: 80]، قال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام. وحُكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوما قائما في المسجد فإذا هو بقائم يتشهد بشهادة الحق فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب، وأنه سمع قوما من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها فإذا قد جمع فيها ما أنزل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، وهي: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور: 52]. وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها: قاتلك الله، ما أفصحك! فقالت: أو يعدها ذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: 7] الآية. فجمع له في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، فهذا نوع من إعجازه منفردا بذاته غير مضاف إلى غيره على التحقيق. ثم قال في الاكتفاء وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: 179] وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [سبأ: 51]، وقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: 34]، وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ [العنكبوت: 40] الآية. وأشباهها من الآي بل أكثر القرآن حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تأليف حروفها والتئام كلمها. وإن تحت كل لفظة منها جملا كثيرة وفصولا جمة، وعلوما زواخر ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها، ثم هو في سرد القصص الطوال وإخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان، آية لمتأمله، من ربط الكلام بعضه ببعض، والتئام سرده وتناسق وجوهه كقصة

يوسف على طولها، ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات على كثرة ترددها حتى تكاد كل آية تنسي في البيان صاحبتها، وتناصف في الحسن وجه مقابلتها، ولا نفور للنفوس من ترددها ولا معادة لمعادها. انتهى.

الوجه الثاني: من إعجازه صورة نطقه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد على مماثلة شيء منه بل حارت فيه عقولهم، وتداهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم. ولما سمع كلامه صلى الله عليه وسلم الوليد بن المغيرة، وقرأ عليه القرآن رق فجاءه أبو جهل منكرا عليه قال: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا. وفي خبره الآخر حين جمع قريشا عند حضور الموسم وقال إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأيا لا يكذب بعضكم بعضا. فقالوا: نقول كاهن، قال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمته ولا سجعه، قالوا: نقول مجنون، قال: ما هو مجنون ولا بخنقه ولا وسوسته. فنقول: شاعر، قال: ما هو شاعر، قد عرفنا الشعر كله رجزه وهرجه وقريضه ومبسوطه، ما هو شاعر. قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر ولا بنفثه ولا عقده. قالوا: فما تقول. قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا أعلم أنه باطل، وأن أقرب القول إنه ساحر، وإن سحره يفرق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته. فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس، فأنزل الله تعالى في الوليد ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [المدثر: 11] الآيات. وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم لقد علمتم أني لم أترك شيئا إلا علمته وقرأته وقلته، والله لقد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط. ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. وقد قال النضر بن الحارث نحوه، وفي حديث إسلام أبي ذر، ووصف أخاه أنيسا فقال: والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس، لقد ناقض اثني عشر شاعرا في الجاهلية، أنا آخرهم، وإنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي صلى الله عليه وسلم قلت: فما يقول الناس، قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم ولا يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر وأنه لصادق وأنهم كاذبون، والأخبار في هذا كثيرة

مشهورة. وقد اختلف أئمة السنة في وجه عجزهم عنه فأكثرهم يقول إنه لِمَا جمع من قوة جزالته ونصاعة ألفاظه وحسن نظمه وإعجازه وبديع تأليفه وأسلوبه، لا يصح أن يكون في مقدور البشر، وإنه من باب الخوارق الممتنع إقرار الخلق عليها، كإحياء الموتى، وقلب العصا، وتسبيح الحصا. فإن قلت: كيف يخاطبون بالتحدي مع القطع بعجزهم. قلت: هو باعتبار الظاهر، ونظير ذلك خطاب من علم الله فيه أنه لا يؤمن. وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم الله، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون، فمنعهم الله وعجزهم عنه. وقال به جماعة من أصحابه، وعلى كلا الطريقين، فعجْز العرب به ثابتٌ، وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون في مقدور البشر وتحديهم بأن يأتون بمثله قاطع، وهو أبلغ في التعجيز، وأحرى في التقريع، وعلى كل حال فما أتوا في ذلك بمقال، بل صبروا على الجلاء والقتل، وتجرعوا كاسات الصغار والذل، وكانوا من شموخ الأنفة وإبائة الضيم بحيث لا يوثرون ذلك اختيارا، ولا يرضونه إلا اضطرارًا. قاله عياض. ولقد رام من المتأخرين من انتهت إليه فصاحة وقته شيئا من محاكاته، فاعترتهم هيبة قطعتهم عن ذلك. ومنهم من فصل كلامًا وجعله سورا، فسمع صبيا يقرأ: ﴿ **وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ** ﴾ فتاب ومحى ما عمل.

الوجه الثالث: من الإعجاز، ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات، وما لم يكن فوجد، كما ورد على الوجه الذي أخبر. كقوله تعالى: ﴿ **لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ** ﴾ [الفتح: 27] وقوله: ﴿ **وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ** ﴾ [الفتح: 28] وقوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ** ﴾ [النور: 55] الآية. فكان جميع هذا كما قال، فغلبت الروم فارسا في بضع سنين، واستخلف المؤمنين في الأرض ومكن فيها دينهم وملكهم فيها من أقصا المشارق إلى أقصا المغارب، كما قال صلى الله عليه وسلم: <<زويت لي الأرض

فرأيت مشارق الأرض ومغاربها، فسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها>>. وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9] فكان كذلك، لا يُعَدُّ من سعى في تغييره وتبدل لحكمه من الملاحدة والمعطلة، لا سيما القرامطة، فأجمعوا كيدهم وحولهم وقوتهم على إطفاء شيء من نوره، فما قدروا على شيء من ذلك والحمد لله. ومنه قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: 45]. وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، كقوله تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة: 8] وقوله: ﴿ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ ﴾ [آآل عمران: 154]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ [المائدة: 41] الآية. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: 95] ولما نزلت بشر النبي أصحابه. ومنه قوله تعالى في اليهود: ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا ﴾ فما تمناه يهودي قط من يومئذ.

الوجه الرابع: ما أخبر به من قصص القرون السالفة، والأمم البائدة والشرائع الدائرة، فما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه، ويعترف العالم بذلك بصحته وصدقه، وإن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أن النبي صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ولا مناقبة لم يغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم، وقد كان أهل الكتاب كثيرا ما يسألونه صلى الله عليه وسلم عن هذا، فينزل عليه من القرآن ما يتلوا عليهم منه ذكر كقصص الأنبياء مع أممهم، وخبر موسى والخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، ولقمان وابنه، وأشباه ذلك، وبدء الخلق وما في التوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، مما صدقه فيه العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمن موفق آمن بما سبق له. ومن شقي معاند حاسد، عانَد وكفَرْ. ومع هذا فلم يحك عن واحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له وحرصهم على تكذيبه وطول

احتجاجه عليهم بما في كتبهم وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم وكثرة سؤالهم له صلى الله عليه وسلم عن أخبار أنبيائهم وأسرار علومهم، وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن، فأجابهم وعرفهم بما أوحى إليه. من ذلك أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم صرح بصحة نبوته وصدق مقاله، واعترف بعناده كأهل نجران، وابن صوريا، وابن أخطب وغيرهم. ومن باهت في ذلك بعض المباهلة وادعى أن فيها عندهم، لما حكاه مخالفة دعى إلى إقامة حجته، وكشف دعوته، فقيل له: ﴿ **فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ [ال عمران: 93] إلى قوله :﴿ **ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ [ال عمران: 94] فقرع ووبخ ودُعي إلى إحضار ممكن غير ممتنع، ولم يوثر أن أحدًا منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ولا أبدى صحيحا ولا سقيما من صحفه. قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ** ﴾ [المائدة: 15]. انتهى.

ومن وجوه إعجازه أيضا الروعة التي تلحق قلوب سامعيه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وأناقة خطره، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: <<إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه>>، وهو الحكم، وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابا، وتكسبه هشاشة يميل قلبه إليه وتصديقه به. قال الله تعالى: ﴿ **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ** ﴾ [الزمر: 23]. وقال: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ** ﴾ [الحشر: 21] وهذه الروعة قد اعترفت بها جماعة قبل الإسلام وبعده، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة. ومنهم من كفر، فحكى في الصحيح عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ **أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾** ﴾ [الطور: 35] إلى قوله تعالى: ﴿ **ٱلْمُصَيْطِرُونَ** ﴾ [الطور: 37] كاد قلبي أن يطير. وفي رواية: وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي. وعن عتبة بن ربيعة، أنه كلم النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من

خلاف قومه، فقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم «حم فصلت» إلى قوله: ﴿ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: 13] أمسك عتبة على فم النبي صلى الله عليه وسلم، وناشده الرحم أن يكف، إلى آخر القصة. ومن وجوه الإعجاز أيضا أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، لا يزال غضا طريا، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة ما بلغ يمل مع الترديد، ويعادى إذا أعيد. وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويونس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك حتى أحدث لها أصحابها لحونا وطرقا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم، وبهذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن بأنه لا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقض عبره، ولا تفنى عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل، لا يشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلبس به الألسنة، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾.

ومن وجوه إعجازه أيضا جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا نبينا صلى الله عليه وسلم قبل نبوته خاصة بمعرفتها، ولا القيام بها ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم، مجمع فيه من بيان علم الشرائع والتنبيه على طرق الحجج العقليات، والرد على فرق الأمم ببراهين قوية، وأدلة بينة، سهلة الألفاظ موجزة المقاصد، رام المتخذلقون بعد أن نصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها، كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾، ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: 22] إلى ما حواه من علوم السير والمواعظ والحكم وأخبار الدار الآخرة، ومحاسن الأدب والشيم. قال الله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: 38]، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم <<إن الله أنزل هذا القرآن آمرا وزاجرا، وسنة خالية، ومثلا مضروبا، فيه نبأكم، وخبر من كان قبلكم، ونبأ ما يأتي بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الحق ليس بالهزل، من

قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن قسم به أقسط، ومن عمل به أجر، ومن مسك به هدي إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله، ومن حكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يُعوّج فيُقوّم، ولا يزيغ فيستعتب>>. انتهى. ونحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال فيه: ولا يختلف ولا يتشانا، فيه نبأ الأولين والآخرين. وفي الحديث قال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم: إني منزل عليك توراة حديثة، تفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا، فيها ينابيع العلم وفهم الحكمة، وربيع القلوب. وعن كعب الأحبار: عليكم بالقرآن، فإنه فهم العقول ونور الحكمة. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦ ﴾ [النمل: 76] فجمع فيه مع وجازة ألفاظه وجوامع كلمه أضعاف ما في الكتب قبله التي ألفاظها على الضعف منه مرات. ومن وجوه إعجازه أيضا جمعه فيه بين الدليل والمدلول وذلك أنه احتج بنظم القرآن وإيجازه وبلاغته وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه ووعده ووعيده، فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معا من كلام واحد وسورة واحدة. ومنها أن جعله في حيز المنظوم الذي لم يعهد ولم يكن في حيز المنثور، لأن المنظوم أسهل على النفوس وأوعى للقلوب وأسمح للآذان وأحلى على الأفهام. فالنفس إليه أميل، والأهواء إليه أسرع. ومنها تيسيره تعالى للحفظ بتعليمه وتقريبه على متحفظيه. قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ ﴾ [القمر: 17] وسائر الأمم لا يحفظ كتبها إلا الواحد منهم. فكيف بالجم الكثير على مرور السنين عليهم، والقرآن ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة. ومنها مشاكلة بعض أجزائه بعضا، وحسن ائتلاف أنواعها، وحسن التخلص من قصة إلى أخرى، والخروج من باب إلى غيره على اختلاف معانيه، وانقسام السورة الواحدة على أمر ونهي، وخبر واستخبار ووعد ووعيد، وإثبات نبوة وتوحيد وتقرير وترغيب وترهيب، إلى غير ذلك من فوائده، دون خلل يتخلل فصوله، والكلام الفصيح إذا اعتوزه مثل هذا ضعفت قوته ولانت جزالته وقل رونقه، فتأمل أول سورة {ص}، وما

جمع فيها من أخبار الكفار، وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون قبلهم وما ذكر من تكذيبهم له صلى الله عليه وسلم، وتعجبهم مما أتى به وما ظهر من الحسد في كلامهم وتعجيزهم وتوهينهم ووعيدهم بخزي الدنيا والآخرة، وتكذيب الأمم قبلهم، وإهلاك الله لهم، ووعيد هؤلاء بمثل مصابهم، وتصبير النبي صلى الله عليه وسلم على أذاهم، وتسليته بكل ما تقدم ذكره، ثم أخذ في ذكر داوود وقصص الأنبياء، كل هذا في أوجز كلام، وأحسن نظام. انتهى. قاله في الشفاء، وإنما أثبته بطوله لكثرة فوائده، وهو داخل تحت قول الشيخ "أعجز الإنس آية" إلخ. فاحتيج إلى ذكر وجه الإعجاز.

*** ثم استطرد الشيخ جملة من محاسن القرآن، وما اشتمل عليه من الفوائد، فقال:**

187 **كُـلَّ يَـوْمٍ تُهْـدِي إِلَـى سَـامِعِيهِ مُعْجِــزَاتٍ مِــنْ لَفْظِــهِ القُــرَّاءُ**

من أكرم بنور الفضل، وخص بفضيلة العلم، وكشف الحجاب عن قلبه، حدث له عند سماعه القرآن من نفسه أو غيره من تحف الأحوال والكرامات، وهدايا التعرف والمبرات، ما يقصر عنه الفهم، ويكل دونه العلم، فلذا قال "**كل يوم**" أي وقت "**تهدي**" أي توصل إلى مسامعها "**القراء**"، فالقراء فاعل، أي تهدي القراء إلى سامعها معجزات حاصلة من لفظها لعذوبته ورشاقة لفظه وجزالة معناه، وخروجه عن جنس كلام العرب. وقد تقدم هذا المعنى مستوفى. وسئل بعضهم عن موضع الإعجاز من القرآن، فقال: هذا شبيه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان. ومعناه: أنه ليس للإنسان موضع بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته، ودللت على ذاته. وكذلك القرآن لشرفه لا يشار لشيء منه إلا كان ذلك آية في نفسه، ومعجزة لمحاوله، وهدى لقائله، وليس في قدرة البشر الإحاطة بأسرار الله تعالى من كتابه، فلذلك طارت العقول، وتاهت البصائر عنده، واختلف في تفاوته في مراتب الفصاحة بعد اتفاقهم على أنه بلغ الدرجة العليا كما مر. واختار القاضي المنع، وإنما التفاوت في إدراك الناس له. واختار أبو النصر القشيري وغيره تفاوته. وتبعه ابن عبد السلام، ولم يأت كله بالأفصح ليلا يخرج عن نمط كلام العرب، فجاء على نمط كلامهم ليتم ظهور بقاء العجز عن

معارضته. انتهى. قاله ابن حجر.

* **ثم أشار إلى وصف آخر في القرآن العظيم، فقال:**

188 **تَتَحَلَّى بِهِ المَسَامِعُ وَالأَفْـ ـوَاهُ فَهْوَ الحُلِيُّ وَالحَلْوَاءُ**

يعني أن القرآن العظيم أفضل ما تتحلى به الأسماع، وتتمتع في رياض عجائبه الاستمتاع، فهو ربيع القلوب، وجلاء الغموم والكروب، ومن دعائه صلى الله عليه وسلم: <<أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي>>. انتهى. وهذا إنما يتذوقه من ذاق حلاوة الإيمان، وقصر نفسه على تدبر معاني القرآن. قال في الإحياء: وكان بعض السلف إذا قرأ السورة ولم يكن في قلبه فيها، أعادها ثانية. ثم قال: فإن المعظم لكلام الله الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلا له، فكيف يطلب الإنس بالفكر في غيره وهو في منتزه ومتفرج، فالذي يتفرج في المنتزهات لا يتفكر في غيرها. فقد قيل: إن في القرآن ميادين وبساتين، ومقاصد وعرائس، ودبائج ورياضات وخانات. فالميمات ميادين القرآن، والراءات بساتين القرآن، والطاسيمات مقاصره والمسبحات عرائس القرآن، والحاميمات ديباج القرآن، والمفصل رياضه والخانات ما سوى ذلك. فإذا دخل القارئ في الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصر وشهد عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره. انتهى. فقول المصنف "**تتحلى به الأفواه**" هو من الحلاوة أي تتطيب به وتذوق حلاوته، وهذه الحلاوة إنما هي للقلوب، وهي التلذذ به والتأنس بتلاوته حتى لا يصبر عنه. قال بعض الحكماء: كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت إلى مقام فوقه فكنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم جاء الله بحالة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به، فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عليه. وقال في حرز الأماني:

وخيـــر جلـــيس لا يمـــل حديـــثه وتـــرداده يـــزداد فـــيه تجمــــلا

والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

189 **رَقَّ لَفْظًا وَرَاقَ مَعْنَى فَجَاءَتْ فِي حُلاَهَا وَحَلْيِهَا الخَنْسَاءُ**

أما رقة لفظه فمن حيث عذوبته وسهولة لفظه وعدم تعقيد كلماته وتنافر حروفه، فهو سهل التلاوة، عذب الحلاوة، لا يمل تكراره، ولا تعادى معادته. فقوله "**رق**" أي حسن وسهل "**لفظا وراق**" أي أعجب الناظرين إليه، وأخذ بمجامع قلوبهم من جهة معناه، فلا تجد "**معنى**" من معانيه إلا وهو أصل في الأحكام، ووضوح المراد الغاية القصوى. وأيضا إنما راقت معانيه لكونها لا تعد ولا تحصى، ولا تحد ولا تستقصى، فبحر معانيه زاخر، وتلاطم أمواجه هائل باهر.

لـه معـان كمـوج البحـر فـي مـدد وفـوق جوهـره فـي الحـسن والقـيم

﴿ **قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾** ﴾ قوله "**فجاءت في حلاها وحليها الخنساء**" أي فبسبب رقة لفظه ورونقة معناه كان في غاية البهجة والنضرة، فكان كامرأة متزينة بحللها، أي صفتها الجميلة، وحالتها الحسنة وحليها أي زينتها الرفيعة، كالجواهر واليواقيت، وخص الخنساء بنت عمر لأنها كانت شاعرة مفلقة، كما يأتي التعريف بها إن شاء الله.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

190 **وَأَرَتْـنَا فِـيهِ غَـوَامِضَ فَـضْلٍ رِقَّـةٌ مِـنْ زُلالِـهِ وَصَـفَاءُ**

أي وأبصرتنا وأوضحت لنا "**فيه**" أي القرآن العظيم، "**غوامض**" أي أسرارا وعلوما ربانية التي طريقها الكشف والإلهام، ومحض الفضل والإنعام، ولذلك أضافها إلى الفضل، فهي لا تنال بكسب ولا تعلم، وإنما تنال بوضع إلهي واختصاص رباني وهي الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا. وقال مالك: العلم نور يضعه الله في قلوب من يشاء من عباده، فإذا وضع هذا النور في القلب انكشفت عنده الأشياء وأدرك

حقائقها وكان على بصيرة في دينه فيذوق حلاوة الإيمان، ويدرك غوامض علوم القرآن، فيشرب حينئذ "**رقة من زلاله وصفاء**". قال ابن حجر: شبه آي القرآن في محاسن أسالبها وصفاء مواردها الموجبين لمن صرف في خفاياها حديد نضره، وحقق في غورها دقيق فكره، بَرْد اليقين وصفاء القلب عن كل هوى، حين اطلع على سائر الغوامض من العلوم الإلهية، والمعارف الاختصاصية، والمواهب الرحمانية، والقُرب الروحانية، بماء في غاية العذوبة والبرودة، وصفاء الجوهرية، بحيث لا يمنع من رؤية ما تحته مما شأنه أن يخفى. انتهى. ف"رِقَّة" فاعل "أرتنا" والزلال ماء في غاية الحلاوة والبرودة، ويوجد في أجواف صور يوجد في بحر الثلج تشبه الحيوان، وليست في الحقيقة بحيوان كما قاله بعض أكابر أئمتنا. قاله ابن حجر. ووجه الشبه بينهما، أن الماء البارد تحيا به الأشباح، وتندفع به حرارة الطبع. وحلاوة القرآن تحيا به الأرواح، وتندفع به الأوهام والأغيار.

*** وهذه الحلاوة لا تحصل إلا لمن انصقلت مرآة قلبه، وكمل أدبه وفهمه. ولذا قال رضي الله عنه:**

191 **إِنَّمَا تَجْتَلِي الوُجُوهُ إِذَا مَا جُلِيَتْ عَنْ مِرْآتِهَا الأَصْدَاءُ**

أي إنما تظهر "**الوجوه**" في المرآة ظهورًا واضحًا لا خفاء معها "**إذا جليت**" أي أزيلت "**عن مرآتها**" أي عن تلك المرآت" **الأصداء**" حتى تكون في غاية الصقالة، فكذلك مرآة القلوب لا تجتلي العلوم والمعارف من القرآن إلا إذا جليت عنها أصداء الأغيار وأذاب قواها فيما هي بصدده آناء الليل وأطراف النهار. قال عثمان المكي وحذيفة المرتعش رضي الله عنهما: لو طهرت القلوب، لم تشبع من قراءة القرآن. انتهى. وإنما قالا ذلك لأنها بالطهارة تصفوا فترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام، ولذلك قال ثابت البناني رضي الله عنه: كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعمت به عشرين سنة. انتهى. فإذا الذي ذكر الشيخ في هذا البيت، هو أحد أعمال الباطن في التلاوة، ويسمى التخلي. وأعمال الباطن في التلاوة: عشرة. فَهْمُ أصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب، ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، وهو الذي ذكره

المصنف، ثم التخصيص، ثم التأثر، ثم الترقي، ثم التبري.

الأول: فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله سبحانه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه، فانظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى إفهام خلقه، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله إلا بوسيلة صفات أنفسهم، فلولا استتار كنه جلال كلام الله تعالى بكسوة الحروف، لما ثبت لسماع الكلام عَرْشُ ولا ثرا ولتلاشى ما بينهما من أجل عظمة سلطانه وسُبُحات نوره، ولولا تثبيتُ الله موسى عليه السلام لما أطاق سماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادئ تجليه، حيث صار دكا، ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق. ولذا عبر بعض العارفين عنه فقال: إن كل حرف من كلام الله تبارك وتعالى في اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف، وأن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلُّوه ما أطاقوه، حتى يأتي إسرافيل عليه السلام فيرفعه فيقلُّه بإذن الله ورحمته، لا بقوته وطاقته، ولكن الله تعالى طوقه ذلك واستعمله به.

الثاني: التعظيم للمتكلم، فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن، ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن في تلاوته كتاب الله غاية الخطر، فإن الله تعالى قال: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ وكما أن ظاهر جلده وورقه محروس عن ظاهر اللاّمس إلا إذا كان متطهرا، فبطان معناه أيضا بحكم عزته وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس، متنور بنور التعظيم والتوقير، وكما لا يصلح للمس المصحف كل يد، فلا يصلح لتلاوته كل لسان، ولا لنيل معانيه كل قلب، ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة ابن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه، فيقول: هو كلام ربي، هو كلام ربي. فتعظيم الكلام بتعظيم المتكلم، ولن يحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وأفعاله، فإذا خطر بباله العرش والكرسي والسماوات والأرضون وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها، والرازق لها واحد، وأن الكل في

قبضة قدرته متردد بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، إن أنعم ففبفضله، وإن عاقب فبعدله، وإنه الذي يقول: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي. وهذه غاية العظمة والتعالي. فالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم، ثم تعظيم الكلام. **الثالث**: حضور القلب، وترك حديث النفس، قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: 12] أي بجد واجتهاد، وأخذه بالجد أن يكون متجردا لقراءته، منصرف الهم إليه عن غيره. وقيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن لا تحدث نفسك بشيء. قال: أي شيء أحب إلي من القرآن أحدث به نفسي. وكان بعض السلف إذا قرأ سورة ولم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، وهذه صفة تتولد عما قبلها من التعظيم، فإن المعظم للكلام الذي يتلوه، يستبشر به ويستأنس، ولا يغفل عنه، ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان أهلا، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غير القرآن. وقد تقدم تمامه.

الرابع: التدبر، وهو وراء حضور القلب، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن، ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه، ولا يتدبره، والمقصود من القراءة التدبر، ولذلك سن فيه الترتيل، لأن الترتيل في الظاهر يمكن التدبر فيها، وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف الإمام، فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى، كان مسيئا، كمثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة. فمن يناجيه عن فهم بقية كلامه، وكذلك إذا كان في تسبيح الركوع وهو يتفكر في آية قرأها، فهذا وسواس. فقد روي عن عامر بن قيس أنه قال: الوسواس يعتريني في الصلاة فقيل: في أمر الدنيا. فقال: لأن تختلف فيّ الألسنة أحب إلي من ذلك، ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدي ربي، وإني كيف أنصرف بعد ذلك، وذلك وسواس. وهو كذلك، فإنه يشغله عما هو فيه، والشيطان لا يقدر على مثله، إلا أن يشغله بمهم ديني يمنعه عن الأفضل والأهم. ولما ذكر ذلك للحسن البصري قال: إن كنتم صادقين، فما اصطنع * الله عز وجل ذلك عندنا. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة، وإنما رددها لتدبره في معانيها. وقال أبو ذر: قام فينا رسول الله صلى الله عليه

وسلم ليلة بآية يرددها وهي قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة: 118]. وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية يرددها: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ [الجاثية: 21] الآية. وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية: ﴿ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يس: 59]. وقال بعضهم: إني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر. وكان بعضهم يقول: كل آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثوابا. وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال وخمس ليال، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها. وعن بعض السلف، أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها لا يفرغ من التدبر فيها. وقال بعض العارفين: لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة وفي كل سنة ختمة وأختمه منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد ذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه. وكان هذا أيضا يقول: أقمت نفسي مقام الأجراء، فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة.

الخامس: التفهيم، وهو أن يستوضح من كل آية ما يتعلق بها، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله تعالى وذكر أفعاله عز وجل، وذكر أحوال أنبيائه عليهم السلام، وذكر أحوال المكذبين بهم، وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزجره، وذكر الجنة والنار. فأما صفات الله تعالى فكقوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11]، وكقوله: ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ إلى السورة، فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها، فتَحْتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للمؤمنين. قال عبد الله بن مسعود: من أراد أن يعلم علم الأولين والآخرين، فليوثر القرآن، وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله تعالى وصفاته، إذا لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أمورا لائقة بأفهامهم، ولم يعثروا على أغوارها. وأما أفعاله عز وجل فكذكره خلق السماوات والأرض وغيرهما، فليفهم التالي منها صفات الله وجلاله، إذ الفعل

يدل على الفاعل، فيدل على عظمته. فينبغي أن يشاهد في الفعل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رءاه في كل شيء، إذ كل شيء فهو منه وإليه وبه وله، فهو الكل على التحقيق، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلى الله باطل، إن اعتبر ذاته من حيث هو، إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله وبقدرته، فليكن له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض، وهو ميدان من ميادين علم المكاشفة. ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ﴾ [الواقعة: 63]. ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ﴾ [الواقعة: 68]. ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ﴾ [الواقعة: 71] بل يتأمل في المني وهي نطفة متشابهة الأجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب، وكيفية اشتمال أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيه من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكفر والتكذيب والجهل والمجادلة. كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾ فتأمل هذه العجائب لترقى منها إلى أعجب العجائب، وهي الصفة التي صدرت منها هذه العجائب، فلا يزال ينظر إلى الصنعة، ويرى الصانع. وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام، فإذا سمع منها أنهم كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم، فيفهم منه صفة الاستغناء لله عن الرسل والمرسل إليهم، وانه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئا، وإذا سمع نصرهم في آخر الأمر، فليفهم قدرة الله سبحانه وإرادته. وأما أحوال المكذبين كعاد وثمود وما جرا عليهم، فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوة الله تعالى ونقمته، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه، وأنه إن أغفل وأساء الأدب واغتر بها، أمهل، فربما تدركه النقمة، وكذلك إذا سمع ذكره وأمره وزواجره وذكر الجنة والنار وسائر ما في القرآن، ولا يمكن استقصاؤه وما يفهم منه، لأن ذلك لا نهاية له، وإنما لكل عبد منه بقدر رزقه، ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾. قلت: وسيأتي قريبا ما يتعلق بذلك إن شاء الله.

السادس: التخلي عن موانع الفهم، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معان القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن. قال صلى الله عليه وسلم: <<لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت>>. ومعان القرآن من جملة الملكوت، وحجب الفهم أربعة، **أولها**: أن يكون الهم منصرفا إلى تحفيظ الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن معاني كلام الله، فلا يزال يحملهم على ترديد الحروف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف، فأنى تنكشف له المعاني. **ثانيها**: أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه، وثبت في نفسه التعصب له بمجرد اتباع المسموع من غير وصول إليه ببصيرته، فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفا على مسموعه. وهذا التقليد قد يكون باطلا، فيكون مانعا، كمن يعتقد من الاستواء على العرش التمكن والاستقرار، إلى غير ذلك. وقد يكون حقا، ويكون أيضا مانعا من الفهم والكشف، لأن الحق الذي كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات، وله مبدأ ظاهر وغور باطن. وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور على الباطن.**ثالثها**: أن يكون مصرا على ذنب متصفا بكبر أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه، وهو كالخبث على المرآة، فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب. وبه حجب الأكثرون، وكلما كانت الشهوات أشد تراكما، كانت معاني القرآن أشد احتجابا، وكلما خفت عن القلب أثقال الدنيا، قرب تجلي المعنى فيه. فالقلب مثل المرآت، والشهوات مثل الصدأ. ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة. والرياضة للقلب بإماطة الشهوات، مثل تصقيل الجلاء للمرآة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: << إذا عظموا الدينار والدرهم، نزع منهم هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حرموا بركة الوحي>>. قال الفضيل: معناه حُرموا فهْم القرآن. وقد شرط الله الإنابة في فهم القرآن فقال تعالى: ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ ﴾ [ق: 8]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الرعد: 19].

والذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة ليس من ذوي الألباب، فلذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب. **رابعها**: أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وأن ما رواء ذلك تفسير بالرأي، وأن من فسر القرآن بالرأي فقد تبوأ مقعده من النار. فهذا أيضا من الحجب العظيمة، إذ التفسير بالرأي هو الذي يوافق الهوى الفاسد، فيحمل القرآن على ما يوافق هواه، ليحتج على تصحيح غرضه، أو يكون التفسير بالرأي هو أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل مما يتعلق بقرائن القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة، فأما استنباط الأحكام واستخراج الفوائد والعلوم منه فليس منه. ومنه قول علي رضي الله عنه: إلا أن يوتى العبد فهما في القرآن. ولو كان المعنى هو الظاهر المنقول، لما اختلف الناس فيه. قلت: وهذا العمل السادس هو مضمن بيت المصنف. والله تعالى أعلم.

السابع: التحضيض، وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمرًا أو نهيا، قدر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعدًا ووعيدًا فكذلك، وإن سمع قصص الأولين، علم أن السير غير مقصود، وأن المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعفه ما يحتاج إليه. فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي وأمته، ولذا قال تعالى: ﴿ **مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ** ﴾ [هود: 120] فليقدر العبد أن الله تعالى يثبت فؤاده ما يقدمه له من أحوال الأنبياء عليهم السلام، وصبرهم على الأذى، وثباتهم في الدين، لانتظار نصر الله. وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم له خاصة، بل هو شفاء ورحمة ونور للعالمين، ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب، فقال:﴿ **وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ** ﴾ [البقرة: 231] وقال تعالى:﴿ **هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ۝٢٠ ﴾ [الجاثية: 20] وقال: ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ** ﴾ [الأنعام: 19]. قال محمد بن كعب القُرَظِي: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله عز وجل. وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عملا كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه

ليتأمله ويعمل بمقتضاه، ولذلك قال بعض الحكماء: هذا القرآن وسائل أتتنا من قِبَل ربّنا بعهوده نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات بالسنن المتبعات. وكان مالك بن دينار يقول: ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؛ أن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض. وقال قتادة: لمْ يُجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان. قال تعالى: ﴿ **هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** ﴾.

الثامن: التأثير، وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره. ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، فإن التضييق غالب على آي القرآن فلا يرا ذاكره المغفرة والرحمة إلا مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها، كقوله تعالى: ﴿ **وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ** ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: 82] وقوله: ﴿ **وَٱلْعَصْرِ** ﴿١﴾ **إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ** ﴿٢﴾ **إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ** ﴾. وحيث اقتصر، ذكر شرطا جامعا، فقال: ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف: 56] بالإحسان يجمع الكل. وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره. ولذلك قال الحسن: والله ما أصبح اليوم عبد يتلوا هذا القرآن، يؤمن بالله، إلا كثر حزنه وقل فرحه، وكثر بكاؤه وقل ضحكه، وكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته. وقال وهيب ابن الورد: نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ، فلم نجد شيئا أرق للقلوب، ولا أشد استجلابا للحزن من قراءة القرآن، وتفهمه وتدبره، فتأثر العبد بالتلاوة، هو أن يصير بصفة الآية المتلوة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل كأنه يموت من الخوف، وعند التوسع ووعد المغفرة، يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر صفات الله وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته. وعند ذكر الكفار وما يستحيل على الله تعالى، كذكرهم لله تعالى ولدا أو صاحبة يغض صوته وينكسر في باطنه حياء من قبيح مقالهم، وعند وصف الجنة ينبعث باطنه شوقا إليها، وعند ذكر النار

ترتعد فرائصه خوفا منها. ولقد بكى صلى الله عليه وسلم حيث قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء حين بلغ قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء: 41]. الآية. ولقد كان في الخائفين من خر مغشيا عليه عند آية الوعيد. ومنهم من مات عند سماع هذه الآيات، فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: 18]. وقوله: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الصف: 3]. وكان داخلا في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝ ﴾ [البقرة: 78] ولذلك قيل: إن من لم يتصف بأخلاق القرآن، ناداه الله تعالى: ما لك ولكلامي وأنت معرض عني، دع عنك كلامي إن لم تتب إلي. ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرر مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات، وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتحريكها ومقتصر على دراسة كتابه، فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت، والمعرض عن العمل به، أريد بقوله تعالى: ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم، فإذا اختلفتم فلستم تقرءونه>>. وفي رواية: <<فإذا اختلفتم فقوموا>>. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: 2]، ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: 2]. وقال صلى الله عليه وسم:<<إن أحسن الناس صوتا بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى>>. وقال أيضا: <<لا يُسمع القرآنُ أشهى منه ممّن يخْشى الله عز وجل>>. فالقرآن يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به، وإلا فالمئونة في تحريك اللسان بحروفه خفيفة، ولذلك قال بعض القراء: قرأت القرآن على شيخ لي، ثم رجعت لأقرأ ثانيا، فانتهرني وقال: جعلت القرآن علي عملا. اذهب فاقرأ على الله عز وجل، فانظر ماذا يأمرك، وماذا يفهمك. ولهذا كان شغل الصحابة في

الأحوال والأعمال، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفا من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة، ولما جاء واحد ليتعلم القرآن، فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ [الزلزلة: 7-8] فقال: يكفيني هذا، وانصرف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<انصرف الرجل وهو فقيه>>. وإنما العزيز مثل تلك الحالة التي يَمُنُّ الله بها على الخلق وعقب فهم الآية. فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى، وتلاوة القرآن حق تلاوته أن يشترك فيها اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان يصحح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثير بالانزجار والائتمار. فاللسان واعظ، والعقل مرجح، والقلب متعظ.

التاسع: الترقي، وأعني به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل، لا من نفسه، فدرجات القراءة ثلاثة، أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله تعالى واقفا بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال إليه. الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يخاطبه بألفاظه ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم. الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث أنه منعم عليه، بل يكون مقصورا لهم على المتكلم، موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره، وهذه درجة المقربين من درجات أصحاب اليمين. وما خرج عن هذا، فهو درجة الغافلين. وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق فقال: والله لقد تجلى الله تعالى لخلقه في كلامه، ولكن لا يبصرون. وقال أيضا، وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشيا عليه، فلما سري عنه، قيل له في ذلك فقال: ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي بمعاينة قدرته. وفي هذه الدرجة تعظم الحلاوة وتلذ المناجاة فلا يصبر عنه. وقد تقدم قول بعض الحكماء: كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة.

العاشر: التبري، وأعني به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين

الرضا والتزكية، فإذا تلى آية الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد لنفسه عند ذلك بل يشهد الموفقين والصديقين فيها ويتشوق أن يلحقه الله بهم، وإذا تلى آية المقت وذم العصاة والمقصرين شهد نفسه هناك، وقدّر انه المخاطب خوفا وإشفاقا، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يقول: اللهم إني أستغفرك لظلمي بكفري. فقيل له: هذا الظلم، فما بال الكفر؟ فتلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [ابراهيم: 34]. وقيل ليوسف بن أسباط: إذا قرأت القرآن، بماذا تدعوا؟ قال: بما أدعوا: أستغفر الله من تقصيري، سبعين مرة. فإذا رءا نفسه بصورة التقصير في القراءة، كانت رؤيته سبب قربه، فإن من أشْهد البعد في القرب، لطف به في الخوف حتى يسوقه إلى درجة أخرى في القرب وراءه، ومن أشهد القرب في البعد مكر به بالأمن الذي يفضي به إلى درجة أخرى في البُعد أسفل. مما هو فيه، ومهما كان مشاهدًا لنفسه بعين الرضى صار محجوبا بنفسه. وإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته، انكشف له الملكوت. قال سليمان الداراني: وعدَ ابْن ثوبان أخًا له أن يفطر عنده، فأبطأ عليه حتى طلع الفجر، فلقيه أخوه من الغد فقال له: وعدتني أن تفطر عندي فأخلفت. فقال: لولا ميعادك ما أخبرتك بالذي حبسني عنك، إني لما صليت العتمة قلت أوتر قبل أن أجيئك، لأني لم آمن ما يحدث من الموت، فلما كنت من الدعاء في الوتر، رفعت إلى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة، فما زلت أنظر إليها حتى أصبحت. وهذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف، فحيث يتلوا آية الرجاء ويغلب عليه الاستبشار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عيانا، وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها، وذلك لأن كلام الله تعالى يشتمل على السهل اللطيف والشديد العسوف، والمرجو والمخوف، وذلك بحسب أوصافه، إذ منها الرحمة واللطف، والانتقام والبطش، فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب القلب في اختلاف الحالات، وبحسب كل حالة منها، فيستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة، إذ يستحيل أن يكون حال المستمع واحد والمسموعُ مختلف، إذ فيه كلام راض وكلام غضبان، وكلام منعم وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر لا يبالي وكلام حنان متعطف لا يهمل. انتهى من الإحياء، وإنما أثبته بطوله لكثرة فوائده. واختلال هذه

الأعمال في زماننا هذا، فلعل من يقف عليه يكون سببا لنهوضه. والله الموفق.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

192 **سُــوَرٌ مِــنْهُ أَشْــبَهَتْ صُــوَرًا مِــ ـــنَّا وَمِــثْلُ النَّظَائِــرِ النُّظَــرَاءُ**

قد اشتمل القرآن العظيم على "**سور**" متعددة، وكل سورة "**منه**" مخالفة لصاحبتها في ألفاظها وحسن بلاغتها ومساقها، فلا تجد فيه سورة إلا وبينها وبين صاحبتها نوع اختلاف، وإن اتفق بعض القصص فقد "**أشبهت**" صور بني آدم، فإنه مع اتفاقه في النوعية والبشرية لا تجد صورة منه إلا وهي مخالفة لصاحبتها في الصفة واللون، وذلك من باهر قدرته تعالى وكمال حكمته. قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ** ﴾ [الروم: 22]، وهذا من إعجاز القرآن العظيم حيث تعددت سوره، وكل واحدة منها مخالفة لصاحبتها مستقلة بالإعجاز، لا تتوقف على غيرها، وكأن الناظم قصد الرد على من زعم الإعجاز، إنما هو مجموع القرآن لا بكل سورة، لأن ما فيه من أنواع الإعجاز السابقة إنما يستفاد من مجموعه، وهذه مقالة فاسدة، لقوله تعالى: ﴿ **فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ** ﴾ فقوله سور جمع سورة وهي الطائفة منه، وهي توقيفية، ومنه للبيان كالتبعيض، وكذلك منا. وقوله: "**ومثل النظائر النظراء**" جمع نظير، وهو المثيل والمناظر له. وكذلك النظراء يعني أن نظائر القرآن وهي السور التي تقاربت في المعنى بعضها من بعض مثل النظائر منا التي متقارب الشبه بينهما في الصفة واللون. وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إني لأعرف النظائر التي كان يقرأها صلى الله عليه وسلم، وهي عشرون سورة من المفصل. وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ سورتين منها في ركعة لقرب معانيها بعضها من بعض. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

193 **وَالأَقَاوِيــلُ عِــنْدَهُمْ كَالتَّمَاثِــيــ ـــلِ فَــلا يُوهِمَــنَّكَ الخُطَــبَاءُ**

"**الأقاويل**" التي صدرت من الكفرة والملاحدة في القرآن لا تقدح في علو

درجاته وإعجاز بلاغته، فإنها باطلة لا حقيقة لها، وخيال لا صورة لها، فهي "**كالتماثيل**" التي تظهر على أيدي السحرة إذا فتشتها لم تجد شيئا، وإنما حملهم على ذلك الحسد والعناد. قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ وفي بردته:

لا تعجبن لحسود راح ينكرها تجاهلا وهو عين الحاذق الفهِم

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

"**فلا يوهمنّك**" إنكار "**الخطباء**" والفصحاء له ، فإنما ذلك حسد وعناد لا يعول عليه، ولا يصغى العاقل بأذنيه إليه. "**والأقاويل**" مبتدأ وخبره "كالتماثيل" والظرف يتعلق بالمبتدأ أو الخبر. والله تعالى أعلم

* **ثم قال رضي الله عنه:** (ص**307**)

194 **كَـمْ أَبَانَـتْ آيَاتُـهُ مِـنَ عُلُـومٍ عَنْ حُرُوفٍ أَبَـانَ عَنْهَا الهِجَـاءُ**

تكلم الشيخ هنا على ما اشتمل عليه القرآن العظيم من المعاني، وإن ذلك بحر زاخر لا يمكن إحصاؤها، فقال "**كم**" أي كثيرا أو مرات "**أبانَتْ**" أي أظهرت وأفصحت "**آياته**" جمع آية، وهي لغة العلامة، واصطلاحا طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها، سميت بذلك لأنها علامة على صدق الآتي بها، وعلى عجز المتحدين لها. وسيأتي عددها. و"**من**" زائدة في تمييزها، فإن تمييزكم إذا فصل منها بفصل جر بمن كثيرًا، لقوله تعالى: ﴿ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ ﴾. ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ أي كم أظهرت آيات القرآن "**من علوم**" لا غاية لها. قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: 38]. وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: 89]. وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾. وقال علي رضي الله عنه: لو أذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير الفاتحة، لأوقرت عليها سبعين بعيرًا. قال الشيخ العارف ابن أبي جمْرة: إنما قال ذلك تقريبًا،

وإلا فهي قابلة لأكثر من ذلك. وقال الحسن: أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها في أربعة منها، التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. ثم أُودِع علوم ثلاثة في الفرقان. انتهى. وقال الشافعي رضي الله عنه: جميع ما تقوله الأمة شرح للسُّنة، وجميع السنة شرح للقرآن. وقال أيضا: جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم ما فهمه من القرآن. وما ثبت ابتداء بالسنة فهو في الحقيقة مأخوذ منه لأنه أوجب علينا اتباعه صلى الله عليه وسلم. وقال آخر: ما قال صلى الله عليه وسلم شيئا أو حكم به إلا وهو أصله في القرآن، قرب أو بعد. وقال آخر: ما من شيء في العالم إلا وهو فيه. فقيل له: أين ذكر الخانات؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ [النور: 29] فهي الخانات. وقال آخر: ما من شيء إلا ويمكن استخراجه من القرآن لمن فهّمه الله تعالى، حتى أن عمر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة، استنبط من آخر سورة المنافقين، لأنها رأس ثلاث وستين سورة. وعقبها بالتغابن، لظهوره بفقده صلى الله عليه وسلم. وقال آخر: لم يحط بالقرآن إلا المتكلم به، ثم بينه صلى الله عليه وسلم فيما عدا ما استأثر الله تعالى بعلمه، ثم ورث عنه معظم ذلك الصحابة رضي الله عنهم، مع تفاوتهم فيه بحسب تفاوت علومهم، كأبي بكر، فإنه أعلمهم، وكعلي، كرم الله وجهه، لقوله صلى الله عليه وسلم: أنا مدينة العلم، وعلي بابها. وهو حديث حسن. ومن ثم قال ابن عباس رضي الله عنه، جميع ما أبرزته لكم من التفسير فإنما هو من علي كرم الله وجهه، وكابن عباس رضي الله عنه، لقوله صلى الله عليه وسلم: <<اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل>> وفي رواية: <<وعلمه الحكمة>> ومن ثم قال : لو ضاع لي عقال لوجدته في كتاب الله. ثم ورث عنهم التابعون معظم ذلك، ثم تقاصرت الهمم عن حمل ما حمله أولئك من علومه وفنونه، فنوعوا علومه أنواعا ليضبط كل طائفة علما وفنا، وتوسعوا فيه بحسب مقدرتهم، ثم أفرد غالب تلك العلوم وتلك الفنون، التي كادت أن تخرج عن الحصر، تآليف لا تحصى. وقال آخر: علومه خمسون علما وأربعمائة علم وسبعة آلاف وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، إذ لكل كلمة ظهر وبطن

وحد ومطلع، ويضم لذلك اعتبار تركيب ما بينها من اللفظ، لكن هذا لا يحصيه إلا المتكلم به. وقال آخر: اشتمل القرآن على كل شيء، كما قال تعالى: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: 38] أما العلوم، فلا تجد مسئلة إلا وهي في القرآن ما يدل عليها. وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى، إلا وتحت الثرى وبدء الخلق وأسماء مشاهير الأنبياء والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة، وشأنه صلى الله عليه وسلم، وغزواته وأخباره إلى مماته، ثم شأن أمته من بعده، وبدء خلق الإنسان إلى مدته، وأمارات الساعة، وجميع أحوال البرزخ، والمحشر والجنة والنار، وفيه كيفية الاحتجاج على طريق أهل الجدل من المتكلمين، وهو مشحون بذلك من الأقيسة والنتائج، بل فيه الإشارات حتى لعلم الهندسة، بل لأشكال ما فيه، وهو الشكل الثلاثي، كقوله تعالى: ﴿ **إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ** ﴾ قال بعض الأئمة: إنما وردت حججه على عادة العرب دون دقائق المتكلمين، كقوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ** ﴾ [ابراهيم: 4] وإن من استطاع أن يفهم غيره بالأوضح الذي فهمه الأكثرون لا ينبغي أن يعمد إلى الأغمط الذي لا يفهمه إلا الأقلون. ومن ثم أخرج تعالى مخاطباته ومحاجاته خلقه في أحلى صورة وأوضحها ليفهم العامة ما ينفعهم، وتلزمهم الحجة بسببه، والخاصة ما يليق بهم من دقائق المعارف التي هي منتهى كل ومبلغ أربه. انتهى. قاله ابن حجر، وهذه العلوم الذي اشتمل عليها القرآن، مع كثرتها ناشئة عن حروف قليلة بالنسبة إليها. روي عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: جميع آي ستة آلاف وستمائة وستة عشر آية. وقال غيره: ستة آلاف وستمائة وستة وستون ألف، منها أمر ونهي. وألف وعد وألف وعيد وألف قصص وأخبار وألف عبر وأمثال. وخمسمائة تبيين الحلال والحرام. ومائة ناسخ ومنسوخ. وستة وستون دعاء واستغفار وأذكار. والذي في مسند الفردوس مرفوعا، عن ابن عباس: أنها ستة آلاف آية، ومائتان آية وست عشرة آية. وعدد كلم القرآن تسعة عشر ألف كلمة، وثلاثمائة كلمة. وقيل غير ذلك. وجميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألف حرف وستمائة حرف وواحد وسبعون حرفا. وهذه الحروف هي مسمى حروف

التهجي. كما قال المصنف: "**أبان**" أي كشف "**عنها الهجاء**" أي التهجي، وهي تعديد الحروف بذكر اسمائها، وهي: أ ب ت إلخ ، فهذه مسميات الحروف وأسماؤها: ألف وباء إلخ. ولذا قال الخليل يوما لبعض أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تنطقوا بالكاف الذي في ذلك والباء الذي في ضرب، فقيل: نقول، كاف باء. فقال: إنما جئتم بالاسم، ولم تنطقوا بالحرف، وقال: أقول، كَفْ بَهْ، أي بهاء السكت للوقف بحروف القرآن من الأول وحروف التهجي من الثاني، قاله ابن حجر. وفي الحديث: <<من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف>> أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن. قال الطيبي رحمه الله: يعني مسمى ميم، مثلا لمات تقدّر أن لفظة ميم اسم لهذا المسمى، فحمل الحرف في هذا الحديث على المذكورات مجازا، لأن المراد منه في مثل ضرب الله مثلا، كل واحد من ضهْ ورهْ وبهْ، وإن أريد بألم مفتتح سورة الفيل، يكون عدد الحسنات ثلاثين، وإن أريد به مفتتح سورة البقرة وشبهها، يبلغ العدد تسعين. انتهى. بنقل السيوطي عنه. وذكر الحافظ أبو عمر الداني، رحمه الله،: أن الحسنات جارية للقارئين على حسب الرسم دون اللفظ. وشنع على من ادعى أن الحسنات إنما هي على الحروف الملفوظة به، ولو لم يكن مرسوما في الكتابة. واستدل أبو عمْر بهذا الأثر، قال: إذ لو كان على اللفظ، لكان لقارئ ألم تِسْعون من حيث كانت حروفه في اللفظ، والتلاوة تسعة وهي في الرسم ثلاثة. واستدل من جهة النظر بأن الحسنات لو ترتبت على الملفوظ به المعدوم في الرسم، لوجب ألا تكون جارية على المعدوم في اللفظ الثابت في الخط، وإذا يلزم ألا يكون للألف واللام اللتين للتعريف في بسم الله الرحمن الرحيم من الحسنات لذهابها في الوصل وذهاب اللام بالإدغام، وكذا كل ما أشبهه، وكذا كل ما زيد من الحروف في الكتابة، كالألف في كفروا وعملوا، والواو في أولائك، فلما أجمع المسلمون على أن لكل حرف من المدغم والساقط من اللفظ والزائد عشر حسنات، وإن لم يكن ملفوظا به، ثبت أن الحسنات إنما تجري على المرسوم. انظر بقية كلامه في شرح الحصن، فإنه عجيب.

* **ولما كانت المعاني التي لا تحصى تستغرق استخراجها من حروف قليلة،**

ضرب لذلك مثلا قريبا، فقال:

195 **فَهْيَ كَالحَبِّ وَالنَّوَى أَعْجَبَ الزُّ رَّاعَ مِــنْهُ سَــنَابِلُ وَزَكَــاءُ**

يعني أن هذه الحروف التي تدل على كلام الله تعالى، وإن كانت قليلة متناهية مع غزارة معانيها، وكثرة أحكامها، وعدم إحصاء عجائبها لا يستبعد منها ذلك. "**فهي كالحب والنوى**" يزرع منها العدد القليل فيأتي ما لا يقدر على إحصائه إلا خالقها، وهذا تثريب، وإلا فشتان ما بينهما، إذ ما يأتي به الحب له أمد معلوم يفنى عن قريب، وهذه المعاني مستمرة النمو والزيادة على مر الأعصار، وتوالي الأزمان في هذه الدار وفي دار القرار، كما يدل عليه الحديث الصحيح، أنه يقال للقارئ في الجنة اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فهذه الحروف كالحب الذي يزرع والنوى الذي يغرس "**أعجب الزراع**" أي والغراس كما يدل عليه ذكر النوى، فهو على حد: سرابيل تقيكم الحر، أي والبرد، وهو من اللف والنشر المرتب. فالزراع راجع للحب، والغراس راجع للنوى، والضمير في منها للزرع والأشجار الناشئة عنهما وفاعل أعجب قوله "**سنابل وزكاء**" فسنابل يرجع للحب وزكاء لهما معا أي صير سنابل تلك الزرع وزيادة إفراده ونمو تلك الأشجار الزراع والغراس متعجبين من حالهما. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

196 **فَأَطَالُــوا فِــيهِ التَّــرَدُّدَ وَالــرَّيْـ ــبَ فَقَالُـوا سِحْرٌ وَقَالُـوا افْتِرَاءُ**

يعني أن الكفار "**أطالوا التردد**" أي التحير والشك في القرآن مع ظهور معجزاته وباهر آياته. "**فقالوا**" هذا "**سحر**" مبين، والسحر تمويه وتخييل لا حقيقة له. وأصله لغة كل ما رق مأخذه ولطف. وقالوا : ﴿ **إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ** ﴾ [الفرقان: 4]. وقالوا ﴿ **مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ** ﴾ أي أكاذيبها، إلى غير ذلك من افترائهم وإعراضهم. وضلوا فيما قالوا ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝** ﴾، ﴿ **لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝** ﴾.

* **وهذا كله من عدم التصديق. فلذلك قال:**

197 **وَإِذَا البَيِّنَاتُ لَمْ تُغْنِ شَيْئًا فَالْتِمَاسُ الهُدَى بِهِنَّ عَنَاءُ**

قد اشتمل القرآن العظيم على حجج واضحة، وبراهين قطعية، ففيها الغَناء والكفاية لمن سبقت له السعادة. فإذا "**لم تغن شيئا**" ولم تفد سامعها، فقد عز الدواء وأعضل الداء، فطلب "**الهُدى**" والشفاء بتلك "**البينات**" حينئذ "**عناء**" أي تعب ومشقة لا فائدة فيها ولا سيما إن كان عنادا وحسدا.

* **كما قال:**

198 **وَإِذَا ضَلَّتِ العُقُولُ عَلَى عِلْـ ـمٍ فَمَاذَا تَقُولُهُ النُّصَحَاءُ**

يعني "**إذا ضلت العقول**" عن طريق الصواب مع علمها بالحق والصواب، فما بقي حينئذ إلا الحسد، ولا دواء له، "**فماذا تقوله النصحاء**" من الأنبياء والرسل. فلا يقبل قولهم حينئذ شيئا، كما قال تعالى:﴿ **وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ** ﴾ [الجاثية: 23] الآية. وليس هذا من التكليف بالمحال، وهو مرفوع، لأن التكليف بذلك إنما هو بالنظر للحالة الراهنة المنطوي عنا عاقبتها، فهم بالنسبة إليها مكلفون بالإيمان لقدرتهم عليه ظاهرا، وإن كانوا عنه عاجزين باطنا، للعلم بأنهم لا يؤمنون، لأن هذا لا نظر إليه وإلا لارتفع الاختيار وثبت القول بالجبر المنابذ لما جاءت به الشرائع، واستحضر قوله تعالى: ﴿ **لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾** ﴾ [الأنبياء: 23]. قاله ابن حجر. و"**على**" هنا بمعنى مع، و"**النصحاء**" هنا الرسل. وقد تكلم في الإحياء على العقل وحاصله: أنه يطلق بالاشتراك على أربعة معان، الأول: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده الحارث المحاسبي حيث قال في حده: إنه غريزة يتهيأ بها درك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء، ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية، فإن الغافل عن العلوم

والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة مع فقد العلوم. وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ للعلوم النظرية. ثم قال: الثاني: مما يطلق عليه العقل، العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حده إنه بعض العلوم الضرورية بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وهو أيضا صحيح في نفسه، لأن هذه العلوم موجودة، وتسميتها عقلا ظاهر. وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة. ويقال لا موجود إلا هذه العلوم. الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حكته التجارب، وهذبته المراتب، يقال إنه عاقل في العادة. ومن لا يتصف بهذه، يقال إنه غبي جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا. الرابع: أن تنتهي قوة هذه الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلا من حيث إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذا أيضا من خواص الإنسان الذي بها يتميز عن سائر الحيوان. فالأول هو الأس والمنبع، والثاني هو الفرع الأقرب إليه. والثالث فرع الأول والثاني، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب. والرابع: هو الثمرة الأخيرة والغاية القصوى، فالأولان بالطبع والأخير بالكسب. والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: <<إذا تقرب الناس بأعمال البر، فتقرب أنت بعقلك>>. وهو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبي الدرداء: <<ازدد عقلا، تزدد من ربك قربا>>. فقال: بأبي أنت وأمي، وكيف لي بذلك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<اجتنب محارم الله تعالى، وأد فرائض الله تعالى، تكن عاقلا، واعمل بالطاعات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة، وتنل بها من ربك عز وجل القرب والعز>>. وعن سعيد بن المسيب، أن عمر وأبي بن كعب وأبا هريرة رضي الله عنهم، دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، من أعلم الناس؟ فقال: <<العاقل>>. قالوا: فمن أعبد الناس؟ قال: <<العاقل>> قالوا: فمن أفضل الناس؟ قال: <<العاقل>>. فقالوا: أليس العاقل من تمت مروءته، وظهرت فصاحته. وجادت كفه وعظمت منزلته. فقال صلى الله عليه وسلم: <<إن كل ذلك لما

متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين، إن العاقل هو المتقي وإن كان في الدنيا خسيسا ذليلا>>. وقال صلى الله عليه وسلم:<<إنما العاقل من آمن بالله وصدق الله ورسوله وعمل بطاعته>>. انتهى. من الإحياء. وهذا آخر الكلام على معجزة القرآن العظيم. وقد ذكر ابن حجر هنا فوائد، الأولى: في وجه تعزيه القرآن العظيم عن الشعر مع كونه أحلى، قال: لأنه لا يخلوا من تمويه، فلذلك قره أيضا عنه رسوله. الثانية: المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82]. الاختلاف في ذاته ونظمه بحيث يكون بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا، كما هو عادة كلام البشر، لاختلاف قولهم وأغراضهم. الثالثة: الإعجاز بالنظم والبلاغة وحسن التأليف، خاص بالقرآن دون سائر الكتب، بخلاف الإخبار بالغيوب، فالكل مشترك فيه. وما وقع في القرآن من الحكاية عنهم، إنما ذلك حكاية لمعنى ألفاظهم. الرابعة: قد تكلم الناس على ما وقع في القرآن من الاختلاف في بعض ألفاظه، كإيراد القصة الواحدة في سور وفواصل مختلفة، كقوله في البقرة ﴿ وَكُلَا ﴾ وفي الأعراف ﴿ فَكُلَا ﴾ [الأعراف: 19] ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ [البقرة: 49] بغير واو، وبالواو في غيرها. وقوله: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: 101] ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الصافات: 27] فيوهم التعارض عند عدم التأمل. قلت: أما اختلاف القصة الواحدة، فقد تقدم قريبا أن ذلك حكاية معنى ألفاظهم لا عينها، فلا يضر، فالمعنى واحد. وقد أجاب ابن عباس رضي الله عنه، عن الآية بكون يوم القيامة ذا ألوان يقع التساءل في موضع وهو عن بعثهم من القبور، ولا يتساءلون يعني في البرزخ. قال ابن حجر: وقيل هو من المتشابه به الذي استأثر الله بعلمه، أو علمه الراسخين في العلم. وقيل: القرآن كله محكم كما في الآية. وقيل: كله متشابه، والأصح:

انقسامه إليهما، والمراد بـ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [هود: 1] أتقنت وتنزهت عن نقص يلحقها، وبـ﴿ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [ال عمران: 7]، أي يشبه بعضها بعضا في الحق والصدق

والإعجاز. ثم المحكم ما علم المراد منه ولو بالتأويل، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كالساعة والحروف المقطعة في أوائل السور.ثم اختلف هل علم أم لا منشأهما، هل الوقف على العلم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [ال عمران: 7] وبه قال مجاهد والضحاك، وهو رواية عن ابن عباس. وقال النووي: أنه الأصح، لأنه يبعد أن يخاطب الناس بما لا سبيل لأحد إلى معرفته. واختاره ابن الحاجب. أو على الله، وعليه الأكثر من الصحابة فمن بعدهم خصوصا أهل السنة وهو أصح الروايات عن ابن عباس. وعد ابن السمعاني اختيار الأول هفوة. وجمع بعضهم بين القولين، بأن المتشابه منه ما يمكن الوقوف عليه، ومنه ما لا يمكن فصح الوقف بهذا الاعتبار. ومن المتشابه آيات الصفات التي فيها ذكر نحو الاستواء واليد والعين، وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على تفويض معناها إلى الله تعالى مع تنزيهه عن ظواهرها. وذهب الخلف إلى تأويلها بما يليق بجلاله تعالى. انتهى بمعناه مختصرا. قلت: أما ذكر اليد والعين، فتأويله قريب، وأما الاستواء فحاصل ما قاله البيضاوي وغيره: أنه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم، وتدبير حكيم، فأبدع الأفلاك العلوية والأجرام السفلية، ثم بعد تمام خلق عالم الملك، أخذ في تدبيره كالملك الجالس على عرشه وسريره لتدبير المملكة، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوين الليالي والأيام، فله الخلق والأمر. وكذا قال في آية السجدة، بعد ذكر الخلق، ثم استوى على العرش يدبر الأمر، فرب الخلائق من هذه صفته لا غيره. انتهى. وقال القشيري في سورة يونس: ثم استوى على العرش، أي توحد بجلال الكبرياء بوصف الملكوت، وملوكنا إذا أرادوا التجلي والظهور للحشم والرعية نزلوا لهم على سرير ملكهم في إيوان مشاهدهم، فأخبر الحق سبحانه بما يقرب من فهم الخلق بما ألقى إليهم من هذه الكلمة بأنه استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية وانفراده بالجبروت، وعلاء الربوبية، وتقديس الجبار عن الأقطار، والمعبود عن الحدود، وقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [يونس: 3] أي الحادثات صادرة عن تقديره حاصلة بتدبيره، فلا شريك يعضده، وما

قضى فلا أحد يرده. انتهى.

* **ثم خاطب اليهود والنصارى وأطال الكلام في إبطال شبهتهم، ورد اعتقادهم بالحجج الواضحة، فقال:**

199 **قَوْمَ عِيسَى عَامَلْتُمْ قَوْمَ مُوسَى بِالَّـذِي عَامَلَـتْكُمْ الحُـنَفَاءُ**

"**قوم عيسى**" هم النصارى. و"**قوم موسى**" هم اليهود. و"**الحنفاء**" هم المسلمون المتبعون للملة الحنفية. أي يا معشر النصارى قد عاملتم اليهود في التصديق بكتابهم مع تكذيبهم بكتابكم بالوجه الذي عاملتكم الحنفاء، فإنهم صدقوا كتابكم، وكذبتم كتابهم.

* **وأشار المصنف إلى هذا البيان فقال:**

200 **صَـدَّقُوا كُتْـبَكُمْ وَكَذَّبْـتُمْ كُـتْـ ـبَهُمْ إِنَّ ذَا لَبِـئْسَ الْـبَوَاءُ**

أي صدّق الحنفاء "**كتبكم**" يا معشر اليهود والنصارى، "**وكذبتم كتبهم**" وهو القرآن، وجمعه لأنه فيه كتب قيمة، لأن هذا الصنيع الذي صنعتم "**لبيس البواء**" أي المرجع الذي انقلبتم به، ويحتمل أن يكون الخطاب للنصارى فقط. ويكون المراد بالكتب الإنجيل، جمعه تعظيما، أي صدّق المسلمون كتابكم لأن الله تعالى أمرهم بذلك، فقال تعالى: ﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ ﴾ [العنكبوت: 46]، وكذبتم كتابهم حيث قلتم ﴿ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أماتنا الله عليها مع السلامة والعافية. آمين.

* **ثم قال:**

201 **لَـوْ جَحَـدْنَا جُحُـودَكُمْ لاسْـتَوَيْنَا أَوْ لِلْحَـقِّ بِالـضَّلاَلِ اسْـتِوَاءُ**

الجحود الإنكار عن علم، أي لو أنكرنا كتبكم كما أنكرتم كتبنا، "**لاستوينا**" معكم في الضلال، فكيف يتصور هذا، وقد جاءنا الحق من ربنا، فأجبنا واتبعنا، وإذا جاء الحق زهق الباطل، أو يتصور الحق الذي بعد الضلال "**استواء**" لا، ﴿ **هَلۡ يَسۡتَوِى**

ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

202 **مَـا لَكُـمْ إِخْـوَةَ الكِـتَابِ أُنَاسًـا لَيْسَ يُرْعَـى لِلْحَـقِّ مِـنْكُمْ إِخَاءُ**

المراد ب"**إخوة الكتاب**" اليهود والنصارى، وجعلهم إخوة لمشاركتهم في أصل التكليف كاشتراك الإخوة في الأصل الواحد، أي ما لكم يا معشر الفريقين حال كونكم "**أناسا ليس يراعى للحق منكم إخاء**"، أي ما لكم لا تراعون الحق ولا تتبعونه بل تنبتونه وراءكم ظهريا لا تجعلون بينكم وبينه مودة ولا إخاء ولو اتبعتم الحق ورعيتموه لآمنتم بنبينا محمد صلى عليه وسلم، لأنه موصوف في التوراة والإنجيل بصفته واسمه واسم بلده ومهاجره. ولكن ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ ﴾ نسأل الله العافية وحسن الواقية. فقوله له إخاء نائب فاعل يرعى، ويجوز أن يكون اسم ليس والنائب ضميره. والله تعالى أعلم.

* **ثم بين سبب إنكارهم الحق بعد ظهوره، وهو الحسد، فقال:**

203 **يَحْـسُدُ الأَوَّلُ الأَخِيـرَ وَمَـا زَا لَ كَـذَا المُحْدَثُـونَ وَالقُـدَمَاءُ**

هذه الجملة معطوفة على جملة "**ليس يرعى**" وهما صفتان "**لأناس**" والرابط محذوف، أي ما لكم أناسا يحسد أولكم أخيركم، كما وقع لليهود، فإنهم حسدوا عيسى صلى الله عليه وسلم حتى زعموا أنهم قتلوه وصلبوه، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ ﴾، بل رفعه الله إليه، لينزل آخر الزمان حاكما بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، مصليا وراء المهدي. أول نزوله ليعلم أنه نزل تابعا لهذه الأمة، عاملا بشريعة نبيهم، فيقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل غير الإسلام تكذيبا لهم. وقوله "**وما زال**" إلخ. أي ما زال هكذا أي حسد الأول للآخر. "**المحدثون**" أي الحادثون في الوجود "**والقدماء**" أي المتقدمون من لدن آدم إلى اليوم.

* **ثم ذكر من وقع منهم الحسد ممن تقدم عليهم أنواعا، فقال:**

204 **قَـدْ عَلِمْـتُمْ بِظُـلْمِ قَابِـيلَ هَـابِـ ـلَ وَمَظْلُـومُ الإِخْـوَةِ الأَتْقِـيَاءُ**

205 **وَسَـمِعْتُمْ بِكَـيْدِ أَبْـنَاءِ يَعْقُـو بَ أَخَـاهُمْ وَكُلُّـهُمْ صُـلَحَاءُ**

206 **حِـينَ أَلْقَـوْهُ فِـي غَـيَابَةِ جُـبٍّ وَرَمَـوْهُ بِالإِفْـكِ وَهْـوَ بَـرَاءُ**

أي "**قد علمتم**" يا معشر أهل الكتاب "**ظلم قابيل**" أكبر ولد آدم لأخيه "**هابيل**" وذلك أن آدم عليه السلام كان يولد له من حواء توءم ذكر وأنثى، فأوحى الله إليه أن يزوج كل واحد منهما توءم الآخر، فسخط منه قابيل، لأن توءمه كانت أجمل، فقال لهما آدم: قربا قربانا، فمن أيكما قبل تزوجها، وكان قابيل صاحب زرع فأتى بإردب قمح، وكان هابيل صاحب ضرع فأتى بجمل مشوي. فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت زرع قابيل، فازداد قابيل غيظا فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه. قيل: لم يمت آدم حتى بلغ أولاده أربعين ألفا. قاله ابن حجر. "**ومظلوم الإخوة الأتقياء**" لأنهم الذين يصبرون على الأذى. أشار لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ في القصة المتقدمة. فالإضافة على معنى من، وأي بلفظ الجمع لأنه ليس خاصا بقابيل وهابيل بل هو عام في كل حاسد ومحسود. "**وسمعتم**" أيضا "**بكيد**" أولاد "**يعقوب**" المسمى في القرآن بإسرائيل، أي عبد الله، "**أخاهم**" يوسف عليه الصلاة والسلام "**حين ألقوه في غيابات الجب**" والجب البير الذي يطوى وغيابته قعره، وكادوه بذلك خوفا من تقدمه عليهم، مع كونه أصغرهم، الذي أنبأت به رؤياه، إذ الأحد عشر كوكبا مثال لهم، لأنهم أحد عشر. والشمس والقمر أبوه وخالته، وسجود الكل له دخولهم تحت حكمه وطاعته. وكان الأمر كذلك، كما في آخر السورة، فإنهم لما جاءوا إليه خروا له سجدا، وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا. وقد شرح الله سبحانه قصتهم وساقها على أسلوب عجيب لم يسبق عليها غيرها من القصص، فلذلك صدرها بقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾. قال ابن حجر: واعلم أن واقعة يوسف عليه السلام واقعة عجيبة تشتمل على عجائب وغرائب وحكم

وأحكام وأمثال وذل وانخفاض، وعلو وارتفاع، وعلى حسن عاقبة الصبر، وخيبة عاقبة الحسد، وعلى نصر الحق وإن لم يكن له أنصار، وخذلان المبطل وإن كان أنصاره الوزراء والملوك. وعلى أن التباغض والتحاسد بين الإخوة أمر قديم. انتهى. ولا يقدح ما وقع منهم في نبوتهم التي صرحت بها الآية بقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ [البقرة: 136] لأن ما وقع منهم كان قبل النبوة. أو بتأويل في شرعهم. والله تعالى أعلم. وقوله "**ورموه بالإفك**" أي حيث قالوا: ﴿ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾ [يوسف: 77] يريدون يوسف عليه السلام "**وهو براء**" أي بريء منه، وفي تسميته إفكا نظرا. فقد روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ ﴾، قال: سرق يوسف عليه السلام صنما لجده لأمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه على الطريق. فعيره إخوته بذلك. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: سرقته التي عابوه بها أخذ صنما كان لأبي أمه، وإنما أراد بذلك الخير. انتهى. والحاصل: أنه وقع منه صورة سرقة فعيروه بذلك فهم لم يتعمدوا الكذب، وإنما الذي وقعوا فيه أنهم عيروه بما لا عار فيه، بل فيه غاية الرفعة والمدحة. والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

*** وإذا علمتم معشر المسلمين ما وقع لمن قبلكم من الشدائد والمحن فتأسوا بهم واصبروا كما قال المصنف:**

207 **فَتَأَسَّوْا بِمَنْ مَضَى إِذْ ظُلِمْتُمْ فَالتَّأَسِّي لِلنَّفْسِ فِيهِ عَزَاءُ**

التأسي هو الاقتداء والمتابعة، يقال تأسيت بفلان، أي اقتديت به، أي حملت حالي على حاله، ففي التأسي تسكين النفس على الأمر الشاق وتصبرها عليه. والتعزي الحمل على الصبر بوعد الأجر، أي اقتدوا بمن مضى قبلهم من الكمل إذ ظلمتم، أي وقت ظلمكم. أو لأجل ظلمكم بما يلحقكم، فمن حسدكم من الكفار من العداوة والبغض ونصب القتال، فالتأسي عند المصائب لا سيما بالكمل، للنفس فيه عزاء، أي تسل وتصبر بحملها على ألا يصدر منها إلا كمل الأخلاق والإعراض عن ما يصدر من

أهل الشقاق والنفاق.

*** ثم رجع للرد على أهل الكتاب من اليهود في نقضهم العهد الذي أخذه الله عليهم من تبيين صفاته صلى الله عليه وسلم، فقال:**

208 **أَتُــرَاكُمْ وَفَّيْــتُمْ حِـينَ خَانُــوا أَمْ تُــرَاكُمْ أَحْــسَنْتُمْ إِذْ أَسَــاءُوا**

فالخطاب للمسلمين. والفاعل بِترى، أهل الكتاب، أي: أتظنكم أهل الكتاب وفّيتم بما عاهدتم الله عليه، فأظهرتم الحق ودمتم على العمل به، "**حين خانوا**" ظرف "**لوفيتم**" أي: حين خانوا ما عاهدوا الله عليه فكتموا الحق وأبوا قبوله من غيرهم. "**أم**" متصلة معادلة للهمزة قبلها، أي: "**أم تُراكم**" أهل الكتاب "**أحسنتم**" في اتباع نبيكم صلى الله عليه وسلم ودوام العمل بما جاء به، فلم يبدلوا ولم يغيروا شيئا بعد وفاته، "**إذ أساءوا**" أي: حين أساءوا فبدلوا وحرفوا شريعتهم وكتبوا بأيديهم وقالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا.

*** ثم ذكر جواب الاستفهام فقال:**

209 **بَلْ تَمَادَتْ عَلَى التَّجَاهُلِ آبَا ءُ تَقَفَّــتْ آثَارَهَــا الأَبْــنَاءُ**

أي "**بل**" لا يرون شيئا من ذلك وإنما "**تمادت**" أي استمرت "**على التجاهل**" أي إنكار الحق بعد معرفته أو الجهل الموجب لرفض الحق واتباع الباطل. "**تقفت**"، أي تبعت "**آثارها**" أي طرقها الباطلة، "**الأبناء**" فقالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون،

*** مع أن كتابهم ناطق بذلك كما قال:**

210 **بَيَّنَــتْهُ تَــوْرَاتُهُمْ والأَنَاجِــيـ ـلُ وَهُمْ فِي جُحُودِهم شُرَكَاءُ**

"**بينته**" أي بينت الحق الذي جهلوه، ومن جملته نبوة **محمد** صلى الله عليه وسلم ورسالته. "**توراتهم**" مشتق من الورى، وهو إخراج النار من الزند، لما فيها من النور والضياء، لقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ**

﴿٨٨﴾. و"**بينته**" أيضا "**الأناجيل**" المنزلة على عيسى عليه السلام، مشتق من النجل وهو الإخراج، ومنه سمي الولد نجلا، لأنه خرج من العدم إلى الوجود، فكذلك الإنجيل، لأن الله أخرجه من علم الغيب إلى الشهادة. وهذا البيان الذي ذكره مقتبس من قوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ** ﴾ [الأعراف: 157] الآية. وهذا من أعظم الأدلة على نبوته وعموم رسالته. وعلى أنه صلى الله عليه وسلم على البينة الواضحة من أمره، لأنه صرح بذلك على رءوس أهل الكتابين، ولم يخش أن أحدا منهم يقول: ليس ذلك في كتابنا، ولم يقدر أحد منهم يقول ذلك، مع حرصهم على التعنت والعناد، وإنما كان تخلفهم عن اتباعه لمحض العناد والحسد. قال تعالى: ﴿ **يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ** ﴾ [البقرة: 146] وقال جل من قائل: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ**﴾، وقال تعالى حاكيا عن عيسى عليه السلام: ﴿ **وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ** ﴾ [الصف: 6]، وقال: ﴿ **فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ** ﴾ [البقرة: 89] يعني اليهود، إلى غير ذلك من الآيات. وأخرج ابن عساكر، أن عبد الله بن سلام لما سمع مخرج النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ذهب إليه، فقال له صلى الله عليه وسلم: أنت أبو سلام عالم يثرب. قال: نعم، فقال له صلى الله عليه وسلم: أنشدك الله بالذي أنزل التوراة على موسى، أتجدني موصوفا في التوراة. قال: انسب ربك. فارتج النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له جبريل: ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾** ﴾ إلى آخرها. فقرأها، فقال ابن سلام: أشهد أنك رسول الله، وأن الله سيظهرك، ويظهر دينك على الأديان، وإني لأجد صفتك في كتاب الله تعالى، أي التوراة، يا أيها النبيء إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفوا ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، حتى يقولوا لا إله إلا الله، يفتح الله به أعينا عميا، وقلوبا غلفا وآذانا صما. انتهى. قلت: وربما يعضد هذا

الأثر، وإن كان ضعيفا آية الأحقاف: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فإن السورة مكية، وهذا الوصف أيضا نقله عن التوراة عبد الله بن عمرو بن العاص، كما في الصحيح. وفي التوراة: تجلى الله من طور سيناء، أي تكليمه موسى، وأشرق على ساعير، أي بتكليمه عيسى، واستعْلن من جبل فاران، أي جبل بني هاشم، أي المطِلّ على شِعبهم بمكة بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم لجميع الخلق، كما يشير إليه تعبيره باسْتعْلن، وفي الإنجيل مثل ذلك، وانظر ابن جزي في سورة الأعراف، وقوله: "**وهم في جحودهم شركاء**" يعني أن اليهود والنصارى مشتركون في الجحود، وهو الإنكار بعد العلم، ومشتركون في اللعنة والغضب.

*** ثم فرض الكلام على سبيل البحث، فقال:**

211 **أَنْ تَقُولُـوا مَـا بَيَّنَـتْهُ فَمَـا زَا ... لَـتْ بِهَا عَـنْ عُـيُونِهِمْ غَـشْوَاءُ**

212 **أَوْ تَقُولُـوا قَـدْ بَيَّنَـتْهُ فَمَـا لِـلأُ ... ذْنِ عَمَّـا تَقُـولُهُ صَـمَّاءُ**

أي "**أن تقولوا**" يا أهل الكتاب، إن كتبكم "**ما بينته**" أي الحق الذي هو صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنكرتم ذلك، "**فما زالت**" أي لم تزل "**بها**" أي بكتبكم كالتوراة والإنجيل "**عن عيونهم غشواء**" بالمعجمة، أي غشوة وظلمة مانعة لهم عن إبصارهم الحق، أو بالمهملة، أي عمى، من قولهم: ركب فلان العشوا، إذا كان خبط في أمره على غير بصيرة. ويقال: ركب متن عميا، وخبَط خبْط عشوا، وهي الناقة التي لا تبصر ليلا، فهي تخبط بيدها كل شيء، والمعنى: أنكم يا أهل الكتاب، إن أنكرتم الحق الذي في كتبكم، وكتمتموه، فأنتم حينئذ لم تنفعكم كتبكم، ولم يزل بها عن عيونكم الغشاوة والعمى، فأنتم كما قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾. "**أو تقولوا قد بينته**" الحق المذكور، وأقررتم الصواب "**فما للأذن**" أي فأي شيء حصل لآلة سمعكم حتى أنها "**عما تقوله**"، أي كتبكم التي هي التوراة والأناجيل "**صماء**" أي غير سامعة له سماع قبول، فلا موجب للإعراض عن ذلك إلا محض العناد والحسد،

*** فقد عرفتم الحق وأنكرتموه، كما قال الناظم:**

213 **عَــرَفُوهُ وَأَنْكَــرُوهُ وَظُلْمًــا كَتَمَــتْهُ الــشَّهَادَةَ الــشُّهَدَاءُ**

يعني أنهم عرفوا الحق المذكور من صفته صلى الله عليه وسلم ونعته كما يعرفون أبناءهم، "**وأنكروه ظلما**" وعدوانا، ﴿ **وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ [النمل: 14]. وكما قال تعالى عنهم:﴿ **لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ فقد كتموا الشهادة، وخانوا الأمانة، فلذلك قال "**كتمته الشهادة الشهداء**" وهم أهل الكتابين، لأنهم عرفوا صفة النبي صلى الله عليه وسلم، وحقيقة دينه معرفة قطعية، ثم أنكروا ذلك حسدا وعنادا ومباهتة وتلبيسا على ضعف بهم. والنكتة في إظهار الفاعل. وكان مقتضى الظاهر أن يقول كتموا الشهادة، هو التسجيل عليهم بكتمان الحق بعد بلوغه مبلغ رؤية الشمس، كما يفيده الحديث الصحيح على مثل هذه، أي الشمس فاشهد، فقد بلغ العلم عندهم بصفته صلى الله عليه وسلم وحقيقة دينه وظهور أمره مبلغ طلوع الشمس وظهورها، ولكن من يضلل فلا هادي له، نسأله سبحانه الهداية والتوفيق، والتسديد إلى سواء الطريق، بمنه وكرمه، وبمحمد نبيه.

*** وقد تكفل الله سبحانه بإظهار دينه واستضاء نوره، فلا قدرة لأحد على إطفائه وإخماده، كما قال الناظم:**

214 **أَوَ نُــورُ الإِلَــهِ تُطْفِــئُهُ الأَفْــ ــوَاهُ وَهْــوَ الَّــذِي بِــهِ يَسْتَــضَاءُ**

"**نور الإله**" هو ما جاءت به الرسل من الأديان الصحيحة، والشرائع المطهرة، وأعظمهم في ذلك، ما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من النور المبين والحق المتين، فلا يقدر أحد على إطفائه. وقد أراد الله إظهاره ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ** ﴾ ومعنى كلامه: تكتمون الحق وتظهرون الضلالة وتعتقدون أن "**نور الإله**" الذي هو النبوة والرسالة "**تطفئه الأفواه**"، أي تخمده الألسنة المتقولة بالباطل، لا يكون ذلك، ﴿ **وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾ [التوبة: 32]

وكيف يمكن إطفاؤه "**وهو الذي به يستضاء**" ظاهرا وباطنا، أي يبصر الحق من الباطل، والصادق من الكاذب. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾ الآية.

* **ثم استبعد منهم التصديق لنبينا صلى الله عليه وسلم لأنه حاربهم وأجلاهم من بلادهم، وقتل منهم من شاء، فقال:**

215 **أَوَ لاَ يُنْكِرُونَ مَنْ طَحَنَتْهُمْ بِرَحَاهَا عَنْ أَمْرِهِ الهَيْجَاءُ**

216 **وَكَسَاهُمْ ثَوْبَ الصَّغَارِ وَقَدْ طُـ ـلَّتْ دِماء مِنْهُمُ وَصِينَتْ دِمَاءُ**

أي أيمكنهم أن يعترفوا برسالته صلى الله عليه وسلم، ف"**لا ينكرون**" رسالة "**من طحنتهم**" أي أهلكتهم "**برحاها**" أي أسلحتها، عن أمره صلى الله عليه وسلم، "**الهيجاء**" أي الحرب يعني أنه صلى الله عليه وسلم قد أهلك أجدادهم وآباءهم وطحنهم برحا حربه، فخلا بني النضير إلى الشام، وقتل بني قريظة على حديدة واحدة، وألبسهم أي "**كساهم ثوب الصغار**"، أي الذل والخزي بضرب الجزية على من بقي منهم، "**وقد طُلَّت**" أي هدرت دماءهم لبني قريظة، "**وصينت دماء**" منهم كبني النضير وأهل خيبر، فلأجل هذه العداوة السابقة، أنكروا رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم. وما شرح به ابن حجر إنما يتأتى على زيادة لا وهو قليل. والله تعالى أعلم.

* **ثم استغرب هدايتهم مع تمكن العداوة والبغضاء في قلوبهم لحبيب رب العالمين، وسيد ولد آدم أجمعين، بقوله:**

217 **كَيْفَ يَهْدِي الإِلَهُ مِنْهُمْ قُلُوبًا حَشْوُهَا مِنْ حَبِيبِهِ البَغْضَاءُ**

أي "**كيف يهدي الإله**" المعبود بالحق "**منهم قلوبا حشوها**" أي ملئها "**من حبيبه**"، و"من" بمعنى اللام، يتعلق به بمن بقوله "**البغضاء**" ملأها البغضاء لحبيبه صلى الله عليه وسلم. وقد قال صلى الله عليه وسلم: <<يتفاوت الناس في الإيمان على قدر تفاوتهم في محبتي، ويتفاوتون في الكفر على قدر تفاوتهم في بغضي، ألا لا

إيمان لمن لا محبة له>> قالها ثلاثا. حسبما ذكره في الدليل. أماتنا الله على عظيم محبته، وجمعنا معه في دار كرامته آمين.

* **ثم شرع يوبخهم على اعتقادهم الفاسد، فقال:**

218 **خَبِّـرُونَا أَهْـلَ الكِتَابَـيْنِ مِـنْ أَيْـ ـــنَ أَتَـاكُمْ تَثْلِيـثُكُمْ وَالـبَدَاءُ**

أي أعلمونا يا "**أهل الكتابين**" التوراة والإنجيل، "**أين أتاكم تثليثكم**" أي ادعاؤكم معشر النصارى أن الله ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس. والاستفهام إنكاري. ومن أين لكم يا معشر اليهود "**البداء**" أي ادعاؤكم البداء، أي الظهور بعد الخفاء، من بدا إذا ظهر، وهو ظهور مصلحة بعد خفائها، وبنوا على قولهم الفاسد امتناع نسخ الشرائع. وسيأتي الرد عليهم، أي لم يأتكم على دعواكم دليل صحيح، بل محض سفهكم وعنادكم.

تنبيه: البداء بالمد، اسم لا مصدر، قال التبريزي: هو بالمد من قولهم بداء في الأمر، أي تغير رأي فيه عما كان. وقال السهيلي: الاسم البدا، ولا يقال في المصدر البدو، لأن البدو الظهور. والبدو في وصف الباري سبحانه وتعالى محال، لأنه لا يبدوا عنه شيء كان غائبا. ويجيء بدا بمعنى أراد كما في حديث أبرص وأعمى وأقرع بدا الله أن يبتليهم، أي أراد ذلك. واعلم أن اليهود لم يقولوا بالبدا كما هو ظاهر كلام الشيخ، بل هم متفقون على استحالته تعالى عنه، وإنما ألزموا من يقول بنسخ الشرائع والأحكام أن يتصف الباري بالبداء، وهو محال. والجواب عن شبهتهم أن النسخ انتهاء التكليف بذلك الحكم، وابتداء التكليف بآخر على وفق علمه تعالى وما سبق في أزله، فكل شريعة، وكل حكم، قد سبق في علمه وقت انتهاء التكليف به، وابتداء التكليف بحكم آخر.

* **وما اعتقده أهل الكتابين، دعوى لا دليل عليها، فلذلك قال الشيخ رحمه الله:**

219 **مَـا أَتَـى بِالْعَقِيدَتَـيْنِ كِـتَابٌ وَاعْـتِقَادٌ لاَ نَـصَّ فِـيهِ ادِّعَـاءُ**

220 **وَالدَّعَاوَى مَا لَمْ تُقِيمُوا عَلَيْهَا بَيِّنَاتٍ أَبْنَاؤُهَا أَدْعِيَاءُ**

أي لم يأت "**بالعقيدتين**" اللتين اعتقدتم من التثليث، والبداء "**كتاب**" من الله تعالى يشهد لكم، "**واعتقاد**" وهو حكم الظاهر الجازم، فصحيح إن طابق ما في نفس الأمر كاعتقادنا فعلم، وإلا فاعتقاد باطل، وجهل مركب، "**واعتقاد لا نص فيه**"، أي في إثباته "**ادعاء**" أي دعوى باطلة، واختراع في الدين بمجرد التشهي، والنص ما لا يحتمل لفظه غير معنى واحد، وكالنص حكم العقل القطعي. فالاعتقاد المستند إليه صحيح، وإن لم يرد فيه نص، بل لو ورد النص بخلافه وجب تأويل النص إليه، كآيات الصفات وأحاديثها، إذ ظاهرها محال على الله عقلا، فوجب صرفها عنه بتأويلها بما يوافق العقل، كما هو مقرر في محله، وإذا كان الاعتقاد الذي لا نص فيه دعوى، "**فالدعاوى**" التي تقولتموها "**ما لم تقيموا عليها**"، أي مدة كونكم لم تقيموا عليها "**بينات**" أي أدلة قطعية، "**أبناؤها**" أي نتائجها "**أدعياء**" فاسدة، والأدعياء جمع دعي، وهو في الأصل من ينسب إلى شخص بالكذب، ومن يتبناه الإنسان وليس بابن له. شبّه دعاويهم بوطء الزنى، بجامع الفساد وما ينشأ عنها من الاعتقاد الفاسد بالادعاء، وهذه استعارة بالكناية، ثم خيل بذكر الأدعياء. وفي النظم القياس الاقتراني من الشكل الأول، ونظمُه الاعتقاد الذي لا نص فيه دعوى. وكل دعوى لا بينة عليها باطلة، فالنتيجة: الاعتقاد الذي لا نص فيه باطل.

تنبيه: فِرَق النصارى ثلاثة، نسطورية ويعقوبية وملكانية، ولكل فرقة اعتقاد معروف، وقد أشار الناظم رحمه الله إلى البحث مع الكل، والرد عليهم جميعا، وأكثر الكلام مع القائلين بالتثليث، لأنهم أكثر وأشد كفرا، ولذلك خصوا بالذكر في قوله تعالى : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ الآية.

*** فأشار الناظم إلى الكلام معهم، فقال:**

221 **لَيْتَ شِعْرِي ذِكْرُ الثَّلاثَةِ وَالوَا حِدِ نَقْصٌ فِي عَدِّكُمْ أَوْ نَمَاءُ**

أي "**ليت**" علمي حاصل بما تقولون، أي ليتني علمت لما تقولونه انضباط حتى

أتكلم معكم بأبلغ مما هنا، هل "**ذكر الثلاثة**" الصادر منكم تارة حيث قلتم إن الله ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس. وذكر "**الواحد**" الصادر منكم تارة أخرى، حيث ادعيتم توحيده "**نقص في عدكم أو نماء**" أي زيادة، فحيث ذكرتم التثليث كان ذكركم الواحد نقصا، وحيث ذكرتم الواحد كان ذكركم التثليث زيادة، وهذا تناقض شنيع لا يصدر عن عاقل، لأنكم تثبتون التثليت وتعدد الإله، وتارة تثبتون عدم تعدده،

* **ولذلك قال متعجبا منهم:**

222 **كَيْفَ وَحَّدْتُمْ إِلَهًا نَفَى التَّوْ حِيدُ عَنْهُ الآبَاءُ والأَبْنَاءُ**

223 **الإِلَهُ مُرَكَّبٌ مَا سَمِعْنَا بِإِلَاهٍ لِذَاتِهِ أَجْزَاءُ**

أي "**كيف وحدتم**" أيها القائلون بالتثليت "**إلها نفى التوحيد عنه الآباء والأبناء**" كيف يمكنكم التوحيد وقد قلدتم آباءكم وأجدادكم في دعوى التثليت، أيوجد "**إله مركب**" من ثلاثة أجزاء أو أقل أو أكثر؟ "**ما سمعنا بإله لذاته أجزاء**"، أي لا وجود له ولا يتعقل إمكانه لما يلزم عليه من العجز والحدوث، كما يدل عليه برهان التمانع المذكور بقوله تعالى:﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾.

* **وبيان إحالة العقل لما ذكرناه، أنه لو فرض أنه مركب من أجزاء لقيل لهم:**

224 **أَلِكُلٍّ مِنْهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلْـ ـكِ فَهَلا تَمَيَّزَ الأَنْصِبَاءُ**

أي "**ألكل**" واحد "**منهم**" جزء "**من الملك**" يمكن قسمته، "**فهلا**" حرف تحضيض وتقريع، "**تميز**" بالبناء للفاعل والمفعول، "**الأنصباء**" جمع نصيب، أي "**فهلا تميز**" نصيب كل واحد من الآلهة حتى يكون دليلا على ما ادعيتم، ولا تميز، فلا تعدد كما هو بديهي. فإن قالوا لكل نصيب، ولكن خلطوها،

* **قيل لهم:**

225 **أَتَرَاهُمْ لِحَاجَةٍ وَاضْطِرَارٍ خَلَطُوهَا وَمَا بَغَى الخُلَطَاءُ**

"**أتراهم**" أي أتظنونهم يا معشر النصارى خلطوا تلك الأنصباء لأجل "**الحاجة**

والاضطرار". والاضطرار: شدة الحاجة بحيث لا يجد مندوحة عنه. فإن قالوا: نعم، قلنا لهم: الإله لا يحتاج ولا يضطر لشيء مطلقا، بل هو الغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه، فإن قالوا: خلطوها لا لحاجة ولا اضطرار، قلنا لهم: أيوجد شريكان فأكثر دائما شركتهم، والحال أنه "**ما بغى الخلطاء**" بعضهم على بعض، بل الغالب عليهم البغي والتعدي، لا سيما الملوك والأكابر، ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ وبرهان التمانع مذكور في علم الكلام، فلا نطيل به.

* **ثم بين بطلان التعدد من وجه آخر، وهو أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يركب الحمار بالتواتر، فيقال لهم:**

226 **أَهُوَ الرَّاكِبُ الحِمَارِ فَيَا عَجْـ ـــزَ إِلَـــهٍ يَمَـــسُّهُ الإِعْـــيَاءُ**

أي أتقولون في حال ركوب عيسى الحمار "**هو**" أي الإله "**الراكب الحمار**"، فإن قلتم: إنه هو الراكب، فركوبه يستدعي حدوثه ونصبه، وهو يستدعي عجزه، والإله لا يكون عاجزا ولا حادثا، وما زعمتموه يلزمه عجزه وحدوثه، وحينئذ "**فيا عجز إله**". هذا تعجب من دعواهم المستلزمة لذلك، أي ما أعجز إلاها "**يمسه الإعياء**"، أي النصب.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

227 **أَمْ جَمِيعٌ عَلَى الحِمَارِ لَقَدْ جَـ ـــلَّ حِمَـــارٌ بِجَمْعِـــهِمْ مَـــشَّاءُ**

"**أم**" عاطفة متصلة، أي أهو الراكب وحده، "**أم جميع**" الآلهة الثلاثة التي زعمتم أنهم آلهة راكبون "**على الحمار**". فيقال لكم: "**لقد جل**"، أي عظم وقوي، "**حمار بجمعهم**"، أي الآلهة، "**بجمعهم مشاء**"، أي كثير المشي. وما أقبح إلها يحتاج إلى أن يمشي به حمار، فالجملة خبرية، وهي تفيد التعجب بما يترتب على ما فيها. وإن قالوا: الراكب على الحمار ليس هو الإله، وإنما هو عيسى عليه السلام

وحده،

*** فيقال لهم ما أشار إليه:**

228 **أَمْ سِوَاهُمْ هو الإِلَـهُ فَمَا نِسْـ ـبَةُ عِيسَى إِلَيْهِ وَالانْـتِمَاءُ**

أي "**أم**" سوى الثلاثة الذين على الحمار "**هو الإله**"، وأما الراكب فإنما هو عيسى، فيقال لهم: "**فما نسبة عيسى إليه والانتماء**" أي الانتساب، أي خبروني عن انتماء عيسى وانتسابه إليه، هل هو ابن الله، أو ثالث ثلاثة ؟ أم هو الإله كما زعمتم، تعالى الله عن قولكم علوا كبيرا. وهذه المقالات كلها صدرت عنهم. قال تعالى: ﴿ **وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ** ﴾ [التوبة: 30] ﴿ **لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ** ﴾ [المائدة: 73]. ﴿ **لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ** ﴾ وإن قالوا إنما هي صفات قامت بعيسى عليه السلام،

*** فيقال لهم ما أشار إليه الناظم بقوله:**

229 **أَمْ أَرَدْتُمْ بِهَا الصِّفَاتِ فَلِمَ خُـ ـصَّتْ ثُلاَثٌ بِوصْفِهِ وَثُنَاءُ**

أي "**أم أردتم بها**" أي فبالثلاثة التي زعمتم بأنها آلهة "**الصفات**" أي المعاني الزائدة على الذات، ولعله يشير إلى قولهم الفاسد، بأن عيسى مركب من ثلاثة أقانيم، أقنوم العلم، وأقنوم الحياة، وأقنوم الذات. وبعضهم زعم أنه مركب من الناسوت واللاهوت، فيقال لهم في الجواب: "**لم خصت ثلاث**" صرفه للوزن، ولم خصت أيضا بأنها "**ثناء**" أي اثنين اثنين، والمراد هنا ليس ذلك التكرار، بل نفس الثلاثة، والاثنين فقط، أي فلم حصرتم أوصاف الآلهة في ثلاثة فقط أو اثنين مع أنها قابلة لأكثر من ذلك، فادعاء التثليث تحكم صرف، وهو لا يقول به عاقل، وإن رجعتم من هذه المقالة، وقلتم إن عيسى عليه السلام هو ابن الله،

*** فيقال لهم ما أشار إليه بقوله بعد تصوير دعواهم:**

230 **أَمْ هُوَ ابْنُ الإِلَـهِ مَا شَارَكَتْهُ فِي مَعَانِي البُنُوَّةِ الأَنْبِيَاءُ**

أي "**أم هو**" أي عيسى عليه السلام "**ابن الإله**" اختص بذلك من بين الأنبياء، ف"**ما شاركته في معاني البنوة الأنبياء**"، فيقال لهم الابن لا بد أن يكون من جنس أبيه، ويقوم به من الأوصاف ما قام بأبيه، فيكون قديما، باقيا، لا يلحقه تغير ولا فناء.

*** وقد زعمتم أن اليهود قتلته، كما أشار إليه بقوله:**

231 **قَتَلَتْهُ اليَهُودُ فِيمَا زَعَمْتُمْ وَلأَمْوَاتِكُمْ بِهِ إِحْيَاءُ**

يعني أن عيسى عليه السلام، قد زعمت النصارى أن اليهود قتلته، فكيف يمكنهم أن يقولوا هو ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وأصل الزعم قول كذب، ولذلك قالت العرب: زعموا مطية الكذب، وقد يستعمل بمعنى قال، مجردا عن التكذيب، لقول أم هاني للنبي صلى الله عليه وسلم: زعم ابن أمي، أي علي كرم الله وجهه، أنه قاتل فلانا، قد أجرته. فقال صلى الله عليه وسلم: <<قد أجرنا من أجرت يا أم هاني>>. أي "**قتلته اليهود فيما زعمتم**" يا معشر النصارى، والحال أنه، أي عيسى عليه السلام، "**لأمواتكم به إحياء**" بكسر الهمزة، وهو رد الروح للجسد بعد مفارقتها له، لأنه كان فيكم يحيي الموتى، وكيف يحيي الموتى ويتمكن منه من يقتله. فتصديقكم لليهود في ذلك شاهد صدق على سماجة عقولكم وتناقض قولكم، حيث قلتم إنه إله، أو ابن الله، يحيي الموتى، ثم صدقتم اليهود في قتله،

*** فهذا إلا هذيان كما قال الناظم:**

232 **إِنَّ قَوْلاً أَطْلَقْتُمُوهُ عَلَى اللـ ـهِ تَعَالَى ذِكْرًا لَقَوْلٌ هُذَاءُ**

ألا "**إن قولا**" صدر منكم و"**أطلقتموه على الله**" كقولكم في التثليث والحلول وغيره، "**تعالى**" الله عن قولكم علوا كبيرا، وتنزه ذكره من سمة النقص والحدوث. "**هُذَاءُ**" أي خطأ صراح، من هذأ في كلامه، أي أكثر الخطأ فيه، ومنه الهذيان لما يقوله النائم في حلمه، لأنه غالب الخطأ. وفي بعض النسخ بالزاي، أي مهزؤا به و"**ذكرا**" منصوب على التمييز، أي تعاظم ذكره، وجل ثناؤه.

*** ثم شبه مقالة النصارى الفاسدة بمقالة اليهود الباطلة، وأطال الكلام في**

الرد عليهم، فقال:

233 **مِـثْلُ مَـا قَالَـتِ الـيَهُودُ وَكُـلٌّ   لَـــزِمَتْهُ مَقَالَـــةٌ شَـــنْعَاءُ**

يعني مقالة النصارى الفاسدة، هي مثل مقالة اليهود من البداء، واستحالة النسخ وغيره،"**وكل**" من الفريقين "**لزمته مقالة شنعاء**" أي قبيحة شنيعة يمجها السمع والطبع. والتشبيه من حيث مطلق الكفر، وإن تباين تفصيل كل من القائلين. و"**مثل**" يصح نصبه على الحال، أو على النعت لمصدر محذوف، ويصح رفعه على الخبرية لمبتدأ محذوف.

* **ثم بين مقالة اليهود الفاسدة، فقال:**

234 **إِذْ هُـمُ اسْـتَقْرَءُوا البَدَاءَ وَكَمْ سَا   قَ وَبَـــالاً إِلَـــيْهِ اسْـــتِقْرَاءُ**

يعني، أن اليهود، لعنهم الله، "**استقرؤوا البداء**" أي تتبعوه واستخرجوه، من نسخ الشرائع، وقالوا: لو جاز نسخ الشرائع، للزم البداء في حقه تعالى، وهو ظهور مصلحة بعد خفائها، فلذلك نسخها، ووافقهم على هذا بعض الرافضة. وجوابهم: إن النسخ إعلام بانتهاء حكم واستئناف حكم آخر، على ما سبق في علمه تعالى، واقتضته مصلحة العباد. وسيأتي حكمته قريبا إن شاء الله. وقوله: "**وكم ساق**" إلخ، أي كثيرا ما يجر الوبال إليهم استقراؤهم وحدسهم بعقولهم. ولو وقفوا مع حدود شريعتهم ما لحقهم وبال ولا عقاب. وتأمل حيلهم في اصطيادهم يوم السبت، فمسخوا قردة وخنازير. وقصتهم في منعهم الدخول على الجبارين، فعوقبوا بالتيه أربعين سنة. وفي امتناعهم دخول القرية، فأرسل الله عليهم الطاعون حتى مات منهم سبعون ألفا. وتأمل أيضا ما وقع لهم مع نبينا، صلى الله عليه وسلم، حيث حزبوا عليه الأحزاب، فقتل منهم في ساعة واحدة ستمائة، وسبا منهم الذرية والنساء، فهذا كله من استقرائهم وحدسهم.

فائدة:

قال الإمام الرازي: الشرائع، منها ما يعرف نفعه بالعقل، معاشا ومعادا، فهو يمتنع طرق النسخ عليه، كمعرفة الله تعالى وطاعته أبدا. ويجامع هذه الشرائع العقلية

أمران، التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلقه تعالى. ومنها سمعية، لا يعرف الانتفاع بها إلا من السمع. وهذا يمكن نسخه وتبديله. وحكمة نسخه أن الأعمال البدنية إذا واظب عليها الخلف عن السلف، صارت كالعادة، وظن أنها مطلوبة لذاتها، فيمتنع الوصول بها لما هو المقصود بالذات، من معرفة الله تعالى وتمجيده. بخلاف ما إذا تغيرت تلك الطرق، وعلم أن المقصود من الأعمال، إنما هو رعاية أحوال القلب والروح في المعرفة والمحبة، فإن الأوهام تنقطع عن الاشتغال بتلك الصور الظواهر إلى تطهير السرائر. انتهى. وقال غيره: حكمته، أن الخلق طبعوا على الملالة من الشيء الدائم، فوضع في عصر كل رسول شريعة جديدة لينشطوا في أدائها. وأعظم حكمة، إظهار شرف نبينا صلى الله عليه وسلم، فإنه نسخ بشريعته جميع الشرائع، ولا ناسخ لشريعته، صلى الله عليه وسلم. ومن حكمة النسخ أيضا، ما فيه من حفظ مصالح العباد، كطبيب يامر بدواء في يوم، وبدواء آخر في يوم ثان، وهكذا بحسب المصلحة. وإن كان الثاني أثقل. انتهى نقلا من ابن حجر. وقال قبل هذا: واعلم أن شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم ناسخة لجميع الشرائع، واختلفوا في شريعة عيسى عليه السلام، هل هي ناسخة لشريعة موسى عليه السلام، أو مخصصة. والأظهر أنها مخصصة لا ناسخة، لقوله تعالى:﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾. انتهى.

*** ومما يلزم على قولهم بمنع النسخ، أن الله مقهور لا يتصرف في ملكه كيف يشاء، كما أشار إليه الناظم، بقوله:**

235 **وَأَرَاهُمْ لَمْ يَجْعَلُوا الوَاحِدَ القَـ ـهَّارَ فِي الخَلْقِ فَاعِلاً مَا يَشَاءُ**

يعني أنهم حيث منعوا النسخ على الله تعالى وأحالوه، لزمهم أن الله تعالى عاجز عن تجديد شريعة أو حكم، تعالى الله عن قولهم. ولذلك نبه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ بعد قوله: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: 106] وقال تعالى في شأن نسخ الشرائع: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد: 39]، على ما قال البيضاوي. وقال تعالى في شأن الاختيار: ﴿ وَرَبُّكَ

تخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾. والرؤية في النظم علمية. والله تعالى أعلم.

* **وإنما منعوا النسخ من قلة فهمهم، ولو نظروا بعين الفهم وأنصفوا، لأجازوه كما أشار إليه الناظم بقوله:**

236 **جَوَّزُوا النَّسْخَ مِثْلَ مَا جَوَّزُوا المَسْـ ـخَ عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّهُمْ فُقَهَاءُ**

في البيت تقديم وتأخير، أي "**لو أنهم فقهاء**" "**لجوزوا النسخ مثل ما حوزوا المسخ عليهم**"، لكنهم ليسوا بفقهاء، فلم يجوزوه. والفقه في اللغة الفهم، وهو المراد. و"**ما**" مصدرية. والنسخ لغة: الإزالة والتغيير والنقل، كنسخت الشمس الظل، والريح التراب. ونسخت الكتاب. وشرعا انتهاء حكم شرعي، وزيد فيه متراخ فيخرج نحو الاستثناء. ورد بأن الكلام لا يعرف حكمته إلا بانتهائه، فلا يحتاج للاحتراز عنه بهذا القيد. وإذا علم أن النسخ هو حد الحكم وانتهاؤه، فلا يلزم المحذور الذي زعمه اليهود، وهو البداء. ومما يدل على جوازه، ما علمه اليهود من وقوع المسخ بإخوانهم، حيث خالفوا واصطادوا في السبت فمسخوا قردة وخنازير، كما قصه الله تعالى علينا. والمسخ: تحويل الصورة على أقبح منها. فلو لزم البداء على النسخ للزم مثله في المسخ، إذ لا فرق بينهما لمن تأمل واستعمل الفهم والفكر.

* **ثم أشار إلى جواب شبهتهم، فقال:**

237 **هُوَ إِلاَّ أَنْ يُرْفَعَ الحُكْمُ بِالحُكْـ ـمِ وَخَلْقٌ فِيهِ وأَمْرٌ سَوَاءُ**

أي كيف تمنعون النسخ وليس "**هو إلا أن يرفع الحكم**" الشرعي ببدل حكم آخر، وقد يكون بغير بدل. وإذا كان النسخ هكذا "**فالخلق فيه والأمر سواء**"، أي فكما يقع التغيير في الخلق بالمسخ وغيره، فكذلك يقع في الحكم، والأمر بانتهائه والإتيان بغيره. فالمسخ فيه رفع الصورة الأولى وخلق الصورة الثانية. والنسخ فيه رفع الحكم الأول وخلق الحكم الثاني، فمنع أحدهما دون الآخر تحكم وعناد. والمراد بالحكم المرفوع، إما تعلقه بالمكلف أو ذاته، لكن من حيث دوامه واستمراره، لا من

حيث ذاته الذي هو خطاب الله تعالى المتعلق بفعل المكلف، لأنه قديم لا يرتفع.

* **ثم قال رحمه الله:**

238 **وَلِحُكْمٍ مِنَ الزَّمَانِ انْتِهَاءُ وَلِحُكْمٍ مِنَ الزَّمَانِ ابْتِدَاءُ**

هذا تقرير لما قبله وتتميم لتفسير النسخ. والمعنى: ليس النسخ بأمر يستغرب، وإنما هو "**انتهاء لحكم**" وابتداء لآخر، فالأول المنسوخ والثاني الناسخ. ويحتمل أن يكون دليلا وبرهانا على ثبوت النسخ، أي فكما أن الحكم الشرعي له ابتداء من الزمان يبتدأ فيه ويظهر، فكذلك يكون له انتهاء ينتهي فيه. وما ثبت حدوثه لم يجب بقاؤه ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ وهذا الاحتمال هو المتعين في فهم كلامه. والله تعالى أعلم. ف"**ابتداء**" مبتدأ. "**ومن الزمان**" متعلق به وهو المسوغ. "**ولحكم**" خبره، والتقدير: وابتداء من الزمان حاصل وانتهاء منه كذلك.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

239 **فَسَلُوهُمْ أَكَانَ فِي مَسْخِهِمْ نَسْـ ـخٌ لآيَاتِ الله أَمْ إِنْشَاءُ**

أي "**فسلوهم**" يا معشر المسلمين حالة كونكم قائلين لهم "**أكان في مسخهم**" قردة وخنازير "**نسخ لآيات الله**" وهي الصورة الأولى مع أحكامها "**أم إنشاء**" بإيجاد صورة مستقلة وحكم مستقل. فإن قالوا بالأول فقد ناقضوا أصلهم ولزمتهم الحجة، وإن قالوا بالثاني فهو مكابرة يكذبهم الحس والمشاهدة. قال ابن حجر: والحق أن المسخ متردد بين إنشاء الخلق وبين النسخ، لأنه بالنسبة إلى الصورة الأولى نسخ وبالنسبة إلى الثانية المتجددة القبيحة إنشاء. انتهى. وقوله "أكان في مسخهم" فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، مبالغة في تحقيرهم. والجمهور على أن المسخ كان للذوات لا للقلوب حتى صارت أقاربهم من المؤمنين لا يعرفونهم حتى مجيء القرد إلى قريبه ويتمسح به وتدمع عيناه فيقول له: ألم ننهكم عن المخالفة، فيشير برأسه، أي نعم. وقول مجاهد: أنه للقلوب، ضعيف.

* **ثم قال رحمه الله:**

240 **وَبَـدَاءٌ فِـي قَـوْلِهِمْ نَـدِمَ اللـ ـهُ عَلَـى خَلْـقِ آدَمَ أَمْ خَطَـاءُ**

هذا أيضا مدخول للسؤال، أي واسئلوهم عن "**قولهم ندم الله على خلق آدم**" الذي ثبت عنهم وتقولوه، هل كان ذلك عن قصد منهم وتعمد، أم عن خطأ وغلط. فإن قالوا كان ذلك عن قصد وتعمد كان عين البداء الذي أنكروه، لأنه يستلزم جهل الله تعالى بعواقب الأمور، وحينئذ فيكونون يمنعون النسخ منهم فيكفيهم الاعتراف به على أنفسهم وأنهم في غاية السفاهة والغباوة، وسبيلهم الاعتراف بالبداء لا بالخطأ، فاتضح بطلان زعمهم استحالة النسخ حذرا من البداء. انتهى من ابن حجر. والخطأ المشهور فيه القصر ويجوز مده، وهو ما سلكه الشيخ.

* **ومما يدل على وقوع النسخ أيضا محو آية الليل والإتيان بالنهار بعده، ولذلك أمر الشيخ بسؤالهم عنه، فقال:**

241 **أَمْ مَحَـى الله آيَـةَ اللَّـيْلِ ذكْـرًا بَعْـدَ سَـهْوٍ لِـيُوجَدَ الإِمْـسَاءُ**

يعني، أن الله سبحانه يأتي بالليل ناسخا لضوء النهار، ويأتي بالنهار ناسخا لظلمة الليل، فكل منهما يمحوا آية صاحبه وينسخها. فسئلوهم أي: اليهود: هل "**محى الله آية الليل**" لياتي بالنهار بدله، وكذلك النهار لياتي بالليل بدله. وهكذا إلى يوم القيامة، أم لم يقع محو. وإذا قالوا بالمحو، هل كان ذلك ذكرا، أي "**تذكرا بعد سهو**"، بمعنى أنه أتى بالليل سهوا ثم تذكر، وأتى بالنهار بعده وبالعكس، تعلى الله عن ذلك. أو كان عن عمد وقصد. فإن قالوا بعدم المحو، فهو مكابرة، يرده الحس والمشاهدة. وإن قالوا كان بعد سهو، فهو البداء الذي فروا منه. وإن قالوا عن قصد، فهو معنى النسخ الذي أثبتناه نحن. وقوله "**ليوجد الإمساء**" والمراد به هنا غروب الشمس. وقد ذكر الله حكمة الليل والنهار في آي كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ **وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ** ﴾ [القصص: 73]. ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** ﴿٦٢﴾ ﴾ إلى ما لا يحصى من الآيات الكثيرة.

* **ومما يدل على وقوع النسخ، وقوع الفداء لولد إبراهيم، بعد أمره بذبحه،**

وإليه أشار بقوله:

242 **أَمْ بَـدَا لِلإلَـهِ فِـي ذَبْـحِ إِسْـحَا قَ وَقَـدْ كَـانَ الأَمْـرُ فِيهِ مَـضَاءُ**

يعني، اسئلوهم أيضا، هل "**بدا للإله في ذبح إسحاق**" حيث أمر به، ثم نسخه. والحال أنه "**كان الأمر فيه مضاء**"، أي ماض نافذ. وفي بعض النسخ بالقاف، أي حتم واجب، لأن رؤيا الأنبياء وحي. فإن قالوا: إن الأمر به وقوع الفداء نسخ له، لزمهم القول بالنسخ مطلقا. وإن قالوا غير نسخ، لزمهم الجهل المفرط والغباوة الشنيعة. وعلى كل حال، فلا يسعهم إلا القول بالنسخ، وهو المطلوب. قال البيضاوي: قيل إنه رءا ليلة التروية أن قائلا يقول: إن الله يامرك بذبح ابنك، فلما أصبح، تروّى هل من الله أو من الشيطان، فلما أمسى رءا مثل ذلك. ولهذا سميت الأيام الثلاثة بالتروية وعرفة والنحر. والأظهر أن المخاطب إسماعيل، لأنه هو الذي وهب له أثر الهجرة. ولأن البشارة بإسحاق بعده معطوف على البشارة بهذا الغلام، ولقوله، عليه الصلاة والسلام: <<أنا ابن الذبيحين>> فأحدهما جده إسماعيل، والثاني أبوه عبد الله، فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا إن سهل الله له حفر زمزم، أو بلغ بنوه عشرا، فلما سهل أو بلغ بنوه عشرا، أقرع بينهم، فخرج السهم على عبد الله، ففداه بمائة من الإبل، ولذلك سنت الدية مائة، ولأن ذلك كان بمكة، وكان قرنا الكبش معلقين بمكة حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير. ولم يكن إسحاق ثمة. ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه، فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقا. وما روي أنه عليه السلام سئل أي النسب أشرف؟ فقال: يوسف صديق الله، ابن يعقوب إسرائيل الله، ابن إسحاق، ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله. فالصحيح أنه قال: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، والزوائد من الراوي. وما روى أن يعقوب كتب إلى يوسف بمثل ذلك، لم يثبت. انتهى. وما ذهب عليه الناظم، قاله كثير من العلماء، ولكن الجمهور على خلافه. وحديث الذبيحين رواه الحاكم في المستدرك عن معاوية رضي الله عنه. والله تعالى أعلم.

* **ومما يدل على وقوع النسخ، تحريم الأخت بعد تحليلها في النكاح،**

ولذلك أشار بقوله:

243 **أَوْ مَـا حَـرَّمَ الإلَـهُ نِكَـاحَ الأخْـ ـتِ بَعْـدَ التَّحْلِـيلِ فَهُـوَ الـزِّناءُ**

أي واسئلوهم وقولوا لهم أتنكرون النسخ، وتقولون "**ما حرم الإله نكاح الأخت بعد التحليل**" في زمن آدم صلى الله عليه وسلم، أو تقولون حرمه بعد أن حلله في شريعته، "**فهو**" اليوم "**الزناء**" موجب للرجم والحد، فإن قالوا حرمها بعد أن أحلها، فهو صريح في النسخ الذي أنكروه، وإن قالوا لم يحرمها، فهو عناد محض وسقط الكلام معهم وصاروا قوما بهتا،

*** كما قال الناظم:**

244 **لا تُكَـذِّبْ أَنَّ الـيَهُودَ وَقَـدْ زَا غُـوا عَـنِ الحَـقِّ مَعْشَرٌ لُـؤَمَاءُ**

245 **جَحَـدُوا المُصْطَفَى وَآمَنَ بِـالطَّ ـاغُوتِ قَـوْمٌ هُـمْ عِنْدَهُمْ شُرَفَاءُ**

لا شك "**أن اليهود**"، والحال أنهم "**قد زاغوا**"، أي مالوا "**عن الحق**" حسدا وعنادا، أنهم "**معشر**" أي قوم "**لؤماء**" جمع لئيم، وهو الرديء الأصل الشحيح النفس. ومما زادهم دناءة وخبثا أنهم "**جحدوا المصطفى**" صلى الله عليه وسلم بعد معرفة، كما يعرفون أبناءهم، "**وآمن بالطاغوت قوم**" منهم، "**هم عندهم شرفاء**"، ككعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وأمثالهم. قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ** ﴾ [النساء: 51] الآية. قال البيضاوي: نزلت في اليهود، كانوا يقولون أن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعوا إليه محمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: نزلت في حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: أنتم أهل كتاب وأقرب إلى محمد منا فلا نأمن من مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا. والجبت في الأصل اسم صنم، فاستعمل في كل ما عبد من دون الله، والطاغوت يطلق على كل باطل، من معبود أو غيره.انتهى. وقد اعترض ابن

حجر ظاهر الناظم بأن الذي آمن بالطاغوت هم اليهود كلهم، لا بعضهم، والأمر في ذلك قريب.

*** ومن أعظم سفه اليهود وأشنع غباوتهم قتلهم الأنبياء وعبادتهم العجل، مع ما شهدوا من معجزات موسى عليه السلام وخوارق عادته، ولذلك أشار الناظم بقوله:**

246 **قَـتَلُوا الأنْبِـيَاءُ وَاتَّخَـذُوا العِجْـ ـلَ أَلا إِنَّهُـمْ هُـمُ الـسُّفَهَاءُ**

أما قتلهم الأنبياء، فبنص القرآن العظيم، روي أنهم قتلوا في يوم واحد سبعين نبيا، ثم أقاموا سوقهم. وممن قتلوا زكرياء ويحيى عليهما السلام، وطلبوا مثل عيسى، وزعموا أنهم قتلوه، قال تعالى: ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾. وأما عبادتهم العجل، فكذلك أيضا، وهي مبسوطة في القرآن في مواضع. فمن قبح سفههم أن السامري صاغ العجل بحضرتهم من الحلي الذي استعاروه من القبط قبل غرقهم، وألقى فيه قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار يخور، فقال هذا إلهكم، وإله موسى، فراج على عقولهم السخيفة كلامهن فاعتقدوه إلها معبودا، وهو من جماد لا يملك لهم ضرا ولا نفعا، "**ألا إنهم هم السفهاء**" لا غيرهم، و"**ألا**" حرف تنبيه، أي تنبهوا أيها السامعون لفرط جهالتهم. والسفيه من نقص عقله حتى حصلت له خفة وطيش وسخافة رأي وانطماس بصير. ومن ثم لم ينظروا إلى كونه محدثا بحضرتهم من جماد. والإله لا يكون كذلك عند من له أدنى تمييز.

*** ثم أشار إلى نوع رابع من سفههم، فقال:**

247 **وَسَفِيهٌ مَنْ سَاءَه المَـنُّ والـسَّلْـ ـوَى وَأَرْضَـاهُ الفُـومُ والقِـثَّاءُ**

أي "**سفيه**" عظيم السفه. "**من ساءه**" أي أحزنه "**المن**" ومل منه، وهو نوع من الحلوى يسمى الزنجبين، كان ينزل عليهم وهم في التيه. وسفيه أيضا من ساءه "**السلوى**" وهو السماني، طير من أشهى الطيور لحما، وأنفعها وأطيبها غذاء. كان يأتيهم إلى محالهم فرقا فرقا، فيمدون أيديهم ويأخذون منه ما شاءوا، فسئموا منها.

"**وأرضاهم**" ما هو أدنى منها. ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا** ﴾. الآية. والفوم: الثوم. كما قرئ به.

* **ومما زادهم خبثا وسفاها أكلهم السحت وامتلاء أجوافهم بالحرام ولذلك أشار بقوله:**

248 **مُلِئَتْ بِالخبيثِ مِنهمْ بُطونٌ فَهْيَ نارٌ طِباقُها الأمْعَاءُ**

قال تعالى في وصفهم ذلك: ﴿ **سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ**﴾. وقال عز من قائل: ﴿ **لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ**﴾ [المائدة: 63]. قال البيضاوي أي الحرام كالرشى من سحته إذا استأصله، لأنه مسحوت البركة.انتهى. فقد "**ملئت**" بطونهم "**بالخبيث**" وما كانوا ياخذونه من سفلتهم من الرشى وغيره. "**فهي**" أي بطونهم، أي باعتبار ما ملئوا فيها. "**نار**" لمآلها إلى ذلك كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا** ﴾ [النساء: 10]. "**أطباقها**" أي تلك النار "**الأمعاء**" أي المصارين لتركب بعضها فوق بعض. فلما ملئت أمعاؤهم بالخبيث وكان يؤديهم إلى النار، كان نارا على جهة المبالغة في التشبيه. والله تعالى أعلم. وقوله "**منهم**" صفة لبطون تقدمت فأعربت حالا.

* **ثم قال رحمه الله ورضي عنه:**

249 **لَوْ أُرِيدُوا فِي حَالِ سَبْتٍ بِخَيْرٍ كَانَ سَبْتًا لَدَيْهِمْ الأَرْبِعَاءُ**

يعني أن الله سبحانه، لو أراد باليهود خيرا لهداهم لتعظيم يوم يكون غير يوم السبت، كالأربعاء ونحوه، لما في السبت من القطع والانفصال، يقال: سبت كذا إذا قطعه، ومنه النعال السبتية، أي المقطوعة الشعر. فلما اختاروا يوم السبت، دل ذلك على قطعهم وتفريق أمرهم. وقد هدى الله سبحانه هذه الأمة المحمدية ليوم الجمعة المؤذن بغاية الوصل، إذ مقام الجمعة هو مقام الوصل الذي هو أكمل المقامات. ولما هدى النصارى ليوم الأحد، دل ذلك على توحدهم وانفرادهم عن مواطن الخيرات

والسعادات. فجعل الله سبحانه بحكمته لكل أمة ما يناسب أمرها، ويوذن بعاقبة شأنها، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. فمراد الناظم أنه لو أريد اليهود الخير لاختاروا يوما يكون غير يوم السبت، وإنما خص يوم الأربعاء لأمرين، أحدهما، أنه خلق فيه النور، فكان أفضل من يوم السبت، والثاني لرعاية القافية. والله تعالى أعلم. وقد أطال ابن حجر الكلام في تعيين أول الأيام خلقا فانظره. وما في مسلم أصح. والله تعالى أعلم. والظرفان متعلقان ب"**أريدوا**" و"**الأربعاء**" اسم "**كان**" و"**سبتا**" خبرهما، و"**لديهم**" نعت له.

*** ثم قال رحمه الله ورضي عنه:**

250 **هُـوَ يَـوْمٌ مُـبَارَكٌ قِـيلَ للتَّـصْـ ـرِيفِ فِيهِ مِـنَ الـيَهُودِ اعْـتِدَاءُ**

الضمير ليوم السبت وبركته، لأن الله تعالى ابتدأ فيه خلق هذا العالم على ما هو الصحيح، خلافا لما عزمته اليهود أن ابتداءه يوم الأحد وفرغ يوم الجمعة واستراح يوم السبت، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا. ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ** ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: نصب. وبركته أيضا، لأنه جعله لهم ظرفا للعبادة والانقطاع إليه. ومن بركته أيضا، أن الله تعالى عظم حرمته عندهم، فمن اعتدى فيه ببغي أو فساد عجلت عقوبته، كاعتدائهم بالاصطياد فيه، بعد نهيهم عنه، فمسخوا قردة وخنازير. ومن ذلك أنهم لما أمروا أن يجروه للعبادة، اعتدى فيه ناس زمن داوود عليه السلام، اثنا عشر ألفا، فاصطادوا فيه، وكانوا بأيلة، قرية على جانب البحر، فابتلاهم الله تعالى بان ألهم السمك يوم السبت أنه ما يبقى في البحر إلا رفع خرطومه، فإذا مضى يوم السبت تفرق ونفر، فأجمع رأي جماعة منهم على حيلة يمسكون بها السمك لمنعهم الاصطياد يوم السبت، فحفروا يوم الجمعة خندقا بجانب البحر، فصارت تمتلئ منهم يوم السبت ويأخذونه يوم الأحد. فشدوا وأكلوا، فشم جيرانهم فسألوهم، فأخبروهم بالحيلة، فقالوا: إن الله معذبكم. ولما لم يعاجلوا بالعقوبة، تبعهم جماعة حتى صاروا قدر الثلث، وسكت الثلث، واعتزلهم الثلث الباقي. وبنوا حائطا بينهم، ثم أصبحوا وقد مسخ الأول قردة وخنازير، واختلف في الثانية. قال

ابن عباس، رضي الله عنه: لا أدري ما فعل بالساكتة، هل نجت، أم مسخت. قال مالك، رضي الله عنه: يوخذ من هذا تحريم الحيلة، ووجوب سد الذرائع. وهذا على أن شرع من قبلنا شرع لنا. وقوله "**قيل للتصريف فيه**" إلخ. أطلق القول على الفعل، وهو كثير، أي وقع "**لليهود اعتداء**" لأجل التصرف الذي تصرفوا فيه، فمسخوا قردة وخنازير. وإنما بناه للمجهول لضيق النظم. والله تعالى أعلم.

* **ثم ذكر أنواعا من ظلمهم وما نزل بهم من العقوبة بسبب ذلك فقال:**

251 **فَبِظُلْمٍ مِنهمُ وكفْرٍ عَدَتْهُمْ طيِّبَاتٌ في تَرْكِهِنَّ ابْتلاءُ**

أشار به إلى قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ والظلم: وضع الشيء في غير محله، فيدخل فيه الكفر وغيره. وعطفه عليه من عطف الخاص على العام. وقوله: "**عدتْهم**" أي صارت بعيدة عنهم كبعد العدو عن عدوه. وقوله "**في تركهن ابتلاء**" يعني في تحريم تلك الطيبات عليهم ابتلاء من الله تعالى واختبار يختبر به عبده ليكون سببا لفلاحه أو هلاكه. نسأل الله العافية بمنه.

* **ومن ظلمهم أيضا تحزبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم واغتروا بالمنافقين فأسلموهم إلى الهلاك أحوج ما كانوا. وإلى ذلك أشار بقوله:**

252 **خُدِعُوا بِالمُنافقينَ وهَلْ يُنْـ فِقُ إلاَّ علَى السَّفِيهِ الشَّقاءُ**

أشار بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾. والمنافقون قوم من الأوس والخزرج، أظهروا الإسلام واتخذوه جنة من القتل مع بقائهم على كفرهم باطنا، وكانوا محالفين لليهود قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام بقوا على ذلك حتى فرق شمل الجميع، وكانت أحبار اليهود يتعنتون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينزل القرآن مكذبا لهم تارة

ومجيبا عن شبههم تارة أخرى، وكاشفا عن أسرار المنافقين الذين كانوا معهم باطنا أخرى. ومعنى كونهم "**خدعوا**": أنهم أريد بهم المكروه من حيث لا يعلمون فخلفوهم عن الإسلام وأسلموهم إلى الهلاك بعد تعاهدهم على نصرهم ومنعهم من القتل والجلاء. وقوله "**وهل ينفق**" إلخ معناه أن الشقاء لا يدرك إلا السفهاء الذين لا عقل لهم ولا تدبير كاليهود وأمثالهم. شبه السفه الحاصل لهم بدراهم تصرف وتخرج في مصالح العيال، فهي استعارة بالكناية، وأثبت لها ما هو من لوازم المشبه به وهو الإنفاق تخييلا. والله تعالى أعلم.

*** وقد خدع اليهود أيضا بقول أهل مكة وغطفان وإلى ذلك أشار بقوله:**

253 **وَاطْمَأَنُّوا بِقَوْلِ أَحْزَابِ إِخْوَا نِهِمْ إِنَّنَا لَكُمْ أَوْلِيَاءُ**

254 **حَالَفُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ وَلَمْ أَدْ رِ لِمَاذَا تَخَالَفَ الحُلَفَاءُ**

يعني أن اليهود تحالفوا مع الأحزاب، وهم أهل مكة وغطفان ومن تبعهم من العرب، وتعاقدوا على حرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأعطاهم الأحزاب على ذلك العهد والميثاق، وأنهم لا يرجعون حتى يستأصلوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فوثقوا بهم "**واطمأنوا**" لقولهم، لأنهم إخوانهم في الكفر وعداوة أهل الإسلام. وقالوا لهم: "**إننا لكم أولياء**"، أي موالون ومتفقون على حرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وسبب ذلك، أن جماعة من اليهود، منهم حيي بن أخطب وغيره، قدموا على أهل مكة وحرضوهم على حرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقالوا لهم: نكون معكم ونعينكم بالسلاح حتى نستأصله. ثم ذهبوا لغطفان وذكروا لهم مثل ذلك، فوافقوهم على ذلك، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفان ومن معهم من أهل نجد، وقائدهم عيينة بن حصن، فاجتمع منهم عشرة آلاف، واليهود قاطعون بأنهم يستأصلون بذلك المسلمين. فلما سمع بهم النبي صلى الله عليه وسلم، جعل يحفر الخندق حول المدينة بإشارة سلمان رضي الله عنه، لأن العرب لم تكن تعرف ذلك، فلما وصل العدو إليه، خرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثة آلاف، فمكثوا نحوا من عشرين يوما أو خمسة عشر، ولم يقع بينهم قتال إلا الرمي

بالنبل والحصار. ثم جاء نعيم بن مسعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: إني أسلمت ولم يعلم بي قومي، فمرني بما شئت. فأمره صلى الله عليه وسلم، بأن يخذلهم عنه ما استطاع. فذهب إلى بني قريظة، وكان نديمهم في الجاهلية، وقال لهم: إن قريشا سترجع وتترككم في يد محمد، فلا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رُهُنا منهم تكون عندكم. وخوفهم على أموالهم وأولادهم، فقالوا له: أشرت بالرأي. ثم ذهب إلى العرب، وقال لهم: إن اليهود قد ندموا على ما فعلوا وأرسلوا لمحمد بذلك، وأرسلوا رسلهم لقريظة، فذكروا لهم ذلك، فاعتقدوا صدق نعيم. وانحل عزمهم، فخذلهم الله تعالى، وأرسل عليهم ريحا في ليلة شديدة البرد، فأكفأت قدورهم، وطرحت خيامهم. وبلغه صلى الله عليه وسلم تخاذلهم عنه وما وقع لهم، فأرسل حذيفة بن اليمان، وقال: اذهب وانظر ما يفعل القوم، ولا تحدث شيئا حتى تأتينا، فدخل بينهم فسمع أبا سفيان يقول: لينظر الرجل منكم من جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد من بجنبي فقلت: من أنت، قال: فلان بن فلان. ثم قال أبو سفيان: والله يا معشر قريش ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلكت الكراع وأخلفتنا بنو قريظة، وأمرهم بالرحيل، فارتحلوا. قال أبو حذيفة، والله لولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحدث شيئا لقتلته بسهم. ثم سمعت غطفان ما وقع لقريش فرجعوا أيضا. فلما أصبح صلى الله عليه وسلم رجع إلى المدينة وقال صلوات الله وسلامه عليه: <<لا يغزونكم قريش أبدا، ولكن أنتم تغزونهم>>. فكان كذلك. ولما وضعوا السلاح، جاء جبريل عليه السلام معتجرا بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة ديباج، وفي رواية البخاري، أنه صلى الله عليه وسلم، وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرُج إليهم، وأشار إلى بني قريظة، وإني عامد إليهم ومزلزل بهم، وفي رواية: قم فشد عليك سلاحك، فوالله لأدُقنهم دق البيض عن الصفا، فبعث صلى الله عليه وسلم مناديا ينادي: يا خيل الله اركبي، فذهب إليهم في ثلاثة آلاف، فقاتلوا ستة وثلاثين فرسا فحاصرهم خمسا وعشرين يوما، وقد قذف الله في قلوبهم الرعب، فعرض عليهم رئيسهم الإيمان، وحلف لهم أنه لنبي مرسل، وأنه الذي يجدونه في كتابهم، فأبوا، فقال لهم: الليلة ليلة السبت، فلعلهم آمنون منا، فانزلوا، فلعلكم تصيبون منهم. فقالوا: نفسد

سبتنا ونحدث فيه ما يحدث من قبلنا إلا من علمت. فأصابهم ما لم يخف عليك من المسخ. ثم اشتد عليهم الحصار، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم فيهم بأن تقتل رجالهم وتسبى أموالهم وذراريهم، فقال صلى الله عليه وسلم: <<لقد حكمت فيهم بحكم الله الذي حكم فيهم من فوق سبعة أرقعة>>، فأمر بهم صلى الله عليه وسلم، فأدخلوا المدينة، وحفر لهم أخدود وجلس صلى الله عليه وسلم عليها ومعه أصحابه، فأخرجوا إليه، فضربت أعناقهم وكانوا بين ستمائة إلى سبعمائة، ولا تنافيه الرواية الصحيحة، أنهم كانوا أربعمائة مقاتل، لأن الباقي أتباع. وحكايتهم مبسوطة في كتب السير. وهذا اختصارها على ما لابن حجر. وقولهم: "**حالفوهم**" أي تعاقدوا معهم مع الأيمان المغلظة على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، "**وخالفوهم**" أي خرجوا عنهم وأسلموهم للنبي صل الله عليه وسلم حتى قتلهم عن آخرهم. وقوله "**ولم أدر لماذا تخالف الحلفاء**"؟ نفي الدراية هنا على طريق تجاهل العارف، فقول الشاعر:

لله يـــا ظبـــيات القـــاع قلـــن لـــنا ليلـــى منكـــر أم ليلـــى مـــن البـــشر

وفيه إغراء السامع على البحث عن سبب ذلك، وقد تقدم أن سبب ما فعله نعيم بن مسعود، وأن الله تعالى أراد خذلانهم على يد نعيم. والله تعالى أعلم.

* **وأما قوله:**

255 **أسْـلموهمْ لأولِ الحـشْر لا مِـيـ عــادُهُمْ صــادقٌ ولا الإيــلاءُ**

فهو راجع إلى قوله خُدعوا بالمنافقين إلخ. أي أسلم المنافقون اليهود إلى المسلمين كبني النضير، فأخرجوهم من ديارهم وأجلوهم إلى الشام، وهو المراد بقوله "**لأول الحشر**" وهذا مقتبس من قوله تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ** ﴾ الآية. البيضاوي: أي في أول حشرهم من جزيرة العرب، إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك، أو في أول حشرهم إلى القتال والجلاء إلى الشام. وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله عنه من خيبر إليه. أو في أول حشر الناس إلى الشام، وآخر حشرهم. فإنهم يحشرون إليه عند قيام الساعة فيدركهم هناك، أو أن

نارا تخرج من المشرق فتحشرهم إلى المغرب. والحشر إخراج جمْع من مكان إلى آخر. انتهى. وقوله "**لا ميعادهم صادق**" الضمير للمنافقين، أي ليس ما وعدهم به المنافقون من نصرتهم على النبي صلى الله عليه وسلم والقتال معهم أو الخروج بصادق. "**ولا الإيلاء**" أي الحلف الذي حلفوه لهم بصادق، بل جميع ذلك كذب، كما قال تعالى: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ [الحشر: 12] الآية.

*** بل ألقى الله سبحانه الرعب في قلوب الفريقين، كما أشار إلى ذلك بقوله:**

256 **سكَنَ الرُّعْبُ والخَرابُ قُلُوبًا وبُيوتًا منهمْ نَعَاهَا الجَلاءُ**

يعني أن اليهود الذين كانوا بالمدينة وما حولها، "**سكن الرعب**" أي هيبة النبي صلى الله عليه وسلم وخشية انتقامه منهم قلوبهم. وسكن الخراب والجلاء بيوتهم. فقوله "**قلوبا**" راجع للرعب. "**وبيوتا**" راجع للخراب. فهو نشر مرتب. وقوله "**نعاها الجلاء**" أي أخبر بموت تلك البيوت الجلاء. وموت البيوت مجاز، عبارة عن خرابها بانجلاء أهلها عنها. يقال: نعاه نعيا ونعيانا، أي أخبر بموته. وإسناد النعي إلى الجلاء استعارة بالكناية، شبهه به في كونه معلما بقهرهم وزوال شوكتهم المشبهة بالموت، بإنسان مخبر بموتهم. وذكر النعي تخييل. قال ابن حجر: وظاهر الناظم أن وقعة بني النضير هذه بعد الخندق المشار إليها بقوله السابق" **واطمأنوا**" إلخ وهو ما أوهمه كلام بعض أهل السير، لكنه مردود بأن بني النضير هم الذين ظاهروا الأحزاب. وأما بنوا قريظة فلم يكن لهم في الأحزاب ذكر، بل كان من أعظم الأسباب في جلب الأحزاب ما كان من إجلائهم، فإنه كان من رؤوسهم حيي بن أخطب وأضرابه، وهو الذي حسن لبني قريظة الغدر، وموافقة الأحزاب حتى كان من إهلاكهم ما كان، فكيف يصير السابق لاحقا. انتهى. وسبب إجلاء بني النضير، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يستعين بهم في دية قتيلين قتلهما بعض حلفائه، فأظهروا له الإجابة، ثم تواعدوا بقتله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إلى جنب دار لبعض بيوتهم. فأمروا بعضهم أن يصعد إلى السطح ويطرح عليه صخرة ليستريحوا منه، فنهاهم بعضهم، وقال

ليخبرن بما هممتم وأنه نقض للعهد الذي بيننا وبينه. فلما صعد الرجل، أخبر به جبريل، فقام صلى الله عليه وسلم. وأظهر أنه يقضي حاجته. وترك أصحابه في مجلسهم وذهب مسرعا إلى المدينة، وطلبه أصحابه، فأخبرهم بما كانوا هموا به، وأمرهم بالتأهب لحربهم والمسير إليهم. فسار النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، وحاصرهم ست ليال، وتمنعوا بالحصون، فقطع النخل وحرقها، ولما وقع في نفوس بعض المسلمين من ذلك شيء، نزل قوله تعالى: ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَاسِقِينَ** ۝ ﴾ واللينة: أصناف التمر ما عدى العجوة والبرني. وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم لم يحرق من نخلهم إلا ما ليس بقوت وما يقتاتون العجوة. وفي الحديث << العجوة من الجنة وغذاؤها أحسن الغذاء>>. والبرني أيضا كذلك. وكان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم ابن أبي بعثوا إليهم أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، فإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم. فتربصوا، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم عن أرضهم ويكف عن دمائهم. وفي رواية: أنهم لما هموا بالغدر أرسل إليهم محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدي وقد أجّلْتكُم عشرا، فمن بقي منكم بعدها ضربت عنقه، فشرعوا في التجهيز، فأرسل إليهم ابن أبي بأن تمنعوا ونمدكم بمن ينصركم، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا نخرج، فكبر صلى الله عليه وسلم، وأظهر التكبير، وكبر المسلمون بتكبيره. فسار إليهم وعلي رضي الله عنه يحمل رايته، فلما رأوه قاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة. وخذلهم ابن أبي وغيره فحاصرهم خمسة وعشرين يوما. ثم قال لهم: اخرجوا بأولادكم ولكم ما استقلت به الإبل من متاعكم. وكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم، فلحقوا بخيبر، ثم إلى الشام والحيرة على ستمائة بعير، ولما كان القاهر لهم مجرد الرعب، كان ما بقي من أموالهم له صلى الله عليه وسلم، فقسمه بين المهاجرين، ليرفع مئونتهم عن الأنصار. انتهى. ابن حجر.

*** ثم رجع لتمام قضية الأحزاب فقال:**

257 وبيوْمِ الأحْزابِ إذْ زاغَتِ الأبْـ ـصارُ فيهِ وضَلَّتِ الآراءُ

أي وخدعوا أيضا في يوم الأحزاب، والمراد بهم بنو قريظة، وذلك أن الأحزاب لما أقبلوا ونزلوا حول المدينة خرج صلى الله عليه وسلم والمسلمون فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع والخنداق بينهم وبين القوم. خرج عدو الله حيي بن أخطب حتى أتى كعب القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، فأغلق كعب دونه باب الحصن وقال له: إنك امرؤ مشؤوم، وإني عاهدت محمدا صلى الله عليه وسلم، وما رأيت منه إلا وفاء وصدقا. فقال له: ويلك افتح، فما زال به حتى فتح. فقال: يا كعب جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش، أنزلتهم بمجتمع الأسيال، وجئتك بغطفان، وقد عاهدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه. ولم يزل به حتى نقض عهده، وبرئ مما كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فعظم الأمر واشتد البلاء والخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل الظن، ونجم النفاق بعض المنافقين، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غُرُ ﴿١٢﴾ ﴾ الآية. وقال رجال ممن معه: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾. ثم وقع ما مر من خذلانهم على يد نعيم، فأرسل الله عليهم ريحا وجنودا لا يروها، فبدد شملهم، وجعل الدائرة عليهم، وجعل الغلبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وأهلك بني قريظة عن آخرهم كما مر. وزيغ البصر: ميله عن استقامة النظر من شدة الخوف هنا، وضلال الآراء: ذهولها وعدم تفكرها. وإنما كان هذا للمنافقين. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رحمه الله:**

258 وتَعَدَّوْا إلى النَّبِي حُدودًا كانَ فيها عَلَيْهِمْ العُدْوَاءُ

الضمير يعود إلى اليهود، لأنه أقرب المذكور. وأشار به، والله أعلم، إلى نقض بني قريظة العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين اجتمعت الأحزاب وغيرهم عند حيي بن أخطب، فنقضوا العهد ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك سبب قتلهم، ونزول الخزي بهم في الدنيا والآخرة، فقوله:

"**وتعدوا إلى النبي حدودا**" أي كان حدها لهم ونهاهم عن مجاوزتها، فلم يقفوا عندها، ف"**كان فيها**" أي في مجاوزتها "**عليهم العدواء**" أي وقوعهم في الهلاك الأبدي. وأحد الظرفين حال والآخر خبر مقدم.

* **ثم إن نقض العهد لم يكن باتفاق منهم في أول الأمر، بل نهى بعضهم عنه، لكنه لم يطع في ذلك، كما أشار الشيخ إلى ذلك بقوله:**

259 **ونَهَتْهُمْ وما انْتهتْ عنه قوْمٌ فَأُبِيدَ الأَمَّارُ والنَّهَّاءُ**

أي ونهى أولئك المعتدين قوم منهم عن نقض العهد ومخالفته صلى الله عليه وسلم، وإيذائه "**وما انتهت عنه**" أي ذلك الإيذاء، بل استمروا عليه، فبسبب ذلك "**أبيد**" أي هلك، "**الأمار**" جمع آمر.وهلك أيضا "**النهاء**" منهم، جمع ناه. وإنما هلك الآمر والناهي لأنه رجع عن نهيه، ووافقه على نقضه، وكأنه والله أعلم، أشار إلى قضية حيي بن كعب بن أسد القرظي وكان صاحب عقد النبي صلى الله عليه وسلم وصاحب عقدهم. وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاقده على ذلك. فلما أتاه حيي بن أخطب أغلق دونه باب الحصن، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له. فنادى حيي: ويحك يا كعب، افتح لي. فقال: يا حيي إنك امرؤا مشئوم وإني عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقا. قال: ويحك افتح لي أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. قال: والله إن أغلقت دوني إلا على حشيشتك أن آكل معك منها. فأَحفَظَ الرجل. ففتح له. فقال: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع السيال، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم إلى جانب أحد. قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه. فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر وبسحاب قد هرق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شيء. ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء. فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح على أن أعطاه عهدا وميثاقا، لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا من محمد شيئا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب عهده وبرئ مما كان بينه

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنزل بهم ما نزل. وقتلوا على حديدة واحدة.

*** ولما نقضوا عهدهم أرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم لينظروا ما فعلوا، فشتموهم ووقعوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أشار إليه بقوله:**

260 **وتَعَاطَوْا في أحْمدَ مُنْكَرَ القَوْ   لِ ونُطْــقُ الأرَاذِلِ العــوْراءُ**

أي "**وتعاطوا في أحمد**" نبينا صلى الله عليه وسلم وخصه بالذكر لأنه لم يسم به أحد قبله كما رواه مسلم. وأما **أحمد** فسمي به قبله خمسة عشر رجلا حين سمعوا بخروج نبي اسمه محمد، فعصمهم من دعوى النبوة حتى ظهر صاحبها صلى الله عليه وسلم. ومفعول تعاطوا "**منكر القول**" أي القول المنكر الذي ينكره سامعه، بل المتلفظ به لعلمه بقبحه وفساده. قال في الاكتفاء. وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة. فسار علي رضي الله عنه حتى إذا دنا من الحصون سمع مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق. فقال: يا رسول الله، لا عليك ألا تدنوا من هؤلاء الأخابيث. فقال: لم ؟ أظنك سمعت بي منهم أذى. فقال: نعم. قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا. فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته. قال: يا أبا القاسم، ما كنت جهولا. انتهى قوله. "**ونطق الأراذل العوراء**" القبيحة الساقطة. أي شأنهم النطق بالفحش والسفه لرجسهم وخبث سريرتهم.

*** كما أشار إلى ذلك بقوله:**

261 **كُلُّ رِجْسٍ يزيدُهُ الخُلُقُ السُّو   ءُ سَــفَاهًا والملَّــةُ العَــوْجَاءُ**

أي "**كل**" خبث وحمق جبل عليه الإنسان، فإنه "**يزيده الخُلُق السوء**" أي القبيح، "**سفاها**" وحمقا ورذالة، ويزيده أيضا سفاها وحمقا "**الملة**" أي الشريعة، سميت بذلك لأنها تكتب وتملى. وقوله "**العوجاء**" أي الباطلة، شبهت بطريق معوج لا

يهدى سالكها إلى مطلوبه، بل يتيه ويضل فيها على سبيل الاستعارة المكنية. وأثبت لها العوج تخييلا. والحاصل أن أولئك الأراذل اجتمع فيهم وصفان: الخلق السوء والتمسك بالملة العوجاء، فتضاعفت سفاهتهم وعظم جهلهم وحمقهم، فكانت عاقبة سوء يتعجب منها كل ناظر،

* **كما أشار له بقوله:**

262 **فانْظـرُوا كيْف كـانَ عاقبةُ القَـوْ م ومــا ســاقَ للــبَذيِّ الــبَذاءُ**

أي "**فانظروا**" يا معشر العقلاء "**كيف كان عاقبة**" أي حال ومصير "**القوم**" المعروفين بما تقدم من السفاهة والحمق، وهي خزي الدنيا وعذاب الآخرة. قال تعالى:
﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝ ﴾
ففيه اقتباس من هذه الآية. وانظر أيضا "**ما ساق**" للفاحش فحشه من الوبال والخسران وتخلفه عن الدنيا وسعادة الآخرة. وقوله "**كيف**" سدت مسد مفعولي "انظروا" و"**ما**" وصلتها، سدت مسد مفعولي انظروا المقدرة.

* **ثم بين تلك العاقبة فقال:**

263 **وَجَـدَ السَّـبَّ فِيهِ سُـمًّا وَلَـمْ يَدْ رِ إِذِ المِــيمُ فِــي مَوَاضِــعَ بَــاءُ**

يعني أن هذا البذي الفاحش الذي تجاسر على الجانب الرفيع بالسب والشتم، وجد في سبه سما قاتلا، فهلك من ساعته. بل سب النبي صلى الله عليه وسلم أشد من السم، لأن إهلاك السم إنما هو في الدنيا، وقد يتعالج بالأدوية، بخلاف سب الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو هلاك في الدنيا والآخرة. وشبه السب بالسم، لأنه أهلكهم من ساعتهم. وتعاطى هذا الفاحش "**السب**" في جانب النبوة فانقلب له "**سما**" قاتلا وهو "**لم يدر إذ الميم**" قد تقلب "**باء**" "**في مواضع**" كثيرة كالعكس. قال الأصمعي: كان أبو سرار المازني يقول: باسبك؟ يريد ما اسمك بإبدال الميم باء، وهي لغة مازن. قال المازني: دخلت على الخليفة الواثق، فقال: من الرجل؟ فقلت: من بني مازن، فقال: أي الموازن؟ أمازن تميم أو مازن قيس أم مازن ربيعة. فقلت: من مازن ربيعة،

فكلمني بكلام قومي، وقال لي : باسبك؟ لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما. قال: فكرهت أن أجيبه على لغة قومي لئلَّا أواجهه بالمكر، فقلت: بكر يا أمير المؤمنين. ففطن لما قصدت وأعجب به، أي وفيه أيضا سب لنفسه. ثم قال لي: اجلس، فاطبئنّ يعني فاطمئن. انتهى.

*** ويشبه أيضا حال هذا الساب بحال الزباء حيث قتلت نفسها بسمها ولذلك أشار بقوله:**

264 **كَانَ مِنْ فِيهِ قَتْلُهُ بِيَدَيْهِ فَهْوَ فِي سُوءِ فِعْلِهِ الزَّبَّاءُ**

يعني أن هذا الساب لجانب النبوة "**كان**" بسبب ما صدر "**فيه قتله بيديه**"، فصار قاتلا لنفسه بنفسه، وهو أشد من قتل الغير له. فكانت حالة هذا الساب في قتله لنفسه و"**سوء فعله**"، كحالة "**الزباء**"، وهي المرأة المشهورة بالملك القاهر في العرب، فإنها تناولت خاتما مسموما فمصته حتى قتلت نفسها وقالت: بيدي لا بيدك يا عمر. وسميت بالزباء، بتشديد الزاي والباء، لكثرة شعرها، إذ كان يسترها ويسحب من ورائها. وسبب قتلها لنفسها، أن جذيمة البرش كان من العرب الأولى من بني إياد، كما ذكره الكلبي ، وكنيته أبو ملك. قال أبو عبيدة: كان بعد عيسى عليه السلام بثلاثين سنة، وكان قد ملك شاطئ الفرات إلى ما والى أبي السواد ستين سنة. وكان به برص، فهابت العرب أن تصفه بذلك فقالوا الأبرش الوضاح. وقيل: كان لا يأنف من الأبرص، لأن من العرب من يفتخر به. وقيل: سمي الأبرش، لأنه أصابه حرق من نار فبقي أثره نقطا سودا وحمرا. وكان الملك قبله أباه وكان له أخت أحبها نديمه عدي بن نصر الأيادي فوافقه على أن ينكحها منه إذا غلب عليه السكر، فسأله حينئذ ذلك فأنكحه إياها وأشهد عليه ودخل بها، فلما أصبح وعلم بذلك تغيب عدي فلم يعرف له خبر، فولدت أخته ولدا سمي عمرا، فأحبه جذيمة فخطفته الجن ثم ردته، فزاد حظا عند خاله جذيمة، وكان جذيمة يغير على ملوك الطوائف حتى غلبهم على كثير مما في أيديهم، وهو أول من أوقد الشمع، ونصب المجانيق للحرب، وأول من اجتمع له الملك بأرض العراق، وكان قد قتل أبا الزباء وغلب على ملكه وألجأ الزباء إلى أطراف مملكتها، وكانت

عاقلة أديبة، فبعثت إليه تخطبه على نفسها، ليتصل ملكه بملكها، فدعته نفسه إلى ذلك. وقيل إنه هو الذي بعث يخطبها، فبعثت إليه، إني فاعلة ومثلك يرغب فيه، فإذا شئت فأشخص إلي، فشاور وزراءه، فكل أشار عليه أن يفعل إلا قصير بن سعد، فإنه قال: أيها الملك لا تفعل، فإن هذه خدعة ومكر، فعصاه وأجابها إلى ما سألت، فقال قصير عند ذلك: لا يطاع لقصير رأي. فأرسلها مثلا. ولم يكن قصيرا ولكن كان اسما له. ثم قال: أيها الملك، أما إذ عصيتني، فإذا رأيت جندها قد أقبلوا إليك، فإذا ترجلوا وحيوك ثم ركبوا وتقدموا فقد كذب ظني، وإذا رأيتهم إذا حيّوك حافوا بك فإني معرض لك العصا، وهي فرس لجذيمة لا تدرك، فارْكبها وانج عليها، فلما أقبل جيشها، حيوه ثم طافوا به، وقرب إليه قصير العصا فشغل عنها، فركبها قصير ونجا، فنظر إليه جذيمة وهو على العصا، فقال: ما دل من جرت به العصا. وأدخل جذيمة على الزباء، وكانت قد ربت شعر عانتها حولا، فلما دخل تكشفت له ، وقال: إمتاع عروس ترى يا جذيمة، فقال: بل متاع أمة بظراء، فقالت: أما أنه ليس من عدم المَواسي، ولا من قلة المُواسي، ولكنها شتيمة ما أقاسي، وأمرت به فأجلس على نطع، وأمرت برَوَاهِشِهِ، أي عروق يده، فقطعت. وكان قد قيل لها احتفظي بدمه، فإنه إن أصاب الأرض قطرة من دمه، أخذ بثأره. فقطرت قطرة من دمه في الأرض، فقالت: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: دعوا دما ضيعه أهله. فلم يزل الدم يسيل إلى أن مات. ثم إن قصيرا أتى عمْرا ابن أخت جذيمة وأخبره الخبر وحرضه على الأخذ بالثأر، واحتال لذل بأن قطع أنفه وأذنه ولحق بالزباء وزعم أن عمرا فعل به ذلك، وإنه اتهمه بممالأته لها على خاله، ولم يزل يخدعها حتى اطمأنت به، وسارت ترسله إلى العراق بمال فيأتي إلى عمر فياخذ منه ضعفه ويشتري به ما تطلبه، ويأتي إليها به إلى أن تمكن منها وسلمته مفاتح الخزائن، وقالت: خذ ما أحببت، فاحتمل ما أحب من مالها وأتى عمرا فانتخب من عسكره فرسانا، وألبسهم السلاح، واتخذ غرائر، وجعل أشراجها من داخل، ثم حمل على كل بعير رجلين معهما سلاحهما، وجعل يسير النهار حتى إذا كان الليل اعتزل عن الطريق فلم يزل كذلك حتى شارف المدينة، فأمرهم فلبسوا الحديد ودخلوا الغرائر ليلا، وعرف أنه مصبحها. فلما أصبح دخل عليها وسلم وقال: هذه العير تأتيك الساعة بما

لم يأتك قط مثله، فصعدت فوق قصرها وجعلت تنظر العير تدخل المدينة، فأنكرت مشيها وجعلت تقول:

ما للجمال مشيها وبيدا أجندلا يحملن أم حديدا

أم صدفانا باردا شديدا أم الرجال جثما قعودا

ولما توافت العير المدينة، حلوا أسراجهم وخرجوا في الحديد، وأتى قصير لعمر فأقامه على سرب كان لها، إذا خشيت خرجت منه فأقبلت لتخرج من السرب فأتاها عمرو فجعلت تمص خاتمها وتقول: بيدي لا بيدك يا عمرو، وفارقت الدنيا، وفعلت ذلك خوفا أن يعذبها عمرو، فقتلت نفسها بيدها. وقيل أن عمْرًا قتلها واحتوى على ملكها. والله أعلم.

*** ثم شبه أيضا حال هذا الساب بحال النحلة كون حتفها في لسعها فقال:**

265 **أَوْ هُوَ النَّحْلُ قَرْصُهَا يَجْلُبُ الحَتْـ ـفَ إِلَـيْهَا وَمَـا لَـهُ إِنْكَـاءُ**

أي "**أو**" يشبه حال هذا الساب في سوء فعله، "**النحل**" في كون "**قرصها**"، أي لسعها لغيرها "**يجلب الحتف**"، أي الموت "**إليها**". يقال: مات حتف أنفه، أي خرجت روحه على أنفه بلا سبب فعل أحد، يعني أن النحل في لسعها تقتل نفسها، وليس لها في ذلك اللسع "**إنكاء**"، أي قتل ولا جرح ولا دم ولا تأثير قوي في الملسوع، بل جل ضررها رجع إليها. وكذلك هذا الساب لجانب النبوة، كان قتله من فيه، وهلاكه من سوء فعله نسئل الله العصمة بمنه.

*** ثم بين كيف كان هلاك هذا الساب وكل من آذاه، عليه السلام، وكيف نصر الله رسوله وأظهر دينه فقال:**

266 **صَـرَعَتْ قَـوْمَهُ حَـبَائِلُ بَغْـيٍ مَـدَّهَا المَكْـرُ مِـنْهَمْ وَالـدَّهَاءُ**

الصرع هو السقوط، والضمير عائد عليه صلى الله عليه وسلم، أي "**صرعت قومه**" الذين كانوا يوذونه ويمكرون به "**حبائل**" بغيهم ومكرهم، فدفعوا فيما نصبوا وصرعوا قتلى بين يديه صلى الله عليه وسلم. ويحتمل أن يعود على لسان المتقدم، أي

صرعت قوم هذا الساب، وألقتهم قتلى بين يديه صلى الله عليه وسلم، ما كانوا دبروه من الحيل، ونصبوه من الخدع للنبي صلى الله عليه وسلم، فوقعوا فيما نصبوه، وهلكوا بما دبروه، ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ فالحبائل جمع حبالة، وهي الشبكة التي يصطاد بها. والبغي: الظلم والتعدي، يعني أن قوم هذا الساب صرعتهم حبائل ظلم نصبها ومدها لهم مكرهم ودهاؤهم، أي جودة رأيهم، وهو بكسر الدال والمد، يقال فلان داهية، إذا كان عزيز الرأي حسن التدبير. ففي كلامه استعارة بالكناية من حيث إنه شبه القوم الذين قتلهم صلى الله عليهم وسلم في الحرب، فصُيُود مصرُوعة بين يدي الصائد. وشبه البغي بشبكة الصياد، وشبه المكر والدهاء بالصائد كما تقتضيه نسبة المد إليها، أو بحبال الشبكة التي يمد بها للصيد حتى يقع فيها. وقيل بإثبات المد الملائم للمشبه به ورشح بإثبات الصرع اللائق بالمشبه. ففيه ثلاث استعارات، ولا غرابة في اجتماعها في كلام واحد. انظر ابن حجر.

*** ثم أشار إلى فتح مكة الذي كان به إظهار الدين وعز الإسلام وهزم جيوش الكفر وبطلان عبادة الأصنام فقال:**

267 **فَأَتَتْهُمْ خَيْلٌ إِلَى الحَرْبِ تَخْتَا ... لُ وَلِلْخَيْلِ فِي الوَغَى خُيَلاءُ**

268 **قَصَدَتْ فِيهِمْ القَنَا فَقَوَافِي الـ ... طَّعْنِ مِنْهَا مَا شَانَهَا الإِيطَاءُ**

269 **وَأَثَارَتْ بِأَرْضِ مَكَّةَ نَقْعًا ... ظُنَّ أَنَّ الغُدُوَّ مِنْهَا عِشَاءُ**

فالضمير عائد على قومه صلى الله عليه وسلم، وهو يرجح التأويل الأول، أي فأتت قومه خيل من قبله صلى الله عليه وسلم، على حربهم وإبطال دينهم الفاسد، ليحق الحق ويبطل الباطل، "**فأتتهم خيل**" الله "**تختال**" وتتبختر في مشيها، والمراد راكبوها. وكذا قوله "**وللخيل في الوغى**" أي الحرب "**خيلاء**" أي وعلى الخيل شجعان لهم في الحرب خيلاء، أي تكبر وترفع على من ذله الكفر ووضع قدره. والتبختر في هذه المواطن محمود، كما قال صلى الله عليه وسلم في أبي دجانة، حيث جعل يتبختر بين الصفين يوم أحد: <<إن هذه لمشية يبغضها الله إلا في هذا

الموضع>> أو كما قال عليه السلام. ثم شبه الطعن الواقع في رماح الصحابة في الكفار في تتابعه وحسن موقعه بأبيات قصيدة بليغة سليمة من عيوب الشعر، فقال: "**قصدت**" أي نظمت "**فيهم**"، أي في أبدانهم "**القنا**" أي الرماح، جمع قناة، "**فقوافي الطعن**" المشبه بالقصيدة، سالمة من العيوب، "**ما شانها**" أي عابها "**الإيطاء**" فهو تكرير القافية المتحدة لفظا ومعنى، يعني أن هذه الطعنات بعد كثرتها وتتابعها لم ترد على محل واحد من غير أن تؤثر الثانية شيئا لم تؤثره الأولى، لأنه يدل على قصر ساعد الشجاع وعدم تمكنه في الحرب، كما أنه يدل في المشبه به على عي الشاعر وعدم فصاحته، فهي استعارة تبعية. ولما أتتهم خيول المسلمين تفتح مكة، ووصلت إليها "**أثارت**" أي رفعت تلك الخيل لما ركضت برجلها "**بأرض مكة**" وما حولها "**نقعا**" أي غبارا أظلم الجو حتى "**ظن أن الغدو**" أي وقته، وهو ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس "**منها**" أي من أجل تلك الخيول وغبارها عشاء، أي وقتها، وهو مغيب الشفق. وفي قوله: "**وأثارت**" تلميح إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ ﴾ إلخ.

وخلاصة شيء من هذه الغزوة التي حصل بها ذلك الفتح الذي هو أعظم فتوح الإسلام، أعز الله بها دينه ورسوله وجنده وحرمه وبلده وبيته، واستبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وأشرق وجه الأرض ضياءا وابتهاجا، وسببها أنه وقع الصلح بالحديبية على أنه صلى الله عليه وسلم لا يتعرض لمن دخل في عقد قريش، وأنهم لا يتعرضون لمن دخل في عقده، وكان ممن دخل في عقده خزاعة وفي عقدهم بنو بكر وكانا متعاديين قبل الصلح لحرب وقع بينهم في الجاهلية، فلما وقع الصلح وأمر الفريقان عدت بنو بكر على خزاعة وأصابوا منهم رجلا فاقتتلوا وأعانت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قاتل بالليل مستخفيا فلم يزالوا يقاتلونهم حتى اضطروهم إلى الحرم فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العقد والميثاق بما استحلوا منهم، خرج عمر بن سلام الخزاعي الكعبي حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهري

الناس فانشا قصيدة يقول في آخرها:

إن قريـــشا أخلفـــوك المـــوعد ونقـــضوا ميـــثاقك المـــؤكدا
وجعلـــوا لـــي فـــي كـــداء رصـــدا زعمـــوا أن لـــست ادعـــوا أحـــدا
وهـــــم أذل وأقـــــل عــــــددا هـــم بيـــتونا بالوتيـــر هجـــدا
وقتلونا ركعا وسجدا.

يقول: قتلونا وقد أسلمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نصرت يا عمر بن سلام، وفي رواية: فخرج صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه وهو يقول: لا انتصرت إن لم أنصركم بما أنصر به نفسي، ثم عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم سحاب فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر كعب الكعبي. ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من خزاعة فاخبروه بما أصيب منهم ومظاهرة قريش بني بكر عليهم. ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس: <<كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ينشد العقد وليزيد في المدة>>. ولما أحس أبو سفيان بمجيئهم، جاء على المدينة ليجدد العقد ويزيد في المدة، فأبى صلى الله عليه وسلم. وروي أنه لما قدم المدينة دخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس عليه. فقال: والله يا بنية، لقد أصابك بعدي شر. ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه فلم يرد عليه شيئا. فذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لو لم أجد إلا الذرة لجاهدتكم بها. ثم خرج حتى دخل علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندها حسن بن علي غلام يدب بين يديها. فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحما، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبا، اشفع لي. فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة، فقال: يا

ابنت محمد، هل لك أن تأمر بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر. قالت: والله ما بلغ ابني ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت علي، فانصحني. قال: والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فاجر بين الناس ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنيا شيئا. قال: لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق، فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك ؟ قال: جئت محمدا فكلمته ، فوالله ما رد علي شيئا. ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيرا. ثم جئت ابن الخطاب ، فوجدته أعدى العدو. وثم جئت عليا فوجدته ألين القوم. وقد أشار علي بشيء صنعته. فوالله ما أدري هل يغني شيئا أو لا. قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس. ففعلته. قالوا: فهل أجار ذلك محمد. قال: لا، قالوا: ويلك، والله ما زاد الرجل إلا أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت. قال: والله ما وجدت غير ذلك. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاز. وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهي تحرك بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أي بنيتي، أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجهزوه. قالت: نعم. فتجهز. قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدري. ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إعلام الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ. وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبْغتْها في بلادها. فتجهز الناس، وكتب حاطب بن أبي بلتعة عند ذلك كتابا إلى قريش يخبرهم بما أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السير إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا، فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، ثم خرجت به. وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا والزبير وقال لهما: روضة خاخ، فإن بها ظعينة بعثها حاطب بكتاب إلى قريش يحذرهم ما أجمعنا في أمرهم. فخرجا حتى أدركاها واستنزلاها، والتمسا ما في رحلها فلم يجدا شيئا. فقال لها علي: أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كذبنا لتخرجن الكتاب أو لأجردنك. فلما رأت الجد

استخرجته من قرون رأسها فدفعته إليه، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا، فقال: <<يا حاطب ما حملك على هذا>>. قال: يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة. وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم. فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فأنزل الله في حاطب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة: 1] إلى آخر القصة. ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسفره حتى نزل بمر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين، وقيل في اثني عشر ألفا من سليم ومُزينة، وفي كل القبائل عدد وإسلام. وأوعب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد. وقد كان ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمته عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة لقياه بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، وكلمته أم سلمة فيهما وهي أخت عبد الله، فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك. قال:<<لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال>>. فلما خرج الخبر إليهما بذلك، قال أبو سفيان ومعه بني له: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد بني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى يموت عطشا وجوعا. فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لهما، ثم اذن لهما. فدخلا عليه، فأسلما وحسن إسلامهما، وعميت أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش، فلا يأتيهم خبر عنه ولا يدرون ما هو فاعل. وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار. وكان العباس بن عبد المطلب قد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق مهاجرا بعياله، وكان قبل ذلك مقيما بمكة على سقايته ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض. قال العباس: ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران قلت:

واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه، فاستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء، فخرجت حتى جئت الآراك، فقلت: لعلي أجد بعض الحطابة أو صاحب لبس أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا إليه، فيستأمنون، فوالله إني لأسير إليها. وألتمس ما خرجت إليه، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرًا. قال، يقول بدل: هذه والله خزاعة خمشتها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. قال، فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوته فقال: يا أبا الفضل، قلت: نعم ما لك فداك أبي وأمي. قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس، واصباح قريش، والله. قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي. قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأستأمنه لك، فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به كلما مر بنار من نار المسلمين قالوا: من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته. حتى مرت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا وقام إلي، فلما رءا أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان، عدو الله، الحمد لله الذي أمكن بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وركضت البغلة فسبقته فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فأضرب عنقه. قلت: يا رسول الله إني قد أجرته. ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل. فلما أكثر عمر في شأنه، قلت: مهلا يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد علمت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال عمر: مهلا يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، لأني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت، فائتني به. فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي. فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رءاه، قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يان لك أن تعلم انه لا إله إلا الله قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما والله هذه، فإن في نفسي منها شيئا حتى الآن. قال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق وأسلم. قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا. قال: <<نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن>>. فلما ذهب لينصرف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: << يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند حطم الخيل حتى تمر به جنود الله فيراها>> فخرج فحبسته حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحبسه، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سليم. فأقول: ما لي ولسليم. ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء فأقول مزينة فيقول ما لي ولمزينة. حتى نفذت القبائل ما تمر قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته عنهم قال ما لي ولبني فلان حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما. قال: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: نعم إذا. قلت: النجاء إلى قومك. حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميتَ الدسمَ الأحمس، قبّح من طليعته قوم. قال: ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتله الله. قالوا: وما تغني عنا دارك. قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد. ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذي طوى، وقف على

راحلته معتجرا بشقة برد حبرة حمراء، وأنه ليضع رأسه تواضعا لله حين رءا ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن عُثْنُونه (اللحية) ليكاد يمس وسط الرحل، ولما وقف هناك، قال أبو قحافة، وقد كف بصره، لابنةٍ له من أصغر ولده: أي بنيّة أظهريني على أبي قبيس، فأشرفت به عليه فقال: أي بنية، ماذا ترين؟ قالت: أرى سوادا مجتمعا، قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلا يسعى بين ذلك السواد مقبلا، ومدبرا، قال: ذلك الوازع ، يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها، قالت: قد والله اشتد السواد، قال: قد والله إذن دفعت الخيل فاسرعي إلى بيتي، فانحطت به وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته وفي عنق الجارية طوق من ورق فتلقاها رجل فقطعه من عنقها، قالت: فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رءاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه. قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك، فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره فقال: أسلم، فأسلم. ورءاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكأن رأسه ثغامة (صار أبيض)، فقال: غيروا هذا من شعره، ثم قام أبو بكر، فأخذ بيد أخته فقال: أنشد الله والإسلام طوقَ أختي. فلم يجبه أحد. فقال: أي أخيّه، احتسبي طوقك، فوالله إن الأمانة اليوم لقليل في الناس. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين فرق جيشه من ذي طوى ، الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كَداء ، بالفتح والمد، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كُدًى. فذكروا أن سعدا حين وجّف داخ ، قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة. فسمعها رجل من المهاجرين، قيل هو عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، اسمع ما يقول سعد ما نأمن أن تكون له في قريش صولة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب: أدركه، فخذ الراية، فكن أنت تدخل بها. ويقال إنه أمر الزبير بذلك وجعله مكان سعد على الأنصار مع المهاجرين. فسار الزبير بالناس حتى وقف بالحجون وغرز بها راية رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأمر صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد، وكان على المجنبة اليمنى، فدخل من أسفل مكة، فلقيته بنو بكر فقاتلوه ، فقتل منهم قريبا من عشرين، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، وانهزموا وقتلوا بالجزورة حتى بلغ قتلهم بباب المسجد،

وهرب فضضهم حتى دخلوا الدور. وارتفقت طائفة منهم على الجبال وأتبعهم المسلمون بالسيوف، وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصبُّ لمكة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أداخر في المهاجرين الأولين حتى نزل بأعلى مكة، وضربت هنالك قبته. ولما علا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثنية كدا، نظر إلى البارقة على الجبل مع فضض من المشركين، فقال: ما هذا؟ وقد نهيت عن القتال. فقال المهاجرون: نظن أن خالدا قوتل وجد في القتال فلم يكن له بد من أن يقاتل، وما كان يا رسول الله ليعصي أمرك. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة، ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عهد في نفر سماهم، أمر بقتلهم، نساء ورجالا، منهم عبد الله بن أبي سرح، كان أسلم، وكتب الوحي، ثم ارتد مشركا، ثم أمنه عثمان رضي الله عنه، فأسلم وحسن إسلامه. ومنهم عبد الله بن خطل، كان مسلما ثم قتل رجلا مسلما، وارتد. ومنهم الحويرث بن نقيد كان يوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة. ومنهم مقيس بن صبابة، أظهر الإسلام حتى قتل رجلا من الأنصار كان قتل أخاه خطأ ثم رجع إلى قريش مشركا. ومنهم سارة مولاة لبني عبد المطلب، كانت تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة. فاستؤمن لها، فأمنها حتى ماتت في خلافة عمر. ولما لقى خالد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟ قال: هم بدونا ووضعوا فينا السلاح. وقد كففت يدي ما استطعت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قضاء الله خير. انتهى مختصرا من الاكتفاء.

*** ولما رأت قريش من جنود الإسلام ما لا طاقة لهم به، أمسكوا عن قتاله وكفوا عن مدافعته، وإلى ذلك أشار بقوله:**

270 **أَحْجَمَتْ عِنْدَهُ الحَجُونُ وَأَكْدَى   عِـــنْدَ إِعْطَائِــهِ القَلِــيلَ كُــدَاءُ**

"**الحجون**"، بفتح الحاء، جبل بمكة مطل على مقبرتها، وهو المسمى بالمصلاة، وهو "**كداء**" بالفتح، و"**أحجمت**" بمعنى أمسكت وكفت. "**وأكدى**" بمعنى منع وقطع، أي أمسكت وكفت عن مدافعة الجيوش عنده، أي عند ذلك النقع والغبار

الذي أثارته خيول المسلمين، ف"**أحجمت**" أي تأخرت عن مقاومة تلك الجيوش "**الحجون**" إلخ، أهله. "**وأكدى**" أي امتنع أيضا عن المدافعة "**كُداء**" بالضم، عند إعطائه صلى الله عليه وسلم القليل من الجيش، وذلك أن الداخل من الحجون كان أكثر ممن دخل من كدى، فكلاهما امتنعا عن المدافعة نصرة للنبي صلى الله عليه وسلم، وإظهارا له على أهلهما. ويحتمل أن يكون أسند لهما المنع على وجه الاستعارة، والمراد أنه صلى الله عليه وسلم نصر عليهم نصرا باهرا حتى أن نقع مكة ساعدته ومنعت عن مدافعة من أراد ذلك. والتقدير، أن الحجون وكُدى منعاهم عن أن يمدوا أعينهم إليه صلى الله عليه وسلم، أو إلى أحد من عسكره. وهذا الذي انفصل عنه ابن حجر، وهو المختار. وضبطه كُدا بضم الكاف والمد، وهو لغة قليلة، وهو فاعل بأكدى. والله تعالى أعلم

* **وقد هلكت رجال من أهل مكة في تلك الغزوة فأشار إلى ذلك:**

271 **وَدَهَــتْ أَوْجُهًــا بِهَــا وَبُـيُوتًا　　مَــلَّ مِــنْهَا الإِكْفَــاءُ وَالإِقْــوَاءُ**

"**ودهت**" أهلكت، والداهية: المصيبة، أي أهلكت تلك الخيل، والمراد أهلها "**أوجها**" من الناس "**بها**" أي بمكة، وهم بنو بكر الذين قاتلوا خالدا فقتل منهم قريبا من عشرين رجلا وقتل من هذيل ثلاثة أو أربعة ثم انهزموا كما تقدم. "**ودهت**" تلك الخيول أيضا بيوتا بمكة كانوا يرجعون إلى أهلها ولم يعينها الكرخي ولا ابن حجر. ولكثرة ما دهى تلك الوجوه من ضرب الرءوس وإمالتها عن الأجساد "**مل**" أي سئم منها الإكفاء أي الإمالة، يقال: أكفأت الإناء أي أملته. ولكثرة ما لزم تلك البيوت من الخلاء والوحشة "**ملّ منها الإقواء**" أي الخلاء، من قولهم منزل قوى، لا أنيس به، وأقوت الدار وقوت أي خلت، هذا أصل الإكفاء والإقواء في اللغة، ثم استعملا في عيب من عيوب الشعر، فالإكفاء في الشعر المخالفة بين هجاء أو آخره كأن يكون بعضها ميما والآخر باء، والإقواء أن تختلف حركات إعراب الروي. ففي كلام المصنف استعارة وتورية ولف ونشر مرتب. انظر ابن حجر. وقد تقدم مثله في قوله:

قصدت فيهم القنا إلخ.

* **ولما ظفر صلى الله عليه وسلم بقريش، وأظهره الله عليهم، طلبوا منه العفو، فعفا عنهم، وإلى ذلك أشار بقوله:**

272 **فَدَعَوْا أَحْلَمَ البَرِيَّةِ وَالعَفْـ ـوُ جَوَابُ الحَلِيمِ وَالإِغْضَاءُ**

273 **نَاشَدُوهُ القُرْبَى التِّي مِنْ قُرَيْشٍ قَطَعَتْهَا التِّرَاتُ وَالشَّحْنَاءُ**

274 **فَعَفَا عَفْوَ قَادِرٍ لَمْ يُنَغِّصْـ ـهُ عَلَيْهِمْ بِمَا مَضَى إِغْرَاءُ**

أي فبسبب ما دهاهم مما لا طاقة لهم به، "**دعوا**" سيد الخلق صلى الله عليه وسلم الذي هو "**أحلم البرية**" قاطبة وهو أي البريئة بالهمز في الأصل، أي الخلق، أي وطلبوا منه أن يعفوا عنهم ولا يعاقبهم بما مضى منهم مما كانوا أوصلوا له من الإيذاء الذي لا يتحمله غيره صلى الله عليه وسلم، فأجابهم إلى "**العفو**" قائلا لا تثريب عليكم اليوم كما يأتي، "**والعفو**" هو "**جواب الحليم**"، لأن الحلم هو ترك الانتقام، وهو مصدر حلم بالكسر، إذا لم ينتقم لنفسه. "**والإغضاء**" إرخاء الجفون من الحيا، وهو أيضا "**جواب الحليم**" وفي ذكر العفو والحلم والإغضاء مراعاة النظير، قاله ابن حجر. وكان من دعائهم للصلح أن "**ناشدوه القربى**" أي أقسموا عليه صلى الله عليه وسلم بالقرابة التي بينه وبينهم، أن يعفو عنهم ويسامحهم، فهو على إسقاط الخافض، أي "**ناشدوه بالقربى التي**" وصلت إليه "**من قريش**" أي من بطون قريش، وهم ولد النضر بن كنانة، أحد أجداده صلى الله عليه وسلم، حال كون تلك القربى "**قطعتها الترات**" بفوقيتين جمع تِرة، وهي مصدر وتِر إذا قتل له قتيل ولم يدرك دمه. الجوهري، المؤتور الذي قتل له قتيل فلم يدرك دمه، تقول منه وتره يتره وتْرا وترة وكذا وتره حقه أي نقصه. انتهى. "**فعفى**" صلى الله عليه وسلم بسبب تلك المناشدة "**عفو قادر**" لأنه صلى الله عليه وسلم كان يسهل عليه إبادتهم عن آخرهم، ولما عفى عنهم صلى الله عليه وسلم "**لم ينغصه**" أي لم يكدر ذلك العفو "**عليهم بما مضى**" أي

بسبب ما مضى منهم من العداوة والحرب. "**والإغراء**": التسليط، من أغريت الكلب بالصيد أي حملته على اصطياده، وهو فاعل ينغص، وبما مضى صفة له تقدمت عليه فصارت حالا أي لم ينغص ذلك العفو إغراؤهم به سفهاءهم وتسليطهم عليه فيما مضى بمكة وغيرها، ولا سيما ما لقي من عبد ياليل، فتحمل صلى الله عليه وسلم ما لا يتحمله مخلوق غيره. قال ابن حجر، وخلاصة ما أشار إليه الناظم، أنه صلى الله عليه وسلم لما كان الغد من يوم الفتح، قام خطيبا في الناس، فحمد الله وأثنى عليه ومجده بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، أو يعضد بها شجرا. فإن أحد ترخص فيها لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنما أحلت لي ساعة من نهار، أي من الفجر إلى العصر، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب، ثم قال صلى الله عليه وسلم: يا معشر * قريش، ما ترون أني فاعل بكم. قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال صلى الله عليه وسلم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، أي من الأسر والاسترقاق. وفي رواية، أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: أقول كما قال أخي يوسف، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين. انتهى.

*** وإنما صدر منه صلى الله عليه وسلم ما صدر من العفو والإغضاء لأنه ناظر إلى الله تعالى دون غيره والى ذلك أشار بقوله:**

275	**وَإِذَا كَـانَ القَطْـعُ وَالوَصْـلُ للـ**	**ـهِ تَسَاوَى التَّقْـرِيبُ وَالإِقْـصَاءُ**
276	**وَسَـوَاءٌ عَلَـيْهِ فِـيمَا أَتَـاهُ**	**مِـنْ سِـوَاهُ المَـلامُ وَالإِطْـرَاءُ**
277	**وَلَـوْ أَنَّ انْـتِقَامَهُ لِهَـوَى الـنَّفْـ**	**ـسِ لَـدَامَتْ قَطِـيعَةٌ وَجَفَـاءُ**
278	**قَـامَ لله فِي الأُمُـورِ فَأَرْضَـى اللـ**	**ـهَ مِـنْهُ تَـبَايُنٌ وَوَفَـاءُ**

إذا كانت المعاملة لله سبحانه وتعالى، وحصل الحب في الله والبغض في الله، "**تساوى**" حينئذ القريب والبعيد في الحب والبغض، "**وتساوى التقريب**" للأقارب

والبعداء. "**والإقصاء**" أي الإبعاد للأقارب والبعداء أيضا، أي من كانت حالته التقريب لله والإبعاد في الله كحالة نبينا صلى الله عليه وسلم، تساوى عنده الأقارب والأباعد، ولم يميز بين قريب ولا أجنبي، لأن النظر لرضى الله وامتثال أمره لا غير، "**وسواء عليه**" أي على من كان تقريبه وإقصاؤه لله لا غير "**فيما أتاه من سواه**" أي فيما حصل له من غيره "**الملام**" أي السب والتنقيص "**والإطراء**" أي المبالغة في المدح حتى بغير الواقع، يعني، أن المدح والذم عنده سواء. وأجل من اتصف بهذه المرتبة نبينا صلى الله عليه وسلم الذي كان خُلُقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه. "**وسواء**" خبر مقدم، بمعنى مستو. "**والملام والإطراء**" مبتدأ مؤخر ويصح العكس. و"**فيما أتاه**" حال من مبتدإ أو خبر على الإعرابين. وحذف همزة التسوية والعطف بالواو كما فعله الناظم جائز مستعمل عند الفقهاء، خلافا لاعتراض ابن هشام عليهم. وقد جلب نص سيبويه، وهو صريح في الجواز فانظره فيه. "**ولو أن انتقامه**" صلى الله عليه وسلم كان "**لهوى النفس**" الذي هي في غيره أمارة بالسوء "**لدامت**" بينه وبين قومه الذين أخرجوه وحاربوه "**قطيعة**" للرحم "**وجفاء**" أي إبعاد لها، لكنه لم يكن لذلك، وإنما كان لله تعالى فقطعهم حيث قطعوا ما أمر الله به أن يوصل، ووصلهم حيث وصلوه بامتثال أمره واجتناب نهيه، غير ناظر لما سبق منهم من قتل أصحابه والتمثيل بهم يوم أحد، وما ناله منهم من شج وجهه وكسر رباعيته. "**قام**" صلى الله عليه وسلم "**لله**" وحده لا لهوى ولا لحظ نفس ولا لرعاية رحم. وفي نسخة "**بالله**" أي مستعينا بالله "**في الأمور**" جميعا. فسبب قيامه لله تعالى أو به " **أرضى الله**" تعالى "**منه**" صلى الله عليه وسلم "**تباين**" أي تباعد "**ووفاء**" أي صحبه لأوليائه من غير تعويل على حظ سوى رضى ربه جل وعلا، يعني أن تباعده صلى الله عليه وسلم لأعدائه ومحبته لأوليائه صير الله سبحانه راضيا بذلك،

* **وصار فعله كله في غاية الحسن والجمال. وفي أقصى درجة الكمال، ولذلك قال رضي الله عنه:**

279 **فِعْلُـهُ كُلُّـهُ جمـيلٌ وهـلْ يَـنْـ ـضَحُ إلا بمـا حـواهُ الإنـاءُ**

إنما كان "**فعله**" صلى الله عليه وسلم "جميل" لصدوره على أمتن قوانين الاعتدال، وأحق موازين الكمال. قاله ابن حجر. ثم استشهد عليه بالمثال السائر. فقال "**هل ينضح**"، أي يسيل ويرشح. فما فيه على ظاهره "**إلا بما حواه الإناء**" أي لا ينضح الإناء إلا بما حواه، فالضمير عائد على متقدم الرتبة وهو الإناء الفاعل، أي لا ينضح الإناء إلا بما فيه، فمن امتلأ إناء قلبه خيرا، كانت أفعاله المشبهة بما ينضحه الإناء أي بما فيه. فمن امتلأ قلبه شرا، كانت أفعاله كلها شرا. وفي الحكم: "ما استودع في غيب السرائر، ظهر في شهادة الظواهر" انتهى. فأفعال الجوارح تابعة لأفعال القلوب. والأسِرَّة تدل على السريرة.

وما فيك ظهر على فيك. وكل إناء بالذي فيه يرشح. وما خامر القلوب فعلى الجوارح أثره يلوح. قاله الشيخ زروق. قال ابن حجر: وليس أحد متحليا بهذه الصفات الباهرة إلا نبينا صلى الله عليه وسلم. وهذا من التذييل. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ ويصح أن يكون من التتميم. وفيه التلميح إلى المثَل السائر وهو: كل إناء بما فيه ينضح. انتهى.

* **وهذه الأوصاف المتقدمة يوجب سماعها اهتزاز الشوق إلى حضرته صلى الله عليه وسلم وإلى ذلك أشار بقوله:**

280 **أَطْـرَبَ الـسَّامِعِينَ ذِكْـرُ عُـلاَهُ يَـا لَـرَاحٍ مَالَـتْ بِـهِ الـنُّدَمَاءُ**

أي أفرح "**السامعين**" ونشطهم إلى محبته واتباع جميع ما برز من حضرته صلى الله عليه وسلم "**ذكر علاه**" أي معالي صفاته ومحاسن أخلاقه، لأنهم مجيدون لذلك رونحة تفوق رونحة الراح، "**يا**" حرف استغاثة "**لراح**" أي خمر مستغاث به، ولذلك فتحت لامه. وسميت الخمر راحا لأن شاربها يستريح ويرتاح من هموم الدنيا ما دام سكرانا بها. وقوله "**مالت**" أي سكرت وتواجدت "**به**" أي "**يا لراح**" المستعار "**لذكر علاه**" صلى الله عليه وسلم، فهو مذكر لفظا ومعنى، فاندفع ما يقال الراح

الخمر، وهي مؤنثة وتذكيرها شاذ. "**الندماء**" أي شاربوا الخمر، سموا بذلك لأنهم يتنادمون أي يتخاطبون عليها بالأشعار التي فيها مدحها. وهذه استعارة تصريحية واستعارة ترشيحية، لأنه شبه "**ذكر علاه**" في إطرابه لسامعه بالراح في إطرابها لشاربها. ثم قرن بذلك ما يلائم المستعار منه وهو الميل والندماء. انتهى. قاله ابن حجر.

***ثم ذكر المخصوص بهذه الاوصاف العظيمة والاخلاق الكريمة فقال:**

281 **النَّبِــيُّ الأُمِّــيُّ أَعْلَــمُ مَــنْ أَسْــ ــــنَدَ عَــنْهُ الــرُّوَاةُ وَالحُكَمَــاءُ**

أما كونه صلى الله عليه وسلم أميا، فهو من أخص أسمائه صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ** ﴾. وقال: ﴿ **فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ** ﴾ [الأعراف: 158]. وقال تعالى: ﴿ **مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ [الشورى: 52]، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهو منسوب إلى الأم، إذ الغالب من أحوالها أنها لا تكتب. فلما كان الابن بصفتها نسب إليها كأنه مثلها. أو لأنه باق على أصل ولادتها لم يقرأ ولم يكتب. وقيل إنما سمي صلى الله عليه وسلم أميا لنسبته إلى أم القرى، وهي مكة. وقيل: هو منسوب إلى أمة العرب، لأن القراءة والكتابة لم تكن معروفة فيهم، فكنى به عن ذلك. وقيل: منسوب إلى الأمة، لأنه بنفسه أمة. وأميته صلى الله عليه وسلم وصف كمال في حقه صلى الله عليه وسلم، بل هي معجزة له دالة على نبوته: كفاك بالعلم في الأمي معجزة، لأنه مع كونه لا يقرأ ولا يكتب ولم يدارس ولم يتلقّ. ممن قرأ وكتب ظهر منه من العلوم والمعارف الدينية ما يستحيل على غيره. ومعرفته بالأخبار السالفة وشرائعهم واطلاعه على علوم الأولين والآخرين، وإحكامه لسياسة الخلق على تنوعهم، وإحاطته بجميع مصالح الدين والدنيا وتخلقه بكل خُلُق حسن، واتصافه بكل كمال للخلق على الإطلاق. وإماميّته في كل علم وحكم وحكمة ما أعجز به جميع الخلق، وظهر اختصاصه به لكافتهم، فكان ذلك آية ظاهرة وحجة باهرة ودليلا واضحا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم. وكانت أميته كمالا بينا لا خفاء فيه. والمقصود من الكتابة

والقراءة هو ما ينتج عنهما من العلم، لأنهما آلة وواسطة له، غير مقصودة في نفسها، فإذا حصلت الثمرة المطلوبة منهما استغنى عنهما مع ما في ذلك لو كان يحسنه من الريبة بالاستغناء بكتابته عن ملاقاته، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ** ﴿٤٨﴾ ﴾. ولما كانت كمالية الأمية مرتبطة بالنبوة، لم يرد لفظ الأمي في حقه صلى الله عليه وسلم إلا مع لفظ النبي، فلا يفرد لفظ الأمي عنه، ولذلك أتى به المصنف بعده وأعقبه بما يدل على غاية كماله في حقه، وهو قوله: "**من أسند عنه الرواة والحكماء**" أي أعلم من أخذ عنه العلم وأسند إليه الرواة والحكماء أحاديثها، والحكماء هم حفاظ العلماء المتقنون الذين يضعون الأشياء في مواضعها فيهذبون أحاديث المصطفى ويصونونها من التحريف والتغيير ، ويذبون عن شريعته البدع بما عندهم من السنة المطهرة غاية التطهير. وعطف الحكماء على الرواة من عطف التفسير، وذكر هذا بعد وصفه بالأمية ليدل على أن أميته كمال في حقه، معجزة ظاهرة لمتأمله، إذ العلوم كلها مستمدة من علومه مع كونه لم يشتغل بها ولا عرف بشيء منها، فما هو إلا مدد رباني، ووحي إلهي.

*** ثم لما قدم المصنف كثيرا من أوصافه صلى الله عليه وسلم وأحواله وسيره ومغازيه، انتقل بطريق لطيف إلى ذكر دار مولده وبعثته، لأنهما تشرفا به صلى الله عليه وسلم على سائر الأمكنة، وإلى ذكر زيارته وتأكيدها، والإشارة إلى أنها من أفضل القربات وألح المساعي. وذكر منّة الله عليه بحصولها له، وهيأ له أسبابها من الزاد والراحلة الموصوفة بالصفات الحسنة الآتية حتى كأنها مخاطِبَةٌ له تقول: اركب على ظهري، فإني أحملك ذهابا وإيابا مع السلامة من العسر والراحة في السير ، فقال:**

282 **وَعَدَتْنِي ازْدِيَارُهُ العَامُ وَجْنَاءُ ... وَمَنَّتْ بِوَعْدِهَا الوَجْنَاءُ**

الوعد يستعمل في الخير، والوعيد يستعمل في الشر. يقال: وعده خيرا وأوعده شرا. قال الشاعر:

وإنـــــي إذا أوعدتــــــه ووعدتــــــه لمخلــف إيعــادي ومنجــز مــوعدي

والازديارة افتعال، من الزيارة، أبدلت التاء دالا. والوجناء الناقة القوية، من الوجن وهي الأرض الصلبة، يعني أن ناقته وعدته بزيارة قبره صلى الله عليه وسلم في عامه الذي أراد، فمنت عليه بوفاء ما وعدته وأسعفته فيما أراد، وهو كناية عن تيسر أمرها وتسهيل ما يحتاج إليه معها من الزاد وغيره.وهو علامة الإذن من الله تعالى بعد الاستخارة. وقوله "**ازدياره**" على نزع الخافض و"**أل**" في "**الوجناء**" آخر البيت للعهد وهي الأولى.

* **ولما منت عليه بوفاء عهدها، شمر هو فيما طلبته وأسعفته فيه، ولذلك قال:**

283 **أَفَـلاَ أَنْطَـوي لَهَـا فِـي اقتـضائـ ـه لِـتُطْوَى مَـا بَيْنَـنَا الأفْـلاءُ**

أي أيمكنني أن أترك ما وعدتني وأنجزته لي من زيارته صلى الله عليه وسلم "**فلا أنطوي**" أي أنضم وأجمع نفسي لها في حال ركوبها ليسهل سيرها، فإن ذلك من أحسن الركوب. وحسن سير المركوب من حسن ركوب راكبه ف"**أنطوي لها**" مجتهدا "**في اقتضائه**" أي في طلبي منها لذلك الموعود، فهو من إضافة المصدر إلى فاعله، وهو ياء المتكلم، والهاء مفعوله، أي في اقتضائي ذلك الموعود الذي منت بوفائه فأركبها "**لتُطوى**" للبناء للفاعل أو المفعول "**ما**" أي المسافة التي "**بيننا**" أي بيني وبين ذلك القبر الشريف، على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. و"**الأفلاء**" جمع فلاة، كما في القاموس، قال: الفلاة القفرا والمفازة لا ماء فيها. ثم قال: والصحراء الواسعة جمعه فلًى وفلوات وفُلِيّ كعصى، وجمْعُ جمْعِه أفلاء. انتهى. فعلى ضبط لتطوى بالبناء للفاعل يكون هو الفاعل، أي لتطوى تلك المفاوزُ ما بيننا وبينه. وعلى ضبطه بالبناء للمفعول يكون نائبا، وما زائدة أي لتُطوى بيننا وبينه الأفلاء وهو أسهل.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

284 **بِأَلُـوفِ الـبَطْحَاءِ يُجْفِلُهَـا النِّيـ ـلُ وَقَـدْ شَـفَّ جَوْفَهَا الإظْمَـاءُ**

هذا من صفة تلك الوجناء التي يقطع بها تلك الأفلاء، وهو كونها مشتاقة إلى

بطحاء مكة ألوفة بها لا راحة لها إلا بالحصول فيها والتعفر في ترابها. فقوله "**بألوف**" متعلق بتطوى، وألوف صيغة مبالغة من ألف وكان القياس أن يقول بها لكن أظهر لإفادة وصفها بهذا الوصف الممدوح والمراد ب"**البطحاء**" مكة وتوابعها وهو في اللغة مسيل متسع، فيه دقائق الحصا. وهذا وما بعده لسان حاله أبرزه على لسان حالها مبالغة في إقامته من تلك الأوصاف ما لو كان لراحلته إدراك. لكانت مثله فيها لما يشاهده فيها. قاله ابن حجر. وقوله "يجلها: أي يزعجها ويقلقها "النيل" أي أرض مصر من الإقامة بها مع أنها وطنها ومربّاها لشدة شرفها إلى التحلي بتلك الأنوار والتعفر بتراب تلك الآثار. والحال قد "**شف**" أي شرب رطوبة "**جوفها الإظماء**" أي شدة العطش في طريقها، فهي راضية بهذه المشقة المؤدية إلى التلف في جنب ما أملته في تلك الحضرة من مزايا الإنعام وخفايا التحف والإكرام،

*** فلذلك أنكرت مألْفها الأول وهو مصر وما حولها فأشار لذلك بقوله:**

285 **أَنْكَرَتْ مِصْرَ فَهْيَ تَنْفِرُ مَا لاَ ... ح بِــنَاءٌ لِعَيْــنِهَا أَوْ خَــلاَءُ**

أي فلأجل ما أملته من الأنوار، وقصدته من تحف الأسرار، "**أنكرت مصر**" وما والاها، لأنها لا تؤمل فيها من تلك المواهب العلية معشار ما أملته في تلك الحضرة الأحدية والساحة المصطفوية، "**فهي**" أي بسبب ذلك "**تنفر**"، بكسر الفاء وضمها، أي تجدّ في الهرب من مصر على تلك الحضرات العلية "**ما لاح**" أي مدة ما ظهر من أرض مصر "**بناء لعينها**" من ديارها أو سورها "**أو خلاء**" أو فضاء من أراضها ونواحيها، فهي تقصد إلى ما ألفته وأملته من بطحاء مكة ونواحيها، لا حرمنا الله من وصولها بمحمد وآله.

*** ثم ذكر مواطن نزوله في صعوده تشويقا للسامعين وتهييجا للقاعدين فقال:**

286 **فَأَفَــضَّتْ عَلَــى مَــبَارِكِهَا بُــرْ ... كَــتُهَا فَالــبُوَيْبُ فَالخَــضْراءُ**

287 **فَالقِبَابُ الَّتِــي تَلِــيهَا فَبِئْــرُ الــ ... ـنَّخْلِ وَالــرَّكْبُ قَائِلُــونَ رِوَاءُ**

288 **وَغَــدَتْ أَيْلَــةٌ وَحِقْــلٌ وَقَــرٌّ ... خَلْفَهَــا فَالمَغَــارَةُ الفَــيْحَاءُ**

289 فَعُيَونُ الأَقْصَابِ يَتْبَعُهَا النَّبْـ ـكُ وَتَتْلُو كَفَافَةُ العَوْجَاءُ

290 حَاوَرَتْهَا الحَوْرَاءُ شَوْقًا فَيَنْبُو عُ فَرَقَّ اليَنْبُوعُ وَالحَوْرَاءُ

291 لاَحَ بِالدَّهْنَوَيْنِ بَدْرٌ لَهَا بَعْـ ـدَ حُنَيْنٍ وَحَنَّتِ الصَّفْرَاءُ

293 وَأَرَتْهَا الخَلاَصَ بِئْرُ عَلِيٍّ فَعُقَابُ السَّوِيقِ فَالخَلْصَاءُ

294 فَهْيَ مِنْ مَاءِ بِئْرِ عُسْفَانَ أَوْ مِنْ بَطْنِ مَرٍّ ظَمْئَانَةٌ خَمْصَاءُ

295 قَرَّبَ الزَّاهِرُ المَسَاجِدَ مِنْهَا بِخُطَاهَا فَالبُطْءُ مِنْهَا وَحَاءُ

296 هَذِهِ عِدَّةُ المَنَازِلِ لاَ مَا عُدَّ فِيهِ السِّمَاكُ وَالعَوَاءُ

فذكر ثمانية وعشرين موطنا على عدد منازل الشمس والقمر،

فأولها البرْكة، بفتح الباء وسكون الراء، وتسمى بركة الحاج، وهي في اللغة مجتمع الماء، سميت بذلك لأن ماء النيل يأتي إليها فيمكث فيها زمنا طويلا، وهو أول محل يلي طريق الحجاج فيه، للتأهب لسفرهم، ولذلك كان مجمعا عظيما يجمع إليه كلما يحتاج إليه الحجاج، وكانت فضاء لا عمارة فيها، فجعل فيها القطب الرباني البرهاني المتبولي جامعا وجعل فيها مجاورين يقرءون القرآن، فعادت بركته عليهم حتى ذكر بعض صالحيهم انه اشتهى زيارة أمه بالعجم وهو ثم، فاستأذن الشيخ في السفر لذلك، فلم يأذن له ودخل إلى خلوته والناس يقرءون القرآن على بابها فرءا نفسه ببلدة عند أمه فسلم عليها وأقام عندها أربعة أشهر بالأيام والليالي، ثم اشتاق للشيخ، فرءا نفسه في خلوته، فخرج فرءا القراء قد قرءوا في تلك المدة نحو ربع القرءان. وهذا من بعض كرامة الأولياء، أن الله تعالى يطوي لهم الأرض ويفسح لهم في الزمان. ووقع لهم في نظائر ذلك ما لا يحصى. وإنكار اتساع الزمن القليل دون طي الأمكنة تحكم، لأن كليهما من حيز الكرامة. قاله ابن حجر. قلت: ويشهد لهذه الحكاية من طي الزمان ما ذكره الفرغاني في شرح تائية ابن الفارض عن الشيخ العارف شهاب الدين عمر السهروردي رضي الله عنه ونفعنا به، قال: كان لشيخ الشيوخ ابن سكينة مريد صائغ وصنعته حمل سجادات الصوفية إلى الجامع وبسطها وردها إلى الخانقات، فكان يوما

من أيام الجمعات، جمع السجادات فشدها ليذهب بها إلى الجامع ثم ذهب إلى دجلة لغسل الجمعة وخلع ثيابه ووضعها على شاطئ دجلة وخاض الماء ثم قام وإذا بنهر غير ما هو خائض فيه،فسأل فقال هذا نيل مصر، فتعجب وخرج من الماء ودخل البلد فاجتاز على دكان صائغ ووقف عنده، وعليه مئزر يستر عورته لا غير،فتفرس صاحب الدكان فيه أنه يعرف الصياغة، فسأله عن ذلك، فأجاب معترفا بأنه صائغ، فجربه فوجده مجيدا في الصنعة، فأكرمه ونقله إلى داره وزوجه بشالة واستولد منها ثلاثة أولاد ومضى على ذلك سبع سنين، ثم مشى ذات يوم إلى النيل وخاض فيه ثم رفع رأسه وإذا هو ببغداد بالموضع الذي خاض فيه قبل سبع سنين، وإذا بثيابه كما هي في موضعها، فلبس ثيابه وجاء إلى الخانقات، وإذا بالسجادات مشدودة على مشده، فقال له بعض الأصحاب استعجل في حمل السجادات فإن بعض الجماعة بكروا إلى الجامع، فحملها ثم بعد الفراغ من صلاة الجمعة ردها إلى الخانقات ومشى متعجبا، وإذا بأهله تطالبه بضيفانه الذين أمر بتشوية السمك لهم قبل ذلك، فأحضرهم وأطعمهم ذلك وهو متعجب في حاله. ثم جاء إلى الشيخ ابن سكينة وأخبره بما جرى له وبقضية أولاده بمصر، فأمر بإحضارهم منها إلى بغداد فأحضروا وصدق الخبر. ثم سأل الشيخ ابن سكينة صاحب الواقعة وما انطوى باطنه عليه من الفكر يومئذ. قال: وقع لي ذلك اليوم من أول النهار نزاع في نفسي في قوله تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال شيخ الشيوخ: هذه الواقعة رحمة من ربك، رفع لإشكالك وتصحيح لإيمانك واعتقادك أن الله تعالى قادر على بسط الزمان بالنسبة إلى بعض أوليائه بحيث يظهر طويلا بالنسبة إليهم وهو قصير بالنسبة إلى غيرهم وبالعكس. وكذا في بعض المكان. انتهى. وإلى هذا الموطن الأول من مواطن الحج أشار المصنف بقوله "**فأفضت**" أي صبت، يقال افتض الماء إذا صبه شيئا فشيئا. والفضيض: الماء العذب. "**على مباركها**" أي الناقة، جمع مبرك وهو محل البروك، أي فأفاضت الماء العذب على مباركها بركتها، بسكون الراء، حتى رويت هي وراكبها ومن معه.

المنزل الثاني: البويب، وهو معروف عند الحجاج، ينزلونه بعد البركة، وإليه

أشار بقوله "**فالبويب**".

المنزل الثالث الخضراء، وهي قريبة من المحل المسمى بمجرو، وفيه بير ماء وبجانبها بركة ماء تملأ من بيت المال تعم احتياج الحجاج إليها، وكان ذلك من أصله حدث بعد الناظم. وإلى هذا المنزل أشار بقوله "**فالخضراء**".

المنزل الرابع، وادي القباب، وسمي بذلك لأن فيه كثبان من رمل أبيض، فأشبهت به لارتفاعها وبياضها. القباب البيض الحسية.

المنزل الخامس"**بير النخل**" وهي معروفة، وبجانبها بركة تملأ من بيت المال أيضا، وماؤها أحسن من الذي قبله بكثير. وإلى هذا أشار بقوله "**فبير النخل**" وأشار إلى البركة المذكورة ومائها بقوله "**والركب قائلون**" عندها أي مستريحون وقت القيلولة "**رواء**" من الماء، بكسر أوله، جمع ريان وهو الذي يروى من الماء.

المنزل السادس: أيلة، وإليه أشار بقوله "**وغدت أيلة**" أي صارت عقبتها.

المنزل السابع: حَقْل وهو محل بعدها قريب منها تسميه العامة مدور حقن.

المنزل الثامن: قر، قال ابن حجر، ليس هذا المنزل مشهورا عند الناس اليوم، وأشار المصنف إليه بقوله:"**وقر**" وقوله "**خلفها**" أي غدت هذه الأماكن خلف الناقة لكونها جاوزتها وصارت خلفها.

المنزل التاسع: المغارة الفيحاء أي الواسعة، وهي المنسوبة إلى شعيب عليه السلام، وإليه أشار بقوله "**فالمغارة الفيحاء**".

المنزل العاشر:عيون الأقصاب، سميت بذلك لكثرة ما فيها من القصب الفارسي، وإليه أشار بقوله: "**فعيون الأقصاب**".

الحادي عشر: النبك، وهذا أيضا ليس بمشهور، وفي القاموس: النبك بالنون، بلد بين حمص ودمشق، وإليه أشار بقوله "**يتبعها**" أي عيون الأقصاب النبك.

الثاني عشر: الكفافة، بكاف وفاء بين مخففتين، وبها قبر ولي يسمى مرزوقا

مشهور البركة، وله ذرية كثيرون مشهورون بالصلاح، وللحجاج فيه اعتقاد وتعظيم خارج الحد. وإليه أشار بقوله " **وتتلو**" أي النبك الكفافة العوجاء، أي المخرجة من جادة الطريق. وجعل الشارح كفافة مفعول يتلو والعوجاء فاعله، فعليه يكون هما محلان متغايران . قال ابن حجر وفيه نظر إذ ليس ثم محل يعرف بالعوجاء أصلا.

الثالث عشر: الحوراء، بالحاء المهملة، وإليه أشار بقوله "**حاورتها**" من المحاورة وهي المكالمة. أي: حادثت الناقة الحوراء فيما هي بصدده "**شوقًا**" لِما الناقة مشتاقة له وسائرة إليه. وإثبات الشوق إلى الجمادات غير منكر لقوله تعالى: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ** ﴾ [الحشر: 21]. ﴿ **وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾. وقد قال صلى الله عليه وسلم: أُحُدٌ يحبنا ونحبه>>.

الرابع عشر: الينبوع، وهي بلدة معروفة من جملة الحجاز الذي هي مكة والمدينة واليمامة وقراها، فقد ذكروا أن ينبوع هذه من جملة قرى المدينة، وإليه أشار بقوله: "**فينبوع**" أي حاورت الناقة أيضا شوقا "**فرق**" بسبب مجاورتهما "**الينبوع والحوراء**" المذكوران، لسماعهما ما يتعلق بالزيارة ومشاهدتهما للزائرين.

الخامس عشر: الدهنوين، وهو محل قبيل بدر، مجاور لها، ولذلك قال "**لاح**" أي ظهر "**بالدهنوين**"، تثنية دهنا، ثم غلب اسما، "**بدر**" فاعل لاحت، أي ظهر فيها، وهو المنزل.

السادس عشر: وهو الآن قرية كبيرة بها عين كبيرة ونخيل ومحل الوقعة المشهورة به التي أعز الله بها الإسلام وهو مشهور يزار ويتبرك بمن دفن بهن من الشهداء وغيرهم. وبقربه آية باقية من آياته صلى الله عليه وسلم وهي سماع صوت هائل كصوت طبل الحرب في الجو اشتهر على الألسنة أن هذا لأجل نصرته صلى الله عليه وسلم والفرح به. وقد أنكره قوم فقالوا لا حقيقة له وإنما هي أصوات الريح تسمع في ذلك الوادي. وقال آخرون من أئمة المتأخرين بل له حقيقة لأنا ذهبنا إلى ذلك

المحل وأقمنا به حتى سمعناه والجو ساكن لا ريح فيه البتة وتكرر سماعنا له المرة بعد المرة. انتهى. قاله ابن حجر ثم قال: وأقول، وقع في سماعه أيضا مرات متعددة في سفرات متعددة حيث لا ريح ولا حركة دواب ولا مشات ثَمّ، ولقد كنت في بعضها مرافقا لجمع جمٍّ من وجوه مكة ورؤسائها وعلمائها من المالكية والحنفية فجرى الكلام بينهم في ذلك، فمنهم من أنكره، ومنهم من أثبته. ثم وقع الاتفاق على الذهاب لذلك الموضع والرقي إلى أعلى أحد الجبلين ليحاط بذلك الصوت فذهبنا وأقمنا عليه نحو ربع النهار ونحن لا نسمع شيئا وقد هدأ الريح ولا أحد ثم غيرنا وليس لأحد منا حركة ففي آخر الأمر سمعنا ذلك الصوت الهائل مرة واحدة فقط فانصرفنا، ومن المنكرين من رجع ومنهم من أصر على إنكاره، وقد جاءنا فقيه ساكن يؤذن ويؤم في مسجد البلد فسئل فحلف أنهم ليلة الاثنين والجمعة يسمعون ذلك من أول الليل إلى آخره، وفي غيرهما لا يسمعونه إلا أحيانا والله أعلم بحقيقة ذلك. وقوله "**لها**" متعلق بـ"**لاح**"، أي ظهر للناقة بدن بعد حنين وهو المنزل.

السابع عشر: أعني **حنين** وهو على ما قيل جبل صغير قريب من بدر، فالظاهر أن الناظم اعتمد فيه على ما هو مشهور في ألسنة العامة إذ لم يذكر في القاموس غير حنين المذكور في الآية الذي هو عين بين مكة والطائف، وقول الشارح أن نسخة قبل أوضح لأن حنين بعد بدر يقتضي أن لما ذكره الناظم مستندا لكن لا يكفي مع كون القاموس الجامع المستوعب لم يذكره، قاله ابن حجر.

الثامن عشر: **الصفراء**، وهي قرية معروفة منحرفة عن طريق مصر لا يمرون عليها إلا عند ذهابهم للزيارة، واليه أشار بقوله "**وحنت الصفراء**" أي وحنت تلك الناقة الصفراء.

التاسع عشر: بزوة.

والعشرون: **فرابغ**، وظاهر القاموس أنه بكسر الباء فقط، وهو محل الإحرام[1].

(1) لم يذكر في المخطوط:[الواحد والعشرون] من الأماكن.

والثاني والعشرون: الجحفة، وهو بعد رابغ بقريب، كان بلدة مشهورة لليهود، فدعا صلى الله عليه وسلم ربه أن ينقل حمى المدينة إليها، فكان لا يمر بها أحد حتى الطائر إلا صح. وكان ميقات الحجاج المتوجهين من تلك الطريق كما صح بالخبر. قاله ابن حجر. وإلى هذه المنازل الثلاث أشار بقوله "**ونضت**" أي خلعت "**بزوة**" خبثها المشهور وإسناد ذلك إليه وإلى ما بعده مجاز، أي خلعت "**بزوة فرابغ فالجحفة عنها**" أي عن تلك الناقة لأنها استبشرت بقطع تلك المساكن "**ما**" أي ثوب التعب الذي "**حاكه**" أي نسجه "**الإنضاء**" أي الهزال، شبّه الهزال بحائك الثوب من حيث أن الهزال يوجب للبدن من التعب ما يعمه ويستر قوته كما يستر الثوب البدن، ثم خيل له بإثبات ما هو من لوازم المشبّه به وهو الحياكة، ورشح له بذكر الخلع فهي استعارة بالكناية تنعها التخيلية.

والثالث والعشرون من المنازل **فبير علي** رضي الله عنه وهو آخر الحبث الذي بعد رابغ إلى مكة وإلى ذلك أشار بقوله "**وأرتها**" أي أبصرت تلك الناقة "**الخلاص**" من التعب "**بير علي**" لإمضائها حينئذ إلى السهل وقرب المحل.

الرابع والعشرون عقاب السويق وهو بعد بير علي بقليل.

الخامس والعشرون: الخلصاء المحل المشهور الآن بخليص وفيه عين واسعة وبركة كبيرة واليهما أشار بقوله "**فعقاب السويق فالخلصاء**".

السادس والسابع والعشرون: عسفان وبطن مر الظهران واليهما أشار بقوله "**فهي**" أي الناقة من ماء بير عسفان المشهورة، أو ماء عيون بطن مر الظهران "**ظمئانة**" أي عطشانة "**خمصاء**" أي جوعانة، لأن العادة أن الحجيج إذا وصلوا لنحو عسفان اشتد شوقهم فاشتغلوا عن سقي دوابهم وإطعامها إلى أن يدخلوا مكة.

الثامن والعشرون: الزاهر وهو مشهور قبيل ذي طوى وهو بعد مساجد عائشة الذي يعرف بالتنعيم، وهذه الأماكن قريبة بعضها من بعض، لأن المسافة على نحو ميلين، ولذا جعلت منزلا واحدا، فأشار الشيخ إليها بقوله "**قرب الزاهر**"

المشهور"**المساجد**" المعروف بمساجد عائشة،وبالتنعيم "**منها**" أي من الناقة أي أن وصولها للمساجد جعل الزاهر قريبا منها، فالزاهر مفعول مقدم،والمساجد فاعل،أي قرب المساجد. الزاهر من الناقة. "**بخطاها**" أي بسبب شدة جريها لما أحست بالوصول "**فالبطء**" الحاصل "منها وحاء" بمهملة قبلها واو مفتوحة، أي سرعة. وكأن مراده أن الناقة لما أحست بالوصول انقلب بطؤها سرعة شديدة. وهنا انتهت المنازل الثمانية والعشرون على عدة منازل الشمس. قال "**هذه**" المذكورات "**عدة**" غالب "**المنازل**" بين مصر ومكة التي عليها المعول.لأنها بها تعرف طريق الوصول إلى تلك المعاهد.ويتضح سلوك الوافد وينشط سماعها لكل قاصد "**لا ما**" أي منازل الشمس والقمر الثمانية والعشرون التي عد فيه ذكره نظرا للفظ ما "**السماك**" الأعزل الذي هو من منازل القمر. ولهم سماك آخر ولكنه ليس من المنازل. "**والعواء**" منزلة من منازل القمر وهي خمسة أنجم فلا يعتد بها كما يعتد بتلك المنازل. لأن تلك المنازل توصل إلى محل الأحباب، وإلى حصول الرضى والكرامة من رب الأرباب،لا حرمنا الله من الوصول إلى تلك البقع، والتضرع في تلك الأماكن.آمين.

* **ثم ذكر الشيخ كيفية حجه بعد الوصول فقال:**

297 فَكَأَنِّي بِهَا أَرْحَلُ مِنْ مَكَّـ ـةَ شَمْسًا سَمَاؤُهَا البَيْدَاءُ

298 مَوْضِعُ البَيْتِ مَهْبِطُ الوَحْيِ مَأْوَى الرُّسْلِ حَيْثُ الأَنْوَارُ حَيْثُ البَهَاءُ

299 حَيْثُ فَرْضُ الطَّوَافِ وَالسَّعْيِ وَالحَلْـ ـقِ وَرَمْيِ الجِمَارِ وَالإِهْدَاءُ

هذا أيضا تشويق للسامعين وتهييج للقاصدين أي "**فكأني**" حين ركبت الناقة قاصدا "**من مكة**" إلى عرفة "**أرحل شمسا سماؤها البيداء**"، فالباء بمعنى على والضمير للناقة، شبهها بالشمس في ارتفاعها لرفعة ما هي قاصدته، وشدة سيرها لما عندها من عظيم الشوق إلى عرفة ونواحيها، لأنها باب المدد الذي يقف به السائلون، ويلوذ به المحتاجون. ثم إلى المزدلفة للمبيت بها لأنها نسك واجب أو مندوب. ولأن فيها مقام الجمع الأكبر، ومن ثم سميت جمعا. وفي حديث ضعيف أنه صلى الله عليه

وسلم دعا ربه في عرفة أن يكفر عن أمته بالحج حتى التبعات فلم يستجب له، فدعا بذلك في مزدلفة، فاستجاب له. ثم إلى منى للرمي والمبيت بها ثم إلى بقية المشاعر التي حول مكة وبها. فتشبيه الناقة بالشمس استعارة بالكناية، وإثبات الشمس لها تخييل وذكر الرحيل والسير تجريد. وشبه البيداء بأسماء التي هي محل سير الشمس لسعتها واستوائها تشبيها بليغا فشبه الناقة بالشمس لما مر، وشبه البيداء التي هي محل سيرها بالسماء التي هي محل سير الشمس بجامع السعة. ولما ذكر مكة استطرد ذكر ما شرفها الله به على سائر البلاد، فقال: "**موضع البيت**" أي الكعبة فهو بدل من مكة بدل بعض من كل أو خبر عن محذوف. ومعنى كون مكة موضع البيت أنه في بعضها. وفيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ** ﴾ الآية. وقوله: "**مهبط الوحي**" نعت أو نعت بعد بدل بعد بدل، أو بحذف العاطف. وكذا يقال فيما بعده، أي هو محل نزول الوحي على رسول الله ثلاث عشرة سنة. والوحي لغة الإشارة وكل كلام خفي. وشرعًا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه على لسان الملك، أو بالإلهام أو في النوم أو بالإلقاء في الروع. وقوله "**مأوى الرسل**" أي محل إيوائهم، من آوى إلى منزله إذا رجع. والمراد جميع الأنبياء عليهم السلام. لأنه ما من نبي إلا وقد حج البيت، كما في الحديث، واستثناء هود وصالح لاشتغالهما بأمر قومهما لم يصح. وقوله: "**حيث الأنوار**" ظرف مكان بدل مما قبله. "**والأنوار**" مبتدأ والخبر محذوف، أي منزلة أو موجودة، إذ لا تضاف حيث للمفرد. والمراد بالأنوار: ما ينزل على قلوب الطائعين والمصلين والعاكفين من المعارف والعلوم والأسرار الإلهية. ولما رءا الشبلي رضي الله عنه مكة في حجه، خر مغشيا عليه، فلما أفاق قال:

هـــذه دارهـــم وأنـــت محـــب فمـــا بقـــاء الدمـــوع فـــي الأمـــاق

وقوله: "**حيث البهاء**"، إعرابه كما تقدم قبله. والمراد بالبهاء ما يتحف الله به أولياءه من اللطائف الربانية، والأسرار العرفانية، من صفة جماله، وبهائه التي تسبي العقول وتذهل الألباب، حقق الله لنا ذلك فيها بمنه وكرمه، وبحق سيدنا محمد نبيه صلى الله عليه وسلم، آمين. وقوله: "**حيث فرض الطواف**" في الحج والعمرة، وما

سواهما مندوب في الأصل. وقيل سنة. وقد ورد في فضله أحاديث وأخبار تحمل من أحاط به على مزيد الإكثار منه، بل قال بعض العلماء: إنه للغرباء أفضل من الصلاة، لأنه عبادة خاصة بهذا المحل لا توجد في غيره، واختلفوا هل الطواف أفضل أركان الحج أو الوقوف، فقال جمع الطواف، لأنه ملحق بالصلاة فيشترط فيه شروطها بخلاف الوقوف. وقال آخرون ، بل الوقوف للحديث الصحيح: الحج عرفات، أي معظمه، ذلك لأن من أدركها أدركه، بخلاف الطواف، وأنه المتكفل بمغفرة الذنوب وقضاء المآرب، كما في الأحاديث الصحيحة، ولأنه يشترط وقوعه حال الإحرام المشعر بغاية الذل والافتقار، بخلاف بقية الأركان،وهذا أصح. قاله ابن حجر. وقوله" "**السعي**" أي وحيث فرض السعي، وهو واجب بعد القدوم، فإن تعذر فبعد الإفاضة، كما هو مقرر في محله. "**والحلق**" أي وحيث فرض الحلق أو التقصير وهو واجب عند مالك بعد الرمي يوم النحر "**والإهداء**" أي وحيث الإهداء أي سوقه إلى مكة ثم ذبحه وتفرقته، والمراد بمكة كل الحرم، وهذا محله إذا نذر ذلك، لأن مذهب الناظم، أن أصل الإهداء سنة ولو لغير الحاج، ومن ثم كان صلى الله عليه وسلم يرسله إليها من المدينة وهو مقيم بها لا واجب، ويجوز أن يراد بالإهداء كل ذي واجب في النسك أو توابعه، ومحل تفصيل ذلك كتب الفقه والمناسك. فمن أراد ذلك فلينظره في محله وبالله التوفيق.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

300 **حَـبَّذَا حَـبَّذَا مَعَاهِـدُ مِـنْهَا   لَـمْ يُغَيِّـرْ آيَـاتِهِنَّ الـبِلاَءُ**

301 **حَـرَمٌ آمِـنٌ وَبَـيْتٌ حَـرَامٌ   وَمَقَـامٌ فِـيهِ المُقَـامُ تَـلاَءُ**

"**حبذا**" مثل نعم مع زيادة المحبة والتقريب، وتكريرها تأكيد للمحبة والشوق "**معاهد**" مخصوص بالمدح، وهو جمع معهد، والمعهد في الأصل المنزل الذي يعود إليه مفارقوه دائما، ولا شك أن منازل مكة، كل من فارقها عائد إليها تارة بفعله وتارة بعزمه وقلبه، ومرّة بروحه وشوقه. والضمير في "**منها**" إلى مكة شرفها الله، أي حبذا

معاهد من مكة الشريفة، كالكعبة ومسجدها، ودار خديجة والصفا والمروة، ومحل ولادته صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من المواضع المأثورة بها، وبالحرم كمنى ومزدلفة، وخارجه كعرفة. "**لم يغير آياتهن**" أي علامتهن الدالة على شرفهن من تعظيم الأمة لهن وازدحامهن على التبرك بزيارتهن والقيام بحقوقهن "**البِلاء**" بكسر الباء، أي طول المدة الذي من شأنه أن يغير الأشياء عما هي عليه، وذلك لأن الله تعالى صانها من التغير لحرمتها لديه وفضلها عنده، وليستمر لهذه الأمة التمتع بها إلى آخر الدهر. "**حرم آمن**" أي هو محرم بحرمة الله تعالى من يوم خلق السماوات والأرض كما في الصحيح، وحديث أن إبراهيم حرم مكة، المراد أنه اظهر حرمتها التي كانت خفيت على الناس، فلا تعارض بين الحديثين، وأما كونه آمنا فلا شك أنه أمان لكل من دخله من مصائب الدنيا والآخرة، حتى كان الرجل يرى فيه قاتل أبيه فلا يتعرض له، ولم تعد فيه دابة على دابة، وكان فيه رجل من قوم أبرهة فلم يصبه ما رمى الأبابيل حتى خرج منه، وهو أمان لأهله من شأن الغارات واستباح الحرمات، بل كان أهله آمنين حيث ما حلوا من البلدان تعظيما لحرمته. وكل من أراد كيدهم من الجبابرة أهلكه الله قبل أن يصل، هذا في الجاهلية. وأما بعد بعثته صلى الله عليه وسلم فزيادة أمن صيوده وشجره ونباته، وكذا لقطته على مذهبٍ، وترابِه عن أن يتعرض أحد إليها بقتل أو قلع أو قطع أو تملك أو نقل إلا ما استثنى، وهذا مقتبس من قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** ﴾ وهو بدل من قوله موضع البيت بدل كل من بعض على حد قوله تعالى: ﴿ **فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝٦٠ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ** ﴾ على من أثبته، أو خبر عن مبتدأ محذوف أي هو "**حرام آمن وبيت حرام**"، أي وحرمة باهرة، وعزة قاهرة، ومناقب فاخرة، وهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿ ۞ **جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ** ﴾ [المائدة: 97] "**ومقام**"، بفتح الميم، والمراد مقام إبراهيم عليه السلام، مقتبس أيضا من قوله تعالى: ﴿ **فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ** ﴾، وهو الحجر الذي نزل لإبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من الجنة،

كما صح به الحديث، ليقوم به عند بناء الكعبة إذا طال البناء، فكان يعلوا به إلى أن يضع الحجر في محله، ثم يقصر به حتى يتناول الحجر من إسماعيل صلى الله عليه وسلم، وفيه أثر قدميه الكريمتين وهو الذي نادى عليه لما فرغ من بناء الكعبة: أيها الناس إن الله بنى لكم بيتا فحجوا إليه، فسمعته النطف في الأصلاب، والأجنة في الأرحام، فأجابوه بلبيك، وفي رواية أنه نادى بذلك على الحجون، ويحتمل أنه نادى مرتين، قال الأئمة وبقاؤه من غير أن يتعرض له أحد في الجاهلية مع كثرة السيول التي كانت تدخل الحرم وتزحزح ما هو أكبر منه بأضعاف متضاعفة، من آيات الله الباهرة. واختلفوا في موضعه الموجود فيه اليوم، هل هو الذي كان في زمنه صلى الله عليه وسلم أولا، وإنما كان عند باب الكعبة فرده عمر رضي الله عنه إلى موضعه اليوم اجتهادا قولان، أصحهما الأول، وقيل هذا الحجر هو الذي وضع الخليل عليه رجليه لما جاء بعد موت هاجر ليزور إسماعيل، فوجده غائبا فسأل زوجته فشكت، فقال عليه السلام: مري زوجك يغير عتبة بابه، فجاء فأخبرته، فطلقها، ثم جاء وقد تزوج أخرى فوجده غائبا فسأل عن حالهم فأثنت، ثم أمرته بالنزول لتطعمه فأبى، فوضعت له حجرا فوضع قدمه عليه وأمال لها رأسه فغاصت قدمه، ثم حولته فغاصت الأخرى، ثم قال لها: مري زوجك فليلزم عتبة بابه. انتهى. من ابن حجر. والقول الأول في الركن هو الذي في البخاري وليس فيه أنه من الجنة ولا الرفع والغوص، فالله أعلم. وقوله: "**فيه المقام تلاء**" أي الإمامة في ذلك البيت تلاء، أي جوار، لأن كل من أقام فيه فهو جار الله، وكان أهل مكة يسمون جيران الله، أي بيته وحرمه. والإقامة فيه من أفضل القرب، وأرفع الرتب، لأنه محل تنزل الرحمات، وإقامة العثرات لمن قدر على آدابه. والعبادة فيه متضاعفة الثواب على غيره بأضعاف كثيرة، غير مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. فالضمير المجرور يعود على البيت لا على المقام، و"**المُقام**" بضم الميم، بمعنى الإقامة، ومعنى "**تلاء**"، بفتح التاء، جوار وهو أحد معانيه كما في القاموس. والله أعلم وبالله التوفيق.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

302 **فَقَـضَيْنَا بِهَـا مَنَاسِـكَ لاَ يُحْـ ـمَـدُ إِلاَّ فِـي فِعْلِـهِنَّ القَـضَاءُ**

أي فأدينا بمكة "**مناسك**" الحج والعمرة، أي أركانهما وواجباتهما وسننهما. وإطلاق القضاء على الأداء، شائع، كقولهم: قضيت ديني، أي أديته. والمناسك جمع منسك، من النسك وهو العبادة، وهي هنا جميع أفعال الحج واجبة أو مندوبة. وقوله "**لا يحمد إلا في فعلهن القضاء**" أي لا يستحق أن يحمدا حمدا مخصوصا في فعل عبادة إلا في فعل هذه المناسك، وكيف وقد تميزت بِبِر الحج المتكفل بالجنة من غير عمل آخر، وبخروج فاعله من الذنوب كيوم ولدته أمه، وبكونه وقت فعلها أشعث أغبر، وبمنعه مألوفاته الحسية والمعنوية، وبفراقه لوطنه وأهله، وبتكفير تبعاته على ما فيه من الخلاف، وبكونه لا يضع قدما أو يرفعها إلا كتب له من الثواب ما لا يحيط به إلا المتفضل به. وبقوله حمدا مخصوصا يندفع ما يورد على الناظم أن غير الحج الأفضل منه أو المساوي له أو المفضول عنه يحمد فاعله أيضا. وتقديم المستثنى في مثل كلام الشيخ جائز، كقول الشاعر:

وهل يغرس إلا في منابتها النخل

وبالله التوفيق.

*** ثـم ذكـر كيفـية سـيره إلى المديـنة المـنورة وكيفـية زيارتـه لا حـرمنا الله بمـنه وكرمه:**

303 **وَرَمَيْـنَا بِهَـا الفِجَـاجَ إِلَـى طَـيْـ ـبَةَ وَالـسَّيْر بِالمَطَايَـا رِمَـاءُ**

304 **فَأَصَبْنَا عَنْ قَوْسِهَا غَرَضَ القُرْ بِ وَنِعْـمَ الخَبِيـئَةُ الكَـوْمَاءُ**

يعني، ولما قضينا بمكة المناسك والأوطار، وحط عنا بها المآثم والأوزار، قصدنا إلى محل المحاسن والأنوار، واقتباس المعارف والأسرار، إلى زيارة الحبيب، والتعرض لما يهب من نفحات ذلك الطيب، قوله "**ورمينا بها**" أي الناقة "**الفجاج**" جمع فج، وهو الطريق الواسع، أي ألقيناها فيها لتسير بنا "**إلى طيبة**" وهي المدينة المشرفة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام، سميت بذلك لأن الله تعالى طيبها لرسوله

صلى الله عليه وسلم، فجعلها دار هجرته، ومحل نصرته، وموضع تربته، ولا طيب يعدله، ولها أسماء كثيرة. "**والسير بالمطايا**" جمع مطية، وهي الدابة، لأنها تمطوا أي تجد في السير "**رماء**" مصدر راميته من الرمي. شبه سير المطايا في السرعة بسير سهم للرمية. "**فأصبنا عن قوسها غرض القرب**" أي فبسبب أن سير المطايا يشبه سير السهم أشبهت الناقة بالسهم، استعارة بالكناية، وإثبات الرمي تخييلية، وذكْر القوس والغرض ترشيح. وقوله: "**ونعم الخبيئة**" أي الذخيرة "**الكوماء**" أي الناقة الكوماء، وهي العظيمة السنام. والكوماء مخصوص بالمدح، خبر مبتدأ محذوف أو عكسه. وبالله التوفيق.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

305 **فرأينا أرض الحبيب يغض الـ طرف منها الضياء واللألاءُ**

يعني ولما وقع القرب من المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، "**رأينا**" أي أبصرنا المدينة وما حولها، التي خصها بكونها أرض حبيبه صلى الله عليه وسلم، فقد تميز صلى الله عليه وسلم بمقام المحبة التي هي أجل وأعلى من مقام الخلة، لأن مقام المحبة الكاملة تستلزم الخلة وزيادة. "**فرأينا أرض الحبيب يغض**" أي يخفض "**الطرف منها**" أي: من أجل الجلالة التي حفتها "**الضياء**" المشرق عليها حسا ومعنى، وهو فاعل يغض. "**واللأْلاء**" أي: البرق اللامع على صفحاتها حسا معنى. فالحس ما يشاهد بالبصر، والمعنوي ما يشاهد بالبصيرة، من مواهب الله الفائضة على الزائرين. لا حرمنا الله من زيارته ونيل مواهبه بمنه وكرمه وسيدنا محمد نبيه، آمين.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

306 **فكأنَّ البيداءَ من حيثُ ما قا بلَتِ العَينُ روْضةٌ غنَّاءُ**

307 **وكأنَّ البقاعَ زرَّت عليْها طرَفيْها مُلاءَةٌ حمْراءُ**

308 **وكأنَّ الأرْجاءَ ينشُر نشْر الـ مِسكِ فيها الجَنوبُ والجِرْبِياءُ**

309 **فإِذا ما شِمْتَ أوْ شَمَمْتَ رُباهَا　　لاحَ مـنْها بـرْقٌ وفَـاحَ كِـباءُ**

310 **أيَّ نُـورٍ وأيَّ نَـوْرٍ شـهِدْنـا　　يـوْمَ أبْـدتْ لـنَا القِـبابُ قُـباءُ**

"**كأن**" موضوعة للتشبيه المؤكد. فأصله قولك: كان زيد أسدا، إنه كأسد. فقدم التشبيه اهتماما به ففتحت "**أن**" لدخول الجار عليها. قال بعضهم: وإنما تستعمل حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائي يشك في أن المشبه به هو أو غيره. ولذلك قالت بلقيس: كأنه هو. قيل وترد للظرف والشك فيما إذا كان خبرها غير جامد، قاله ابن حجر. فأكد المصنف التشبيه في هذه الأماكن الثلاثة المشار إلى أولاها بقوله "**فكأن البيداء**" وهو اسم لمحل قريب من ذي الحليفة المشهور اليوم بأبيار علي. "**من حيث ما قابلت العين**" الناظرة إليها "**روضة غناء**" أي كثيرة العشب والنبات والأزهار والثمار. و"من" ابتدائية أو زائدة على مذهب الأخفش وجماعة. و"**ما**" زائدة. ثم أشار إلى الثاني بقوله "**وكأن البقاع**" أي الأماكن التي حول المدينة المشرفة لكثرة ما يغشاها من الأنوار والأضواء المنزلة على ضريحه المكرم صلى الله إليه وسلم. "**زُرَّت**" أي عُقدت أزرارها "**عليها**" أي على تلك البقاع "**طرفيها**" بدل من الضمير في عليها. أي زرت على جوانبها "**مُلاءة**" أي ملحفة "**حمراء**" فالملاءة بضم الميم والمد، ثوب لم يضم بعضه إلى بعض، مخيط، بل كله نهج واحد. كما في القاموس. ولما كانت الأنوار إذا قويت ظهرت فيها الحمرة، شبه تلك الأنوار والأضواء التي غشيت تلك البقاع وعمّتْها من سائر جهاتها بخيمة حمراء شدت على ما فيها أزرارها من سائر جوانبها. ثم أشار إلى الثالث "**وكأن الأرجاء**"، أي نواحي المدينة الغراء "**تنشر**" أي تذر "**نشر**" أي ريح "**المسك فيها**" أي تلك الأرجاء "**الجنوب**" فاعل تنشر وهي الريح التي تقابل الشمال "**والجِربياء**" بكسر الجيم، وهي الشمال أو بردها أو ريح بين الشمال والصبا، وهي التي تثير السحاب وهي المرادة هنا. "**فإذا ما شمت**" بكسر الشين المعجمة، أي نضرت إلى سحاب البرق أين تمطر في تلك البقاع، "**أو شممت**" بكسر الميم في

الماضي وفتحها في المضارع على الأفصح، "**رباها**" جمع ربوة، بتثليث الراء، وهي ماء ارتفع من الأرض "**لاح**" أي ظهر وهو راجع لشمت "**منها**" أي تلك البقاع "**برق**" ساطع، ولاح راجع لشمت، ففيه لف ونشر مرتب "**كباء**" بوزن كساء، عود البخور أو ضرب منه، منكبا بالتشديد، ثوبه بخره "**أي نور**" أي نور باهر "**وأي نَوْر**" بفتح أوله، زهر نضيد، وبينهما الجناس المحرف "**شهدنا**" أي رأيناهما بأبصارنا وبصائرنا يوم ظرف لشهدنا "**أبدت**" أي أظهرت "**لنا القباب**" التي هناك "**قباء**"، وهو مشهور، بينه وبين المدينة ثلاثة أميال، لا حرمنا الله من زيارة الجميع بمنه وكرمه.

* **ثم قال رضي الله عنه**

311 **قَـرَّ مـنْها دمْعي وفَـر اضْـطباري ... فدموعـي سـيْلٌ وصـبْري جُفـاءُ**

يعني لما شاهدنا أماكن الحبيب، عظم منا البكاء والنحيب، فقر دمعي البارد من الفرح والسرور، وبلغنا ما كنا نأمله من النضرة والحبور. يقال قرت عينه، أي سال منها دمع بارد الذي لا يكون إلا مع فُرط الفرح، بخلاف دمع الحزن، فإنه سخن، فقوله "**قر منها دمعي**" أي كثر وانهمل باردا منها من أجل مشاهدة تلك الأماكن فرحا بوصولي إليه أو هيبة وإجلالا لحضرته، أو خوفا من التقصير بعدم رعاية الأدب في تلك الحضرة الجليلة. "**فر**" أي ذهب "**اصطباري**"، أي صبري حين وصلت إلى تلك الربا وأنخت رحلي بقبا، "**فدموعي سيل**" عظيم، "**وصبري جفاء**"، بضم الجيم، أي زبد، فكما أن السيل يذهب بالزبد في وقت فكذلك دموعي تذهب بصبري فلا يبقى عندي منه شيء وفيه جناس التذليل ولف ونشر مرتب. والله تعالى أعلم وبه التوفيق.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

312 **فترى الركْبَ طَائـرينَ مِنَ الشَّو ... قِ إلـى طيـبَةَ لـهُم ضوْضـاءُ**

أي فحين قرب مكان الحبيب وكثر البكاء والنحيب، طارت الأرواح شوقا إلى اللقاء، وارتفقت الأصوات بالابتهال والدعاء، "**فترى**" أي من يصح منه النظر "**الركب**" اسم جمع. "**طائرين**" أي جادين في السير، حاثين لدوابهم ليستخرجوا منها أقصى ما

يمكنها من الإسراع "**من**" أجل "**الشوق إلى طيبة**"

وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديار

فتراهم رافعين أصواتهم بالصلاة والتسليم "**لهم ضوضاء**" أي أصوات عالية بما ذكر من الصلاة والدعاء وغيره.

تنبيه: قال الإمام أبو عبد الله بن الحاج: من لم يقدر له زيارته، صلى الله عليه وسلم ، بجسده، فلينوها بقلبه كل وقت ويحضر قلبه بأنه واقف بين يديه، مستشفعا إلى من مَنَّ به عليه، كما قال الإمام أبو محمد بن السيد البطليوسي، رحمه الله تعالى في رقعته التي أرسل بها من أبيات:

إليك أفر من زللي وذنبي ... وأنت إذا ألقيت الله حسبي

وزورة قبرك المحجوج قدما ... مناي وبغيتي لو شاء ربي

فإن أحرم زيارته بجسمي ... فلم أحرم زيارته بقلبي

إليك غدت رسول الله مني ... تحية مؤمن ولِهَ بحبي

اللهم لا تحرمنا شفاعته ولا زيارته، واجعلنا من أهل شهود قربه وحضرته في الدنيا والآخرة، يا أرحم الراحمين. ومما أنشده الشيخ أبو العباس ابن العريف، رضي الله عنه:

يا زائرين إلى المختار من مضى ... زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على شوق وعن طمع ... ومن أقام على شوق كمن راحا

وكتب أبو عبد الله ابن أبي الخصال رقعة، لما أُقْعِد، يستشفع بها بالنبي صلى الله عليه وسلم وبعثها، فلما وضعت عند القبر الشريف برئ من حينه، وهي:

كتاب رقيد من زمانته مشف ... بقبر رسول الله أحمد يستشفي

ولما رءا الزوار يبتدرونه ... وقد عاقه عن قصده عائق الضعف

بكى أسفا واستودع الركب إذ غدا ... تحية صدق تُفْعم الركب بالعرف

فيا خاتم الرسل الشفيع لربه ... دعاء نهيض خاشع القلب والطرف

عتيقك عبد الله ناداك ضارعا ... وقد أخلص النجوى وأيقن بالعطف

دعـاك لـضر أعجـز الـناس كـشفه لتـصـدر داعـيه بمـا شـاء مـن كـشف

لـرجل رمـى بهـا الـزمان فقـصرت خطاها عـن الـصف المقـدم والـزحف

وإنـي لأرجـوا أن تعـود سـوية برحمة من يحيي العظام ومن يشف

وأنـت الـذي نـرجوه حـيا وميـتا لـصرف خطـوب لا تـريع إلـى صـرف

علـيك صـلاة الله عـدة خلقـه ومـا يرتـضيه مـن مـزيد ومـن ضـعف

انتهى. فيوخد من هذا جواز ما يفعله بعض الناس من بعث البطاقة بالسلام عليه صلى الله عليه وسلم، وهو من حسن النية والمحبة والله تعالى أعلم وبالله التوفيق.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

313 وكـأنّ الـزُّوارَ ما مـسّت الـبَأ ســاءُ مـنْهم خَلقـا ولا الـضّراءُ

يعني أن زوار المصطفى صلى الله عليه وسلم، لما وصلوا إلى قبره الشريف وشاهدوا ذلك المقام المنيف، زال عنهم التعب، وما أصابهم في طريقهم من الشدة والنصب، فكأن خلقهم حين استبشروا بالوصول لم تمسها البأساء ولا الضراء. والبأساء والضراء متقاربان، والمراد بهما مشقة السفر وتعبه. ويصح في الخلق ضم الخاء وفتحها، والله أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

314 كـل نفـس لهـا ابـتهالٌ وسـؤْلٌ ودعـاءٌ ورغـبـةٌ وابـتغاءُ

الابتهال هو التضرع والانكسار. والسؤل والدعاء هو الطلب، فإذا قوي العزم فيه كان رغبة. والابتغاء هو الطلب أيضا، أي كل نفس من الزوار حصل منها تضرع وابتهال إلى الله تعالى في قضاء الحوائج والأوطار، وتخفيف المآثم والأوزار وتوسل إلى الله تعالى بأحب خلقه إليه، ودعاء ورغبة فيما لديه، وابتغاء فيما عند الله تعالى من جزيل الثواب وحسن المآب، رزقنا الله ذلك بمنه وكرمه.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

315 وزفيـر تظـن مـنه صـدورا صـادحات يعـتادهن زقـاءُ

الزفير هو تصاعد النفس مع شدة خروجه. والصادحات المصوتات. والزقاء

بالزاي والقاف، صوت عال. يعني أن كل نفس من زواره صلى الله عليه وسلم حصل لهم من شدة الاشتياق وفرط المهابة زفير تظن أيها السامع من كثرة ذلك الزفير وشدته بحيث يسمع له صوت في الصدور. تلك الصدور "**صادحات**"، أي مصوتات، "**يعتادهن**" أي يعاودهن "**زقاء**" أي صوت عال. والحاصل أن ذلك الزفير من شدته تظهر له في صدورهم صوت يشبه صوت الطيور الصادحات اللاتي يعتادهن التصويت بشدة ورفع صوت. والله تعالى أعلم وبالله التوفيق.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

316 **وبكـــاء يغـــريه بالعـــين مـــد ونحـــيب يحـــثه اســـتعلاءُ**

هذا أيضا مما حصل لزواره، صلى الله عليه وسلم، وهو البكاء بالمد، وهو رفع الصوت بالبكاء، "**يغريه**" أي يسلطه ويزعجه "**بالعين**" أي فيها "**مد**" أي مد الصوت به، يعني أن هذا الصوت بالبكاء يحمل العين على ملازمة الدمع. والنحيب هو رفع الصوت بالبكاء "**يحثه**" أي يحصله ويزيد قوته "**استعلاء**" أي علو الصوت به، وهذا البكاء يحتمل أن يكون فرحا بلقاء الحبيب والمثول في حضرته، أو خوفا من فراقه، وفي ذلك يقول الشاعر:

ولمـــا التقيـــنا أســـبلَ العـــين عَبْـــرة على الخد حتى كدت بالدمع أغرق

فقالـت وهـل تلقـي مـع الوصـل عبـرة فقلـــت ألـــسنا بعـــد ذا للتفـــرق

أو هيبة للقائه، وقد يفترق بحسب الأحوال، فكل على قدر شربه وذوقه. رزقنا الله حظا وافرا من ذلك بمنه وكرمه.

*** ثم قال:**

317 **وجُـــسُومٌ كأنَّمـــا رَحـــضتها مِـــن عَظِـيمِ المَهَابَـةِ الرَّحْـضَاءُ**

أي وللزوار "**جسوم**" قد تصببت عرقا من عظيم المهابة التي تلقتهم من حضرته، صلى الله عليه وسلم، حتى "**كأنما رحضتها**" أي غسلتها، ولذا سمي المغتسل مرحاضا. "**الرحضاء**" أي العرق، يعني أن العرق قد عمهم وغمرهم فكأنهم

اغتسلوا بها من كثرتها هيبة منه صلى الله عليه وسلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

318 **ووجـــوه كأنمـــا ألبـــستها مـــن حـــياء ألـــوانها الحـــرباءُ**

أي ولهم "**وجوه**" تتلون بألوان مختلفة لشدة ما اعتراها من الخوف والقلق والحياء منه صلى الله عليه وسلم عند القدوم عليه بوصف التقصير وعدم كمال الاتباع له، حتى "**كأنما ألبستها**"، أي كستها "**الحرباء**" "**ألوانها**" التي تتلون بها، والحرباء هي التي يقال لها: أتَتَ، وهي تتلون بألوان مختلفة، تستقبل الشمس برأسها، يعني أن الكمل من زواره صلى الله عليه وسلم يحصل لهم من الهيبة والحياء في القدوم عليه ما تتغير به ألوانهم، وربما غابوا عن إحساسهم كما يأتي، فتختلف ألوانهم باختلاف أحوالهم، من حمرة الخجل وصفرة الوجل إلى غير ذلك من الأحوال، لا حرمنا الله من ذلك بمنه وكرمه.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

319 **ودمـــوعٌ كَأَنَّمـــا أرْســـلَتْها مِـــنْ جُفُـــونٍ سَـــحابَةٌ وَطْفَـــاءٌ**

قد تقدم أنه حصل لهم من البكاء والنحيب عند ملاقات الحبيب ما كثرت دموعه وسحت جفونه. والسحابة الوطفاء هي المسترخية الجوانب لكثرة مائها، شبه ما عندهم من الحزن الباعث لهم على غزارة الدمع وكثرة تتابعه بسحابة مملوءة ماء، ثم جرد بذكر الجفون ورشح بذكر الوطف وخيل بإثبات السحابة للمشبه به، ففيه أربع استعارات، وفي قوله: كل نفس إلى هنا من مراعات النظير والانسجام البديع الذي هو سهولة الألفاظ وعذوبتها بحيث شابهت الماء العذب الذي من شأنه الانسجام والسيلان والرقة والحلاوة ما لا يخفى على ذي ذوق سليم، ومن له كثير من هذا النوع، قاله ابن حجر.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

320 **فَحطَطْنَا الرِّحَالَ حَيْث يُحَطُّ الـ ـــوِزْرُ عَـــنَّا وَتُـــرْفَعُ الحَـــوْباءُ**

أي فلما وصلنا إلى ذلك المعظم: وقبر نبينا المكرم على ما وصفت لك من

الحال، حططنا رحالنا بفناء كرمه صلى الله عليه وسلم نستمطر سحائب القبول والإنعام، ونستقيل عثرات التقصير والآثام، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾. "**فحططنا رحالنا**" في المكان الذي "**يحط الوزر عنا**" بشفاعة سيدنا ومولانا محمد نبينا، "**وترفع**" أي تزول عنا "**الحوباء**" أي الحاجة والافتقار ببركة مشاهدته صلى الله عليه وسلم وإسعافه لنا وفيض إمداده الفائض علينا لنفوز بغنى النفوس وطلوع البدور وشروق الشموس حتى نصل إلى العيان، ونستغني عن الاستدلال والبرهان، لا حرمنا الله من ذلك بمنه وكرمه.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

321 **وقـرأْنـا الـسّـلام أكْـرمَ خَـلْـقِ الـلـ ـــهِ مِـــنْ حَـيْـثُ يُـسْـمَـعُ الإقْـرَاءُ**

وكيفية السلام عليه، صلى الله عليه وسلم، أن يقول: السلام عليك أيها النبيء ورحمة الله وبركاته. ثم يقول: صلى الله عليك وعلى أزواجك وذرياتك وعلى أهلك أجمعين، كما صلى على إبراهيم، وبارك عليك وعلى أزواجك وذرياتك وأهلك كما بارك على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، فقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة وعبدت ربك، وجاهدت في سبيله، ونصحت لعبيده صابرا محتسبا حتى أتاك اليقين، صلى الله عليك أفضل الصلاة وأتمها وأطيبها وأزكاها. قاله مالك. ثم يتنحى عن اليمين قدر ذراع ويقول السلام عليك يا أبا بكر الصديق ورحمة الله وبركاته، صفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وثانيه في الغار، جزاك الله عن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا. ثم يتنحى عن اليمين قدر ذراع أيضا فيقول: السلام عليك يا أبا حفص الفاروق ورحمة الله وبركاته، جزاك الله عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خيرا. انتهى. قوله "**أكرم خلق الله**" قد تقدم هذا مستوفى في مواضع من هذا الكتاب. وقوله: "**من حيث يسمع الإقراء**" أي: مكان يسمع منه التعليم عادة، وإن كان سماعه صلى الله عليه وسلم للسلام عليه لا يتقيد بالقرب كالصلاة عليه كما في الحديث، إلا أنه في حالة القرب بلا واسطة، وفي حالة البعد بواسطة الملك، ففي حديث غريب:

<<من صلى عند قبري سمعته، ومن صلى علي من بعيد أُعلمته>>. وفي آخر: <<ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام>>. وصح عنه صلى الله عليه وسلم: <<أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ>>. قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ أي بليت، فقال: <<إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء>>. انتهى. قال البغوي رحمه الله: السلام عليه صلى الله عليه وسلم عند قبره أفضل من الصلاة عليه للأخبار الكثيرة فيه كخبر: <<ما من أحد يسلم علي عند قبري، إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام>>. ويعارضه الحديث الصحيح: <<أنه تعالى يصلي هو وملائكته على المصلي عليّ في الصلاة الواحدة عشرا>>. وفي رواية: مائة. وصلاة الله أفضل من رده صلى الله عليه وسلم، وإن كان رده دعاء لا يرد، على أنه صلى الله عليه وسلم يرد الصلاة عليه كالسلام، فالأولى أن توجه الأفضلية للسلام بأنه شعار اللقاء والتحية، فحينئذ تختص أفضليته بحالة اللقاء عند كل زيارة. أما إذا سلم سلام اللقاء، فالصلاة بعده أولى من استمرار السلام. وإن كان باقيا من مقام الزيارة. ويدل لذلك صنيع العلماء، فإنهم لما ذكروا أن الزائر يبدأ بالسلام، ذكروا أنه يختم بالصلاة عليه، صلى الله عليه وسلم، قاله ابن حجر.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

322 **وذهلنا عند اللقاء وكم أذْ   هَل صبا من الحبيب اللقاءُ**

أي غبنا عن إحساسنا "**وذهلنا**" عن عقولنا ملاقات حبيبنا لما استولى علينا من مهابته وجلاله. ولا بدع في هذا الذهول، إذ كثيرا ما "**أذهل**" اللقاء الأحباب لما عليهم من الصبابة والاشتياق التام. وهذا معنى قوله "**وكم أذهل صبا**" أي عاشقا شديد الصبابة التي هي رقة الشوق وغلبة استيلائه. وقوله، أي المحبوب متعلق بقوله، أي كثيرا ما أذهل حبا لقاء حبيبه، لأن من شأن اللقاء أن يدهش الصب ويخدش المحب ويغيبهما عما عدا المحبوب استلذاذا بذكره وأنسا بشهوده.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

323 **ووجَمْـنَا مـنَ المهَابَـةِ حَتَّـى لا كَـلامَ مِـنَّا ولا إيمَـاءُ**

الوجم، بالجيم، هو السكوت، أي سكتنا عن الكلام عند اللقاء وبعده ما دمنا في تلك الحضرة العلية، فلم يبق فينا متسع للكلام "**من**" أجل "**المهابة**"، أي الإجلال والمخافة "**حتى لا كلام منا**" يسمع "**ولا إيماء**"، أي إشارة منا تصدر، أي ما نطلبه وذلك من قهرة الجلال وخوارق الأحوال، كما قال القائل:

وكـم رمـتُ بـثّ الـشوق عـند لقائـه فلمـا التقيـنا مـا ملكـت ولا حـرفا

قال الشيخ العارف أبو جمرة، رضي الله عنه، لما دخلت مسجد المدينة، ما جلست إلا الجلوس في الصلاة، وما زلت واقفا هنالك حتى رحل الركب، ولم أخرج إلى البقيع ولا غيره، ولم أر غيره، صلى الله عليه وسلم، وقد كان خطر لي ان أخرج إلى البقيع، فقلت: إلى أين أذهب، هذا باب الله المفتوح للسائلين، والطالبين والمنكسرين والمضطرين، والفقراء والمساكين، وليس ثم من يقصد مثله، صلى الله عليه وسلم، انتهى. وحكاية أبي الحسن الشاذلي والشيخ زروق في حال زيارتهما مشهورة في هذا المعنى، نفعنا الله بهم وبأمثالهم أجمعين. آمين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

324 **ورجعْـنَا وللقُلُـوب الـتفَاتا تٌ إلـيْه وللجُـسُوم انْثِـنَاءُ**

325 **وسَـمِحْنا بمـا نُحـبّ وقـدْ يـسْـ ـمَـحُ عـنْد الـضّرورةِ الـبُخَلاءُ**

أي ولما فرغنا من زيارته صلى الله عليه وسلم، والاستمداد من أنواره، رجعنا إلى بلادنا، وقلوبنا ملتفات إليه صلى الله عليه وسلم، مستحضرة المثول بين يديه صلى الله عليه وسلم والاستمداد منه مع الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم، لجسومنا "**انثناء**" أي انعطاف ورجوع إلى البقاء في حضرته صلى الله عليه وسلم وطلب الرجوع إلى زيارته صلى الله عليه وسلم، "**سمحنا**" أي جدنا "**بما نحب**" من التمتع بتلك الحضرة العلية والمقام في تلك البقعة السنية حيث كان يتردد فيها الوحي

بكرة وعشية، ويطأ فيها المصطفى بقدمه المشرفة، فليتنا بقينا ثم، نُعَفر وجوهنا في تربتها الطيبة، ولكن ألجأتنا الضرورة إلى العود لبلادنا لأجل القيام بمن فيها، فلعل هذا العذر يخفف الملام علينا، إذ الضرورات تبيح المحظورات، فإنا وإن كنا بخلاء بهذا الفراق، فلا إسوة بالبخلاء في ذلك، إذ "**قد يسمح عند الضرورة**" التي لا يستطاع معها الترك "**البخلاء**" بالأموال وغيرها. وسئل مالك، رضي الله عنه، أيهما أحب إليك، المجاورة أو القفول؟ فقال: السنة الحج، ثم القفول. وكان عمر، رضي الله عنه، إذا فرغ من حجه يقول: يا أهل اليمن يمنَكم، ويا أهل العراق عراقكم، ويا أهل الشام شامكم، ويا أهل مصر مصركم، وهذا والله أعلم، لأن الغالب العجز عن آداب المجاورة، إذ الجناب عظيم، لا سيما معه، عليه الصلاة والسلام، ولا يخلوا الإنسان من الهفوات والكسل. وقد حكي عن بعض كبار الصوفية أنه جاور أربعين سنة ولم يبل في الحرم ولم يضطجع، فمثل هذا يستحب له المجاورة. وقال الشيخ أبو عبد الله بن الحاج: حكى لي الشيخ الجليل أبو عبد الله الفاسي، أنه احتاج إلى حاجة الإنسان وهو بالمدينة المشرفة، فخرج إلى موضع من تلك المواضع، وعزم أن يقضي فيه حاجته، فسمع هاتفا ينهاه عن ذلك. فقال: الحجاج يعملون هذا. فأجابه الهاتف بأن قال: وأين الحجاج. ثلاث مرات. انتهى. تتمة: قال في الحصن: ولا يصح قبر نبي بعينه إلا قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالإجماع، وقبر إبراهيم عليه السلام داخل السور من غير تعيين. انتهى. قال سيدي عبد الله العياشي في رحلته: زرنا قبر خليل الله سيدنا إبراهيم، وقبور بنيه الكرام سيدنا إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام وقبور أزواجهم وكلها في مغارة تحت أرض المسجد، وفي المغارة طاقة مفتوحة في وسط المسجد مثل البير قد علقت فيها مصابيح توقد ليلا ونهارا، وفي أرض المسجد شبابيك على شكل القبور مغطاة بستور من ديباج في مقابلة قبور الأنبياء التي في المغارة إلا قبر يوسف عليه السلام، فإنه في آخر المسجد في ركنه الغربي في محل يغلق عليه ولا يفتح إلا في أوقات مخصوصة، واقتحمنا دخول المسجد اقتداء بمن جوز ذلك من العلماء ورخص فيه، وإن كان كثيرا من أئمتنا المالكية قد شددوا النكير في ذلك وقالوا لا يحل دخوله لأن قبور الأنبياء مقطوع بأنها هنالك ولا تعلم أعيانها، فكل محل يطأ

فيه يمكن أن يكون هو موضع القبر ولا يحل الجلوس والمرور بقبر مسلم، فكيف بقبر نبي، لكن العمل، منذ افتتحت البلاد، على خلاف ذلك، فقد صار ذلك المحل مسجدا تقام فيه الجمعة والجماعات، والعلماء يفدون عليه ويسمونه في تآليفهم مسجدا، وحكم المسجد لا يمنع أحدا من الدخول إليه. انتهى. ونقل صاحب كتاب دفع النقمة، بالصلاة على نبي الرحمة، عن الهروي، أنه سمع على الشيخ أبي طاهر السلفي بثغر الإسكندرية، سنة سبعين وخمسمائة، جزءا يرفعه إلى الادمي، ذكر فيه أن الادمي المذكور قصد زيارة الخليل عليه السلام وصادف القيم بالموضع وتقرب إليه بهدية وطلب النزول إلى المغارة فواعده عند انقطاع الزوار في زمن الثلج، فلما انقطع الناس، أتى به إلى بلاطة فقلعها وأخذ ما يستضيء به ونزلا في درج مقدار سبعين درجة، وانتهيا إلى مغارة واسعة كبيرة وانتهيا لطريق فيها وبها دكة، عليها إبراهيم الخليل ملقى وعليه ثوب أخضر وشيبته بيضاء وإلى جانبه إسحاق ويعقوب عليهم السلام، ثم أتى إلى حائط في المغارة فقال له إن سارة خلف هذا الحائط، فهم الرجل أن ينظر ما وراء الحائط وإذا بصوت يقول: إياك والحرم، فعاد من حيث جاء. والله أعلم. قال الهروي: ثم دخلت أيضا القدس سنة واجتمعت فيه وفي مدينة الخليل بجماعة من مشايخ حدثوني أنه لما كان في زمن الملك البرذويل انخسف موضع في هذه المغارة، فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك فوجدوا فيها إبراهيم ويعقوب وإسحاق عليهم السلام وقد بليت أكفانهم وهم مستندون على حائط وعلى رؤوسهم قنادل معلقة، رؤوسهم مكشوفى فجدد الملك أكفانهم ثم سد الموضع وذلك 413 للهجرة النبوية. وروى الحافظ ابن عساكر، سنده عن زيد بن وافد قال، رأيت رأس يحيى حين أرادوا بناء مسجد دمشق، أخرج من تحت ركن من أركان القبة التي يلي المحراب مما يلي الشرق فكانت النشرة والشعر على حاله لم يتغير. وفي رواية، كأنما قتل الساعة. وفي الصحيحين في حديث وفاة موسى عليه السلام، أن موسى سأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر. قال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<لو كنت ثم، لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكيث الأحمر>>. انتهى. وقال الادبي، ذكر ابن جبير في رحلته، أن قبره معلوم. انتهى. وذكر بعض المؤلفين، أن في داخل

الحجر قبر إسماعيل عليه السلام، وأنه على قرب من جدار البيت الكريم، وعلامته رخامة خضراء مستديرة مقدار شبر ونصف، وبين القبرين الكريمين سبعة أشبار، والناس يزدحمون على الصلاة هنالك. انتهى. وفي القبس لابن العربي، وقفت على قبر إسماعيل بالحجر تحت الصخرة السوداء. وفي الدر المنثور للحافظ السيوطي، أخرج الازرقي والبيهقي من طريق عبد الرحمن بن سابط، عن عبد الله بن ضمرة السلمي قال: ما بين المقام إلى الركن إلى بير زمزم إلى الحجر قبر سبعة وسبعين نبيا جاءوا حاجين فماتوا فقبروا هنالك. وفيه أيضا، وأخرج الجندي من طريق عطاء بن السائب عن ابن سافط قال: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا، وأن قبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل في تلك البقعة. ثم ذكر أيضا، من تخريج الأزرقي، عن ابن سابط عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة فتعبد فيها هو ومن معه حتى يموت، فمات فيها نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام. قبورهم بين زمزم والحجر. انتهى من شرح الحصن للعلامة سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي رحمه الله تعالى ورضي عنه.

*** ثم قال الشيخ رضي الله عنه:**

326 **يا أبَا القَاسِمِ الذي ضَمِن إقسَا ... مي عَلَيه مدْح لَه وثَنَاءُ**

ولما فرغ من ذكر زيارته صلى الله عليه وسلم المتكفلة بكل خير، شرع يناديه صلى الله عليه وسلم بكنيته المختصة به، والمناسبة لطلبه من أنه يخصه من تلك القسمة التي ولاها الحق له وأقسم عليه بأقسام كثيرة كلها تتضمن ما هو بصدده من مدحه صلى الله عليه وسلم استعطافا له لينظر إليه بما يفوز به في الدنيا والآخرة، ويأمن به من كل محنة باطنة وظاهرة، فأقسم عليه أولا بعلومه، ثم بمعجزات نصره، ثم بأهل بيته، ثم بكبار أصحابه، مع مدح كل واحد منهم بما يليق بكماله. ثم حصر جواب أقسامه بقوله الأمان، الأمان إلخ. فقوله "**يا أبا القاسم**" هذه كنيته صلى الله عليه وسلم التي اختص بها فلا يجوز لأحد التكني بها مطلقا على الأصح، سواء في زمنه صلى الله عليه وسلم أو بعده، لمن اسمه محمد أو غيره، لقوله صلى الله عليه وسلم: تسموا باسمي ولا

تكنوا بكنيتي. والعبرة كما تقرر في الأصول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هنا، فإن سبب النهي أن اليهود كانوا ينادون بذلك، فيلتفت صلى الله عليه وسلم إليهم فيقولون: لا نعنيك، فنهى الناس عن التكني بذلك. ومن ثم قيل: إن النهي خاص بزمن حياته صلى الله عليه وسلم وهو الأصح. ووجه مناسبة اختصاص تلك الكنية به صلى الله عليه وسلم أنه الخليفة الأعظم من الله تعالى في جميع شؤونه لا سيما مقام قسمة الأرزاق والعلوم والمعارف والطاعات. ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الصحيح: <<إنما أنا القاسم والله يعطي>>. ولأجل هذا عدوا من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه مفتاح الخزائن. قال بعض العلماء: وهي خزائن أجناس العالم ليخرج لهم بقدر ما يطلبون، فكل ما ظهر في هذا العالم فإنما يعطيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي بيده المفاتح. وكما اختص تعالى بمفاتح الغيب الكلّي، فلا يعلمها إلا هو، كذلك اختص صلى الله عليه وسلم بإعطائه مفاتح الخزائن الإلهية، فلا يخرج منها شيء إلا على يديه صلى الله عليه وسلم. وقيل: إنما كني بذلك لأنه كان له ولد من خديجة رضي الله عنها يسمى القاسم. انتهى. من ابن حجر مختصرا. أو قوله الذي ضمن أقسامي إلخ هو صفة للمنادى أو منصوب على المدح، أي "**الذي**" في "**ضمن أقسامي**" بما أقسمت به "عليه" في إجابة ما سألته "**مدح له وثناء**"، فقد تضمن ما أقسمت به عليه وتوسلت به إليه مدحا له وثناء عليه، كقوله بالعلوم إلخ، ومصير الصبا إلخ، ومدح أهل بيته وأصحابه مدح له في الحقيقة، والفرق بين المدح والحمد مشهور وأصحها أن الحمد على الاختيار، والمدح على ما لا اختيار فيه. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

327 **بالعُلـومِ التـي عَلَـيكَ مـنَ اللـ ـــه بِـلا كَاتِـبٍ لَهَـا إِمْـلاءُ**

أي أقسمت عليك بعلومك التي أُوتيتَها من الله وتنزلت عليك منه تعالى بلا كاتب يكتبها لك ولا بشر يعلمها لك، وإنما هي منح إلهية، ومواهب اختصاصية، ومعارف ربانية، وعلوم لدنية، "**لها**" عليك "**إملاء**" من جبريل عليه السلام. وجعل أول

أقسامه عليه "**بالعلوم**" لأن مرتبة العلم لا أعلى منها، بل ولا مساوي لها، ومن ثم لم يؤمر صلى الله عليه وسلم بالسؤال للزيادة فما هو عليه إلا للعلم. فقال : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾. وفضائل العلم أشهر من أن تذكر. وقوله "**لها إملاء**" جملة مستأنفة، أي بالعلوم التي تلتها بلا كاتب، وإنما لها إملاء، أي إقراء من جبريل عليه السلام، والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

328 **ومَسِيرُ الصَّبا بنصْركَ شَهْرا   فَكَأنَّ الصَّبَا لَديْك رُخَاءُ**

أي أقسمت عليك بما خصصت به من "**مسير الصبا**"، وهي الريح الشرقية، وهي مستقبل باب الكعبة. وقال إسرائيل بن يونس: الصبا ما جاء من قبل وجه الكعبة، ويطلق على ما يهب من يمين هذا المطلع إلى قريب سهيل ويساره إلى قريب القطب الشمالي. انتهى. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن ما بين مطلع الشمس والجدي يسمى الصبا، ويسمى شمالا، وبتسميته صبا صرح عثمان الأعرج: من السلف قال، حد الصبا من مطلع الشمس إلى كرسي بنات نعش. انتهى. ولهذه الريح أثر بيّن في نصرته صلى الله عليه وسلم في وقعة الخندق. وهو الذي قصده المصنف، اقتباسا من قوله صلى الله عليه وسلم: <<نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور>>. مع قوله: <<أعطيت خمسا لم يعطهن من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر>>. الحديث. ومنها يعلم أن الصبا كانت تسير بسبب نصره صلى الله عليه وسلم، ومواصفات قهره عليه الصلاة والسلام. والتحديد بالشهر إشارة إلى أن ما يستولي عليه لا تزيد بكثير. واحترازا من غيره من الأنبياء عليهم السلام. فإن رعبهم إن وجد لا يصل على هذه المسافة. وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق حتى لو كان وحده من غير عسكر. وهل هي حاصلة لأمته من بعده. فيه احتمالات، أظهرها كما تقضي به المشاهدة أنهم رزقوا من ذلك حظا وافرا. قال ابن حجر. وقوله، "**فكان الصبا**" إلخ، أي فكان الصبا الذي تسير أمامك بنصرك ريح سليمان عليه السلام الذي سخرها له الله

تعالى فتحمل كرسيه حيث شاء. قال تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾. وقال تعالى: ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ والرخاء اللينة من الرخاوة، وهي معجزة لسليمان عليه السلام. ومعجزة نبينا صلى الله عليه وسلم أظهر وأعظم، لأن تلك سخرت لذات سيدنا سليمان عليه السلام، وهذه سخرت لصفة من صفات نبينا صلى الله عليه وسلم وهي هيبته عليه الصلاة والسلام. وأيضا فتلك إنما تسير بعد أمر سليمان لها، وهذه تسير بأمر ربها من غير توسط أمر من نبينا صلى الله عليه وسلم. فتشبيهها بريح سليمان عليه السلام من تشبيه الأعلى بالعلى، نظيره، كما صليت على إبراهيم، على أحد الأجوبة فيه. والله اعلم.

*** ثم قال:**

329 **وعَلِيّ لَمـا تَفَلْـتَ فـي عَيْنَـيْــهِ وكِلْــتَاهُمَا مَعًــا رمْــداءُ**

330 **فَغَــدا نَاظِــرًا بعيْنَــيْ عُقَــابٍ فــي غَــزاةٍ لَهــا العُقَــابُ لِــواءُ**

أي وأقسم عليك بمعجزاتك الباهرة في **علي**، رضي الله عنه، وهي أنك "**لما تفلت في عينيه، وكلتاهما معا رمداء**" أي مريضتان بالرمد، برأتا من ساعتهما لما خالطهما ريقك الذي هو الشفاء من كل داء، "**فغدا**" أي صار يضرب بعينيه المثل في حدة الإبصار، كما يضرب ببصر العقاب، الذي هو سيد الطيور. وإليه أشار بقوله "**ناظرا بعيني عقاب**" وفي المثل أبصر من عقاب. ووقعت هذه المعجزة الباهرة في غزوة عظيمة معهودة، وهي غزوة خيبر، وهي من أعظم الغزوات، وأجل الفتوحات. وكانت مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام. وكانت سنة سبع من الهجرة. "لها العقاب لواء" لأن لواءها يومئذ كان أسود، فكان شبيها بالعقاب. وكانت تلك الراية تسمى العقاب الأسود لسوادها. قال الشارح: ويحتمل أن العقاب كانت تحوم حول لحوم القتلى كأنها رايات مرتفعة، وفيه بعد. واللواء علم صغير، والراية علَم ضخم وهو الذي كان في خيبر، قيل ولم يعرف له صلى الله عليه وسلم الرايات إلا لخيبر، وكلها كانت ألوية فقط. فأراد المصنف باللواء

الراية لما تقدم. نعم قال عياض في مشارقه: اللواء الراية، وعليه فلا تجوّز في النظم. روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى خيبر أرسل أبا بكر إلى حصن منها فقاتل ورجع بلا فتح، وقد جهد، فقال صلى الله عليه وسلم: لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فتشوق الناس لها وطمع كل واحد في ذلك، فلما أصبح قال: أين علي بن أبي طالب، فقالوا يشتكي عينيه، فأرسل إليه فجيء به وإنسان يقوده من شدة المرض، فبصق في عينيه فبرئتا من حينها، فدفع إليه الراية وقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، فادعهم إلى الله تعالى، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم. ولما أعطاه الراية هرول حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن، وقال له يهودي من باب الحصن: من أنت؟ قال: علي بن أبي طالب. فقال اليهودي: علوتم وحق ما أنزل على موسى بن عمران. فما رجع حتى فتح الله على يديه، وعند قتاله فر به يهودي فطرح ترسه من يده فاخذ بابا فترس به، واستمر يقاتل حتى فتح الله عليه. ومن كبر ذلك الباب أن ثمانية أرادوا أن يقلوه فلم يستطيعوا. وحمل أيضا باب الحصن على ظهره حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها فجروه بعد ذلك فلم يحمله إلا أربعون رجلا. ذكره ابن حجر. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

331 **وبِــــريْحانَتيْنِ طِيـــبُهُما مِـــنْـ ــكَ الـذِّي أوْدَعْـتَهُما الزَّهْـراءُ**

332 **كُــنْتَ تُــؤْويهِمَا إلــيْك كَمَــا آ وَتْ مِـنَ الخَـطِّ نُقْطَتَـيْها الـيَاءُ**

يعني، وأقسم عليك بريحانتيك، وهما سيدنا الحسن وسيدنا الحسين، مقتبس من قوله صلى الله عليه وسلم: <<هما ريحانتاي من الدنيا>>. رواه البخاري، أي مشموماي أشمهما وأرتاح إليهما لمحبتي إياهما، اللذان "**طيبهما منك**" حسا ومعنى، وفضلهما على غيرهما حاصل منك، لأنهما بضعتان منك مع ما اختصا به من المزايا والخصوصيات. وطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم معروف مشهور بين الصحابة يضرب به المثل، كانت كفه أطيب من ريح المسك والعنبر، كأنهما كف عطار طيبا،

مس طيبا أو لم يمس، يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضعها على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان من ريحها على رأسه. وكان عرقه صلى الله عليه وسلم أطيب الطيب، من توصل إليه يجعله في طيبه، ومن تطيب به عبقت رائحته، وشمها أهل المدينة وعلموا به، ولا يجدون له شبها في الطيب. وكان لا يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه وعرْفه صلى الله عليه وسلم. وبالجملة، فهو صلى الله عليه وسلم طيب الله نفحه في الوجود فتعطرت به الأكوان، وسمت واغتدت به القلوب فطابت، وتنسّمَتْه الأرواح فنمت، وأعظم من نال هذا الطيب ريحانتاه صلى الله عليه وسلم "**الذي أودعتهما**" فاطمة "**الزهراء**"، أي: اللذان كانا وديعة منك عند فاطمة، قد استودَعْتها تلك الذرية لتخرج منها منسوبة إليك، وسميت بالزهراء لأنها لم تحض ولم تطمث. قاله ابن حجر. قال: وسميت فاطمة، لأن الله تعالى فطمها وبنيها عن النار، وإنما أفرد الذي مع كونه وصفا للتثنية باعتبار ما ذكر، وأودعتهما بالبناء للمفعول، والزهراء نائب "**كنت تأويهما**"، أي تضمهما "**إليك**" لمزيد محبتك لهما وشفقتك عليهما، ومن ثم صح أنه صلى الله عليه وسلم قال: <<نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما>>. وأخرج الترمذي، أنه صلى الله عليه وسلم قال: <<هذان ابناي وأمهما ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما>>. وقال صلى الله عليه وسلم: <<أحب أهل بيتي إلي الحسن والحسين>>. رواه الترمذي. وقال صلى الله عليه وسلم: <<من أحب الحسن والحسين فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني>>. رواه ابن ماجه والحاكم. وصح أنه صلى الله عليه وسلم قال: <<الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما>>. انتهى. وفيه حجة لأهل السنة أن الأئمة الأربعة أفضل من أهل البيت، نعم ما فيهم من البضعة الكريمة لا يعادله عمل، وبه يوجه قول بعض المتأخرين بتفضيل الحسن والحسين على غيرهما، أي من حيث تلك البضعة، وإن كان غيرهما ممن ذكر أفضل علما ومعرفة. قاله ابن حجر. ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: سيدا شباب أهل الجنة، مع استواء الناس في السن حينئذ، أنهما الآن في الدنيا تميزا في حال شبابهما، بل في صغرهما بفضائل لا تحصى على ما هو في سنهما حينئذ، ولا يستثنى

منهم أحد، بل في حال شبابهما فضلا على جميع الشباب الموجودين حينئذ، إذ لا نعلم أن شبابا قبلهما ولا بعدهما ساواهما، فضلا عن كونه فضلهما. وإذا تقرر هذا فلأجل كونهما فضلا الشباب من غير استثناء بخلاف الكهول والشيوخ فإنهما لم يفضلاهما. خص الشباب وأضافهما إلى الجنة باعتبار أنه يقال لمن هو في حال شبابه. وقد كتب شهيدا هذا من شباب الجنة، أي من الموصوفين الآن بكونه من الشباب، وكونه من أهل الجنة. وحينئذ اتضح أنه لا يحتاج إلى استثناء الخلفاء الأربعة، فضلا عن الأنبياء، واتضح أن في هذا من المتمدح لهما ورفعة قدرهما ما لا يخفى عظيم قدره، هذا ما انفصل عنه ابن حجر بعد ذكر أجوبة كثيرة. وقوله "**كما آوت**" بالمد، ويجوز قصره في غير هذا، أي كما ضمت من الخط، حال من الفاعل، "**نقطتيها الياء**" أي إيواء كإيواء الياء لنقطتيها حال كونها من جملة حروف الخط، وكأنه أخذ هذا التشبيه من حديث البخاري عن الحسن، كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ بيدي فيقعدني على فخذه ويقعد الحسين على فخذه الأخرى ويضمهما ثم يقول: <<اللهم رب إني أرحمهما فارحمهما>>. وصح عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: طرقت على النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فخرج وهو مشتمل على شيء، قلت: فما هذا فكشفه، فإذا الحسن والحسين على وركيه فقال: <<اللهم هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما>>. ووجه التخصيص أنها خاتمة الحروف. كما أنه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. انتهى.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

333 **مِنْ شَهِيدَيْنِ لَيْس يُنْسِينِي الطَّـ ـفُّ مُصَابَيْهِمَا وَلا كَرْبَلاءُ**

هذا بيان للريحانتين، ويحتمل أن يكون تجريدا كما قاله الشارح، أما شهادة الحسن فسببها أن يزيد بن معاوية أرسل إلى زوجته جعدة الكندية أنها تسمه ويتزوجها، وبذل لها مائة ألف درهم، ففعلت فمرض أربعين يوما ومات، فبعثت ليزيد بما وعدها به فأبى. وجهد به الحسين أن يخبره بمن سمه فأبى، وقال: الله أشد نقمة، وأجد كبدي تتقطع، وإني العارف من أين دُهيتُ فبحقي عليك لا تكلمتَ في ذلك بشيء، وأقسم

عليك ألا تريق في أمري مَحْجَمةَ دم. ومن جملة كلامه لأخيه، لما احتضر: يا أخي إن أباك استشرف أن يولّى فنوزع حتى جرد السيف فما صفت له، وإني والله ما أرى أن يجمع الله لنا النبوة والخلافة، وربما يستخلفك خلفاء الكوفة فيحرجونك، وقد كنت طلبت من عائشة أن أدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أنا مت فاطلب منها وما أظن القوم إلا سيمنعونك، فإن فعلوا فلا تراجعهم. فلما مات سأل الحسين عائشة، رضي الله عنها، فقالت: نعم وكرامة، فمنعهم مروان، وكان والي المدينة، فلبس الحسين ومن معه السلاح حتى رده أبو هريرة، رضي الله عنه، ثم دفن بالبقيع إلى جنب أمه، رضي الله عنها، وفي سنة موته أقوال، والأكثرون أنها سنة خمسين، وكانت ولادته بالمدينة في نصف شعبان لسنة ثلاث من الهجرة. ومن فضائله، رضي الله عنه، ما صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يحمله على عاتقه ويقول: اللهم إني أحبه فأحبه. وصح: <<من أحبني فليحبّه وليعلم الشاهد الغائب، اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه>>، ثلاث مرات. وفي رواية: <<من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة>>. وصح أنه حج خمسا وعشرين حجة ماشيا، وإن النجائب لتنقاد بين يديه. وخرج من ماله مرتين، وقاسم الله ماله ثلاث مرات. وكرمه باهر، وحكايته فيه أبهر، ولم يسمع منه كلمة فحش إلا قوله مرة: ليس عندنا إلا ما رغم أنفه. وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: <<إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين>>. وقد حقق الله ذلك بما هو معلوم. ولما توفي أبوه تولى الخلافة بمبايعة أهل الكوفة، فكان آخر الخلفاء الراشدين بنص جده صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الصحيح: <<الخلافة بعدي ثلاثون ثم يكون ملكا عضودا>>. فمدة خلافته هي الستة الأشهر الباقية منها وعند مضيها سار إلى معاوية في أربعين ألفا، فلما تراءى الجمعان علم الحسن أنه لن تغلب إحدى الطائفتين حتى يذهب أكثر الأخرى، فرضي بالنزول لمعاوية عن الخلافة شفقة على الأمة بشروط قبلها معاوية، فنزل له. وحينئذ صار هو الإمام الحق، وكان قبل ذلك متقلبا، لكن لاجتهاده لم يكن آثما بل مأجورا.

وأما شهادة الحسين فسببها أن يزيد لما استخلف سنة ستين أرسل لعامله

بالمدينة أن يأخذ البيعة له على الحسين، ففر لمكة خوفا على نفسه، فأرسل إليه أهل الكوفة أن يأتيهم يبايعونه، ويمحي ما بهم من الظلم والجور، فنهاه ابن عباس وبين له عددهم وقتلهم لأبيه وخذلانهم لأخيه وأمره أن لا يذهب إليهم فأبى، فبكى ابن عباس، رضي الله عنه، وقال: واحسيناه. وقال له ابن عمر نحو ذلك، فأبى، فقبّل ما بين عينيه وقال: أستودعك من قتيل. وكذلك نهاه ابن الزبير، رضي الله عنهم بل لم يبق بمكة أحد إلا حزن لمسيره. ولما بلغ أخاه محمد ابن الحنفية بكى حتى ملأ طستا بين يديه. وقدم أمامَه مسلم بن عقيل، فبايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألفا، فأرسل إليه يزيد بن زياد فقتله، وسار الحسين غير عالم بذلك، فلقي الفرزدق فسأله فقال: قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية. والقضاء ينزل من السماء، ولما قرب من القادسية تلقاه من أخبره الخبر وأمره بالرجوع، فهمّ بالرجوع فقال أخو مسلم المقتول: لا حتى تأخذ بثأرنا أو نُقتل. ثم سار فلقيه أوائل خيل ابن زياد فعدل إلى كربلاء، فجهز إليه ابن زياد عشرين ألف مقاتل، فلما وصلوا إليه التمسوا منه نزوله على حكم ابن زياد فأبى، فقاتلوه وكان أكثر مقاتليه المكاتبين إليه والمبايعين له، فلما جاءهم فروا عنه إلى عدوه، فحارب ذلك العدد الكثير ومعه من أهله نيف وثمانون، فثبت في ذلك الموقف ثباتا باهرا لولا أنهم حالوا بينه وبين الماء ما قدروا عليه، ولما استحر القتل في أهله حتى بلغ الخمسين صاح: أما داب يدب عن حريم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج يزيد بن الحارث رجاء شفاعة جده، فقاتل بين يديه حتى قتل، ثم فني أصحابه وبقي مفردا، فحمل عليهم وقتل منهم كثيرا من شجعانهم فكثروا عليه حتى حالوا بينه وبين حريمه، فصاح رضي الله عنه: كفوا سفاءكم عن النساء والأطفال، ثم لم يزل يقاتلهم حتى أثخنوه بالجراح لأنه طعن إحدى وثلاثين طعنة وضرب أربعا وثلاثين ضربة ومع ذلك غلب عليه العطش إلى أن سقط إلى الأرض، فحزوا رأسه يوم الجمعة عاشر المحرم عام إحدى وستين، وكانت ولادته لخمس خلون من شعبان سنة أربع، فولادته بعد أخيه بسنة غير عشرة أيام، وعاش بعده عشرا. ولما وضعه قاتله بين يدي عبد الله بن زياد متبجحا بكونه قتل خير الناس، فأمر بضرب عنقه وقال: إذا علمت أنه كذلك فلم قتلته. وقتل معه رضي الله عنه من إخوته وبنيه وبني أخيه الحسن ومن أولاد جعفر

وعقيل تسعة عشر رجلا. قال الحسن البصري رضي الله عنه: ما كان على وجه الأرض لهم يومئذ شبيهٌ. وجعل ابن زياد الرأس في طست وجعل يضرب ثناياه بقضيب ويدخله أنفه ويتعجب من حسن ثغره، فبكى أنس رضي الله عنه وقال: كان أشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال له زيد بن أرقم: ارفع قضيبك، فوالله لطالما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل ما بين الشفتين، فبكى فأغلظ عليه ابن زياد وهدده بالقتل، فقال: لأحدثنك بما هو أغيظ عليك من هذا، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أقعد حسنا على فخذه اليمنى وحسينا على فخذه اليسرى ثم وضع صلى الله عليه وسلم يده الكريمة على يافوخهما ثم قال: <<اللهم إني أستودعك إياهما وصالح المؤمنين>>. فكيف كانت وديعة النبي صلى الله عليه وسلم يابن زياد. انتهى. ولا يستغرب هذا من ابن زياد، فقد صرح أحمد بن حنبل بكفره، وناهيك به ورعا وعلما، ومن كان بهذا الفسق لا تحل بيعته ويجوز الخروج عنه، فما فعله سيدنا الحسين من الخروج عنه فهو صواب، وما نقل عن ابن العربي من كونه قتل بسيف جده لا يصح عنه. كما قاله الحُرِيشي في شرح الشفا. ولما دخلوا برأسه قصر الإمارة بالكوفة أمر بالرأس فوضع على ترس على يمينه، ثم أنزله وجهزه مع رؤوس أصحابه وسبايا آل الحسين، على يزيد، فلما وصلوا إليه قيل ترحم عنهم، والمشهور أنه جعل ينكث الرأس بالخيزران، ويجمع بأنه أظهره وأخفى الثاني، وأقبح من هذا أنه حمل آل النبي صلى الله عليه على أقتاب الجمال موثقين في الحبال، والنساء منكشفة الوجوه والرءوس، ولما وصلوا إلى دمشق أقيموا على درج الجامع حيث تقام الأسارى والسبي. وقيل إن يزيد أرسل برأس الحسين ونقله ومن بقي من أهله إلى المدينة فكفن رأسه ودفن عند قبر أمه بقبة الحسن، وقيل أعيد إلى جثته بكربلاء بعد أربعين يوما من قتله. انتهى.

قلت: وفي طبقات الشعراني أن ملك مصر دفع أموالا لمن أتاه به خفية فدفن بمصر وهو الموضع المشهور اليوم بالحسيني. وقد كان الإمام السبكي ينكر ذلك، فلما نام ذات يوم في ذلك المقام، رءا في النوم السيدة فاطمة وقفت على قبر أبيها فقالت: يأبى الإمام السبكي يزور ولدي، فاستيقظ وصاح آمنت بأن الحسين هنا. انتهى بالمعنى

من الطبقات. ومن فضائله ما رواه الطبراني عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: <<أما حسن فله هيبتي وسؤددي وأما حسين فله جرءتي وجودي>>. ومما ظهر يوم قتله أن السماء أمطرت دماً، وإن أوانيهم ملئت دما، وأن السماء اشتد سوادها لانكساف الشمس حينئذ حتى رئيت النجوم، واشتد الظلام حتى ظن الناس أن القيامة قد قامت، وأن الكواكب ضربت بعضها بعضا، وأنه لم يرفع حجر إلا رُئي تحته دم عبيط، وأن الدنيا أظلمت ثلاثة أيام ثم ظهرت فيها الحمرة. وقيل احمرت ثلاثة أشهر، ثم ما زالت الحمرة ترى بعد ذلك. وعن ابن سيرين، أخبرنا أن الحمرة التي مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين. وقال ابن الجوزي: وحكمة ذلك أن غضبنا يؤثر حمرة الوجه، والحق منزه عن الجسمية، فأظهر تأثير غضبه على من قتل الحسين بحمرة الأفق إظهارا لعظيم الجناية. انتهى من ابن حجر فانظره. وقوله "**ليس ينسيني الطف مصابيهما ولا كربلاء**" الطف اسم موضع بالعراق بناحية الكوفة، وكربلاء. قيل هو الطف أيضا فيكون عطف تفسير، وقيل كربلاء موضع قريب من الطف، والمعنى أن هذين الموضعين يُذكّر أن مصابهما بل كل منهما يذكران بذلك المصاب العظيم حتى أني أتصور في كل أرض أنها هي. وقوله مصابيهما أي مجموعهما على حد: يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، أي مصاب الحسين. وأما مصاب الحسن فمر أنه بالمدينة ولم يكن قتله بالسم ظاهرا، وإنما علم به نزر يسير من الناس. وكان الناظم أشار بهذا إلى ما نقل عن الشعبي، أن عليا كرم الله وجهه لما مر بكربلاء فبكى حتى بل الأرض بدموعه، ثم قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك، قال: كان عندي جبريل آنفا، وأخبرني أن ولدي الحسين يقتل بشاطئ الفرات بموضع يقال له كربلاء، ثم قبض جبريل قبضة من تراب تلك الأرض وشمني إياها فلم أملك عيني أن فاضت. انتهى من ابن حجر بتلفيق.

*** ثم قال:**

334 **مَا رعَى فِيهِما ذِمامك مرْءو ... سٌ وقَد خَان عهْدكَ الرّؤسَاءُ**

يعني، أنه لم يحفظ في هذين السيدين العظيمين "**ذمامك**" أي حرمك أيها النبي

الكريم "**مرءوس**" أي تابع لغيره كجعدة الكندية في الحسن وأتباعه في الحسين. "**وقد خان عهدك**" أي نقضه "**الرؤساء**" أي المتبوعون من الظلمة الفساق، كيزيد وأمثاله مع أنه كان يجب على كل أحد رعايتهما والوفاء بهما، قال تعالى: ﴿ **قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ** ﴾ ولا يحصل القيام برعايتهما وحفظهما إلا بالقيام بجميع ما لهما من العهود والحقوق ولكن خصهما الله بمنزلة الشهادة فظفرا بخير الدنيا والآخرة، رزقنا الله مودتهما الخاصة، وحشرنا معهم في زمرة من شربوا آمين.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

335 **أبْدلوا الوُد والحَفيظَةُ فِي القُر   بَى وأبدَت صَبابَهَا النّافِقاءُ**

يعني أن هؤلاء الفسقة "**أبدلوا الود**"، أي المحبة التي فرضها الله عليهم في الآية المتقدمة بالعداوة والبغضاء، وأبدلوا "**الحفيظة**" أي الحمية والنصر "**في القربى**"، أي: قرابة النبي صلى الله عليه وسلم بالمكر والخديعة والخذلان، فبدلوا نعمة الله كفرا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، ولم يمتثلوا قول الله في حقهم الدال على غاية رفعتهم: ﴿ **قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ** ﴾ فالذي عليه الجمهور أنهم أهل البيت، وقد خطب الحسن بن علي رضي الله عنه، خطبة بليغة فقال فيها: أنا الحسن بن محمد صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، ثم قال: وأنا من أهل البيت الذين افترض الله عز وجل مودتهم وموالاتهم. زاد في رواية: على كل مسلم. فقال فيما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا»، قال: اقتراف الحسنات مودتنا أهل البيت. وروي أنها لما نزلت قالوا: يا رسول الله من قرابتك الذين وجبت علينا محبتهم. قال: <<علي وفاطمة وابناهما>>. وفي بعض الأحاديث: <<أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله عز وجل، وأحبوا أهل البيت لحبي>>، وصح أيضا: <<ما بال أقوام يتحدثون، فإذا رأوا الرجل من أهل بيتي قطعوا حديثهم، والله لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبهم لله

تعالى لقرابتهم مني>>. وروى أحمد والترمذي حديث: <<من أحبني وأحب حسنا وحسينا وأباهما وأمهما كان معي في الجنة>>. زاد أبو داود: <<ومات متبعا لسنتي>>. وقوله "**وأبدت ضبابها النافقاء**" الضباب جمع ضب وهو معروف، والمراد بها هنا اليرابيع، لأنها هي التي تكون لها النافقاء، وذلك أن اليربوع يجعل بجحره بابين أحدهما يدخل منه وهو المسمى بالقاصعاء والآخر يسمى النافقاء لأنه يكتمه ولا ينفذه بل يترك له سترا رقيقا ويجعله قريبا من القاصعاء، فإذا صيد ودخل عليه من القاصعاء ضرب برأسه النافقاء وخرج هاربا. ولهذا يقال نفق اليربوع، ومنه اشتق المنافق في الدين كما في الصحاح، شبه الناظم المكرة بالحسين رضي الله عنه حتى فعلوا ما فعلوا باليربوع في مكرها المذكور، فهو استعارة تصريحية. وفي ذكر النافقاء استعارة ترشيحية، فالنافقاء فاعل وعليها يعود ضمير المفعول، أي أظهرت النافقاء ما في جوفها من اليرابيع والضباب كذلك أظهرت الفسقة قتلة الحسين ما كان كامنا فيها من النفاق والعداوة، قبح الله رأيهم وأضل سعيهم.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

336 **قَسَتْ مِنْهُمْ قُلوبٌ عَلَى مَنْ ... بَكَتِ الأرْضُ فَقْدهُم والسَّماءُ**

يعني أن أولئك الفجرة الذين قتلوا سيدنا الحسين ومن كان معه من الأجلة الأخيار، "**قست منهم قلوب**" أي غلظت واشتد حجابها، فصدر منهم من الإيذاء والاستهزاء بحقهم ما تهد منه الجبال، فلم تلن قلوبهم ولن ترق "**على من بكت الأرض فقدهم والسماء**" لكونهم أئمة الإسلام ومعالم الحلال والحرام، بهم يستغاث أهل الأرض، وبوجودهم ينزل القطر من السماء، بدور الدنيا ومصابيح الظلام. وقد قال الحسن البصري فيمن قتل مع الحسين، رضي الله عنهم، ليس لهم شبيه على وجه الأرض. وفي كلامه اقتباس من مفهوم قوله تعالى: ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ** ﴾، فمفهومه أن المؤمن تبكي عليه السماء والأرض، بمعنى أنهما يتأسفان على ما فاتهما من أعماله وثوابها. أما الأرض فمحل سجود المؤمن وعبادته، وأما السماء

فمحل تصاعد أعماله. وإذا كان هذا في مطلق المؤمن كما علم من الآية. فما بالك بآل البيت النبوي والسر العلوي. ويصح أن يكون المراد ببكائهما، بكاء أهلهما، لكن الأول أبلغ، ولا مانع من حمله على الحقيقة لأنه ممكن، ورد به الشرع فلا يخرج عن ظاهره إلا بدليل. قاله ابن حجر، وبالله تعالى التوفيق. وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

*** ثم قال:**

337 **فـابْكِهِمْ مـا اسـتَطعتَ إن قَلـيلا　　في عَظـيم منَ المُـصابِ البُكاءُ**

أي فابك أيها السامع هؤلاء السادات الكرام أئمة الهدى ومصابيح الظلام وآل البيت خير الخلق عليه الصلاة والسلام ما استطعت تأسيا بنبيك عليه السلام، ثم بجبريل ثم بعلي رضي الله عنهم. وقد تقدم حديثهم عند قوله "**ليس ينسيني الطف مصابيهما ولا كربلاء**" وأخرج الترمذي أن أم سلمة رأت النبي صلى الله عليه وسلم، في النوم باكيا وبرأسه ولحيته التراب، فسألته فقال: قتل الحسين آنفا، وكذلك رءاه ابن عباس رضي الله عنه، نصف النهار أشعث أغبر، وبيده قارورة فيها دم يلتقطه، فسأله فقال: دم الحسين وأصحابه. لم أزل أتتبعه منذ اليوم، فنظروا فوجدوه قتل في ذلك اليوم. والأمر بالبكاء مراد به التأسف والتحسر والحزن على ما حصل للدين وأهله من استباحة حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودم بنيه وأهله، والاستخفاف بحقهم، ومن زوال أنوار النبوة وعلومها وتقاها وزهدها وكمالاتها بفقدهم. وذلك كله مصاب لا يساويه مصاب، فلذلك قال "**إن قليلا**" أي "**إن**" حزنا "**قليلا**" "**في**" مقابلة "**عظيم**" من مصاب الأمة بالحسين وأهل البيت رضي الله عنهم أجمعين. "**البكاء**" أي فإن البكاء وإن كثر جدا، قليل في مقابلة مصاب هؤلاء السادات. والبكاء بالمد: رفع الصوت، وبالقصر دمع العين فقط. وقد تقدم أن المراد هنا التأسف والتحسر، وإلا فقد ورد النهي عن البكاء على الميت، ومحله إذا رفع الصوت فيه، وأما دمع العين فلا. وهو الصادر منه صلى الله عليه وسلم. ففي الصحيح <<إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا>> الحديث. والله تعالى أعلم. وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* **ثم قال رضي الله:**

338 **كُلّ يوْم وكُلّ أرْض لِكَرْبِي   مِنْهُمْ كَرْبَلاءُ وعَاشُوراءُ**

أخبر الشيخ رضي الله عنه أنه بلغ منه الحزن والغم على هذين الإمامين العظيمين وأهل بيتهما من أجل ما أصابهما من القتل والأسر والسب والإيذاء ما لا يصبر عليه، حتى أن "**كل يوم**" عنده عاشوراء، الذي قتل فيه سيدنا الحسين، و"**كل أرض**" عنده كربلاء التي مات فيها. ففيه لف ونشر معكوس، فكربلاء راجع للأرض. وعاشوراء لليوم، أي بلغ مني تلك الكرب حتى أن كل أرض حللت بها تصورت أنها "**كربلاء**"، وكل يوم أصبحت فيه تصور أنه "**عاشوراء**" الذي قتل فيه. فكربي عم جميع ما أنا فيه من الأمكنة والأزمنة، فلا يفارقني بالانتقال من أرض لأخرى، وذلك من عظيم محبتي لذلك الجانب.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

339 **آل بَيْتَ النَّبي إن فُؤادي   لَيْس يُسْلِيهِ عنْكم التَّأْساءُ**

340 **غيْر أني فوَّضْت أمْري إلى اللـ   ـهِ وتفْويضِي الأمُور بَراءُ**

هذا نداء تعطف وترحم على أهل البيت، وهم مؤمنوا بني هاشم والمطلب عند الشافعي المذكورين في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ وأكثر المفسرين أنها نزلت في علي وفاطمة والحسنين رضي الله عنهم لخبر مسلم: أنه أدخل أولئك الأربعة تحت كساء وقرأ الآية. وصح أنه صلى الله عليه وسلم جعل هؤلاء تحت كساء وقال: <<اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا>>. وفي حديث حسن، أنه صلى الله عليه وسلم اشتمل على العباس وبنيه بملاءة ثم قال: <<يا رب، هذا عمي وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي، فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه>>. فقالت أسكفة الباب وحوائط البيت. آمين. ثلاثا. فعلى هذا يكون أهل البيت أهل بيت مسكنه صلى الله عليه وسلم وهن أمهات المؤمنين، وأهل بيت نسبه وهم مؤمنوا بني هاشم والمطلب على ما تقدم.

وصح هذا عن زيد بن أرقم، والأشهر أن هؤلاء هم المذكورون في قوله: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد. وقوله: "**إن فؤادي**" أي قلبي، "**ليس يسليه**" أي يصبره "**عنكم**" يا أهل البيت "**التأساء**" أي الشدة والمحن. وفي القاموس تأساه واستخف به يعني أن محبتكم أهل البيت رسخت في قلبي وتمكنت منه على الدوام فلا تزلزلها محنة ولا تنقصها شدة ولا يصبرني عنكم شيء في الشدة ولا في الرخاء. وفي الحديث: <<والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحبني، ولا يحبني حتى يحب ذوي قرابتي، أنا حرب لمن حاربهم، وسلم لمن سالمهم، وعدو لمن عاداهم، ألا من آذى قرابتي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى>>. وفي الحديث أيضا: <<أنا تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله تعالى وعترتي>>. فتأمل كيف قرنهم بالقرآن صلى الله عليه وسلم في كون التمسك بهم يمنع الضلال ويوجب الكمال. ولما ذكر أنه لا يسليه عنهم شيء وإن التحسر والتحزن عليهم لا يفارقه، فوض في ذلك أمره إلى الله فقال: "**غير أني**" إلا أني "**فوضت أمري**" في ذلك "**إلى الله**" الفاعل لما يشاء، والمدبر لما يختار ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ والاستثناء فيه منقطع "**وتفويضي الأمور**" أي هو مقدرها ومريدها "**براء**" أي فبريء لي من الاعتماد على حولي وقوتي، وهذا مطلوب من كل مسلم، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: <<لا حول ولا قوة إلا بالله براءة من الشرك وكنز من كنوز الجنة>> وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

341 **رب يـــوم بكـــربلاء مـــسيئ   خففـت بعـض وزره الـزوراء**

342 **والأعــادي كــان كــل طــريح   مـنهم الـزق حـل عـنه الـوكاء**

أي "**رب يوم**" فظيع بما وقع فيه "**بكربلاء**" محل قتل سيدنا الحسين رضي الله عنه "**مسيء**" بما وقع فيه من عظيم الجرم بقتال آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، "**خففت بعض وزره**" أي ثقل ذلك الجرم العظيم غَيره لآل بيت النبي صلى الله عليه

وسلم "**الزوراء**" أي ما وقع فيه، والزوراء ناحية ببغداد، أي ما وقع من خلفائها بني العباس الذين هم من جملة آل البيت بالخروج على بني أمية لأنهم عاتوا وجاروا ولم يراقبوا الله ورسوله في آل البيت الطاهرين المطهرين، الكاملين المكملين، الجامعين بين العلوم الشرعية، والمعارف الربانية، والأسرار الإلهية، ثم بنزع الخلافة منهم بعد أن نصرهم الله عليهم فقتلوهم شر قتلة كما قال. "**والأعادي**" وهم أولئك الفسقة، "**كان كل طريح**" أي مطروح "**منهم**" إلى الأرض ببارق السيوف، ولوامع الأسنة الموجبة لتوالي الحتوف، أي كأنهم "الزق" المنتفخ بالأرض الذي "**حل عنه الوكاء**"، أي: ما يشد به رأس الزق، شبه أجسادهم المطروحة المنتفخة بزقوق حل وكاؤها، فجعل يخرج ما في جوفها. قال ابن حجر: ولا يزالون يتبعونهم حتى قطعوا دابرهم عن آخرهم. ﴿ **فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾. وهذه القصة مبسوطة في التواريخ، كتاريخ الخلفاء للسيوطي، والاختصاري له فعليك بطلبها إن شئت. انتهى كلامه.

* **ثم قال الناظم رحمه الله:**

343 **آلُ بيْت النَّبي طبْتم فطَاب الـ ـمَدْحُ لي فِيكم وطَابَ الرثَاء**

"**آل**" منادى مضاف، وأصله أهل، ابدلت الهاء همزة، وأبدلت الساكنة ألفا، ولا يضاف إلا إلى الأشراف كما هنا، فلا يقال آل الحجام. وأما آل فرعون فلأنه كان متصورا بصورة الشرف. وقد تقدم تفسير "**آل بيت**". وقوله "**طبتم**" أي طابت أصولكم وفروعكم ونفوسكم وأفعالكم وأقوالكم وصفاتكم وأحوالكم. فأنتم طيبون كرام، نشأ عن أصل كريم وسيد عظيم. وقد قال مولانا عز وجل في حقكم، وتعظيما لشأنكم، وتنويها لقدركم: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ فهذه الآية منبع فضائلكم لاشتمالها على غرر من مآثركم والاعتناء بشأنكم حيث ابتدأت بإنما المفيدة لحصر إرادة الله تعالى، إذ ذهاب الرجس عنكم وهو الإثم والشك فيما يجب الإيمان به، وتطهيركم من سائر الأخلاق المذمومة. وقد وردت أحاديث في

تحريمهم على النار، وهو فائدة التطهير وغايته، إذ منه إلهام الإنابة والتوبة إلى الله تعالى، وإدامة الأعمال الصالحات، ومن ثم لما ذهبت عنهم الخلافة الظاهرة لكونها صارت ملكا عضودا، عوضوا عنها الخلافة الباطنة حتى ذهب قوم إلى أن قطب الأولياء لا يكون إلا منهم. وختم الآية بـ ﴿ تَطْهِيرًا ﴾ مبالغة في وصولهم لأعلاهم، وفي رفع التجوز عنهم. وتنوينه للتعظيم، وتنكيره إشارة إلى أنه تطهير بديع ليس من جنس ما يتعارف ويؤلف. ثم أكد ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله، وقد جعل على علي وفاطمة والحسن والحسين كساء، فقال: <<هؤلاء أهل بيتي اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا>>. ثلاثا. وصح حديث: <<إن مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح في قوم نوح. من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك>>. وحديث: <<خيركم خيركم لأهل بيتي من بعدي>>. وحديث: <<سألت ربي ألا أتزوج إلى أحد من أمتي، ولا يزوج أحد إليّ من أمتي، إلا كان معي في الجنة، فأعطاني ذلك>>. وحديث: <<أحبوني كحب الله، وأحبوا أهل بيتي كحبي>>. وحديث: <<إن لكل نبي عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم وهم أعز من خلفوا من طينتي، وويل للمكذبين بفضلهم، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله>>. وحديث: <<والذي نفسي بيده، لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أكبه الله في النار>>. انتهى. ذكره ابن حجر. "**فطاب المدح لي فيكم**" وإن لم أستوف واجب حقكم، لأن الله تعالى ورسوله أثنيا عليكم بما تنقطع الأعناق دون الوصول إلى غايته، والإحاطة بشيء من نهايته. "**وطاب**" لي "**فيكم الرثاء**" وهو تعداد محاسن موتاكم، رزقنا الله محبتكم وجمعنا معكم في دار الكرامة آمين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

344 **أنَـا حَـسَّانُ مَـدحِكم فَـإذَا نِحْـ ـتُ علَـيْكم فَإنَّنِـي الخنْـسَاءُ**

شبه رحمه الله نفسه في مدح آل البيت والاعتناء بذلك على وجه البلاغة وقوانين الفصاحة بحسان بن ثابت، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان ينصب له منبرا في مسجده ينافح عنه كفار قريش ويرد عنه هجاءهم، ويقول له

صلى الله عليه وسلم: <<اللهم أيده بروح القدس>>. ولما أراد أن يهجو قريشا، قال له صلى الله عليه وسلم: <<كيف بنسبي فيهم>>. قال: لأسُلَّنَّك منهم كما تسل الشعرة من العجين. فهذا من كمال بلاغته. ورءاه عمر ينشد شعرا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه شزرا، فقال: كنت أنشده بين يدي من هو خير منك، وهو يقول: اللهم أيده بروح القدس. وشبه نفسه في البكاء والنياحة عليهم بالخنساء بنت عمر بن الشريك، وكانت من سراة قومها من قبيلة قيس بن غيلان. قيل قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها بني سليم الموالين له صلى الله عليه وسلم، ولذا حضر معه منهم في فتح مكة وخيبر ألف رجل، ونظرت عائشة رضي الله عنها إليها وعليها ثوب الحُزن فأخبرتها بأنه صلى الله عليه وسلم نهى عنه، فاعتذرت بأنها لم تعلم بالنهي، ثم ذكرت سببه وهي إنما زوجها افتقر فسألت أخاها فقاسمهما ماله، فافتقر فسألت فقاسمهما ماله ثم الثالثة ثم الرابعة فعاتبته زوجته فأجابته بأنها كفته عارها ولو هلك مزقت خمارها ولبست شعر مدارها، قال فلما هلك اتخذت هذا الثوب. قيل لجرير: من أشعر الناس، قال: أنا لولا هذه ، قيل له: بم فضلتك؟ قال: بقولها

إن الزمان يفنى وما تفنى عجائبه   أبقى لنا ذنبا واستوصل الرأس

أبقى لنا كل مجهول وفجّعنا   فالحالمين فهم هام وأرماس

إن الجديدين في طول اختلافهما   لا يفسُدان ولكن يفسد الناس

وأجمع علماء الشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها. ومن نظمها في رثاء أخيها، قولها:

ألا يا صخر إن أبكيت عيني   لقد أضحكتني زمنا طويلا

إلى أن قالت:

إذا قبح البكاء على قتيل   رأيت بكاءك الحسن الجميلا

ومنه أيضا:

يؤرقني التذكر حين أمسي   ويردعني عن الأحزان نسكي

على صخر وإن صخر كصخر   ليوم كريهة وطعام حِلس

ومنه:

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وسأل الخليفة المهدي الفضل عن أفخر بيت قالته العرب، فذكر له هذا، فأعطاه ثلاثين ألف درهم بعد أن شكى أن عليه دينا عشرة آلاف درهم. ورءاها عمر رضي الله عنه تطوف باكية لاطمة لخدها معلقة نعل صخر في خمارها، فوعظها، فقالت: رزيت فارسا لم يرزأ أحد مثله، فقال: إن في الناس من هو أعظم رزية منك، وإن الإسلام قد غطى ما كان قبله، وإذا لا يحل لك لطم وجهك ولا كشف رأسك. فكفت. وحضرت حرب القادسية مع بنيها أربع رجال، فحرضتهم على الثبات أبلغ تحريض، ثم قالت: فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت نارها على أوراقها، فتيمّموا وطيسَها، وجالدوا رسيسها، تظفروا بالنعيم والكرامة في دار الخلد والمقامة. فتقدموا حتى قتلوا كلهم، فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجوا أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة. وكان عمر رضي الله عنه يعطيها أرزاقهم لكل مائتان حتى قبض رضي الله عنهم. انتهى. قاله ابن حجر.

*** ثم قال الناظم رضي الله عنه ونفعنا به آمين:**

345 **سُدتُم النَّاس بالتُّقى وسِواكُم سَوَّدتْهُ البيْضاءُ والصَّفْراءُ**

الخطاب لأهل البيت يعني أنكم أهل البيت "**سدتم الناس**" أي صرتم سادات على الناس، عظماء عند الله "**بالتقى**" مع سيادة النسب الشريف الذي لا يوازيه شرف ولا تفوقه سيادة لوجود البضعة النبوية فيكم. "**وسواكم**" ممن يدعي السيادة وينتقم عليكم، "**سودته**" أي صيرته سيدا عند الجهلة مثله "**البيضاء**" أي الفضة. "**والصفراء**" أي الذهب. أي فلا سيادة لهم أصلا في الدنيا لذهاب شرفها، ولا في الآخرة لعدم التقى. فإن السيادة بالتقى لا تختص بهم، والكلام إنما هو فيما يختص بهم، فالجواب أن التقى الذي تميزوا به لم يصل إليه غيرهم من الزهد في الدنيا وسخاوة الأنفس والكرم والاجتهاد في العبادة. وقد قال جماعة: إن القطب لا يكون إلا منهم. وقد ورد في فضلهم ما لا يحصى من الأخبار والآثار. وآية المباهلة أوضح دليل على شرفهم،

حيث جعلهم المصطفى أبناءه امتثالا لقوله تعالى: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ﴾ الآية. فلما نزلت الآية دعاهم صلى الله عليه وسلم فاحتضن الحسن وأخذ بيد الحسين ومشت فاطمة خلفه وعلي خلفها، فعلم أنهم المراد من الآية، وأنهم أبناءه، فكل من تنسل من فاطمة رضي الله عنها فهو من ذريته صلى الله عليه وسلم، منسوب إليه حقيقة، نسبة نافعة في الدنيا والآخرة. ويدل لذلك ما صح أنه صلى الله عليه وسلم خطب الناس، فقال: <<ما بال أقوام يقولون إن رحم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفع قومه يوم القيامة، بلى، والله إن رحمي هو صولة في الدنيا والآخرة>>. وأخرج الطبراني في حديث، <<أن الله عز وجل جعل ذرية كل نبي في صلبه، وإن الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب>>. زاد في بعض الروايات: <<إذا كان يوم القيامة دعي الناس بأسماء أمهاتهم إلا هذا وذريته فإنهم يدعون بأسمائهم لصحة ولادتهم>>. وعن عمر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: <<كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة ما عدا سببي ونسبي>>. وفي رواية زيادة الصهر والحسب، <<وكل بني أنثى عصبتهم لأبيهم إلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وعصبتهم>>. وجاء في حديث آخر، رجاله من أكابر أهل البيت، أن عمر قال ذلك لما زوجه علي بنته من فاطمة أم كلثوم وإقرار الصحابة لعمر على هذا الاستدلال صريح في رد ما عارضه من أقاويل شاذة في هذه المسألة. وصحح الحاكم حديث: <<وعدني ربي في أهل بيتي أن من أقر منهم بالتوحيد ولي بالبلاغ لا يعذبهم>>. وأخرج أحمد حديث: <<والذي بعثني نبيا لو أخذت بحلقة الجنة ما بدأت إلا بكم>>. انتهى. ولا ينبغي لأحد من أهل البيت أن يغتر بهذا، فقد ورد في الصحيح: <<يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئا>>. وفي حديث آخر: <<إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي، وليس كذلك، إن أوليائي المتقون>>. وحديث البخاري ومسلم: <<إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، إنما ولي الله وصالح المؤمنين>>. وتأمل قول الحسن بن الحسن السبط رضي الله تعالى عنهما لبعض الغلاة فيهم: ويحكم أحبونا لله تعالى، فإن أطعنا الله فأحبونا وإن عصينا الله فأبغضونا، ويحكم، لو كان الله نافعا بقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير عمل

بطاعته، لنَفع ذلك من هو أقرب إليه منا كأبي طالب، والله إني أخاف أن يضاعف للعاصي منا العذاب ضعفين، وأن يعطي المحسن منا أجره مرتين. وكأنه يشير إلى الآية. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

346 **وبِأصْحابِك الذِّينَ هُمْ بَعْـ ـدَكَ فِينَا الهُدَاةُ والأوْصِياءُ**

وأقسم عليك "**بأصحابك**" الكرام "**الذين**" نشروا معالم الإسلام، وأظهروا ما في شريعتك من الأحكام، وبينوا فيه الحلال والحرام، فكانوا "**بعدك**" هداة دالّين أمتك على الله تعالى، معرفين لهم ما يجب له تعالى وما يستحيل وما يجوز، كما كانت الرسل عليهم السلام، ودالّين على ما يهذب النفوس ويطهر القلوب ويحسّن الأخلاق وغير ذلك مما يقرب إلى الله ويدل عليه. وهذا مقتبس من قوله صلى الله عليه وسلم: <<أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم>>. وإن ضعفه بعض الحفاظ. وكانوا بعدك أوصياء، أي وصيتهم بالقيام بأمور الدين وجهاد العدو في سبيل رب العالمين، ففتحوا الأمصار والبلاد وساسوا الأمة، ونشروا فيها معالم الكتاب والسنة، حتى خضعت لمعالمهم الرءوس، وبادوا أهل الزيغ، فلم يبق منهم رئيس ولا مرءوس، وهذه الوصية كانت لهم عامة، ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم وصى بالخلافة لأحد بعينه، وإلا لهلكت الأمة لو خالفوا ذلك النص، فاقتضت المصلحة وشفقته صلى الله عليه وسلم ألا ينص عليها صريحا وإنما كانت لأبي بكر إشارات، والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

347 **أحْسنوا بعْدك الخلافَة في الدِّيـ ـنِ وكُل لِما تَولَّى إِزَاءُ**

هذا أيضا من أوصاف الصحابة رضي الله عنهم، وهو كونهم أحسنوا الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في دين الله تعالى بالقيام بما تجب أو تحسن مراعاته من الأمور الظاهرة والباطنة حيث أجمعوا على استخلاف أبي بكر ثم عمر ثم على الشورة لعثمان ثم على مبايعة علي ثم ابنه الحسن ثم على معاوية بعد نزول الحسن عنها. وحيث نصبوا أنفسهم لمجاهدة الأعداء ونشر العلوم إلى أن تعلمها عنهم

التابعون ثم من بعدهم جزاهم الله عنا أحسن الجزاء، وكل واحد منهم لما تولاه في حياته صلى الله عليه وسلم، وبعد وفاته من الخلافة والإمارة والقضاء وتجهيز الجيوش وحفظ الثغور والحصون وغير ذلك من أمور الدنيا والدين "**إزاء**" بكسر الهمزة وفتح الزاي، أي قيم بما تولاه أهل له في أي مكان أو زمان كان، لكونهم عدولا خيارا كما نطق به القرآن في غير ما آية، نفعنا الله ببركتهم آمين.

* **ثم قال رحمه الله:**

348 **أغْنِيَاءُ نَزاهَة فُقَراءُ   عُلَمَاءُ أئِمَّةٌ أمَراءُ**

هذا أيضا من أوصافهم الخاصة، ومحاسنهم العامة، أما كونهم "**أغنياء**" فالمراد به غنى النفس، ولا شك أنهم كانوا أغنى الناس بالله لأنهم أعلم الخلق بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ورثوا عنه ذلك، ولكون المراد به غنى النفس، فسره الناظم بقوله "**نزاهة**" أي من جهة النزاهة والتعفف * عن جميع المال وإن كان حلالا لأن محط نظرهم إنما هو التجرد المطلق عن سائر القواطع عن الله تعالى. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس>>، أي بالله عما سواه، سواء كان بيده أو لا، ومن كان منهم بيده مال فإنما كان خازنا لله تعالى يصرفه في مصارفه الشرعية، مقتنيه لذلك لا بفخر ولا مباهات ولا لمحبة جمع حطام الفاني. وقد أعتق عبد الرحمن بن عوف ثلاثين ألف رقيق وتصدق هو وعثمان في غزوة تبوك بما يبهر العقل، وكان للزبير ألف عبد تؤدى إليه الخراج وحين مات ترك عليه ديونا كثيرة، وكون المخلف عن ابن عوف ما ربع ثمنه ثمانون ألف دينار لا ينافي ما تقدم أنه كان خازنا لله، لأن الخازن لله ليس معناه يخرج جميع ما يدخل في يده دفعة واحدة بل يبقيه ويخرج منه ما هو مطلوب بحسب الحال، وما ورد من تخلفه عن الفقراء في دخول الجنة إن صح، فلعله يقف ليسئل سؤال تكريم عما أنعم به عليه أو جبرا لخاطر الفقراء، فليس قادحا في فضله رضي الله عنه. وأما كونهم "**فقراء**"، فالمراد افتقارهم إلى الله تعالى ببواطنهم وظواهرهم لا يشهدون لأنفسهم مالا ولا غنى، وإنما يعدون أنفسهم خزنة لله تعالى لا غير، مع أن الغالب فيهم كانوا فقراء

المال لا سيما المهاجرون تركوا أموالهم وهاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لإظهار الدين، فلم يلتفتوا إليه. وبما تقرر في معنى الغنى والفقر يعلم أن الغني الشاكر، أفضل من الفقير الصابر. وهي مسألة كثر الاختلاف فيها وقد علمت أن الغنى هو الذي ختم به أمره صلى الله عليه وسلم، وكان دائم الترقي في الكمالات، فلولا أن الغنى مع الشكر أفضل ما ختم له به صلى الله عليه وسلم قبل موته، قيل ومحل الخلاف في الفقر مع الصبر كما تقرر، وأما الفقر مع الرضى فهو أفضل، وفيه نظر لأنه صلى الله عليه وسلم كان على غاية من الرضى، ومع ذلك ختم له بالغنى مع الشكر، ويلزم على هذا أن فقراء الصحابة يفضلون أغنياءهم، لأنهم راضون بفقرهم قطعا. والله تعالى أعلم. وأما كونهم "**علماء**" فلا شك أنهم ورثوا من علومه صلى الله عليه وسلم ما تميزوا به على جميع من جاء بعدهم، ولا سيما علم المعرفة بالله تعالى والخوف منه. وأما كونهم "**أئمة**" يقتدى بهم في الأصول والفروع ويهتدى بهم في ظلمة الشك، فقد تقدم ما يشهد له من قوله صلى الله عليه وسلم: <<أصحابي كالنجوم>>. وقال أيضا: <<اقتدوا بأبي بكر وعمر>>. وقال تعالى في وصفهم: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ أي عدولا خيارا. وأما كونهم "**أمراء**" فقد تولى كثير منهم الإمارة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم في زمن الخلفاء الراشدين، فقاموا بحقوقها وبروا وعدلوا. ومن ثم لما رمى بعض المتهورين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، لما كان أميرا على الكوفة، بعد أن أقام العدل فيهم، دعا عليه بثلاث دعوات استجيبت فيه عاجلا حتى صار عبرة للناس، وقصته مشهورة في البخاري وغيره، نفعنا الله ببركاتهم وحشرنا في زمرتهم آمين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

349 **زهِدوا في الدُّنْيا فمَا عرَف المَيْـ ـلَ إلـيْـهِما مـنْهم ولا الـرُّغَباءُ**

لما قدم أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أغنياء بالله منزهين عن حطام الدنيا وأشغالها، لزم ذلك أن يكونوا زاهدين في الدنيا. ولا شك أنهم كانوا أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. والزهد هو عزوف النفس عن الرغبة في الدنيا وبردتها

من القلب. وقيل: ترك ما زاد على الحاجة، وترك كل ما يشغل عن الله تعالى. ولا شك أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا معرضين عن الدنيا راغبين فيما عند الله تعالى. ومن كان منهم بيده المال فإنما كان خازنا لله تعالى يصرفه في مصارفه ثم هم على قسمين فأكثرهم ترك السعي في تحصيلها بالكلية، واشتغل بالعلوم والمعارف ونشْرها وبالتعبد والانقطاع إلى الله تعالى حتى لم يبق من أوقاته شيئا إلا وهو مشغول بشيء من ذلك، وكثير منهم حصّلوها لكن كانوا فيها خزانا لله تعالى، وهذا لا ينافي زهدهم لأنهم لم يمسكوها لأنفسهم، بل لإخراجها لمن يستحقها بحسب نظرهم واجتهادهم. وإذا علمت أن زهدهم كان حقيقيا فما عرف الميل إليها منهم لحقارتها عندهم وصغرها في أعينهم ولا الرغبة في الطلب في زيادتها وتحصيلها. وهذا قد علم من عدم الميل بالأولى فذكره أيضا، وهذا لا ينافي ثناءه صلى الله عليه وسلم على المال بقوله <<نعم المال الصالح في يد الرجل الصالح>>. ودعاءه صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابة كابن عوف وأنس وغيرهما، فكثرت أموالهم جدا، لأن المال له جهتان، جهة خير كصرفه في الطاعات والإعانة على قيام أمور الدنيا، وبالنظر إليها يثنى عليه وجهة شر كصرفه في ضد ذلك والاشتغال به عن القيام بحقوق الله فيذم ويقبح لأجلها. وقد وردت أحاديث في فضل الزهد في الدنيا والقناعة باليسير، وأجمع ما في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم، في وصيته: <<ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس>>.

تنبيه: الدنيا مشتقة من الدنو، أي القرب، سميت بذلك لقربها وسرعة زوالها وسبقها على الأخرى، وهي ما على وجه الأرض. وقيل: كل المخلوقات من الجواهر والأعراض، وتطلق على كل من ذلك مجازا، والمراد بها هنا الأموال وتوابعها من نحو الجاه والكبر والفخر وغير ذلك، وهي مقصورة بلا تنوين. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

350 **أرْخَصوا في الوَغى نُفوسَ مَلوكٍ   حَاربُـــوهَا أسْـــلابَها إغْـــلاءُ**

لما وصف الصحابة رضي الله عنهم بالزهد في الدنيا، وصفهم بالشجاعة. ومن

هانت عليه الدنيا هانت عليه الموت، وأحب لقاء الله. ولا شك أن الصحابة كانت الموت عندهم أشهى وألذ من الشهد، فكانوا يحبون الموت أكثر من الحياة، فلذلك استقام لهم من الجهاد والفتوحات ما لم يستقم لغيرهم. فقوله "**أرخصوا في الوغى نفوس ملوك**" أي صيروا بسبب حربهم أعداءهم نفوس ملوك تلك الأعداء رخيصة لا قيمة لها حيث صارت مأسورة في غاية الذل والهوان، بعد أن كانت في أشرف الملابس والتيجان. وإذا أرخصوا نفوس الملوك فأولى غيرهم. وقد مر أن إطلاق الوغا على الحرب مجاز، وإنما أرخصوا تلك النفوس لأنهم "**حاربوها**" بقوة عزم وشدة حزم وصدق نية وإخلاص طوية، بقتل بعضهم تارة وإزالة ملك آخرين. ثم وصف ملابس تلك النفوس بقوله "أسلابها أغلاء" الأسلاب بفتح الهمزة، جمع سلب، بفتح اللام، وهو ثياب القتيل وفرسه وما عليها من آلات الحرب والنقد. وإضافة الجمع تفيد عمومه إما في الإفراد وهو التحقيق، وإما في الجموع، أي أسلاب تلك النفوس كان في غاية النفاسة وغلو الثمن فاعلا، بفتح الهمزة، جمع غال كداء وأدواء، يعني أن تلك الأسلاب كانت غاليات الثمن لجودتها. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رحمه الله:**

351 **كلُّهم في أحْكامهِ ذُو اجْتِهَادِ وصَوابٍ وكُلُّهُمْ أكْفَاءُ**

الصحابة رضي الله عنهم كلهم مجتهدون في أحكامهم لتوفر شروط الاجتهاد فيهم بزيادة، ولذلك كانوا لا يقلد بعضهم بعضا، وإنما يتشاورون في المسائل المشكلة ليظهر الحق على يد أحد منهم، وكان الناس يستفتون كل من روا منهم فيفتيه باجتهاده، ولا يعترض بعضهم على بعض، إلا إن خالف نصا صريحا، فيذكر له. فمنهم من يرجع ومنهم من يؤول أو يعارضه بمثله. فهذا معنى قوله ف"**كلهم في أحكامه ذو اجتهاد**"، أي لا ما يعتقده بعض الأغبياء أنهم ذو هوى أو حظ نفس، حاشاهم الله من ذلك، بل لم يخترهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم إلا وهم على أكمل الأوصاف وأجلها. وقوله "وصواب" فيما اجتهدوا فيه، وهذا مبني على أن كل مجتهد مصيب وإن حكم الله تابع لظن المجتهد. والأصح خلافه، وأن المصيب واحد وأن له

أجرين، والمخطئ له أجر واحد، كما في الخبر. وفي رواية له: عشرة أجور والمخطئ أجر واحد، فالأحسن في العبارة أن يقول وثواب بدل صواب. قاله ابن حجر. قوله "**وكلهم أكفاء**" أي متكافئون في أصل الصحبة والفضيلة والعلم والاجتهاد وإبراز الأحكام لله تعالى لا لحظ ولا هوى، وإنما يتفاوتون في الزيادة في ذلك، فلا ينافي في قول بعضهم أبو بكر أعلمنا، ولا سؤال عمرَ لعلي فيجيبه، فيقول: لا قدس الله أمة لست فيهم يا أبا الحسن. ولا تقديم عمر لابن عباس على أكابر مشيخة المهاجرين والأنصار، لأنه كان يجد عنده من العلم ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بالتفقه في الدين وعلم التأويل ما ليس عندهم. وأجمعوا على أن أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم السلام أبو بكر ثم عمر، ووقع الخلاف بين عثمان وعلي ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل بيعة الرضوان. وقيل أهل أحد، رضي الله عنهم أجمعين، ونفعنا ببركتهم آمين.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

352 **رضــي الله عــنْهُمْ ورضُــوا عَــنــهُ فأنَّــى يَخْطُــو إلـيهِم خطَـاءُ**

هذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ فرضى الله عن العبد تأمينه من سخطه، وإجلاله له في دار كرامته، ورضى العبد عن الله تعالى استسلامه لقهره، والرضا بقضائه وقدره فلا يختلج في سره أدنى حزازة من وقوع قضاء من أقضية الحق به بل يجد لذلك في قلبه برد اليقين وثلج الصدر وشهود المصلحة العظمى وزيادة الطمأنينة. وإذا كان الصحابة على أكمل حال في ذلك "**فأنى يخطو**" أي يصل إليهم، إذ الخطوة ما بين القدمين والاستجمام إنكاري تعجبي، أي كيف يصل "**إليهم خطاء**" بالمد للوزن، لغة في الخطا، بالقصر، وهو ضد الصواب، أي لا يخطيء أحد منهم خطايا ثم به لما مر أنهم كلهم مجتهدون، وأن المجتهد له أجر وإن أخطأ. وفي فضل الصحابة أحاديث كثيرة، ففي الصحيحين: <<لا تسبوا أصحابي، لا تتخذوهم غرضا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه>>. انتهى. وقال أيضا: <<خير القرون

قرني ثم الذين يلونهم>>. الحديث. وهم أول من دخل في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ولا مقام أعظم من مقام قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، وارتضاهم لنصرة دينه، نفعنا الله بمحبتهم، ووفقنا لاتباع طريقهم. آمين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

353 **جَاءَ قَوْمٌ مِنْ بَعْدِ قَوْمٍ بِحَق وعَلى المنْهجِ الحَنَفي جَاءُوا**

أشار بهذا إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ ولذلك ذكره بعد قوله رضي الله عنهم إلخ. فكان سبب استحقاقهم الرضوان هو مسارعتهم إلى الإسلام ونصرة الدين، وكذلك فضيلتهم في الغالب تتفاوت بقدر سبقيتهم للإسلام. وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقدم السابقين للإسلام على غيرهم في المشاروة والعطاء وجميع أموره، ومجيئهم أرسالا من علامة نبوته صلى الله عليه وسلم، ولذلك سأل هرقل أبا سفيان بقوله: هل يزيدون أو ينقصون؟ فقال: بل يزيدون. وأنه هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه. فقال: لا. فبين له أن من شأن الرسل أن أصحابهم كذلك، فعلم أن مجيء الصحابة كذلك من علامة نبوته صلى الله عليه وسلم، فجاء السابقون الأولون ثم الذين بعدهم، وهكذا إلى وفاته صلى الله عليه وسلم، وكلهم ملتبسون بحق، فلا مطعن فيهم لطاعن. وما نقمه الرافضة ونحوهم عليهم لم يصح منه شيء أصلا وإنما هو من مغالات الجاهلين ووضع المفترين بل كلهم عدول خيار بشهادة قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وهو معنى قول الشيخ رضي الله عنه "وعلى المنهج" أي الطريق الواضح "**الحنفي**"، أي المستقيم الذي لا اعوجاج فيه "**جاءوا**" كلهم وتابعوهم بإحسان. وهكذا لقوله صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. اللهم اسلك بنا مسالكهم، آمين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

354 مَا لِمُوسَى ولا لِعيسى حَواريُّ ـــونَ في فـضْلِهِم ولا نُقَـبَاءُ

355 بِأبِـي بكْـرٍ الـذي صَـحَّ للـنَّا س بِـهِ فـي حَـيَاتِكَ الاقْـتِدَاءُ

لما أقسم بالصحابة كلهم إجمالا، خصص العشرة المقطوع لهم بالجنة وبدأ بالخلفاء الأربع ورتبهم على ترتيبهم في الخلافة والأفضلية، فبدأ بالصديق الذي انعقد الإجماع على تقديمه وتفضيله، أي وأقسم عليك "**بأبي بكر**" الصديق، فهو عطف بالمعلوم بحذف العاطف، ويصح أن يكون وما بعده بدل من بأصحابك تفصيل له. وأشار بقوله "**الذي صح**" إلخ إلى ما رواه الشيخان، أنه اشتد مرض النبي صلى الله عليه وسلم فقال: <<مروا أبا بكر فليصل بالناس>>، فقالت عائشة رضي الله عنها: <<إنه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطع أن يسمع الناس من البكاء>>، فلو أمرت عمر، فقال: <<مري أبا بكر فليصل بالناس>>، فعادت، فقال: <<مري أبا بكر فليصل بالناس، فإنكن صواحب يوسف>>، فأتاه الرسول فصلى بالناس في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي رواية أخرى: أنها لما راجعته فلم يرجع قالت لحفصة: قولي له يأمر عمر. فقالت له، فاشتد غضبه وقال: <<مروا أبا بكر>>، وفي رواية، أن الحامل لها على مراجعته خوفها أن يتشاءم الناس بأبيها، وفي أخرى أنه أمرهم بالصلاة وكان أبو بكر غائبا، فتقدم عمر فكبر وكان صيتا، فقال صلى الله عليه وسلم، بعد أن أخرج رأسه مغضبا: <<لا لا يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر>>. ثلاثا. قال العلماء: فيه أوضح دليل على أنه أفضل الصحابة مطلقا، وأحقهم بالخلافة، وأولاهم بالإمامة. ولذلك أجمعوا على ذلك، بل هو أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين كما صح به حديث: <<ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر>>. وتقديمه صلى الله عليه وسلم للصلاة بعد قوله: <<يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله>>، أي أعلمهم بالقرآن. صريح في أنه أعلمهم بالقرآن مطلقا. وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم، لقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي بالناس وإني لشاهد وما أنا بغائب وما بي مرض، فرضينا لديننا ما رضيه النبي صلى الله عليه وسلم لديننا. وما أحسن قول القائل: صلى بنا ثمانية أيام

والوحي ينزل فسكت الله وسكت رسوله صلى الله عليه وسلم وسكت المؤمنون. وأخرج الشيخان، أن امرأة أتته فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت إن لم أجدك؟ كأنها تعني الموت، فقال لها: <<إن لم تجدني فأت أبا بكر>>. فهذا كله صريح في خلافته. ومنها رؤيا البير الذي نزع منها صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ الدلو أبو بكر من يده، فنزع ذنوبا أو ذنوبين، ثم أخذها عمر من أبي بكر فاستحالت غربا أي دلوا كبيرة، فاستسقى حتى ضرب الناس بعطنٍ، أي رووا. ففيه إشارة إلى خلافة أبي بكر. قصر مدته وطول مدة عمر رضي الله عنه، وكثرة الفتوح وظهور الإسلام في زمنه، رضي الله عنهم أجمعين وحشرنا في زمرتهم آمين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

356 **وَالمُهَـدِّي يَـومَ الـسَّقِيفةِ لَمَّـا أرْجَـفَ الـنَّاسُ أَنَّـه الـدَّأداء**

هذا أيضا من أوصاف الصديق وفضائله، وهو كونه "**المُهدي**" أي المسكن للفتنة والاضطراب في أمر الخلافة "**يوم السقيفة**" التي لبني ساعدة من الأنصار حين اجتمعوا فيها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم على سعد بن عبادة ليولوه وذلك "**لما**" أي حين "**أرجف الناس**" أي اضطربوا في أمر الخلافة "**أنه**" تعليل للمهدي، فهو على حد قوله أن الحمد والنعمة في التلبية "**الدأداء**" أي المسكن للاضطراب لا غيره، يعني أن هذا شأنه قديما وحديثا يسكن الفتن ويجلي كربتها، وكأن المصنف أشار إلى ما في الصحيحين، عن عمر رضي الله عنه، أنهم لما دفنوا النبي صلى الله عليه وسلم، تخلف علي والزبير ومن معهما في بيت فاطمة، وتخلفت الأنصار بأجمعهم في سقيفة بني ساعدة، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقال عمر: انطلق بنا إلى الأنصار، فذهبوا إليهم فلما جلسوا قام خطيبهم فخطب وأثنى على الله تعالى ثم مدح الأنصار وأطنب بحيث لم يترك آية أو خبرا جاء فيهم إلا ذكره، ثم ذكر أن قوما يريدون أن يستبدوا بالأمر عليهم. ثم سكت. فأراد عمر أن يخطب بما زوره في قلبه فأشار إليه أبو بكر بالسكوت. ثم خطب وأثنى على الأنصار ثم بين أن الخلافة لا تكون إلا في قريش، واحتج بالحديث الصحيح: <<الأئمة من قريش>>، ثم قال: قد رضيت لكم

إما عمر وأبا عبيدة. فأخذ بيدهما وقال: بايعوا من شئتم منهما. فقام الحباب بن المنذر فتحسر وترفع وقال: منا أمير ومنكم أمير، فكثر اللغط وخيفت الفتنة. فبادر عمر وقال لأبي بكر: أبسط يدك فبسطها فبايعه، فتبعه المهاجرون ثم الأنصار، فقال قائل: قتلتم سعد بن عبادة، فقال عمر: قتله الله. انتهى. لأن الاجتماع عنده. ربما كان سببا للفتنة فساغ تأديبه بذلك. وصح أن عمر احتج على الأنصار بإمامة أبي بكر فرجعوا وقالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر. ولما بايعوه صعد وجلس على المنبر. فقام عمر فتكلم قبله فحمد الله ثم أثنى على أبي بكر ثم قال قوموا فبايعوه فبايعه الناس البيعة العامة فخطب أبو بكر فقال وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. ثم بايعه الزبير رضي الله عنه وتأخر علي إلى أن ماتت فاطمة رضي الله عنها فبايع وأجمع الصحابة على خلافته، لم يتخلف أحد منهم ثم تبعهم من بعدهم من أهل السنة والجماعة وهلم وكذا أكثر الفرق إلا من شذ من أهل الزيغ والضلال عصمنا الله من الفتن وعافانا من جميع المحن وأصلح منا ما ظهر وما بطن آمين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

357 **أَنْقَذَ الدِّينَ بعْدمَا كَان للدِّيـ ـنِ عَلَى كُلِّ كُرْبَةٍ إشفَاءُ**

يعني أن الصديق رضي الله عنه "**أنقذ الدين**" أي نجاه واستخلصه بإزالة الفتن التي وقعت بين أهله، وبرد من ارتد عنه من العرب بعدما كان له أشفاء، أي إشراف، "**على كل كربة**" وغم. فقوله "**أنقذ**" بالذال المعجمة، أي نجاه وبعد حال من الدين وللدين متعلق بكان على الأصح، وكان تامة، وعلى كل متعلق بقوله "**إشفاء**". والدين ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى وأشار بهذا البيت إلى ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: والله لولا أبو بكر ما عبد الله بعد محمد صلى الله عليه وسلم أبدا. انتهى. ولما مات صلوات الله وسلامه عليه دهشت الناس وطاشت عقولهم وتكلموا بكلمات غير منتظمة الا أبا بكر فانه كان غائبا فلما حضر دخل وكشف عن وجهه الشريف فقبله وقال: طبت حيا وميتا، والله لا يجمع الله عليك موتتين. ثم خرج

فتلى عليهم: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ الآية. فلما سمعوها ردت إليهم عقولهم. وكان عمر رضي الله عنه ينكر موته صلى الله عليه وسلم ويقول إنه ذهب إلى ربه وسيعود. فلما خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس، أسكته فسكت. وأقبل على الناس فقال: أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات، ومن كال يعبد الله فان الله حي لا يموت، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ الآية. فقالوا: كأنا لم نسمعها إلا حينئذ. فكان هو المثبت لهم حينئذ وإلا لم يجتمع لهم شمل. وأيضا: لما اختلفوا في دفنه اختلافا شديدا كاد أن يفضي إلى الفتنة. روى لهم الحديث: <<أن كل نبي يدفن في المحل الذي توفي فيه>>. فرجعوا إليه. وأيضا اختلفوا في إرثه اختلافا شديدا حتى روى لهم الحديث المشهور: <<نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة>>. فرجعوا إليه. وبهذا علم أنه كان أحفظهم للسنة. وإنما سبب قلة الرواية عنه قصر مدة خلافته واشتغاله بقتال المرتدين ومانع الزكاة ومسيلمة الكذاب. وأيضا كان الأهم حينئذ هو الجهاد وإظهار الدين فلم يتفرغوا للحديث إلا بعد ظهور الإسلام ونشره وذلك كان بعد موته رضي الله عنه ونفعنا ببركته آمين.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

358 **أنْفَقَ المَالَ فِي رِضَاكَ ولا مَـ ـنٍّ وأَعْطَى جَمًّا ولا إكْداءُ**

يعني ان الصديق رضي الله عنه "**أنفق المال**" العظيم "**في**" طلب "**رضى**" رسول الله صلى الله عليه وسلم "**ولا منٍّ يصحبه**" في ذلك مع كثرة إنفاقه. وإنما المنة لله ورسوله، كما اعترف بذلك هو وغيره كما سيأتي إن شاء الله. "**وأعطى**" عطاء "**جما**"، أي كثيرا في وجوه الخير ومصالح المسلمين "**ولا إكداء**" أي ولا قطع يصحبه، بل استمر ذلك منه حتى توفاه الله تعالى. أما إنفاقه المال في رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ثبت ذلك في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ إلخ. السورة. قال ابن الجوزي: أجمعوا أنها نزلت في أبي بكر، ففيه التصريح بإنفاقه لماله، وبأنه الأتقى وبأنه

الأكرم بدليل ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَنكُمْ ﴾ وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: <<ليس أحد من الناس أمن علي في نفسه وماله من أبي بكر>>، ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد إلا خوخة أبي بكر، لأنه سيصير خليفة يحتاج إلى ملازمة المسجد. وأخرج الترمذي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: <<ما لأحد عندنا يدا وقد كافأناه ما خلا يد أبي بكر، فإن له عندنا يدا يكافيه الله بها يوم القيامة>>، وما نفعني مال أحد ما نفعني مال أبي بكر. وأخرج الطبراني: <<ما أحد عندي أعظم يدا من أبي بكر، واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته>>. وأخرج الترمذي: <<رحم الله أبا بكر، زوجني بنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالا من ماله، وما نفعني مال في الإسلام ما نفعني مال أبي بكر>>، ولا ينافيه حديث البخاري، أنه صلى الله عليه وسلم أبى أن يأخذها إلا بالثمن لاحتمال أنه أبرأه منه. وأخرج أحمد وغيره عن جماعة من الصحابة، أنه صلى الله عليه وسلم قال: <<ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر>>، فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله. وفي رواية عن ابن المسيب مرسلا، وكان صلى الله عليه وسلم يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه. وأخرج ابن عساكر أنه أسلم وله أربعون ألف دينار. وفي رواية: درهم. فأنفقهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصح عمر رضي الله عنه أنه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت: اليوم أسبق أبا بكر مع أني ما سبقته يوما، فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : <<ما أبقيت لأهلك يا عمر؟>> فقلت النصف. ثم جاء أبو بكر بكل ما عنده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر >>؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت لا أسبقه إلى شيء أبدا. انتهى. هذا ما أنفقه رضي الله عنه في مرضات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما ما أنفقه في مصالح المسلمين العامة فأعظمها في ذلك أنه أعطى ثمن محل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث الهجرة المشهور ففيه أنه اشتراه منهم بعشرة دنانير ووزنها من مال أبي بكر رضي الله عنه. وكان قد خرج بماله كله وكان له من السبب في المسجد الأعظم ما

اقتضى وصول ثوابه إلى حد لا يقدر قدره إلا الله تعالى. واشترى جماعة أسلموا كان يعذبهم الكفار العذاب الأليم منهم بلال وغيره وأعتقهم. ومآثره ومحاسنه كثيرة رضي الله عنه ونفعنا بمحبته آمين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

359 **وأبِـي حفْـصٍ الـذي أظْهَـر اللـ ـهُ بِـه الـدِّينَ فارْعَـوَى الـرُّقَبَاءُ**

أي وأقسم عليك ب"**أبي حفص**" عمر بن الخطاب "**الذي أظهر الله به الدين**" على سائر الأديان وانتشر عدله في البلدان. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر. وقال أيضا: كان إسلامه فتحا، وهجرته نصرا، وإمامته رحمة. ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصل إلى البيت حتى أسلم عمر فقاتلهم حتى تركونا وخلوا سبيلنا. وقال حذيفة: لما أسلم عمر كان الإسلام كالرجل المقبل لا يزداد إلا قوة، فلما قتل كان الإسلام كالرجل المدبر لا يزداد إلا ضعفا. وقوله "**فارعوى**" أي فبسبب قوته في ذات الله وشدة شكيمته كما تقرر ارعوى أي انكف ورجع "**الرقباء**" أي الأعداء لأنهم يرقبون المسلمين خوفا منهم، فكفوا بسبب إسلامه عما كانوا عليه من الإفساد في الدين وتعذيب المسلمين. وقالوا قد انتصف القوم منا. وروي أنه لما أسلم نزل جبريل فقال: يا محمد قد استبشر أهل السماء بإسلام عمر. وكان إسلامه بعد حمزة بثلاث أيام. وسببه أنه أنكر على بعض من أسلم فقال له حمزة: أختك وختنك، أي سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، قد اسلما فدخل دار أخته فضرب رأسها حتى أدماه، فقالت له، وكأن ذلك على رغم أنفك. فاستحيا حين رءا الدم، وجلس وسألها أن تريه الكتاب، فقالت: لا يمسه إلا المطهرون، فاغتسل فأخرجوا له الصحيفة فيها: **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝ ﴾ فعظمت في صدره، فخرج خباب وكان مختفيا فقال له: إني لأرجوا أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإني سمعته أمس يقول: <<اللهم أعز هذا الدين بعمر بن هشام، أي أبي جهل أو بعمر بن الخطاب>>.

فقال: دلني عليه. فتوشح سيفه وذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فضرب الباب فاستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر. قال: وما عمر؟ افتحوا الباب فإن أقبل قبلناه وإن أدبر قتلناه بسيفه. فسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج فتشهد عمر فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد. فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال : بلى؟ قال: ففيم الإخفاء. قال: فخرجنا صفين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد. فنظرت قريش إلي وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق يومئذ. وفرق الله بي بين الحق والباطل. وفي رواية: أنه لما أظهر إسلامه صاروا يضربونه ويضربهم حتى أجاره خاله. قال: فما زلت أَضرب وأُضرب حتى أعز الله الإسلام، رضي الله عنه ونفعنا ببركته آمين بجاه سيد المرسلين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

360 **والـذي تقَـرَّب الأبَاعِـد فـي اللـ ـــهِ إلَـــيْه وتَـــبَعَّد القُـــربَاءُ**

361 **عمر بن الخطاب مِن قوْله الفَصْـ ـلِ ومـنْ حُكْمـه الـسَّوي الـسَّواءُ**

هذا من فضائل سيدنا عمر رضي الله عنه، وهو أنه يحكم بالعدل ويدور مع الحق حيث دار يتحرى مواقع رضى الله ورضى رسوله صلى الله عليه وسلم، فيقرب من كان مطيعا لله ورسوله حتى يكون أقرب الأقارب، ويبعد من كان عاصيا وإن كان أقرب الأقارب إليه في النسب، وهذا معنى قول الشيخ" **والذي تقرب الأباعد**" عنه في النسب في أي بسبب رضى الله. وقوله "**إليه**" متعلق بتقرب " **ويبعد عنه الغرباء**" أي قرباؤه إذا لم يوافقوه على طاعة الله تعالى، فعلم أنه لا يحابي قريبا ولا صديقا، وأنه لا رياء عنده ولا سمعة، ولا حمية ولا عصبية. وإن محط نظره إنما هو الله لا غير، وأن طاعة ربه هي المقربة منه وضدها هي المبعدة عنه. ثم أفصح باسمه فقال "**عمر بن الخطاب من قوله الفصل**" أي الفاصل بين الحق والباطل "**ومن حكمه السوي**" أي الذي لا اعوجاج فيه "**السواء**" أي المعتدل، تأكيد لما قبله. وما قاله الشيخ وردت به أحاديث، فمنها قوله صلى الله عليه وسلم: <<إن الله تعالى جعل الحق على لسان

عمر وقلبه>>، وإنه ما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال عمر، إلا نزل القرآن على نحو ما قال. ومنها، قوله عليه الصلاة والسلام: <<لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب>>. وقال: <<إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به>>. ومنها قوله عليه السلام، فقال: <<أتاني جبريل فقال: اقرأ عمر السلام، وقل له، إن رضاه حكم وإن غضبه عز>>. وفي رواية: <<الحق بعدي مع عمر حيث كان>>. وقال رضي الله عنه: لئن سلمني الله تعالى لأتركن أرامل العراق لا يحتجن إلى بعل غيري، فبقي بعد هذه المقالة أياما قلائل فمات شهيدا، طعنه علج المغيرة في صلاة الصبح فمات منها. وقصته مشهورة * في البخاري وغيره، نفعنا الله ببركاته وزادنا في محبته آمين.

*** ثم كمل ما بقي من أوصافه رضي الله عنه، فقال:**

362 **فَـرَّ مـنْه الـشَّيْطانُ إذْ كَـانَ فَـارُو   قًـا فَلِلـنَّارِ مِـنْ سَـنَاهُ انْبِـرَاءُ**

أشار بهذا إلى ما في الحديث الصحيح : <<يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك>>. انتهى. فقوله "**فر**" أي هرب "**منه الشيطان**" أي إبليس وكل عات متمرد "**إذ**" أي لأجل أنه "**كان فاروقا**" أي يحق الحق ويبطل الباطل، ومن كان هكذا لا يحوم الشيطان حول حماه، وليس فرار الشيطان منه هو السبب في تسميته بالفاروق كما قد يوهمه كلام الشيخ، بل لما منحه الله من النور الذي كان يفرق به بين الحق والباطل، فبسبب ذلك النور فر منه الشيطان، وكان "**للنار**" الذي هي أصل الشيطان وعدوة الإنسان "**انبراء**" أي انمحاء واضمحلال وكأنه أشار بذلك إلى قضية النار التي كانت تخرج كل عام حول المدينة فتأكل كل ما تلقاه من البساتين وغيرها، فلما خرجت في زمن خلافته أمر غلامه أن يرمي فيها ثوبا لعمر، فرماه فطفيت ولم تخرج أبدا، كما ذكر ذلك أهل التاريخ. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

363 **وابْنُ عفَّانَ ذِي الأيَادِي الَّتي طَا   لَ إلَـى المُـصْطَفى بِهـا الإسْـداءُ**

أي أقسم عليك بذي النورين، أي عمرو عثمان ابن عفان "**ذي الأيادي**" أي صاحب النعم، جمع أيد. وأيد جمع يد، تطلق على الجارحة وعلى النعمة مجازا وهو المراد هنا، أي النعم "**التي طال**" أي عظم وامتد "**إلى المصطفى**" أي المختار على الخلق كلهم، فهم من الاصطفاء، وقيل من التصفية، أي المنتقى من كل شين وكدر و"**الإسداء**" الإعطاء.

*** ثم بين هذه الأيادي التي طال امتدادها إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم:**

364 **حفْر البئْر جهَّز الجيْش أهْدى الـ   هَـدْيَ لَمَـا أن صـدَّه الأعْـداءُ**

أما حفره البئر، فذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وجدها قليلة الماء وليس فيما ماء يستعذب غير بير رومة وكان ليهودي في الأشهر. فقال صلى الله عليه وسلم: <<من حفر بير رومة واشتراها فله الجنة>>. فاشتراها عثمان بعشرين ألف درهم وحفرها، وهي موجودة إلى الآن، فثوابها مستمر إلى قيام الساعة. وفي رواية: أن عثمان رضي الله عنه، لما سمع قوله صلى الله عليه وسلم: إنها نعم البير. اشترى نصفها بمائة بكرة وتصدق بها واقتسماها يوما لهذا ويوما لهذا، فجعل الناس يستقون منها في يوم عثمان ليومين، فلما رءا صاحبها أن قد امتنع منه ما كان يصيبه من ثمن الماء الذي كان يبيعه منها، باع عثمان النصف الثاني بشيء يسير، فتصدق عثمان بها كلها. وتعبير الشيخ بالحفر لا ينافي الاشتراء، لأنه اشتراها ثم زاد في تعميقها مبالغة في تكثير الماء لاحتياج الناس إليها. وفي بعض الروايات: أن القربة منها كانت تباع بمد، وأنه صلى الله عليه وسلم طلب صاحبها أن يبيعها فاعتل بأن له عيالا وليس له غيرها، فبلغ ذلك عثمان فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، فالله تعالى أعلم، أي ذلك كان. وأما تجهيزه الجيش فكان ذلك في غزوة تبوك، وهو جيش العسرة. أخرج الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على جيش العسرة، فقال عثمان رضي الله عنه، يا رسول الله علي مائة بعير حِلاًّ أحلاسها وأقتابها في سبيل الله تعالى، ثم حض على جيش العسرة فقال عثمان رضي الله عنه: يا رسول الله علي مائتي بعير

أحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض صلى الله عليه وسلم على الجيش، فقال عثمان: يا رسول الله علي ثلاثمائة بعير أحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقول: <<ما على عثمان ما فعل بعد هذه>>. وفي رواية: حمل عثمان جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرسا. وصح أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنشرها في حجره صلى الله عليه وسلم ويقول: <<ما ضر عثمان ما فعله بعد اليوم>>. وفي رواية: أنه بعث بعشرة آلاف دينار فصبت بين يديه صلى الله عليه وسلم، فجعل يقلبها ويقول: <<غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي ما فعل بعدها>>. وأما إهداؤه الهدي فكان ذلك في قضية الحديبية حين صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصول إلى مكة ومعه ألف وأربعمائة في ذي القعدة * عام ست وهو يريد العمرة، فمنعته قريش من دخول الحرم، فذبح هديه صلى الله عليه وسلم ورجع، وأما عثمان فبعث هديه حتى وصل لمكة وذبحه فيها، لعزة قومه دون غيره. ولا ينافي هذا ما يأتي من أدبه حيث امتنع من الطواف، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطف حينئذ لاحتمال أن يكون آخر هديه لغيبته حتى حضر بعد ذبحهم لهديهم، فحينئذ يرسلهم إلا وقد أيسوا من إرسال هديهم، فلا مخالفة فيه للأدب. قاله ابن حجر فتأمله. ولمّا هنا بمعنى حين. والكلام مبسوط في محله.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

365 **وأبَـى أن يَطُـوفَ بالبيْت إذْ لَـمْ ... يَـدْن مِـنْهُ إِلَـى النَّبـيِّ فِـنَاءُ**

366 **فَجَـزَتْهُ عَـنْهَا بِبَـيْعَةِ رِضْـوا ... نِ يَـدٌ مِـنْ نَبِـيِّهِ بَيْـضَاءُ**

367 **أَدبٌ عِـنْدَهُ تَـضَاعَفَتِ الأ ... عْمَـالُ بِالتَّـرْكِ حَـبَّذَا الأُدَبَـاءُ**

هذا أيضا من فضائل عثمان رضي الله عنه، وهو كمال أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه امتنع من الطواف بالبيت مع تمكنه منه، لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم منع منه، فلما لم يطف صلى الله عليه وسلم به لم يطف عثمان رضي الله عنه تأدبا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقصة ذلك: أن النبي صلى الله

عليه وسلم لما قصد العمرة وساق الهدي نزل بالحديبية، فسمعت بذلك قريش، فخرجوا لمنعه، وقالوا والله لا يدخلها علينا في هذه السنة، ولا تتحدث العرب إنا أخذنا ضغطة. ثم أرسلوا سهيل بن عمر ليعقد الصلح بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يرجع عنهم في هذه السنة، لئلا يقول الناس إنه دخلها كرها على أهلها، ثم يعود في السنة المقبلة ويدخلها والسلاح في علفها ليكون ذلك علامة على الصلح وعلى وضع الحرب بينهم عشر سنين، وعلى شروط أخر. فكتبوا الصلح وأشهدوا عليه رجالا من المسلمين والمشركين. ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ومعه الكتاب ليكلم أشراف قريش في أن يرجعوا عن صده وعن دخوله مكة وأن لا يمنعوه من أداء ما جاء بقصده من الاعتمار وتعظيم البيت بالبُدن والهدي دون القتال، فكلمهم فلم يمتثلوا، وقالوا له: إن شئت أن تطوف أنت فطف، فقال: ما كنت لأطوف ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يطف به. وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر: اذهب فاستأذن لنا ليخلوا بيننا وبين الكعبة، فقال: يا رسول الله ليس هناك من بني عمي أحد يمنعني، ولكن أرسل عثمان فإن بني عمه يمنعوه فأرسله. ولما أرسله صلى الله عليه وسلم احتبس عندهم، فبلغه صلى الله عليه وسلم أن عثمان قتل، فدعا الناس إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت. وقيل على ألا يفروا، ولما بايعه الناس على ذلك، وضع صلى الله عليه وسلم يمينه على شماله وقال: هذه بيعة عثمان، فضرب بها على يده. وفي رواية قال: إن عثمان في حاجة الله تعالى وحاجة رسوله، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم. ولما سمع المشركون بهذه البيعة خافوا وأرسلوا عثمان وجماعة من المسلمين. وقال ابن الجوزي: إنما حبسه أهله تكرما له وتعظيما ثم أرسله، وفي هذه البيعة نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية. وهذا الذي نظمه الشيخ بقوله "**وأبى**" أي امتنع عن أن يوف بالبيت حيث تمكن منه. إذ تعليلية، أي لأنه "**لم يدن**" أي يقرب "**منه**" أي البيت "**إلى النبي**" متعلق بيده "**فناء**" وهو ما امتد من جوانبه، ولما تأدب مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم مع امتثال أمره بذهابه إلى العدو ولم يبال باحتمال كونهم يقتلونه، فبسبب ذلك الأدب "**جزته عنها**" أي تلك الفعلة التي فعلها من الأدب والامتثال، أي كافته "**ببيعة**" أي في بيعة "**رضوان**" سميت بذلك لما في الآية الثانية من رضى الله عنهم. بسببها "يد من نبيه" صلى الله عليه وسلم، الضمير لعثمان "**بيضاء**" أي مشرقة بالعطاء الباهر والكرم الظاهر الذي عم الأنام وفاق ضوء الشمس وشعاعها، فنابت عنه يد المصطفى فكافأه، لأدبه حيث امتنع من الطواف، فلذلك قال "**أدب**" عظيم "**عنده**" رضي الله عنه. ومن عجيب هذا الأدب أنه مع كونه ترْكًا، صار كالفعل المتعبد به "**تضاعفت الأعمال**" في مقابلته. مع كونه ترْكًا، لا يبلغ ثوابه كثير من أعمال البر. لأن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقاومه عمل، فلذا قال "**حبذا الأدباء**" فهو تتميم بديع. وعثمان رضي الله عنه من أجل الأدباء، لأنه كان عنده من الحياء الذي هو منشأ الأدب ما لم يكن عند غيره. وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم قال في حقه، وقد استحيا منه لما دخل عليه، فجمع ثيابه: <<ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة>>. وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: <<أشد أمتي حياء عثمان بن عفان>>. وقال أيضا: <<أحيى أمتي وأكرمها عثمان بن عفان حين يسير تستحيي منه الملائكة>>. وقال: <<إن الملائكة تستحيي من عثمان كما تستحيي من الله ورسوله>>. وقال أيضا عليه السلام: <<إنما تشبه عثمان بأبينا إبراهيم عليه السلام>>. وقال أيضا: <<عثمان وليي في الدنيا والآخرة، لو كان لي أربعون ابنة لزوّجتك واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة. وما زوجتك إلا بالوحي من الله تعالى>>. قال العلماء: ولا يعرف أحد تزوج ابنتي النبي صلى الله عليه وسلم غيره. ولذا سمي ذو النورين. وقد روي عنه رضي الله عنه، أنه قال: ما وضعت يميني على فرجي منذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد نقل عنه، أنه ما مرت به جمعة منذ أسلم إلا وأعتق فيها رقبة ولا زنى ولا سرق جاهلية ولا إسلاما. وما تغنى منذ أسلم. وجمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومناقبه ومآثره كثيرة، رضي الله عنه ونفعنا بمحبتهم أجمعين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

368 **وعَلِـيٌّ صِـنْو النَّبِـيِّ وَمِـنْ ديـ ـــن فُـــؤادي وِداده والـــوَلاءُ**

أي وأقسم عليك ب"**علي**"، وقد تقدم الإقسام به، وإنما لم يكتف به لأن ذلك كان تبعا، والمقصود بالذات المعجزة التي ظهرت فيه وهي برء عينه بتفله صلى الله عليه وسلم فيها، وليبين أن الأفضلية بينهم على هذا الترتيب، فأحق بالخلافة أبو بكر ثم عمر وهذا إجماع كما حكاه جماعة من الأئمة. ثم عثمان ثم علي. وهذا ما عليه الأكثر، وخالف فيه سفيان الثوري ومالك وقالوا بأفضلية علي، وإن كان عثمان أحق منه بالخلافة لإجماع أهل الشورى. ومما يصرح بأفضلية علي رضي الله عنه ما صح عن ابن عمر: كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فنُخيّر أبا بكر ثم عمر ثم عليا ثم عثمان. وعن أبي هريرة، عكسه، قال: كنا معاشر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ونحن متوافرون، نقول أفضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عثمان ثم نسكت، قلت: والصواب الوقف. كما اختاره بعض الفضلاء المحققين. وقوله "**صنو النبي**" صلى الله عليه وسلم، أي شبهه ومثله. قال صلى الله عليه وسلم: <<عم الرجل صنو أبيه>>، أي مثله. رواه الترمذي. وعلي رضي الله عنه يجتمع معه صلى الله عليه وسلم في عبد المطلب، فهما كنخلتين أصلهما واحد "**ومن**" أي والذي "**دين**" أي اعتقاد "**فؤادي**" أي قلبي "وداده" أي حبه "والولاء" أي مناصرته والذب عنه والرد على من نازع في خلافته عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: <<اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، إن عليا مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي>>. ولتأكيد الذب عنه لكثرة أعدائه من بني أمية والخوارج الذين بالغوا في سبه وتنقيصه مدة ألف شهر على المنابر، خصه الناظم بذلك، ولهذا اشتغل جهابذة الحفاظ بنشر فضائله نصحا للأمة ونصرا للحق. ومن ثم قال إسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري، لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الصحاح الحسان ما ورد في حق علي، فمن ذلك ما صح إن الله يحبه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه وأنه لما نزلت آية المباهلة دعا صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وابنيهما، وقال: <<اللهم

هؤلاء أهلي>>. وقال: <<من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه>>. رواه ثلاثون صحابيا. وأن الله تعالى أمر بحب أربعة، وأخبره بأنه يحبهم، منهم علي وأنه لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. وأنه من سبه فقد سب النبي صلى الله عليه وسلم على تنزيله، وأنه يهلك فيه اثنان محب مُفرط ومُبغض مُبهت، وإن قاتله ابن ملجم شقي الآخرين، كما أن عاقر الناقة شقي الأولين، إلى غير ذلك.

*** ثم تمم محاسنه، فقال:**

369 **وَوزِيــرُ ابْــنُ عَـمِّـهِ فِـي المَعَالِـي ... ومِــنَ الأهْــلِ تَــسْعَد الــوُزَراءُ**

الوزير الناصر، ولا شك أن سيدنا عليا رضي الله عنه، كان ناصرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعينا له على إظهار الدين، شهد معه المشاهد، وبارز بين يديه وظاهر فنال من ذلك الشرف التام والمعالي اللازمة. فقوله في المعالي يتعلق بمحذوف، أي ونائب عنه في المعالي الدينية والدنيوية. والمعالي جمع علًى وهو الرفعة والشرف، وأشار بهذا إلى ما في الصحيح أنه خلفه صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك على المدينة، فقال: <<يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان. فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي>>. وقال عليه السلام: <<علي مني وأنا منه، ولا يؤدي عني إلا علي>>. رواه الترمذي. وقال أيضا: <<أنت أخي في الدنيا والآخرة>>. وليست الوزارة خاصة به رضي الله عنه، فقد أخرج الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال: <<ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض. فأما وزيراي من أهل السماء، فجبريل وميكائيل. وأما من أهل الأرض فأبو بكر وعمر>>. ويجاب عنه بأنها وردت فيه بمعناها على وجه أبلغ من لفظها، وهو قوله: <<أنت مني بمنزلة هارون من موسى>>. فإن هذه الوزارة التي هي كوزارة هارون أخص من مطلق الوزارة، ويؤيده كونه صلى الله عليه وسلم أخاه في الدنيا والآخرة دون غيره، وأرسله مؤذنا ببراءة في الموسم، مع أن الخليفة على الحج أبو بكر، لأن العرب لا يقبلون من يبلغ عن الكبير إلا من كان من أهله. "**ومن الأهل تسعد الوزراء**" تذييل مناسب لما قبله، وفيه رد العجز على الصدر. ومن هذه

السعادة صار أخا للنبي صلى الله عليه وسلم. أخرج الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بيني وبين احد. فقال صلى الله عليه وسلم: <<أنت أخي في الدنيا والآخرة>>. ومنها ما ناله من العلوم والمعارف، يجيب عن المشكلات على البديهة. وتأمل جوابه في مسألة * المنبرية ومسئلة الأسد وغيرها. وروي عن زر بن جحش، قال: جلس اثنان يتغذيان ومع أحدهما ثلاثة أرغفة، ومع الآخر خمسة، وجلس إليهما ثالث وأكل معهما، ثم أبقى إليهما ثمانية دراهم، وقال: هذا عوض ما أكلت من طعامكما. فتنازعا في قسمتها، فقال صاحب الخمسة: لي خمسة ولك ثلاثة. وقال صاحب الثلاثة: بل نقسمها على السواء، فترافعا إلى علي رضي الله عنه، فقال لصاحب الثلاثة: إِقْبلْ ما عرض عليك صاحبك. فقال: لا، ما أريد إلا صميم الحق. فقال علي رضي الله عنه: إذًا لك درهم واحد ولصاحبك سبعة. قال: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: لأن الثمانية ثلث أربعة وعشرون ثلثا، لصاحب الخمسة خمسة عشر ولك تسعة. وقد استويتم في الأكل. فأكلت ثمانية وبقي لك واحدا، وأكل صاحبك ثمانية وبقيت له سبعة، وأكل الثالث ثمانية، لصاحبك سبعة ولك واحد. فقال: رضيت. ومن تتبع قضاياه وأخباره في ذلك قطع بذلك، وهي التي أشار إليها صلى الله عليه وسلم بقوله: <<أنا مدينة العلم وعلي بابها>>. وقيل في هذا الحديث أنه موضوع. والصحيح أنه حسن. وصح أنه صلى الله عليه وسلم أرسله إلى اليمن ليقضي بينهم، فقال: يا رسول الله، لا ادري ما القضاء. فضرب صدره بيده، وقال: <<اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه>>. قال علي: فو الذي فلق الحبة، ما شككت في قضاء بين اثنين. وقيل له: ما لك أكثر الصحابة حديثا. قال: إني كنت إذا سألته أنبأني، وإذا سكت ابتدأني. وكان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن، ولم يكن أحد من الصحابة رضي الله عنهم يقول اسئلوني، إلا علي رضي الله عنه. وقال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت. إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا ناطقا. وقال: اسئلوني عن كتاب الله تعالى فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل أم نهار وأم في سهل أو في جبل. وأخباره وفضائله كثيرة.

* **وإلى ما خصه الله من حقائق المعارف أشار بقوله:**

370 **لَـم يَـزدْه كَـشفُ الغِطـاءِ يقِيـنًا بَـلْ هُـو الشَّمْس مَا عَليْه غِطاءُ**

قال رضي الله عنه: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا. أي لأنه حصل له من اليقين ومشاهدة الحق وصفاء التوحيد وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ما لا يزيد اليقين فيه عند رؤية ذلك عيانا، ونفي زيادة اليقين لا ينافي زيادة ثمراته، فلا شك أن عين اليقين أقوى من علم اليقين، ويدل لذلك طلب الخليل الانتقال إليه في قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ فأثبت لنفسه حقيقة الإيمان ويقينه زيادة الطمأنينة بمشاهدة العيان ، فلا منافة فيه لما قاله علي كرم الله وجهه، أي "**لم يزده كشف الغطاء**" برفع الحجب حتى يشاهد ما وجب الإيمان به من الغيب كالجنة والنار وغير ذلك "**يقينا، بل هو**" في علومه ومعارفه وكمال فضله كـ"**الشمس**" في الظهور والإضاءة لا تحتاج إلى دليل، فكذلك علي رضي الله عنه، الأمر عنده أوضح من الشمس، "**ما عليه غطاء**"، أي ساتر يستره عن مقام المشاهدة الدامغة، ولذلك قال فيه ابن عباس رضي الله عنه، كانت لعلي رضي الله عنه ثمان عشرة منقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة. وقال عمر رضي الله عنه: أعطي علي ثلاث خصال، لأن يكون لي خصلة منها أحب إلي من حمر النعم، تزويجه ابنته وسكناه المسجد وإعطاء الراية يوم خيبر. وصح عنه صلى الله عليه وسلم، أنه قال: <<إن الله جعل ذرية كل نبي من صلبه، وجعل ذريتي في صلب ابن أبي طالب>>، وما أحسن قول حكيم له لما دخل الكوفة: والله يا أمير المؤمنين، لقد زينت الخلافة وما زينتك، ورفعتها وما رفعتك، وهي أحوج إليك منك إليها. وقد تقدم حديث رجوع الشمس له حتى صلى العصر بعد غروبها حين كان في حجره النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يوحى إليه. وقال في حقه صلى الله عليه وسلم: <<أقضاكم علي>>. وهو حديث حسن شاهد على اختصاصه بالعلوم كما تقدم، نفعنا الله به وبعلومه، ورزقنا من محبته حظا وافرا بمنه وكرمه.

* **ثم تمم ما بقي من الصحابة رضي الله عنهم، جملة وتفصيلا، فقال:**

371 **وبِبَاقِـي أصْـحابِك المُظهرِ التَّرْ تِـيبِ فِيـنا تَفْـصِيلُهم والـوَلاءُ**

أي وأقسم عليك بباقي أصحابك المبشرين بالجنة منك، الذي أظهر لنا تفضيلهم الحاصل منك والولاء، أي الموالاة والمناصرة لك، ترتيبهم في الفضل والشرف، يعني أن سبب تفاوتهم في الفضل والشرف أمران، أحدهما ما ظهر تفضيله من النبي صلى الله عليه وسلم بنص أو إشارة، وإليه أشار بقوله "**المظهر الترتيب فينا تفضيلهم**"، أي المظهر لنا تفضيلهم الترتيبَ لنا، فالترتيب مفعول وتفضيلُهم فاعل، والظرف بمعنى اللام. والثاني: كثرة الموالاة والمناصرة للنبي صلى الله عليه وسلم، فمن قويت موالاته ومحبته للنبي صلى الله عليه وسلم ونصرته للدين قوي شرفه وفضله واستحق التقديم على غيره، وإليه أشار بقوله: "**والولاء**" أي المودة والمناصرة. وبشارة العشرة بالجنة وارد في الأحاديث، أما الخلفاء الثلاثة، ففي البخاري وغيره في قضية القف حيث كان أبو موسى رضي الله عنه بوابا. وأما علي رضي الله عنه فقال عمر رضي الله عنه: ما عسى أن تقولوا في علي، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: <<يدك في يدي تدخل معي يوم القيامة حيث أدخل>>. وأما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فقال فيه يوم بدر، وقد أوتر قوسه أربعة عشر مرة، <<فداك أبي وأمي>>. وأما سعيد بن زيد بن نفيل، فروي هو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: <<أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعد بن أبي وقاص في الجنة وتاسع المؤمنين في الجنة>>، فناشدوه بالله عنه فقال: أما إذ نشدتموني فأنا تاسع المؤمنين، والنبي صلى الله عليه وسلم العاشر. ثم قال: لموقف أحدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر فيه وجهه أفضل من عمر أحدكم ولو عمَّر عُمْر نوح. وأما طلحة بن عبيد الله فكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة وسقط رحله صلى الله عليه وسلم، فقال: <<من يسوي لي رحلي فهو في الجنة>>، فبدر طلحة فسواه، فقال: <<يا طلحة هذا جبريل يقرئك السلام ويقول إننا معك في أهوال يوم القيامة حتى أنجيك منها>>. وأما الزبير، فروي أنه جلس يذب عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم حتى استيقظ، فقال له: <<يا أبا عبد الله لم تزل>>.

قال: لم أزل بأبي أنت وأمي. قال: هذا جبريل يقرئك السلام ويقول: <<أنا معك يوم القيامة حتى أذب عن وجهك شرر جهنم>>. وأما عبد الرحمن بن عوف فروي أن الحسنين اشتد بكاؤهما جوعا، فقال صلى الله عليه وسلم: <<من يصلنا بشيء، فطلع عبد الرحمن بن عوف بصحفة فيها حيس ورغيفان بينهما إهالة>>. فقال صلى الله عليه وسلم: <<كفاك الله أمر دنياك وأما أمر آخرتك فأنا لها ضامن>>. وأما أبو عبيدة بن الجراح، فشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم له بأنه أمين هذه الأمة يقطع بدخوله الجنة.

*** وسيأتي مناقب هؤلاء السادات مرتبا مفصلا عند الشيخ رضي الله عنه، فقال:**

372 **طَلْحَةُ الخَيْر المُرْتَضيهِ رَفِيقًا وَاحِدًا يَوْمَ فَرَّتِ الرُّفَقَاءُ**

هو بدل من باقي أو مبتدأ حذف خبره، أي منهم "**طلحة**" بن عبيد الله القرشي السهمي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى في أمر الخلافة بعد عمر الذين توفي عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الجود، فكان غاية فيه حتى أنه باع أرضا بسبعمائة ألف دينار فباتت عنده مخافة حسابها فأصبح ففرقها على فقراء المدينة. وجاءه رحم يسئله فأعطاه ثلاثمائة ألف. وكان مدخله بالعراق في كل سنة أربعمائة ألف وكان يكفي ضعفاء قومه ويقضي ديونهم ويرسل إلى عائشة رضي الله عنها في كل سنة عشرة آلاف درهم. وتصدق في يوم بمائة ألف، ثم لم يجد ثوبا يشهد فيه الجمعة. وهو وإن لم يشهد بدرا فقد جعله النبي صلى الله عليه وسلم ممن شهدها أجرا وسهما. قيل لأنه كان بالشام للتجارة، والصحيح أنه أرسله النبي صلى الله عليه وسلم هو وسعيد بن زيد رضي الله عنهما للتجسيس عن خبر عير قريش، وخرجا لبدر فرجعا إلى المدينة فوافيا منصرفه من بدر. وصح أنه صلى الله عليه وسلم أقبل عليه وعلى الزبير وقال: <<يا طلحة ويا زبير إن لكل نبي حوار وأنتما

حوارياي>>. وأن الخلفاء الأربعة وطلحة والزبير وابن عوف وسعد وسعيد كانوا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال وخلفه في الصلاة في الصف الأول، وليس أحد من المهاجرين والأنصار يقوم مقام واحد منهم غاب أو شهد. وقوله "**المرتضيه رفيقا**" أي: الذي ارتضاه النبي صلى الله عليه وسلم رفيقا له صاحبا وقوله "**واحدا**" هكذا في أكثر النسخ، والأصح أنه **أُحد**، بضم الهمزة على حذف الجار، أي في **أُحد**، بدليل ما في صحيح البخاري، أنه لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا اثني عشر رجلا. انتهى. وفي السير أن الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انكشف الناس عند يوم أُحد أربعة عشر رجلا، سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار، لكن ثبت فيه أنه وقع له انفراد معه صلى الله عليه وسلم، ثم تتابعت بعده الناس، فإنه قال: وكان لطلحة اليد البيضاء يوم أُحد، وقى النبي صلى الله عليه وسلم لما ضرب بالسيف بيده فشلت يده واستمرت شلاء. وكان الصديق إذا حدث عن يوم أُحد بكى وقال: كان ذلك كله لطلحة. وقد قال صلى الله عليه وسلم يومئذ: <<أوجب طلحة>>، أي وجبت له الجنة، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان قد ظاهر بين درعين فأراد أن ينهض وهما عليه ليصعد صخرة هناك فلم يستطع، فبرَك له طلحة رضي الله عنه فصعد على ظهره واستوى عليها، فقال صلى الله عليه وسلم: <<أوجب طلحة>>. وثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم وبايعه على الموت ووفاه نفسه. قال أبو بكر رضي الله عنه: كنت أول من جاء يوم أُحد فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي عبيدة بن الجراح: <<عليكما بصاحبكما>>، يريد طلحة وقد نزف، فأصلحنا من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتينا طلحة فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر، بين طعنة وضربة ورمية، وإذا قد انقطعت أصبعه فأصلحنا من شأنه. انتهى. وثبت في بعض الأحاديث ما يشهد لصحة النسخة الأولى وهو قوله: <<لقد رأيتني يوم أُحد وما في الأرض قربي مخلوق غير جبريل عن يميني وطلحة عن يساري>>. ولما رجع صلى الله عليه وسلم من أُحد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾ الآية. فقيل: يا رسول الله من

هم؟ فقال: <<هذا منهم>>. وأشار إلى طلحة. وصح عند الحاكم لكن نوزع فيه من <<أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة>>. وكان رجل يقع فيه وفي الزبير بحضرة سعد بن أبي وقاص فينهاه فيأبى، فصلى، أبو سعيد ودعا عليه أنه إن كان مبطلا يريه الله فيه آية ويجعله للناس عبرة. فخرج فإذا جمل هائج يشق الناس فأخذه وهرسه بيده ورجليه حتى مثلا. قال سعيد بن المسيب: أنا رأيت الناس يتقون سعدا، يقولون له هنيئا لك يا أبا إسحاق، قد أجيبت دعوتك. وسبب وفاته، أي طلحة رضي الله عنه، أنه كان مع عائشة يوم الجمل هو والزبير، فوقف عليهما علي رضي الله عنه، فوعظهما، فتأخرا فوقف طلحة في بعض الصفوف فجاءه سهم في ركبته فقتلته في جمادى الأخيرة سنة ست وثلاثين عن أربع وستين على الأشهر، ودفن بالبصرة، وجاءه علي فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: رحمة الله عليك يا أبا محمد، يعز علي أن أراك منجدلا. انتهى.

*** ثم ثنى برفيقه الزبير رضي الله عنه فقال:**

373 **وبِحَـوارِيك الزُّبَيْـرِ أَبِـي القَـرْ ... مِ الـذي أَنْجَـبَتْ بِـهِ أَسْـمَاءُ**

أي أقسم عليك "**بحواريك**"، أي ناصرك "**الزبير**"، وإنما خصه بالإقسام به وإن دخل في الباقي لمزيد فضله بالقرابة، لأنه ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو من العشرة المبشرين بالجنة وأحد الثمانية السابقين، والستة أصحاب الشورى والشجعان المشهورين. لم يلحقه أحد في الشجاعة والفروسية كحمرة وعلي، ولذلك لما كان يوم بدر بعمامة صفراء نزلت الملائكة بعمائم صفر. وهو أول من سل سيفا في سبيل الله تعالى لأنه وصله بأخذ محمد صلى الله عليه وسلم فخرج يشق الناس بسيفه فلَقِيه النبي صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فقال له: <<ما لك؟>> فقال: أخبرت أنك أخذت، فصلى عليه ودعا له ولسيفه. شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت له اليد البيضاء في فتح اليرموك. اخترق صفوف الروم مرتين من أولهم إلى آخرهم. وفتح مصر مع عمرو بن العاص، وصح أنه اشتد الخوف يوم الأحزاب فندب النبي صلى الله عليه وسلم من يأتيه بخبر القوم. فقال: أنا فاعل. فأعاد

فقال أنا. فقال صلى الله عليه وسلم: <<إن لكل نبي حواريّ، وإن حواريّ الزبير>>. وجمع له صلى الله عليه وسلم بين أبويه، فقال: <<ارم فداك أبي وأمي>>. وصح عن عثمان أنه قيل له، وهو محصور، لو استخلفت، فقال: لعلهم قالوا الزبير، قيل: نعم. قال: أما والله إنه لخيرهم فيما علمت، وإنه كان لأحبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان له ألف عبد يؤدون له الخراج في كل يوم، فيتصدق به في مجلسه ولا يقوم بدرهم. وكان مع عائشة رضي الله عنها يوم الجمل، فلما دنت الصفوف خرج علي وهو على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنادى: ادعوَا لي الزبير. فدعا له فأقبل حتى اختلف أعناق دوابهما، فقال له: نشدتك الله أتذكر يوم مر بك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن بمكان كذا وكذا فقال: <<يا زبير أما والله لتقتلنه وأنت ظالم له>>. فقال: بلى، والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكرته الآن، والله لا أقاتلك. ثم أدبر راجعا، فقال له ولده: ما بالك. فذكر له القصة، فقال له: لم نجئ للقتال بل لنصلح بين الناس فأبى. وفي رواية فقال له، أي ولده: لقد جبنّا، فقال له: لقد علم الناس إني لست بجبان، ولكن ذكر لي حديثا فحلفت ألا أقاتله. وفي رواية: أن سبب رجوعه أنه قال لأصحاب علي: أفيكم عمار بن ياسر، قالوا: نعم. فأغمد سيفه وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار: تقتلك الفئة الباغية. ولا مانع من أنه قال ذلك ثم ذكره علي الحديث زيادة في إعلامه. ثم سار راجعا فلما وصل وادي السباع نام فجاء رجل فقتله في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وعمره سبع وستون سنة على الأشهر. وقبل أن يجتمع بعلي قال لابنه عبد الله: ما أراني إلا سأقتل اليوم مظلوما، ثم أوصى ابنه أن يقضي عنه دينه وكان قدره ألفي ألف ومائتي ألف وما وَالاَ إمارة ولا جباية ولا خراجا ولا شيئا، وما خلف دينارا ولا درهما، وإنما خلف الأصول منها الغابة وبضع عشرة دارا، فباع ابنه ماله وقضى، فلما فرغ، قال له إخوته: اقسم لنا، قال: لا حتى أنادي في الموسم ثلاث سنين من كان له قبل الزبير شيء فليأتنا، ففعل ثم أخرج ثلث ماله لأنه كان أوصى به وكان له أربع نسوة فأصاب كلا منهن ألف ألف ومائتا ألف، فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف. هذا ملخص ما في صحيح البخاري، لكن اعترض بأن الذي تركه على الصحيح بما

وفي الدين والوصية، وما ورث عنه تسعة وخمسون ألف ألف وثمانمائة ألف، وكان له صدقات كثيرة ومكارم جليلة، وماله كله حلال صرف، وكذا الصحابة كلهم، لأن أموالهم إما من سلب أو سهم من الغنيمة أو من تجارة مبرورة. وأوصى إليه سبعون من الصحابة بأموالهم وأولادهم فحفظها وكان ينفق على أولادهم من ماله. ومن مدح حسان فيه:

فكم كربة دب الزبير بسفيه   على المصطفى والله يعطي ويجزل

فما مثله فيهم ولا كان قبله   وليس يكون الدهرَ ما دام يذبل

ثناؤك خير من فعال معاشر   وفعلك يا ابن الهاشمية أفضل

قاله ابن حجر. وقوله "**أبي القرم**" بفتح القاف وسكون الراء، أي السيد الكريم وهو ولده عبد الله، وكنيته أبو خبيب وأبو بكر "**الذي أنجبت له**" أي صارت نجيبة بسببه "**أسماء**" بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين، ولما كثرت نجابته وعظمت فضيلته سرت نجابته لأمه. ولد بعد عشرين شهرا من الهجرة بالمدينة وكان أول مولود ولد بعد الهجرة، ففرح المهاجرون به لأن اليهود زعموا أنهم عملوا لهم من السحر ما أبطل نسلهم، فلما ولد بان كذبهم. ولما احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه دمه وقال: <<غيبه في موضع لا يراك فيه أحد>>. فلما جاء إليه قال له: <<ما فعلت بالدم>>، قال: شربته. قال: <<إذا لا تلج النار بطنك، ويل لك من الناس وويل للناس منك>>، فكان كذلك، لأنه سعى في الخلافة لما مات يزيد سنة أربع وستين فأطاعه أهل اليمن والحجاز والعراق وخراسان، ثم هدم الكعبة لما سمعه من خالته عائشة رضي الله عنها، قالت: قال صلى الله عليه وسلم: <<لولا أن قريشا حديثوا عهد بكفر لهدمت الكعبة وجعلتها على قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام>>، وفتحت بابها الأخرى، وجعلت بابها الشرقي لاصقا بالأرض كما كانت زمن ابراهيم عليه السلام. فأعادها ابن الزبير كذلك بعد أن شاور الصحابة، فمنهم من أمره بذلك ومنهم من نهاه عنه فلم يرجع له لسماعه الحديث المذكور، فكان أجر ذلك البناء باقيا له إلى أن يهدمها ذو السويقتين، فإن البناء الموجود الآن كله بناؤه إلا حائط

الميزاب فإن الحجاج لما حصره أول الحجة سنة اثنين وسبعين وحج بالناس ولم يزل محاصرا له إلى أن قتله سابع جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين. هدم ما كان أدخله ابن الزبير من الحجر وهو ستة أذرع كما أدخله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأخرج الستة ثم أخر الجدار كما هو اليوم وسد الباب الغربي وأعلى الباب الشرقي لتصير كما كانت في زمنه صلى الله عليه وسلم، لأن قريشا لما بنتها حينئذ قصر بهم المال، أي الحلال عن أن يجعلوها على قواعد إبراهيم، فجعلوها كذلك. وكان ابن الزبير رضي الله عنه صواما يواصل الخمسة عشر فأكثر، قواما وربما قام بختمة في ركعة واحدة، أطلس لا لحية له، من دهاة العرب المشهورين وشجعانهم وأحد العبادلة الأربعة المتقاربين سنا وعلما وذكاء وفهْما، والثلاثة عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وليس منهم ابن مسعود لأنه أكبر منهم سنا فليس في طبقتهم. قاله ابن حجر.

*** ثم ذكر سعدا وسعيدا، فقال:**

374 **والـصَّفِيَّيْنِ تـوْأم الفـضْل سَـعْدٍ   وسَــعِيدٍ إن عُــدَّتِ الأَصْــفِيَاءُ**

أي وأقسم عليك ب"**الصفيين**"، تثنية صفي، وهو الخالص المصفى، أي الذين تصفيا وتخلصا من الحظوظ والشهوات "**توأم الفضل**"، التوأم هو الولد الذي يكون مع أخيه في بطن واحدة، فكل واحد يسمى توْأماً، يقال: أتْأمت المرأة: ولدت اثنين وهذان السيدان لما اشتركا في الفضائل الجليلة كانا كأنهما من بطن واحدة، ولو توئما بالتثنية كان أوضح كما تقدم من أن كل واحد يسمى توءما. **فسعد** هو أبو إسحاق ابن أبي وقاص القريشي الزهري وهو أحد الستة أصحاب الشورى، والثمانية السابقين إلى الإسلام، بل هو ثالث الإسلام، وأقام كذلك سبعة أيام، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة. والشجعان المشهورين، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وأول من أراق دما في سبيل الله، وكان يقال له فارس الإسلام، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورمى يوم أُحد ألف سهم، وولاه عمر العراق، فكان الأمين في فتح مدائن كسرى وغيرها. ومن كرامته الظاهرة أنه قطع مع جيوشه البحر على ظهور

الخيل لم يبلغ الماء منها إلا الحزم والناس في غاية الطمأنينة كأنهم سائرون في البر، وكان الذي يسايره سلمان الفارسي رضي الله عنه. وكذلك ولاه عثمان ولايات جليلة، وكان صلى الله عليه وسلم يناوله النبل يوم أُحد ويقول: <<ارم، فداك أبي وأمي>>. وأقبل والنبي صلى الله عليه وسلم جالس مع أصحابهن فقال: <<هذا سعد خالي>>، وقال له: <<اجلس يا خالي، فإن الخال والدٌ>>، ودعا له، فقال: <<اللهم سدد رميته وأجب دعوته>>. فلم تسقط له دعوة بعد ذلك. وأشرف على الموت من مرض، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم: إنه يعيش. وقال له: <<لعل الله يرفعك فينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون>>، واعتزل البيعة بعد قتل عثمان، فلم يدخل فيها ولم يحضر شيئا من تلك الحروب. توفي رضي الله عنه بقصره على عشرة أميال من المدينة فحمل إليها وصلى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ والي المدينة، وصلت عليه أمهات المؤمنين في حجورهن، ودفن بالبقيع سنة خمس وخمسين عن تسع وتسعين سنة، وأوصى أن يكفن في جبة صوف شهد بها بدرا وهو آخر المهاجرين موتا. وفي مسلم أن آية: ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ** ﴾ نزلت في ستة منهم: سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، "**وسعيد**" هو ابن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوي، أحد العشرة المشهودين لهم بالجنة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعده البخاري فيمن شهد بدرا، وقيل لم يشهدها، وعليه الأكثر. وجمع بينهما فإنه لم يشهدها حسا وشهدها حكما وأجرا وسهما، وهو ابن عم عمر، وزوج أخته. والسبب في إسلامه كما مر، ولذلك لم يدخله في أهل الشورى كولده لئلا يظن به أنه حابا أقاربه. وأخرج الشيخان أن امرأة ادعت عليه عند مروان انه أخذ لها قطعة، فقال: ما كنت لأفعل بعدما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: <<من أخذ شبرا من أرض ظلما طوقه الله من سبع أرضين>>. فقال له مروان: لا أسألك بينة بعد هذا. ثم قال: اللهم إن كانت كاذبة فاعم بصرها واقتلها في أرضها. فذهب بصرها، وبينما هي تمشي في أرضها وقعت في حفرة فماتت. زاد مسلم: أنها قالت: أصابتني دعوة سعد. توفي سنة خمسين عن سبع وسبعين ودفن بالمدينة وأبوه زيد مات في الجاهلية،

لكن وردت أحاديث تدل على أنه من أهل الجنة، منها ما في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم: <<إنه يبعث يوم القيامة أمة واحدة>>. انتهى. وقد اعتزل قومه ولم يوافقهم على عبادة الأصنام، وطلب الدين فدل على دين إبراهيم فكان يقول: أشهدكم على أني على دين إبراهيم، أو كما قال رحمه الله. ولقي النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه. وقوله "**إن عدت الأصفياء**" جمع صفي، وهو من صفت مودته وخلصت محبته، وهما من أكابر الأصفياء. بالله التوفيق.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

375 **وابنِ عوْفٍ مَنْ هوَّنَتْ نفْسهُ الدُّنْـ ـيَا بِبَذْلٍ يَمُدُّهُ إثْراءُ**

أي وأقسم عليك بعبد الرحمن **بن عوف** بن الحارث بن زهرة القرشي الزهري، أحد الثمانية السابقين للإسلام، والستة أهل الشورى، والعشرة المبشرين بالجنة، والخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر، وصح أنه كان بينه وبين خالد شيء، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: <<لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم ذهبا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه>>. أي نصفه. وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها، وكان ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وبعثه صلى الله عليه وسلم إلى دومة الجندل إلى بني كليب، وعممه بيده الكريمة وسدلها بين كتفيه وقال: <<إن فتح الله عليك. فتزوج ابنت ملكهم>>، ففتح الله عليه وتزوج بنت شريفهم فولدت له أبا سلمة، وصح أنه صلى الله عليه وسلم ائتم به في غزوة تبوك وصلى وراءه ركعة من صلاة الصبح. وهذه منقبة انفرد بها، وسببها انه صلى الله عليه وسلم ذهب لحاجة فأدركهم الوقت وأقاموا الصلاة فتقدمهم عبد الرحمن رضي الله عنه، ولما أتم صلى الله عليه وسلم صلاته قال: <<ما قبض نبي حتى يصلي خلف رجل صالح من أمته>>. انتهى. والظاهر أنه لم يعلم به وإلا تأخر كابي بكر، وكان كثير الإنفاق في سبيل الله، اعتق في يوم واحد إحدى وثلاثين عبدا حتى قيل، عن جملة ما أعتقه ثلاثون الفا. قال الزهري: تصدق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشطر ماله أربعة آلاف دينار ثم أربعين الف دينار ثم بمثلها ثم

بخمسمائة فرس ثم خمسمائة راحلة، وكان أهل المدينة عيالا عليه ثلث يقرضهم وثلث يقضي ديونهم وثلث يصلهم، وقدمت عليه عير من الشام بسبعمائة راحلة فسمعت عائشة أصواتها، فروت حديثا: انه يدخل الجنة حبوا، فقال: أشهدك أنها وأحمالها وأقتابها وأحلاسها في سبيل الله عز وجل. وحديث عائشة عده ابن الجوزي في الموضوعات. وروى جماعة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: <<كفاك الله أمر دنياك وأما أمر آخرتك فأنا لها ضامن>>. وسببه أن الحسن والحسين اشتد بكاؤهما من الجوع، فقال صلى الله عليه وسلم: <<من يصلنا بشيء>>، فأتاه بصحفة فيها حيس ورغيفان، وبينهما إهالة. توفي رضي الله عنه سنة اثنين وثلاثين في خلافة عثمان، وسنه نيف وسبعون سنة، وكان كثير المال الحلال، قيل ترك من الذهب ما جاء ربع ثمنه ثمانين ألف دينار، وكان ذلك في يده على وجه العارية والوكالة الخاصة يتصرف فيه بإذن الله ويصرفه في مصارفه كما تقدم، ولذلك وصفه الشيخ "**من هونت نفسه الدنيا**" أي صيرتها رخيصة لا قدر لها. وفي صحيح البخاري، أنه أوتي بطعام وكان صائما، فجعل يبكي، فقال: أخاف أن تكون عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا. وترك الطعام. انتهى. وهونت نفسه الدنيا "**ببذل**" أي بسبب إعطائها في وجوه الخير والقربات وذلك البذل الكثير "**يمده**" أي يكثره "**إثراء**" أي كثرة المال. يقال: أثرى الرجل إذا كثر ماله، ومنه أهل الثروة لأهل الغنا وإنما كثر ماله لما سخر الله له من أمر التجارة، فكان لو اشترى الشراب لربح فيه رضي الله عنه ونفعنا ببركاته آمين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

376 **والمُكَنَّــى أبَــا عُبَــيْدَةَ إذْ يَعْـــ ـــزي إلَــيْهِ الأمَانَــةَ الأُمَــنَاءُ**

أبو عبيدة هو عامر بن الجراح القرشي الفهري، أمين هذه الأمة، كما صحت به الأحاديث، وأحد العشرة والرجلين الذين عينهما الصديق للخلافة يوم السقيفة والثاني عمر، وأحد الخمسة الذين أسلموا في يوم واحد على يد الصديق، وبقيتهم عثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة، زوج أم سلمة. انتهى. شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها، وثبت يوم أحد مع النبي

صلى الله عليه وسلم، ونزع يومئذ بأسنانه حلقتين دخلتا في وجنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلق المغفر، فوقعت ثنيتاه لأنه تحامل عليها خوفا من إيلامه صلى الله عليه وسلم، وولاه أبو بكر لما أرسل الجيش إلى الشام، ثم جعل خالدا أميرا عليه وعلى غيره لعلمه بالحروب. ولما ولي عمر رده، لكن أمره أن يستشير خالدا. وروى أنه صلى الله عليه وسلم أمّره على سرية فيها أبو بكر وعمر، وتعرض له أبوه يوم بدر فأعرض عنه فلازمه فلما أكثر عليه قتله، فأنزل الله فيه ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ ﴾ الآية. ولما قال له الصديق يوم السقيفة: مد يدك لأبايعنك، قال: ما كنت لأتأمّر على رجل قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصلى بنا حتى قبض. وقال عمر: لإن أدركني أجلي وهو موجود استخلفته، لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: <<لكل أمة أمينا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح>>. ولما قدم عمر الشام تلقاه الناس، فقال: أين أخي أبو عبيدة؟ فقالوا: الساعة يأتيك، فأتاه على ناقته مخطومة بخطام ليف، فنزل عمر عن راحلته واعتنقه، وقال للناس: انصرفوا عنا. ثم دخل معه إلى بيته، فلم يجد فيه سوى سيفه وترسه وقوسه ورحله، فبكى عمر وقال لأصحابه: تمنوا، فقال رجل: ملء هذه الدار ذهبا أنفقه في سبيل الله تعالى. وقال آخر: جوهرا أنفقه في سبيل الله. فقال عمر: وأنا أتمنى ملء هذه الدار رجالا مثل أبي عبيدة. وله فتوحات كثيرة، ووقائع كبيرة مع المشركين. توفي سنة ثمان عشرة شهيدا بالطاعون، في طاعون عمواس، قرية بين الرملة وبيت المقدس. قال النووي رحمه الله: زرته فرأيت عنده عجبا ورأيت عنده من الجلالة ما هو لائق به رضي الله عنه ونفعنا ببركاته. قوله "**والمكنى**" بتشديد النون، معطوف على ما قبله، مقسم به أيضا، وأبا عبيدة مفعول ثان، وإذا ظرف لأقسم المقدر أو تعليل له، ويعزوا بمعنى ينسب، أي لأجل عز. والأمانة إليه الأمناء، وأجلهم نبينا صلى الله عليه وسلم كما تقدم في الحديث، وفي رواية: وأميني. وفي رواية: وأميننا أيتها الأمة. وهذا لمزية لا تقتضي التفضيل على الخلفاء كقوله لأبي ذر أنه أصدق من أظلت الخضراء أو أقلت الغبراء، لأن أولئك كملت فيهم الأوصاف كلها واعتدلت فلم يرجح بعضها على بعض

. وأما هذان فكملت فيهم الأمانة والصدق فشهرا فيهما على من يكملا فيه، ولو سلم تفاوتهما فيه على أولئك فإن المفضول قد يتميز بميزة لا توجد في الفاضل والله تعالى أعلم وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

377 **وبِعَمَّـيْكَ نَيِّـرَيْ فَلَـكِ المَجْـ ـدِ وكُـلٌّ أتَـاهُ مِـنْك إتَـاءُ**

أي وأقسم بعميك حمزة والعباس، أخوي أبيك لأبيه وكل منهما أسنّ من النبي صلى الله عليه وسلم بنحو السنتين. أما حمزة، ويكنى أبا عمارة، ويلقب بأسد الله وأسد رسوله، فكان عظيما شجاعا، أخا النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، أسلم قديما، وسبب إسلامه أن أبا جهل شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانصرف ولم يجبه، وانصرف أبو جهل إلى نادي قريش عند الكعبة، وأقبل حمزة من قنصه أي صيادته متوشحا قوسه، فأخبر بشتم أبي جهل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فغضب وعمد إليه فشجه شجة منكرة وقال: أتشتمه وأنا على دينه. فقامت إليه رجال من بني مخزوم فمنعهم أبو جهل خشية الفتنة ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أول من اتخذ له النبي صلى الله عليه وسلم لواء حين بعثه إلى سيف البحر، بكسر السين، من جهينة، استشهد بأُحد في نصف شوال، ثالث سني الهجرة بعد أن قتل إحدى وثلاثين كافرا، قتله وحشي غدرا، قال وحشي: رأيته يهد الأبطال هدا، فاختبيت له، فلما تمكنت منه رميته بحربتي فأصابته، ووليت هاربا، فقصدني ثم سقط. وبعد ذلك أسلم وحشي فقبله النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: <<غيب وجهك>>. وخرج يوم اليمامة فشارك رجلا في قتل مسيلمة الكذاب، فكان يقول: هذه بتلك. ومع ذلك فقد أصابه ما أصابه لما صح عن ابن المسيب أنه كان يقول: كنت أعجب لقاتل حمزة كيف ينجوا حتى مات غريقا في الخمر. وقال ابن هشام: بلغني أنه ما زال يحد في الخمر حتى نزع من الدينوان، فكان عمر يقول: لقد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة. ولما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قتيلا بكى، ولما رءا ما مثل به شهق وقال: <<لن أصاب بمثلك أبدا، ما وقفت موقفا أغيظ لي من هذا>>. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما

رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى قط أشد من بكائه على حمزة، وضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته وبكى حتى كاد يغشى عليه: <<يا حمزة يا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أسد الله وأسد رسوله، يا حمزة يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكربات، يا حمزة يا ذاب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم>>. وليس في هذا نوح، مع أنه لم يكن حرج حينئذ. وصح حديث: أنه سيد الشهداء يوم القيامة، وأنه لولا جزع النساء لتركته حتى يحشر من بطون الطير والسباع. وحديث: <<رحمة الله عليك، لقد كنت وصولا للرحم فعولا للخيرات رضي الله عنه ونفعنا ببركاته>>.

وأما العباس وكنيته أبو الفضل، فكان رجلا جليلا جوادا ذا رأي وكمال عقل، معظما بين الصحابة وعند النبي صلى الله عليه وسلم، رئيسا في قريش قبل الإسلام، وكانت ينسب إليه عمارة المسجد الحرام والسقاية، وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم العقبة فعقد له البيعة على الأنصار، وكان صلى الله عليه وسلم يثق به في أمره كله. أسر يوم بدر وكان صلى الله عليه وسلم قال يومئذ: <<من لقيه فلا يقتله، فإنه مستكرها>>، وسمعه صلى الله عليه وسلم يئنُّ لكونهم شدوا وثاقه، فلم ينم، فقيل له: ما يسهرك يا رسول الله؟ فقال: <<أنين العباس>>. فقام رجل، فأرخى وثاقه ووثاق البقية ففدى نفسه وفدا عقيل ابن أخيه، بعد أن قال: ما معي شيء، فقال له صلى الله عليه وسلم: <<وأين المال الذي قلت لأم الفضل، أي زوجته، إذا أنا مت فافعلي به كذا وكذا>>. فقال: من أعلمك بهذا ولم يطلع عليه غيري وغيرها؟ فأسلم، وكتم إيمانه إلى قبيل فتح مكة، فخرج على النبي صلى الله عليه وسلم ولقيه بالأبواء وبه ختمت الهجرة. وكان ردءا للنبي صلى الله عليه وسلم بمكة يكاتبه بأخبار أهلها. وكان المسلمون بمكة يثقون به، وكان يحب القدوم على النبي صلى الله عليه وسلم، فكتب إليه أن بقاءك بمكة خير لك، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا وثبت معه حين انهزم القوم، وكان عمر يستسقي به الغيث فيقول: اللهم إنا كنا نسقي بنبيك فتسقينا، وها نحن نستسقي بعم نبيك فاسقنا، فيسقون. توفي بالمدينة ثاني عشر رجب أو رمضان سنة اثنين وثلاثين وله نحو من ثمانية وثمانين سنة. قبره مشهور بالبقيع.

وورد في فضله أحاديث، منها قوله صلى الله عليه وسلم: <<العباس مني وأنا منه>>. ومنها: <<من آذى العباس فقد آذاني، فإنما عم الرجل صنو أبيه>>. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: <<أوصاني الله بذي القربى وأمرني أن أبدأ بالعباس بن عبد المطلب>>. إلى غير ذلك من الأحاديث. وطلب أن يستعمله النبي صلى الله عليه وسلم، على الصدقة، فقال: <<ما كنت لأستعملك على غسالة ذنوب الناس>>. ومآثره كثيرة رضي الله عنه ونفعنا به.

قوله "نيري" تثنية نير، وهو الكوكب المضيء، والفلك ما تسير فيه الكواكب، وهل هو السماء أو غيره، مذكور في علم الهيئة، وإضافته للمجد وهو الكرم وعلو القدر استعارة، شبه المجد بالسماء وأثبت لها ما هو من لوازمها، وهو الفلك بناء على ترادفهما، فهي استعارة بالكناية وتخييلية ورشحها بذكر النيرين وشبههما بالشمس والقمر، وأثبت لهما ما هو من لوازمهما وهو الإضاءة، فهي أيضا استعارة تجريدية بذكر المجد الملائم للمعنيين. وقوله "**وكل أتاه منك إتاء**" أي وكل واحد منهما حصل له منك أي من أجل صحبتك وقرابته منك "**إتاء**" أي خير كثير ونعيم دائم وشرف تام "**وإتاء**" على وزن كتاب، ما يخرج من الشجر والنخل كما في القاموس. وقال الشارح: هو ما يستفاد من النعم والخيرات من غير تعب كعمل النحل وثمار الأشجار. ولعله تفسير مراد. قاله ابن حجر.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

378 **وبِـــأُمِّ الـــسِّبْطَيْنِ زَوْجِ عَلِـــيٍّ وبَنِـــيهَا ومَـــنْ حَـــوَتْهُ العَـــباءُ**

أي واقسم عليك "**بأم السبطين**" الحسن والحسين، فالسبط هو الحفيد، وأمهما هي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أصغر بناته. وقوله "**زوج علي**" بدل من أم. زوجها صلى الله عليه وسلم له ثاني سني الهجرة بوحي من الله تعالى بذلك كما ورد. وبنا بها بعد العقد بسبعة أشهر ونصف في ذي الحجة على رأس اثنين وعشرين شهرا، وكان سنها حينئذ خمسة عشر سنة وخمسة أشهر ونصف وقيل نحو ستة، وسن علي إحدى وعشرين سنة وأشهر. قاله ابن عبد البر، وهي وأم كلثوم أفضل

بناته وكانت فاطمة أحب بناته إليه، وكان يقبلها في فمها، وإذا أراد سفرا يكون آخر عهده بها، وإذا قدم أول ما يدخل عليها. وتوفيت بعده صلى الله عليه وسلم في رمضان سنة أحد عشر، فبينهما نحو ستة أشهر وسنها تسع وعشرون سنة على القول الثاني. وقد أسر إليها صلى الله عليه وسلم أنها أول لحوق به فسرت بذلك، ودفنها علي ليلا بوصية منها، واختلف في محل قبرها. والأشهر أنها في قبة ولدها الحسن قرب محرابها. وكان القطب أبو العباس المرسي يجزم بهذا، فلعله كوشف به. وروى أحمد والدولابي، أنها اغتسلت ولبست ثيابا جددا واضطجعت وقالت إنها مقبوضة الآن فلا يغسلني أحد ولا يكفني أحد، فماتت، فامتثل علي وصيتها. ولكن يعارضه أنها أمرت فاطمة بنت عميس بأنها تغسلها، وهذه مقدّمة، لأن الأصل عدم الخصوصية. وقوله "**وبنيها**" أي وأقسم بهم وهم الحسن والحسين ومحسن وهذا مات صغيرا، وأم كلثوم وزينب، وأولادهم إلى قيام الساعة، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم عقب إلا منها، فانتشر نسله من جهة السبطين فقط. وأم كلثوم ولدت لعمر ذكرا وأنثى وماتا صغيرين، ثم بعد عمر تزوجت بعون بن جعفر، ثم بعد موته بأخيه محمد عبد الله ولم تعقب منه شيئا، ثم تزوج هذا الأخير بأختها زينب فولدت له عدة منهم علي وأم كلثوم، وانتشر نسلهما، ولهم شرف أعلى من شرف عبد الله، من غير زينب، وأدون من شرف الحسنين لمزيتهما بما ورد في فضلهما. وقوله "**ومن حوته العباء**" أي اشتملت عليه، والعباء الكساء الغليظ، وأشار إلى ما في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم جعل على علي وفاطمة وابنيهما كساء، وقال: <<اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا>>. وفي رواية: ألقى عليهم كساء ووضع يده عليها وقال: <<اللهم هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد إنك حميد مجيد>>. وفي رواية: أنه فعل ذلك حين نزلت الآية **﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ ﴾** الآية وهو في بيت أم سلمة، فقالت أم سلمة: وأنا منهم. فقال: <<إنك على خير>>. وفي رواية أخرى قال: <<بلى>>. وأدخلها معهم. بعدما قضى الدعاء لهم. فالله تعالى أعلم. فالذي حوته العباء هو النبي صلى الله عليه وسلم وفاطمة وعلي وأبناهما. ومن

فضائل فاطمة رضي الله عنها، ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: <<فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما آذاها وينصبني ما أنصبها>>. وقال أيضا: <<أحب أهلي إليّ فاطمة>>. وقال: <<فاطمة بضعة مني، يغضبني ما يغضبها ويبسطني ما يبسطها، وأن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وحسبي وصهري>>. وقال: <<سيدة نساء أهل الجنة فاطمة، أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، وسيدة نساء المؤمنين، وسيدة نساء هذه الأمة>>. ألحقنا الله بنسبها وحققنا بحسبها آمين.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

379 **وبِأَزْوَاجِــكَ اللَّوَاتِــي تَــشَرَّفْ ـــنَ بِــأَنْ صَــانَهُنَّ مِــنْكَ بِـنَاءُ**

أي وأقسم عليك بأزواجك أمهات المؤمنين "**اللواتي تشرفن**"، أي حصل لهن الشرف والحرمة "**بأن صانهن**" عن كل عيب ووصم "**منك بناء**" أي تشرفن بسبب البناء الحاصل منك بهن. وقد ثبت عنه عليه السلام أنه لم يزوجه الله إلا من ستكون معه في الجنة. وظاهر كلامه أن من تزوجها ولم يدخل بها لا يحصل لها ذلك الشرف، وينبغي تخريجه على الخلاف في حرمتها على غيره، فإن قلنا تحرم حصل وإلا فلا. وجملة من دخل بها إحدى عشرة، ست قريشيات وأربع عربيات وإسرائيلية. وقد جمعن بعض في بيت مشيرا بكل واحدة بأول حرف كل كلمة فقال:

خليلي (**خديجة**) سبا (**سودة**) عقلي (**عائشة**) حلي (**حفصة**) زين (**زينب بنت خزينة**) هالة (**هند أم سلمة**) *

زهى (**زينب بنت جحش**) جفنها (**جويرية**) رمزا (**رقية**) صحيحا (**صفية**) مهذبا (**ميمونة**).

وهو على ترتيب التزوج، فأولهن **خديجة:** تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زوجين ولها يوم تزوجها أربعون سنة وأشهر، وله خمس وعشرون سنة، وهي أول من آمن به من النساء. وفي الصحيحين أن جبريل قال: يا محمد هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام وإدام، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها

ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب. وأولاده صلى الله عليه وسلم كلهم منها إلا إبراهيم، واختلف في عدتهم، وجملة ما اتفق عليه منهم ستة: القاسم ولد قبل النبوة وبه كني ومات بعد نحو سنتين على خلاف، وأربع بنات زينب وهي أكبرهن وماتت سنة ثمان من الهجرة عند زوجها ابن خالها أبي العاص بن الربيع، ولدت منه عليا، كان رديفه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ومات قبل الاحتلام. وأمامة التي حملها في صلاته تزوجها علي بعد فاطمة رضي الله عنهم، ثم رقية وتوفيت وهو صلى الله عليه وسلم ببدر، ولما عُزي بها قال: الحمد لله، دفن البنات من المكرمات، خرجه الدولابي. ثم أم كلثوم، توفيت سنة تسع من الهجرة، تزوجها عثمان بعد ابني أبي لهب. ثم فاطمة الزهراء البتول، قال ابن عبد البر، ولدت سنة إحدى واربعين من مولده صلى الله عليه وسلم، والذي رواه ابن إسحاق، أنها ولدت قبل النبوة. قال ابن الجوزي، بخمس سنين، واختلف هل ولد له صلى الله عليه وسلم غير أولئك الستة، فقيل الطيب والطاهر وعبد الله، وقيل الأولان لقبان للثالث ومات صغيرا، وهو الأصح. وأما إبراهيم فمن مارية القبطية، ولد في ذي الحجة سنة ثمان، وسماه إبراهيم باسم أبيه قبل السابع أو فيه، وجمع بأنها وقعت قبله مخفية وأظهرت فيه، وكان صلى الله عليه وسلم يذهب إليه وهو في العوالي عند ظيرة الحراد فيأخذه ويقبله، ثم توفي وله سبعون يوما وقيل سنة وعشرة أشهر. وفي حديث: <<لو بقي لكان نبيا لكنه لم يبق، لأن نبيكم آخر الأنبياء>>. وفي الحديث كلام. توفيت خديجة رضي الله عنها قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين ودفنت بالحجون عن خمس وستين سنة.

ثم تزوج **سودة بنت زمعة**، بعد موت ابن عمها أخي سهيل بن عمرو بمكة لما رجعا من الهجرة إلى الحبشة بعد العقد على عائشة، ودخل بها قبل عائشة، ولما أسنت وهبت نوبتها لعائشة. توفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين.

ثم **عائشة** بمكة في شوال من سنة عشر من النبوة ودخل بها في المدينة في شوال على رأس ثمانية عشر شهرا بنت تسع سنين، ولم يتزوج بكرا غيرها وأحبها صلى الله عليه وسلم أكثر من بقية نسائه، وكانت فقيهة عالمة حافظة فصيحة. ماتت رضي الله عنها بالمدينة سنة سبع وخمسين وكناها صلى الله عليه وسلم أم عبد الله بابن

أختها عبد الله بن الزبير، فهي وخديجة أفضل أمهات المؤمنين ثم الأصح أن خديجة أفضل، لما صح أن عائشة لما قالت: قد أبدلك الله خيرا منها. قال: <<لا والله ما أبدلني خيرا منها>>. ولأنه صلى الله عليه وسلم أقرأها السلام من جبريل وخديجة من الله تعالى. والأصح أيضا أن فاطمة أفضل من خديجة لما فيها من البضع النبوية التي لا يعادلها شيء، والخبر المقتضي لخيرية خديجة أجيب عنه بأنه من حيث الأمومة لا السيادة، وإليه ذهب الإمام السبكي، فقال: والذي نختاره وندين الله به أن فاطمة أفضل ثم خديجة ثم عائشة واختار أيضا أن مريم أفضل من خديجة للاختلاف في نبوتها،

ثم بعد عائشة تزوج **حفصة بنت عمر** تزوجها سنة ثلاث من الهجرة بعدما رجعت من الحبشة وموت زوجها في غزوة بدر، توفيت سنة خمس وأربعين.

ثم تزوج **أم سلمة** بعد موت أبي سلمة سنة أربع، وكانت من أكمل النساء، ماتت سنة تسع وخمسين، ودفنت بالبقيع.

ثم أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب بعد أن مات زوجها عبد الله بن جحش بالحبشة مرتدا سنة ست، زوجها النجاشي لعمرو بن أمية الضمري وكيله صلى الله عليه وسلم، أصدقها عنه أربعمائة دينار وبعث بها إليه صلى الله عليه وسلم فدخل بها سنة سبع، ماتت بالمدينة سنة أربع وأربعين.

وتزوج **زينب بنت جحش** بعد زيد، زوجه الله إياها فدخل بها بغير عقد كما دلت عليه الآية، وكانت تفخر بذلك على أمهات المؤمنين وذلك سنة خمس وقيل ثلاث، وهي أول لحوقا به. وقالت عائشة: لم تكن امرأة خيرا منها في الدين وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأوسع صدقة وأشد ابتذالا لنفسها في العمل الذي تتقرب به إلى الله تعالى. ماتت بالمدينة سنة عشرين.

وتزوج **زينب بنت خزيمة الهلالية** وكانت تسمى في الجاهلية أم المساكين لإطعامها إياهم، تزوجها سنة ثلاث ثم ماتت بعد ثلاثة أشهر.

وتزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية سنة سبع بعد خيبر بشهر وبنى بها فيه وكان

حلالا، وماتت فيه سنة إحدى وخمسين، وقبرها به مشهور يزار ويتبرك به.

وتزوج **جويرية بنت الحارث الخزاعية**، وكانت وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري فكاتبها فجاءت تسأل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لها: هل لك على ما هو خير لك من ذلك؟ أؤدي عنك كتابك وأتزوجك. قالت: نعم. فسمع الناس بذلك فأعتقوا ما بأيديهم من سبي قومها، وقالوا: حررهم الله حيث صاروا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة فما رأينا امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها، اعتق في سببها مائة أهل بيت من بني المصطلق. أخرجه أبو داوود وعن ابن شهاب أنه اختارها من السبي فحجبها وقسم لها، وكانت بنت عشرين سنة، توفيت سنة خمسين.

وتزوج صفية بنت حيي بن أخطب، من نسل هارون عليه وعلى نبينا السلام، وهي من سبي خيبر، أذن صلى الله عليه وسلم دحية في أخذ جارية فأخذها، فقيل للنبي صلى الله عليه وسلم: أعطيته سيدة بني قريظة والنظير، وهي لا تصلح إلا لك، فخشي الفتنة، فأعطاه غيرها، ثم أعتقها وتزوجها وبنا بها وهو راجع إلى المدينة، وكان بعينها خضرة فسألها عن ذلك، فقالت: إنها كانت نائمة، ورأس زوجها ملكهم في حجرها، فرأت قمرا وقع في حجرها، فأخبرته فلطمها، وقال: تتسنين ملك يثرب. توفيت رضي الله عنها في رمضان سنة خمسين، ودفنت بالبقيع، فهؤلاء نساؤه المجمع عليهن. انتهى من ابن حجر.

وأما التي لم يدخل بهن، فمنها **أسماء بنت كعب الجوينية**، فلم يدخل بها حتى طلقها. ومنها عمرة بنت زيد إحدى نساء بني كلاب وطلقها قبل الدخول وتزوج امرأة من غفار، فلما نزعت ثيابها رءا بها بياضا فقال لها: الحقي باهلك. وتزوج أخرى من بني تميم فلما دخل بها قالت: أعوذ بالله منك. فقال: منع الله العائذ به. الحقي بأهلك. وأما **مارية وريحانة** فسريتان له صلى الله عليه وسلم.

*** ثم ذكر الشيخ رحمه الله المقسم عليه والمتوسل إليه، فقال:**

380 **الأَمَـــانَ الأَمَـــانَ إِنَّ فُـــؤَادِي ... مِـــن ذُنُـــوبٍ جَنَيْـــتُهنَّ هَـــوَاءُ**

أي أقسمت عليك بمن تقدم ذكره من أهل بيتك الأطهار، وأجلة أصحابك الأخيار، أن تؤمنني من النار، وأن تبوئني من فسيح الجنان ما تقر به العين مع المقربين الأبرار، بسبب شفاعتك المقبولة عند القهار، فإن فؤادي من أجل ما ارتكبته من الذنوب، وما اتصفت به من القبائح والعيوب "**هواء**" أي فارغ خال من الفهم والعلم، فلا يعقل شيئا ولا يفهمه لفرط الدهشة والحيرة من الخوف والحياء، فامنن عليه بالأمان التام حتى يسكن روعه ويزول دهشه ليتمكن من فهم المواعظ والتذكير. والتكرير للتأكيد، وأن يصح فيها الكسر استينافا والفتح تعليلا. والله أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

381 **قَـدْ تمَـسَّكتُ مِن وِدادِك بِالحَبْـ ـلِ الذِّي استمْـسكَتْ بِه الشُّفعاءُ**

"**قد تمسكت**" أي تعلقت واعتصمت "**من**" أجل "**ودادك**" أي ودادي ومحبتي فيك "**بالحبل**" أي بالسبب والعهد "**الذي استمسكت**" أي تعلقت "**به الشفعاء**" من الصالحين والعلماء والأبرار. والعهد الذي تمسكت به الشفعاء هو ودادك ومحبتك فيها نالوا القدر الرفيع والجاه العظيم حتى صاروا يشفعون في الناس وتقبل شفاعتهم. وأنا قد حصل لي فيك محبة ووداد فقد تعلقت بما تعلق هؤلاء وإن لم أعمل مثل عملهم لقولك: المرء مع من أحب، جوابا لمن قال: يا رسول الله، المرء يحب القوم ولا يعمل بعملهم. فمن أحب قوما حشر معهم. وسيأتي الكلام على المحبة والترغيب فيها عند قوله: وبحب النبي فابغ رضى الله، فهو أليق بالمقام وبالله التوفيق.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

382 **وأبَـــى الله أنْ يَمَـــسَّنِي الـــسُّو ءُ بِحَـــالِ ولِـــي إلَـــيْكَ الْـــتِجَاءُ**

أي، لم يرد "**الله أن يمسني السوء**" أي ما يسوءني "**بحال**" أي في حال من أحوال الدنيا والآخرة، والحالة أنه "**لي إليك التجاء**" أي استناد وتعلق كما جرت به عادة كرمه وفضله، ودل عليه ما تفضل به عليك، كقوله عز وجل من قائل: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ ﴾ والمعلوم من أخلاقك الجميلة والذي دلت عليه آثارك

الجليلة، أن من لجأ إليك لا تخيبه في شفاعتك، ولا يحرمه ربه من فضله، مسارعة إلى رضاك. وقد أخبرتنا أنه يقول لك في ذلك الموطن الهائل: قل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع. اللهم لا تحرمنا شفاعته، ولا تحل بيننا وبينه بحق جاهه وقدره عندك، يا أرحم الراحمين.

*** ثم قال رحمه الله:**

383 **قَـدْ رجَـوْنَاكَ للأمُـورِ التـي أبْـ ـــرَدُهَا فِـي قَلُوبِـنَا رمْـضَاءُ**

قد أملناك وطمعنا في فضلك معشر محبيك وخدامك أيها النبي الكريم للأمور العظيمة الخطيرة من المخالفات والغفلات والشهوات "**التي أبردها**" أي أيسرها وأهونها "**في قلوبنا رمضاء**" أي نار تتوقد من شدة خوف المؤاخذة بما كسبته قلوبنا وألسنتنا وجوارحنا. وحاشا لفضلك العظيم وكرمك العميم أن يخيب من رجاه أو يرد من قصده، وفي بردة الشيخ:

حاشـاه أن يحـرم الراجـي مكارمـه أو يـرجع الجـار مـنه غيـر مختـرم

*** ثم قال رضي الله عنه:**

384 **وأتَيْـنَا إلـيْكَ أنْـضاءُ فَقْـرٍ حَمَلَتْـنَا إلـى الغِـنَا أنْـضاءُ**

الأنضاء، بالفتح، جمع نِضو، بكسر النون، وهو الهزيل الضعيف، أي توجهنا بقلوبنا إلى حضرتك حال كوننا مهازيل من الفقر وقلة العمل مع كثرة ذنوبنا وثقل أوزارنا، قد "**حملتنا إلى**" حضرتك الكريمة، التي هي محل "**الغنا**" لمن قصد ساحتها "**أنضاء**" أي ركائب مهازيل قد أجهدها السير والتعب وشدة الإسراع بها إلى الوصول إلى حضرتك، اغتناما للوقوف بساحة كرمها والتنعم بشهود إحسانها والتماسها للاغتراف من فيض كرمها،

ولـن يفـوت الغـنا مـنه يـدا تـربت إن الحـيا ينـبت الأزهـار فـي الأكـم

*** ثم قال رضي الله عنه:**

385 **وانْطَوَتْ في الصُّدورِ حاجَاتُ الصَّدْر مَـا لَهَـا عَـنْ نَـدَى يَـدَيْكَ انْطِـوَاءُ**

أي واستترت في صدورنا "**حاجات**" نفس، يعني حيث قصدنا حضرتك أخفينا في أنفسنا حوائج أَمَّلْنَا حصولها من جنابك الكريم، نرفعها إليك إذا وصلنا إلى حضرتك، وحُظينا بحلول نظرك، منها الإمداد من أنوارك، والتوسل بك إلى مولاك، فإنه لا وسيلة إليه غيرك، فحينئذ كانت تلك الحاجات التي أخفيناها "**ما لها عن ندا**" أي عطاء "**يديك**" الكريمتين "**انطواء**" أي استتار، بل نظهرها بين يديك طالبين منك قضاءها، فإنه لا يقضيها غير جاهك الواسع، ولا يمن بها غير عطائك الهامع، فلا براحَ لنا عن جودك، ولا انصراف منا عن ساحة كرمك، بل لا نزال مقيمين بجوارك مستمطرين لندا إحسانك، طامعين في حصول كل ما أملناه بشفاعتك التي هي مطمع المقربين ووسيلة المقصرين، فإن جاهك عند الله عظيم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

386 **فأغِثْنَا يَا مَن هُو الغَوثُ والغَيْـ ـثُ إذا أَجْهَـد الـورى الـلأواءُ**

"**فأغثنا**" بما أملنا، وأتحفنا بما طلبنا "**يا من هو الغوث**" لمن انتصر به من المكروبين، والملجأ لمن التجأ إليه من المنقطعين. ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم غوث للأنام قد أغاث الله به الخلق وقد كانوا غرقا في الضلالة تتلاعب بهم أمواج الجهالة قد أشرفوا على سخط الملك الجبار، واقفين على شفا حفرة من النار، فاستخلصهم به وأنقذهم وأنجاهم من ذلك المهاوي. "**والغيث**" في الأصل هو المطر، جعله الله رحمة وحياة للبلاد والعباد، وزينة وإصلاحا لهم بما ينشأ عنه من النبات والأشجار والثمار والأزهار، فشبه النبي صلى الله عليه وسلم بما جاء به من الهدى والنور والرحمة وإنقاذ الخلق من الكفر والضلالة وتبصيرتهم من العمى والجهالة وحياة قلوبهم وتزيينها بالإيمان بعد موتها وخرابها بقحط الكفر وجذبه وقسوته بالغيث في إحياء البلاد وتزيينها وتنظيرها وريها وإصلاحها وإنقاذ الخلق به من الهلكة، فهو صلى الله عليه وسلم غوث وغياث للمجود، وغيث مغاث به "**إذا أجهد الورى اللأواء**" أي الشدة والكرب، أي أغثنا إذا ضيق على الخلق الجذب والكرب، نعوذ بالله

من ذلك وبالله التوفيق.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

387 **والجَـوادُ الـذي بِـه تُفْـرَجُ الغُمَّـ ـــةُ عَـــنَّا وتُكْـــشَفُ الحـــوْبَاءُ**

لا شك أنه صلى الله عليه وسلم أجود الأجودين وأكرم الأكرمين بنعم الله تعالى، فلم يخلق الله تعالى من يصل إلى مراتب جوده فضلا عن أن يساويه فيه. أقام الله به رسم الفضل والجود، وأفاض به نعمه على الوجود "**الذي به**" صلى الله عليه وسلم "**تفرج**" الغمة "**عنا**" معشر أمته "**وتكشف الحوباء**" بفتح أوله وضمه، أي الإثم، أي عقابه، وتطلق على الشدة والحاجة والحالة القبيحة، وفي نسخة "تفرج الكربة عنا وتكشف الغماء" وهي بمعنى الأولى، تساوي الغمة والكربة، إذ هما الكرب الذي يشتد على النفس والغماء والحوباء متقاربان، لأن الإثم يفضي إلى غم القلب وستره عن العلم والفهم، نعوذ بالله من ذلك.

* **ثم قال رحمه الله:**

388 **يـــا رحِـــيمًا بالمؤمنـــينَ إذا مَـــا ذهِلَـــتْ عـــنْ أبْـــنَائِهَا الـــرُّحَمَاء**

هذه استغاثة وتعطف بمن هو رحمة للعالمين، رءوف رحيم بالمؤمنين، وقد حلاه الله تعالى بذلك في كتابه الحكيم، فقال: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾، ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ فلا شك أنه صلى الله عليه وسلم أرحم الخلق بالخلق، وأولى الناس بهم من أنفسهم وأحق، فلا جرم أن من تعلق بجانب هذه الرحمة رحم، ومن استغاث به في كل مكروه سلم. وقد تقدم الكلام على اتصافه صلى الله عليه وسلم بالرحمة عند قوله "رحمة كله" فراجعه. وقوله "**إذا ما ذهلت عن أبنائها الرحماء**" أي رحيما بهم وقت ذهول الرحماء عن أبنائها، وهو يوم القيامة. مقتبس من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ وتقييد رحمته بالمؤمنين بذلك الوقت لأنها في ذلك الوقت أظهر وأعم، لأن الله تعالى يظهر له

صلى الله عليه وسلم من العظمة والسؤدد والتقدم على جميع الأنبياء والمرسلين، وتخصيصه بالشفاعة العظمى في فصل القضاء ما يعلم جميع أهل ذلك الموقف أنه لا أقرب منه إلى ربه، وإن كل نسب ينقطع في ذلك اليوم إلا نسبه صلى الله عليه وسلم وحسبه، نسأل الله تعالى أن يلحقنا بنسبه، ويحققنا بحسبه، بمنه وجوده وكرمه، وبحق سيدنا الممدوح، نبيه وحبيبه آمين.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

389 **يا شَفِيعًا فِي المُذْنِبِينَ إذَا ما أشْـ ـفَـقَ مـنْ خـوفِ ذنْـبِهِ البُـرآءُ**

الشفاعة هي السعي في حال المشفوع فيه عند المشفوع إليه. وثبوتها له صلى الله عليه وسلم معلوم من الدين بالضرورة، وله صلى الله عليه وسلم شفاعات، الشفاعة الكبرى لإراحة الناس من الموقف، ولقوم يدخلون الجنة بغير حساب، ولقوم استوجبوا النار، فشفع لهم قبل الدخول، ولقوم في رفع درجاتهم، ولقوم في خروجهم من النار، وهي متكررة فيهم، ولأبي طالب في ضحضاح من النار. والذي أراد الشيخ هو العامة بدليل قوله "إذا **ما أشفق**" أي دهش إذِ الشفق يطلق على التعب والمشقة، وشأن من حصلت له المشقة الدهش، و"**ما**" صلة، أي إذا دهش "**من خوف**" عقاب "**ذنبه البرآء**" أي المبرءون من الصغائر والكبائر، وهو كناية عن شدة ذلك اليوم وكثرة هوله، وهو يشمل من لا ذنب لهم أصلا كالأنبياء والمرسلين فإنهم معصومون، ومع ذلك كل واحد منهم يقول نفسي. وشعارهم في ذلك اليوم: اللهم سلم، سلم. ويشمل المحفوظين من الأولياء والصالحين. حشرنا الله في زمرتهم، وأماتنا على طريقهم ومحبتهم آمين.

*** ثم قال رضي عنه:**

390 **جُدْ لِعَاصٍ وما سِـوايَ هُو العَا صِـي ولَكِـنْ تنْكيـري اسْـتحْياءُ**

391 **وتَدارَكْــهُ بالعِــنَايَةِ مَــا دَا مَ لَــهُ بِالــذِّمَامِ مِــنْكَ ذِمَــاءُ**

أي "**جد**" يا من تجلى بكمال الرحمة ونهاية الشفاعة "**لعاص**" أحاطت به

الخطايا، وأدهشته المحن والبلايا، بشفاعتك الخاصة حتى تنال بها كل مرغوب، وتأمن بها من كل مرهوب، وليس غيري "**هو العاصي ولكن تنكيري**" وإبهامي بقولي لعاص منكّر "**استحياء**" منك أن أذكر لك نفسي بلفظ يدل عليها بالخصوص مواجها لك بالتصريح بارتكابها ما نهيتَ عنه، والتقصير عما أمرت به فتعطف عليه برأفتك العظمى، "**وتداركه**" أي أدركه "**بالعناية**" منك بأن تمده بسوابغ كرمك وتفرغَ عليه سجال حلمك "**ما دام له بالذمام**" أي بالاتصال "**منك ذماء**" أي تعلق، وهو بالمعجمة فيهما، أي ما دام له أدنى تعلق واستمساك بك لأنك أكرم الكرماء، وعادة الكريم أن لا يخيب من تعلق به ولا يخذل من انتصر به.

ومـــن تكـــن برســـول الله نـــصرته إن تلقـــاه الأســـد فـــي آجامهـــا تجـــم

تنبيه: قال ابن حجر: ما زلت أتطلب أن ما ذكره الناظم من أن سبب التنكير قد يكون الاستحياء، هل صرح به أحد غيره حتى وجدتهم صرحوا بما يقرب منه، وهو قولهم: لكل من التنكير والتعريف مقام يليق به، فمن أسباب التنكير إرادة الوحدة، نحو: ﴿ **وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ** ﴾ أي وحده. وإرادة النوع، نحو: {**هذا ذكري**} أي نوع من الذكر، ﴿ **وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ** ﴾ أي نوع من الغشاء. أو إرادة التعظيم، بمعنى إنه أعظم من أن يعين ويعرف، نحو ﴿ **فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ﴾ ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ** ﴾ ﴿ **أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ**﴾. ﴿ **وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ** ﴾ وإرادة التنكير، نحو: ﴿ **إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا** ﴾ أي وأجرا عظيما. وإرادة التقليل، نحو ﴿ **وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ أي ورضوان قليل من الله من الجنات بأسرها. أو إرادة التحقير، نحو ﴿ **مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾** ﴾ أي من شيء حقير مهين. ثم بينه بقوله ﴿ **مِن نُّطْفَةٍ** ﴾ إلخ. وهذا المعنى يقرب من الاستياء الذي ذكره الناظم. وهنا قاعدة يعم نفعها، وهي أن الاسم إذا ذكر مرتين فإن كانا معرفتين فالثاني عين الأول غالبا دلالة على المعهود الذي هو الأصل في اللام أو الإضافة، نحو ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ** ﴾. أو نكرتين، فالثاني غير الأول غالبا وقد

اجتمعتا في آية ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾. قال صلى الله عليه وسلم: <<لن يغلب عسر يسرين>>. فهو تصريح بما ذكر في القسمين. أو الأول نكرة فقط فكالقسم الأول نحو: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ وعكسه: حُكّمت القرائن. هذا ملخص كلامه رحمه الله، وله مع الناظم مناقشة لفظية الأمر فيها قريب. وفي قول الناظم "لعاص" التفات ومقتضى الظاهر لي. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

392 أخَّـرتْهُ الأعْمـال والمَـالُ عَمَّـا قَــدَّمَ الــصَّالِحُونَ والأغْنِــيَاءُ

أي "**أخّرَته**" عن مراتب الأكابر ودرجات المقربين "**الأعمال**" السيئة التي ارتكبها، "**والمال**" الفاني الذي اشتغل به وأمسكه عن صرفه في وجوه الخير أو جمعه من وجوه الشر، فحبسه الاشتغال "**عما قدم الصالحون**" من أنواع الطاعات والاستباق إلى الخيرات، فلذلك تأخرت درجته عنهم. وحقيقة الصالح هو القائم بحقوق الله وحقوق العباد. وقيل هو المتأهل لحضرة الله بتحرره من رق الأشياء، ولهذا التحرر مراتب، فبقدر ما يكون فيه من التحرر يكون فيه من الصلاح، وشمل التعريفات الملائكة، ومن ثم أخبر صلى الله عليه وسلم أن المصلي إذا قال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض. انتهى. وأخرته أيضا عما قدمه "**الأغنياء**" من أنواع البر والصدقات والإنفاق في وجوه الخيرات. وفي كلامه نص ونثر، فالصالحون للأعمال، والأغنياء للمال. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

393 كُــلَّ يَــوْم ذُنَــوبُهُ صَــاعِداتٌ وعَلَــيْهَا أنْفاسُــهُ صُــعَداءُ

هذا كله تحسر وشكوى، كما يقوله بعد، وحقيق لمن شكى إلى طبيب ماهر أن يحظى بشفاء الباطن والظاهر. قوله "**كل يوم ذنوبه صاعدات**" أي تصعد بها ملائكة الليل وملائكة النهار "**وعليها**" أي من أجلها "**أنفاسه**" جمع نفس، بالتحريك، أي ممدودة متواترة من شدة ما يلقى من كرب الندم والأسف.

* وسبب وقوعه في هذه الذنوب ما أشار إليه بقوله:

394 أَلِـفَ البطْـنة المُبْطِـئَة الـسَّيْـ ـرِ بـدارٍ بِهَـا الـبِطَانُ بِطَـاءُ

يعني أنه "**ألف**" كثرة الأكل وملء البطن الذي هو سبب في كل شيء، ولم يصبر على الجوع الذي هو مفتاح كل خير. قال سيدنا عمر رضي الله عنه: إياكم والبطنة، فإنها تذهب الفطنة، وتبطيء بالجوارح عن الطاعة. فقوله "**ألف البطنة**" أي ملء البطن من الطعام والشراب المبطئة السير إلى الله تعالى، لأن من ملأ بطنه قل فكره وتبلد طبعه وفترت أعضاؤه وعظم جهله وكثر نومه. ولو لم يكن من شؤم البطنة إلا ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم، بقوله: <<المؤمن ياكل في معى واحد والكافر ياكل في سبعة أمعاء>>. لكان كافيا. كيف وهي تبطئ بصاحبها عن مراتب السابقين، فلذلك قال "**بدار**" أي تبطئ به السير في دار هي دار الدنيا "**بها**" أي فيها "**البطان**" جمع بطين، ككريم "**بطاء**" جمع بطيء، أي فهم متخلفون عن الفائزين، متأخرون عن السابقين، ويحتمل أن يكون المراد بالدار، دار الآخرة، لأنهم يتخلفون عن درجات السابقين ومرافقة المقربين، ولذلك ورد الترغيب والحث على الجوع وقلة الأكل. قال صلى الله عليه وسلم: <<جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش، فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهدين في سبيل الله، وإنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش>>. عن ابن عباس رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه>>. وقيل: يا رسول الله: من أفضل الناس، قال: <<من قل طعامه وضحكه ورضي بما يستر به عورته>>. وقال صلى الله عليه وسلم: <<سيد الأعمال الجوع، وذل النفس لباس الصوف>>. وقال صلى الله عليه وسلم: <<البسوا واشربوا وكلوا في أنصاف بطونكم، فإنه جزء من النبوة>>. وقال الحسن: الفكرة نصف العبادة، وقلة الطعام هي العبادة. وقال الحسن، قال صلى الله عليه وسلم: <<أفضلكم منزلة عند الله، أطولكم جوعا وتفكرا، وأبغضكم إلى الله كل نوام أكول شروب>>. وفي الخبر عنه عليه السلام، أنه قال: <<إن الله يباهي الملائكة بمن قل طعامه في الدنيا، فيقول: انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فتركهما،

اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة يدعها إلا بدلته بها درجات في الجنة>>. وقال صلى الله عليه وسلم: <<لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء>>. وقال صلى الله عليه وسلم: <<ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، حسب بن آدم لقيمات يقمن صلبه، وإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه>>.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم والبطنة فإنها تثقل في الحياة وتنتن في الممات. وفي رواية: فإنها تذهب الفطنة وتبطئ بالجوارح عن الطاعة. وقال سفيان: العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلتها المجاعة. وقال لقمان يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وفي التوراة: اتق الله فإذا شبعت فاذكر الجائع. وقال أبو سليمان: لأن أترك لقمة من عشاي أحب إلي من قيام ليلة إلى الصبح. وقال أيضا: الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا لمن أحب من عباده. وكان سهل التستري يطوي نيفا وعشرين يوما، وكان يكفيه لطعامه في السنة درهما، وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال: لا يرى في القيامة عمل أفضل من ترك فضول الطعام والاقتداء بالنبي عليه السلام في الأكل. وقال: لا أعلم شيئا أضر لطلاب الآخرة من الأكل. وقال: وضعت الحكمة والعلم في الجوع وجعل الجهل والمعصية في الشبع. وقال: ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال. وسئل عن الزيادة، فقال: لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأخذ، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله تعالى أن يجعلها ليلتين، فإذا كان كذلك وجد الزيادة. وقال: إنما صار الأبدال أبدالا بأخماص البطون والصمت والسهر والخلوة، وكان عبد الواحد بن زياد يقسم بالله، أن الله ما صافا أحدا إلا بالجوع، ولا مشى على الماء إلا بالجوع، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع، ولا والاهم الله إلا بالجوع. وقال أبو طالب المكي: مثل البطن مثل المزهر، أي العود المجوف ذو الأوتار، إنما حسن صوته لخفته ورقته ولأنه أجوف غير ممتلئ، فكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام. وقال بكر بن عبد الله: ثلاثة يحبهم الله عز وجل، قليل الأكل قليل النوم قليل الراحة.

وقد ذكر في الإحياء: للجوع عشر فوائد، الأولى: صفاء القلب وإنفاذ القريحة ونفوذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ كشبه السّكر، حتى يحتوي على معان الفكر فيشتغل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وسار بطيء الفهم والإدراك. قال أبو سليمان: عليكم بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة في القلب، ويورث العلم السماوي.

الفائدة الثانية: رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المناجاة والتأثير بالذكر. فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن لا يلتذ به حتى كأنه بينه وبين الذكر حجاب من قساوة القلب. قال أبو سليمان: أحلى ما تكون العبادة إذا ألصق ظهري ببطني. وقال الجنيد: يجعل أحدكم بينه وبين الله مخلات من طعام ويريد أن يحصل حلاوة المناجاة.

الفائدة الثالثة: الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والطغيان، والأشر الذي هو مبدأ الطغيان، والغفلة عن الله تعالى. ولا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع على عجزها وذلها إذا ضعفت قوتها وضاقت حيلتها بلقمة طعام فاتتها وأظلمت عليها الدنيا بشربة ماء فاتتها. ومن لم يشاهد ذل نفسه وعجزه لم ير عزة مولاه وقهره، وإنما سعادته في أن يكون دائما مشاهدا نفسه بعين الذل والعجز، ومولاه بعين العز والقدرة والقهر، فليكن جائعا دائما، ولذلك اختار النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون نبيا عبدا، يجوع يوما ويشبع يوما. الحديث بتمامه.

الفائدة الرابعة: ألا ينسى بلاء الله وعذابه، ولا ينسى أهل البلاء، فإن الشبعان ينسى الجائعين، والجوعَ. والعبد الفاضل لا يشاهد بلاء إلا وتذكر بلاء الآخرة، ويتذكر من عظمته عطش الخلق في عرصات القيامة. ومن جوعه جوع أهل الناس حين يجوعون فيطعمون الزقوم والضريع. وهذه فائدة اختصاص البلاء بالأنبياء، والأمثل فالأمثل. ويورث أيضا الرحمة والشفقة على الخلق فيدعوه إلى المواساة وفعل الخيرات.

الفائدة الخامسة: كسر شهوات المعاصي والاستيلاء على النفس، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات، والقوى ومادتها من الأطعمة والأغذية فتقليلها يقمع كل شهوة وقوة، وإنما السعادة في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه. وكما أنك لا تملك الدابة الجموحَ إلا بضعف الجوع، فإذا قويت شردت وجمحت، فكذلك النفس. وقال بعضهم: إذا جاعت البطن شبعت الجوارح، وإذا شبعت الجوارح جاعت البطن. وقالت عائشة رضي الله عنها: أول بدعة أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع، إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت نفوسهم. وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد.

الفائدة السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيرا، ومن كثر شربه كثر نومه، ولذلك قال بعض المشايخ: معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا. وفي كثرة النوم تضييع العمر وفوات التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب، أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد، فيه يتجر، ولو قدر على التهجد فلا يجد له حلاوة. ومن الشبع ينشأ الاحتلام فيفوته له خير كثير.

الفائدة السابعة: تيسر المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادة وأنه لا بد يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل وربما احتاج إلى زمان في بشر الطعام او طحنه ثم إلى غسل يده ثم يكثر تردده إلى بيت الخلاء والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجات وسائر العبادات لعظم ربحه. قال السري: رأيت مع أبي علي الجرجاني سويقا يستف منه فقلت: ما دعاك إلى هذا، فقال: إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة. فانظر كيف أشفق على وقته فلم يضيعه في المضغ، وكل نفَس من العمر جوهر نفيس لا قيمة له فينبغي أن يستوفي منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها، وذلك بصرفه إلى طاعة الله وذكره. ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الوضوء وملازمة المسجد، فإنه يحتاج إلى الخروج إلى شرب الماء وهراقته. ومن الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع والصوم والاعتكاف ودوام الطهارة. وصرف أوقات الأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح

عظيمة لا يستحقرها إلا الغافلون الذين رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة.

الفائدة الثامنة: صحة البدن ودفع الأمراض، فإن سبب الأمراض كثرة الأكل وحصول فضلة الاختلاط في المعدة، ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر ويحوج إلى الفصد والحجامة وينغص العيش ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء. وأصل كل داء البردة، وفي رواية: البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء، وعودوا كل بدن ما اعتاد. وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قوله صلى الله عليه وسلم: <<ثلث طعام وثلث شراب وثلث نفس>>، فتعجب منه، وقال: ما سمعت كلاما في قلة الأكل أحسن منه، وإنه لكلام حكيم. وقال ابن سالم: من أكل خبز الحنطة بحتا بأدب لم يعتل إلا علة الموت. قيل: وما الأدب، قال: يأكل بعد الجوع ويرفع قبل الشبع. وفي الخبر المشهور: <<صوموا تصحوا>>.

الفائدة التاسعة: خفة المؤنة، فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما له ياخذ لخنقه كل يوم فيقول: ماذا تأكل اليوم، فيحتاج إلى أن يدخل المداخل الردية فيكتسب الحرام فيعصي، أو الحلال فيذل أو يتعب. وربما احتاج إلى أن يمد عين الطمع إلى الخلف وهو غاية الذل والمهانة. والمؤمن خفيف المؤنة. قال بعض الحكماء: إني لأقضي غاية حوائجي بالترك. وقال آخر: إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوتي أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهو خير غريم. وبالجملة، سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا، وسبب حرصهم البطن والفرج، وسبب شهوة الفرج شهوة البطن. وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأبواب، وهي أبواب النار، وفي حسمها فتح أبواب الجنة، كما قال صلى الله عليه وسلم: أديموا قرع باب الجنة بالجوع، فمن رضي باليسير سار حرا واستغنى عن الناس واستراح من التعب وتخلا لعبادة الله وتجارة الآخرة، وسار من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. الفائدة العاشرة: أن يتمكن به من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين ويكون يوم القيامة في ظل صدقته كما ورد. فما يأكله فخزانته الكنيف، وما يتصدق به فخزانته فضل الله، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق

فأمضى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى. فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع. قال الحسن: لقد أدركنا أقواما كان الرجل منهم يمسي وعنده من الطعام ما يكفيه، ولو شاء لأكله كله، فيقول: والله لا أجعل هذا كله في بطني حتى أجعل بعضه لله تعالى. فهذه عشر فوائد للجوع، وتنبعث عن كل واحدة فوائد لا تنحصر. فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة. قاله الغزالي في الإحياء. والمراد بالجوع الذي ورد فيه هذا الترغيب، الجوع المتوسط، وهو أن لا يأكل حتى يشتهي الخبز وحده، ويرفع عنه وهو يشتهيه. وأما الجوع المفرط فهو مذموم لأنه يفسد الفكر والعقل ويورث تخيلات وخبالا في العقل. ولله در الناظم حيث قال في بردته:

واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصة شر من التخم

وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

395 **فَبَكَى ذَنْبَهُ بِقَسْوةِ قَلْبٍ ... نَهَتِ الدَّمْعَ فالبُكَاءُ مُكاءُ**

أي فبسبب الذنوب الذي ارتكبها والبطنة التي أَلِفَها، "**بكى ذنبه**" أسفا وحزنا "**بقسوة قلب**"، أي مع قسوة قلبه الذي نشأت عن إلف البطنة وطول الغفلة حتى "**نهت**" تلك القسوة "**الدمع**" عن البروز من العين، "**فالبكاء**" حينئذ خرج عن حقيقته التي هي الحزن الذي يعتري القلب، فيحصل له من الهيبة والقلق المزعج ما يجري الدموع وينتج الرجوع، وصار ذلك البكاء كأنه "**مكاء**" أي تصويت وتصفير بجامع أن كلاً صوتٌ جرى على اللسان ولم يتأثر به القلب. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال:**

396 **وغَدا يعْتِبُ القَضاءَ ولا عُذْ ... رَ لِعَاصٍ فِيما يسُوق القَضاءُ**

يعني انه صار يلوم القضاء ويخاصمه أو يجد عليه في نفسه. يقال عتب الشيء إذا لامه، وعتب عليه إذا وجد عليه في نفسه. ذكره في القاموس. ومعنى عتب القضاء، أن يقول: ما أدري كيف قدر عليّ هذا، ولولا القضاء والقدر ما صدر مني كذا، ولا عذر لعاص يحتج به على الله تعالى حتى يسقط إثمه وتندفع ملامته فيما يسوق القضاء

والقدر من المعاصي، لأن الله تعالى لم يعذر الكفار بذلك حيث قالوا: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ لأن الله تعالى أجرى بمقتضى حكمته عادته الإلهية في هذا العالم على أسباب ومسببات تناط بتلك الأسباب وينسب وقوعها لها نظرا للصورة الوجودية وإن كان الكل في الحقيقة بقضائه وقدره، وأما محاجات موسى لآدم فليس في هذا العالم، بل في عالم البرزخ، وليس محل التكليف. وقال ابن حجر: الجواب الاحتجاج بالقدر إن كان قبل الوقوع في الذنب ليكون وسيلة للوقوع فيه فلا يجوز، وإن كان بعد الوقوع فيه وقبل أن يستوفي منه ما وجب عليه ليمنع بذلك مؤاخذته لم يجز أيضا، وإن كان ليمنع التعيير به فقط ساغ له ذلك، كقوله صلى الله عليه وسلم: <<فحج آدم موسى>>. انتهى. فاحتجاج آدم دفع للتعيير، وأما احتجاج عمر على أبي عبيدة، حين قال له في رجوعه عن الشام: أفرارا من قدر الله يا أمير المؤمنين، بقوله: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة لأوجعته ضربا. نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله. فالجواب عنه: إنه ليس من الاحتجاج بالقدر، وإنما هو بيان لأسرار ما جاءت به الشريعة المطهرة، لأن الشارع نهى عن دخول بلد الطاعون مع أنه إن قدر موته بذلك الطاعون لم ينفعه عدم الدخول، وإلا لم يضره ذلك، فبين عمر رضي الله عنه أن المسببات منوطة بأسبابها من غير نظر في عواقبها، وإن الله تعالى كما قدر الموت به على قوم قدر عدم الموت به على آخرين، فالامتناع من الدخول فرارا من قدر إلى قدر آخر. والدخول فيه تجاسر على ما لعله يكون فتنة للداخل، وأنه لو وقع به فربما نسب موته إلى فعله فحرم عليه خشية الفتنة. فإن قلت، والممتنع من الدخول لما نسب السلامة على فعله، قلت: هذا أخف لأن الأول ألقى بنفسه إلى التهلكة وهو منهي عنه في الكتاب والسنة، والثاني بمنزلة التداوي، والفرار من الهلاك، وهذا محمود. فإن قلت: لم جاز الفرار قبل الدخول لا بعده مع استوائهما في العلة المتقدمة. قلت: لا مساواة بينهما، لأنا لو جوزنا الفرار لأهل البلد لخرجوا وتركوا المرضى من غير حافظ ولا متعهد، وذلك يؤدي إلى هلاكهم غالبا، فاقتضت المصلحة العامة منع الناس من الخروج، وأما من لم يدخل فلا يترتب على عوده مفسدة فجاز. وذكر في الإحياء ما يوافق هذا الجواب، فقال: فإن

قلت ما فائدة الدعاء مع أن القضاء لا يرد، فاعلم أن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء ووجود الرحمة، كما أن الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء وليس من شرط الاعتراف بالقضاء ألا يحمل السلاح وقد قال تعالى: ﴿ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ فقدره الله وقدر سببه. انتهى نقله ابن حجر.

* **ثم قال الشيخ رضي الله عنه:**

397 **أوْثَقَتْهُ مِن الذنُوب ديُونٌ ... شَدَّدتْ في اقْتضائِها الغُرماءُ**

398 **ما له حيلَةٌ سوَى حِيلَةِ المُو ... ثَقِ إمَّا توسُّل أو دُعَاءُ**

أخبر، رحمه الله، أنه "**أوثقته**"، أي حبسته في الدنيا عن النهوض إلى مقام السالكين، وفي الآخرة عن اللحوق إلى المقام المقدس "**ديون**" أي حقوق وتبعات ناشئة عن تراكم الذنوب وكثرة التفريط في حقوق الله تعالى وحقوق عباده، "**شددت في اقتضائها**"، أي طلبها "**الغرماء**"، لأن حقوق الآدميين مبنية على التشاح، إلا أن يرضيهم الله عنه، فلذلك قال "**ما له حيلة**" أي طريق في التخلص من تلك الديون "**سوى حيلة الموثق**"، أي الأسير الذي لا يقدر على هرب ولا تخلص. وحيلة من هو كذلك تنحصر في شيئين، "**إما توسل**" إلى الله تعالى في خلاصه بما سبق له من عمل صالح وبشفاعة الشافعين، "**أو دعاء**" إليه في أن يرضى عنه خصماؤه ويسبل عليه ذيل عفوه ورضاه، وهذا من تواضعه وهضم نفسه. وقوله من الذنوب حال مقدم من ديون. وبالله التوفيق.

* **ثم قال رحمه الله:**

399 **راجِيًا أنْ تَعُودَ أعْمالُهُ السُّو ... ءُ بِغُفْرانِ الله وهْيَ هَبَاءُ**

400 **أوْ تَرى سيِّئَاتِه حَسَنَاتٍ ... فيُقَالُ اسْتحَالتْ الصَّهْباءُ**

قوله "**راجيا**"، حال من ضمير، أوثقته. وقال ابن حجر: هو حال من عاص،

وضمائره المذكورة، والأول أقرب، أي طامعا ومؤملا في "**أن تعود أعماله السوء**" أي القبيحة بسبب "**غفران الله**" مغفرة عامة لا تبقى له وصمة ذنب ولا تذر له قسوة قلب، حال كون تلك الأعمال. "**وهي هباء**" أي مثل الهباء المنثور في أنها لا وجود لها، إذ هو غبار يرى في شعاع الشمس إذا دخلت، ولا يدرك بمس ولا جس، "**أو ترى سيئاته**" مبدلة "**حسنات**" لدخوله في سلك قوله تعالى: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ** ﴾ "**فيقال**" عند رؤية ذلك: "**استحالت**" أي انقلبت "**الصهباء**" أي الخمرة من الحِرمة والنجاسة، إلى الحلية والطهارة، فتشبيه السيئات بالخمر والحسنات بالحل استعارة مصرحة، وإثبات الاستحالة التي هي من لوازم المشبه به تخييلية، قاله ابن حجر.

* **ثم قال رحمه الله:**

401 **كُـل أمْـر تُعْنى بـه تُقْلَبُ الأعْـ ـــيانُ فِـيهِ وتَعْجَــبُ البُــصَراءُ**

402 **رُبَّ عَـيْنٍ تفَلْـتَ في مائِها المِلْـ ـحِ فأضْحَى وهْو الفُراتُ الرَّواءُ**

هذا خطاب للممدوح، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي "**كل**" من "**تعنى به**" وتهتم بشأنه يطاوعك وينفعل لأمرك، "**فتقلب أعيانه**" من حالته التي كان عليها إلى الحالة التي أردتها "**فتعجب البصراء**" من ذلك القلب الخارق للعادة، فمن ذلك انشقاق القمر نصفين، وانهمار الماء من بين أصابعه حتى توضا أربعة عشر الفا، وهيجان السحاب بالأمطار بعد أن كانت السماء مثل الزجاجة، وتكثير الطعام القليل حتى تغذى ألف جياع من صاع شعير. وأنا قد استمسكت بحبل وداده وتوسلت إليه بمدحه وثنائه، فأرجو أن ينظر إليّ بعين الإقبال والعناية، فتعود سيئاتي حسنات، وأعمالي صالحات، ثم استدل على ما ذكر من قلب الأعيان له صلى الله عليه وسلم فقال "**رب**" للتنكير "**عين ماء**" أي عيون كثيرة "**تفلت**" أي بصقت "**في مائها الملح**" أي المالح الذي لا يساغ لأحد "**فأضحى**" ماؤها الملح، والحال أنه "**هو الفرات**"، أي

العذب السائغ للشاربين، أو كالنهر المسمى بالفرات الذي هو أحد الأنهار النازلة من الجنة، كما في الحديث. "**الرواء**"، بفتح الراء، أي الذي يحصل بقليله الري الكامل لشاربيه. والجملة من قوله "**وهو الفرات**" خبر "**أضحى**" على مذهب الأخفش، وتبعه ابن مالك تشبيها بالجملة الحالية. وأنكر ذلك الجمهور، وجعلوا الجملة حالية، وما ذكره الناظم في البيت الثاني، قال ابن حجر: لم ير لله سندا في انقلاب عين ماء عذبا، فضلا عن كثرته، قال ويحتمل أنه أشار بذلك إلى ما رواه أبو نعيم، أنه صلى الله عليه وسلم بصق في بير أريس، فلم يكن في المدينة أعذب منها. فوجود الأعذبية في هذه ببركة بصاقه صلى الله عليه وسلم بسببها. فنزل منزلة ماء ملح صار عذبا، ثم أطال في ذلك. ثم قال: ثم رأيت للحافظ السيوطي ذكر ذلك بلا سند فقال: وريقه صلى الله عليه وسلم يعذب الماء الملح انتهى. والأحاديث الضعيفة يعمل بها في مقام المدح وفضائل الأعمال، وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

403 **آهٍ مِمَّا جنيْت إن كَان يُغْني ... ألفُ من عظِيم ذنْبٍ وهَاءُ**

"**آه**" بمد الهمزة، كلمة توجع وتلهف تفيد التحسر والتندم، أي توجعي عظيم وتندمي زائد "**من**" أجل "**ما جنيت**" على نفسي من الذنوب وقبائح العيوب "**إن كان يغني**" هذا التوجع والتحسر شيئا. ولا شك أن التحسر على الندم يستلزم الندم الذي هو معظم التوبة، لقوله صلى الله عليه وسلم: <<الندم توبة>>، أي معظمها، كقوله: <<الحج عرفة>>، وإنما أتى بأن المفيدة للشك، لأن قبول التوبة ظني ويحتمل أن تكون أن هنا بمعنى إذ على حد قوله تعالى: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فلا تفيد الشك.

وقوله: "**إن كان يغني ألف وهاء**" أي مسماهما من التحسر. وقوله "**من عظم الذنب**" من إضافة الصفة إلى الموصوف، والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

404 **أرْتَجي التَّوْبَةَ النَّصُوحَ وفي القَلْـ ... ـبِ نِفَاقٌ وفي اللِّسَانِ رِيَاءُ**

ولما عرض بالتوبة في البيت السابق، أفصح بذلك هنا، فقال "**أرتجي**" أي أُأَمِّل التوبة، وهي الندم على الذنب من حيث أنه قبيح شرعا وموجب للمقت من الله عز وجل، لا من حيث عقوبة الدنيا مع الإقلاع عن المعصية بترك ملابسة فعلها من حيث الندم عليها، لا لغرض آخر، وعزم على أن لا يعود إليها ما عاش، والخروج عن كل مظلمة عصى بها فيقضي ما عصى بتركه فورا، ويؤدي ما أخذه ظلما إلى ربه ووارثه، هذا إن قدر، وإلا عزم عزما جازما أنه متى قدر على الرد فعل. والتوبة من كل ذنب واجبة إجماعا، وتصح من ذنب دون آخر، وتصح على الأصح، وإن سبقها توبة من ذلك الذنب ثم عاد إليه وإن تكرر ذلك، وإنما رجى "**التوبة النصوح**" لحسن ظنه بالله تعالى عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: <<لا يموتن أحدكم إلا وهو محسن الظن بالله تعالى>>. ولقوله تبارك وتعالى: <<أنا عند ظن عبدي بي فلا يظن بي إلا خيرا>>. وفي الخبر: <<خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير، حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله>>. وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر سوء الظن بالله وسوء الظن بعباد الله. وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يحلف بالله، قائلا: ما أحسن عبد ظنه بالله تعالى في شيء إلا أعطاه إياه عز وجل ذلك الشيء، لأن الخير كله بيده، فإذا أعطاه حسن ظنه به فقد أعطاه ما يظنه، لأن الذي حسن ظنه به هو الذي أراد أن يحققه له. انتهى. ذكره في القوت. والتوبة النصوح هي التي لا عود فيها إلى الذنب أبدا لوقوعها خالصة من كل شائبة من شوائب الحظوظ بأن تكون لله وحده، ولو كانت لدخول الجنة، ولكنه نقص عن درجة الكمال لأنها مشوبة بحظ النفس بخلاف الخالصة لوجهه ومحبّة فيه، والجملة في قوله "**وفي القلب نفاق**" حالية من فاعل "**أرتجي النوبة النصوح**" والحال أني متلبس بما ينافيها باطنا وظاهرا بنفاق الباطن، بتزينه العمل وإظهار خلاف ما يبطن، وهو ينافي التوبة النصوح، ثم أشار إلى ما ينافيها ظاهرا بقوله "**وفي اللسان رياء**" أي: وكذا في سائر الجوارح. فرياء اللسان بإظهار فصاحته وتحسين عبارته لجلب القلوب وطلب الحظوظ. ورياء الأركان بتحسين عملها نظرا للخلق وطلبها للمدح والثناء، وهو الشرك الأصغر. ومع التلبس بهذه الحالة لم

يترك رجاءه في التوبة وحسن الظن، فهو خليق بإجابة ما أمَّله وحصول ما ظنه لما تقدم، وهذا كله من تواضعه وهضمه للنفس وبالله التوفيق.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

405 **ومَتى يسْتقِيمُ قلْبي وللجِسْمِ اعْوِجاجُ من كبْرتِي وانْحِناءُ**

استقامة الباطن وصلاح القلب في أول مرة وقبل تمكنه في الهوى أسهل منه بعد توغله في الهوى وتمكن الهوى فيه. وفي الحكم: تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال، فمن تدارك نفسه في حالة الصغر كان أسهل عليه من تداركه بعد الكبر:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب

وكان يقال: من أتى عليه أربعون سنة، وهو العمر، وكان مقيما على ذنب، فجاوز الأربعين قبل توبته منه، لم يتب منه أبدا، إلا القليل من المتداركين. ولذلك تعجب الناظم من حال نفسه بقوله "**ومتى**" استفهام تعجبي "**يستقيم قلبي**" بل لا يبقى فيه نظر إلى ما يحجب عن الله تعالى من أهل ومال وجاه وحب مدح وثناء، والحال إني وصلت إلى حالة تدل على غلظ القلب وشدته وصعوبة خروجه عما جبل عليه من حب الهوى "**وللجسم اعوجاج من أجل كبرتي**" أي كبر سني ووهن عظمي "**وانحناء**" لقامتي، وهو من عطف الرديف أو الأخص، لأن الاعوجاج يعم الأعضاء، والانحناء يختص بالقامة.

* **وإنما أخر التوبة لهذا الأوان لما ذكره بقوله:**

406 **كنت في نوْمة الشَّبابِ فَما اسْتَيْقَظْتُ إلا ولمَّتِي شَمْطَاءُ**

يعني أنه كان في حال "**الشباب**" التي تكثر فيها الزلات، وتتوالى فيه الغفلات، "**فما استيقظ**" من غفلته وانتبه من رقدته إلا والشيب في لحيته، فشبه زمان الغفلة بحال النائم الذي لا ينتبه إلا بمحرك قوى. واللحية الشمطاء هي التي اختلط سوادها ببياضها، ولا ينافي هذا ما تقدم، لأن الشباب وإن كان محل الغفلة فهو قريب الرجوع والانزجار كالعود الأخضر، فإنه يسهل تقويمه كما تقدم، بخلاف زمن الشيخوخة، فإنه

وإن كان زمن الإمساك عن الهفوة والزلة، لكن صاحبه المرتكب للمعاصي إلى أن شاب يعسر عليه الرجوع وبالله التوفيق.

*** ولما انتبه من رقدته وأفاق من نومته جعل يبادر إلى اللحوق بالسابقين ومزاحمة المتقدمين، فقال:**

407 **وتَمَاديْتُ أقْتَفِي أثَر القَوْ م فطَالَتْ مَسَافَة واقْتِفاءُ**

التمادي على الشيء، هو الاستمرار والدءوب عليه، أي واستمررت ودمت "**أقتفي**"، أي أتبع "**أثر القوم**"، أي طريقهم، وأسلك مسالكهم. والمراد بالقوم، أهل السلوك والسير إلى الحضرة القدسية، والمراتب العالية، "**فطالت**" علي "**مسافة**" بيني وبينهم لبعد الدرجات التي فازوا بها، والمفاوز التي قطعوها، وطال علي أيضا "**اقتفاء**" أي اتّباع لأعمالهم وأخلاقهم لأنهم استغرقوا أوقاتهم واغتنموا ساعاتهم فلم يضيعوا شيئا منها في الغفلة والبطالة، فصبروا قليلا واستراحوا كثيرا. وفقنا الله لاتباع أحوالهم واللحوق بأعمالهم آمين.

*** ثم قال:**

408 **فَوَرا السَّائِرينَ وهْوَ أَمَامِي سُبُلٌ وعْرةٌ وأرْضٌ عَراءُ**

يعني لما طالت المسافة بينه وبينهم، تسبب عن ذلك أن يكون وراءهم، وقدامه "**سبل**"، أي طرق، "**وعرة**" أي صعبة، يَعِرُ سلوكها، ويصعب مرورها. "**وأرض عراء**" أي فضاء واسعة، يعني: أن القوم كلفوا نفوسهم من الأعمال الشاقة والتخلق بالأخلاق الطيبة والأحوال السنية، ما أوجب لغيرهم عدم اللحوق بهم، فكأنهم قطعوا بذلك عقبات ومفاوز يصعب قطعها على من تخلف عنهم إلا من سهل الله له ذلك فيقطعها في طرفة عين وما ذلك على الله بعزيز، "**فَوَرا**" ظرف، قصَّره للضرورة، وهو خبر مقدم، و"**سبل وعرة**" مبتدأ و"**السائرين**" جمع سائر مضاف "**وهو**" مبتدأ يعود على ورا و"**أمامي**" خبره، والجملة معترضة بين المبتدأ والخبر، لزيادة التأسف والتحسر، والله أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

409 **حمِـد المُدْلجُـونَ غِـبَّ سُـراهُمْ وكَفَـى مَـنْ تخَلَّـفَ الإبْطـاءُ**

المدلج هو الذي يسير الليل كله أو أكثره و"**غب**" الشيء آخره، يعني أن أولئك القوم الذين تقدموا أمامي وقطعوا المسافة حتى وصلوا إلى محبوبهم، كانوا يحيون الليل كله أو أكثره، فأدلجوا على مهلهم وظفروا برضى محبوبهم، فقد حمدوا عاقبة سراهم لمفوزهم برضى الله تعالى والاطلاع على حقائق معرفته والتمتع بشهوده، وهذا مقتبس من قولهم "عند الصباح يحمد القوم السرى" "**وكفى من تخلف عنهم**" في سيرهم "**الإبطاء**" أي التأني في السير المفوت لإدراك منازلهم واللحوق بمقامهم، وفي هذا غاية التحسر والتألم بذكر حالهم التي حمدوا عقباها، وفاتته لعجزه عن إدراك ما وصلوا إليه واشتغاله بما هو عليه.

*** لكنه يطلب اللحوق بهم في كل وقت فيمنعه من ذلك حرف التسويف، فلذلك قال:**

410 **رحلـة لـم يـزل يفندنـي الـصيـ ـف إذا مـا نـويْـتها والـشتَـاء**

أي هذه "**رحلة**" عظيمة رحلوها هؤلاء القوم من قطع مواطن الشهوات وبواطن الشبهات وقبائح الإرادات، وقد عز علي أن أقتفيهم فيها لأني "**لم يزل يفندني**" أي يكذبني زمان "**الصيف إذا ما**" زائدة "**نويتها والشتاء**" كذلك فإذا جاء الشتاء كثر البرد والثلوج فيعسر علي السير فيه، فأقول إذا جاء الصيف أجد في السير وأعزم على الرحيل، فأؤخر السير إليه، وإذا جاء الصيف كثر فيه الحر واشتد فيه العطش وقصر فيه الليل فيمنعني من الصيام والقيام، فأقول: إذا جاء الشتاء جددت السير ونويت الرحيل، لأن الأعمال تتيسر فيه أكثر لقصر النهار للصيام، وطول الليل للقيام. ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم: <<الشتاء ربيع المؤمن طال ليله فقامه، وقصر نهاره فصامه>>. صححه ابن خزيمة، ويشهد له حديث: مرحبا بالشتاء تنزل فيه الرحمة، أما ليله فطويل للقائم، وأما نهاره فقصير للصائم، لم ينزل عذابي قط من السماء إلا عند انسلاخ

الشتاء. انتهى. وبالله التوفيق.

* **ثم قال رضي الله عنه:** (ص **547**)

411 **يتَّقِي حُرَّ وجْهِي الحرّ والبَرْ دُ وقَدْ عَزَّ مِنْ لَظَى الاتْقِاءُ**

أي إنما تخلفت عن القوم وفندني الصيف والشتاء، لعدم صبري على شد الدهماء لأنه "**يتقي**" أي يخاف ويحذر "**حُر وجهي**" بضم الحاء، أي وسطه، أو ما يبدوا منه، "**الحر والبرد**"، خوفا من مشقتهما، وهو كناية عن مشقة العبادة. والحال أنه "**قد عز**"، أي صعب علي "**من لظى**"، أي جهنم، متعلق بقوله "**الاتقاء**"، لأني ملتبس بما يئول إليها، إلا أن يتغمدني الله برحمته ويتفضل علي بنعمته.

* **ولأجل هذا رتب عليه قوله:**

412 **ضِقْتُ ذَرْعًا ممَّا جنيْتُ فيَوْمِي قمْطَرِيرُ وليْلَتِي درْعَاءُ**

أي ضعفت قوتي من أجل ما جنيت فلا طاقة لي على حمله، ولم أجد من يخلصني من ثقله. ف"**ذرعا**" تمييز محول عن الفاعل، أي ضعف ذرعي، أي طاقتي، كقولهم: ضاقت يده. وبإزائه رحبَ ذرعه بكذا، إذا كان مطيقا له، وذلك أن طويل الذراع ينال ما لا ينال قصير الذراع. ومن أجل ما تحملته. "**فيومي قمطرير**"، أي شديد "**وليلتي درعاء**" بالمهملة أي مظلمة كناية عن شدة ما يلاقي فيها، والليلة الدرعاء هي التي يطلع قمرها عند الفجر، يقال ليلة درعاء وهي التي يطلع قمرها عند الفجر. ويقال درع، بالضم، وكصرد، التي تلي البيض لاسوداد أوائلها وابيضاض سائرها. قاله في القاموس. فالليلة الدرعاء غير الليالي الدُّرع، فليست جمعا لذلك، ومراده أن الضيق ملازم له ليلا ونهارا لا ينفك عنه في واحد منهما.

* **ثم رجع إلى مقام الرجاء فخفف عنه بعض التخفيف فقال:**

413 **وَتَذَكَّرْتُ رحْمَةَ الله فَالبِشْـ ـرُ لِوجْهِي أنَّى أنْتحِي تلْقَاءُ**

أي وبعد ما ضاق ذرعي وضعفت حيلتي تذكرت رحمة الله أي سعتها، تمسكا بقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، وبقوله صلى الله عليه وسلم: <<إن الله

كتب كتابا فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي>>. أي مظاهر الرحمة غلبت على مظاهر الغضب، وهذه العندية عندية شرف ومكانة، لا مكان، تعالى الله عن ذلك. فلما تذكرت ذلك "**فالبشر**" أي الفرح والسرور، وهو مبتدأ. وقوله "**لوجهي**" متعلق بالخبر وهو "**تلقاء**" أي فالبشر تلقاء وجهي، أي مقابل لوجهي "**أَنَّى**" أي في أي مكان "**أنتحي**" أي أتوجه لا يفارقني في جميع الأمكنة، مستشعرا لسعة الرحمة ومعولا عليها مع نظري إلى قول الصادق المصدوق، عن ربه عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، فلا يظن بي إلا خيرا.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

414 **فَـأَلَحَّ الـرَّجَاءُ والخـوْفُ بـالقَلْـ ـبِ وللخَـوْفِ والـرَّجَاء إحْفَـاءُ**

الإلحاح في الشيء هو المبالغة فيه، وألح في الدعاء إذا بالغ فيه واجتهد، إن الله يحب الملحين في الدعاء، أي المبالغين فيه، والمراد به هنا شدة طلب الرجاء والخوف للقلب أي فبسبب تذكري ما جنيت المقتضي لمزيد الخوف، ولسعة الرحمة المقتضي لسعة الرجاء إلخ. أي قام واشتد "**الرجاء والخوف بالقلب**" فصار على حد سواء، وهذا هو المطلوب من العبد في حالة الصحة، وقيل يغلب الرجاء لئلا يغلب اليأس من رحمة الله. وقيل يغلب الخوف لئلا يأمن من مكر الله. ﴿ **فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَسِرُونَ** ﴾. وأما المريض فالمطلوب منه غلبة الرجاء لقوله صلى الله عليه وسلم: <<لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى>>. فيظن أن الله تعالى يغفر له ويرحمه. "**وللخوف والرجاء**" إذا تواردا على القلب "**إحفاء**"، أي استقصاء ومنازعة لتضاد مقتضاهما، إذ مقتضى الخوف قبض النفس وحصرها عن الانبساط في الشهوات واللذات كما هو شأن الزهاد. ومقتضى الرجاء بسط النفس وانشراحها، لأنَّ من لازِمه استحضارُ سعة الرحمة وغفران الذنوب، وإذا تضادّ مقتضاهما لزم أن كلا يستقصي في مقتضاه ضد ما يستقصيه الآخر، لكن تقرر أن الصحيح ينبغي أن يستوي عنده المقتضيان لئلا يغلب أحدهما فيخشى منه المحذور السابق.

* **ومن ثم نها عن تغليب جانب الخوف لئلا يفضي إلى اليأس ، فقال:**

415 **صَاحِ لا تأسَ إنْ ضعُفْتَ عنِ الطَّـ ـاعَـةِ واسـتَأثَرَت بِهـا الأقْـوياءُ**

416 **إنَّ لله رحْـمَـةً وأحَـقُّ الـ ـنَّاسِ مـنْهُ بالـرحْمةِ الـضُّعَفاءُ**

"**صاح**" مرخم بحذف آخره، أي يا صاحبي، والمراد به نفسه، فهو تجريد، أي يا نفسي "**لا تيأس**" من رحمة الله تعالى "**إن ضعفت عن الطاعة**" أي عن دوامها، لضعف الهمة وغلبة البطالة وإيثار الراحة على الاستعداد للقيامة. وقد "**استأثرت**" أي اختصت "**بها الأقوياء**" بالهمة والنشاط وقهر النفس وتجريعها المكروهات حتى تدربت عليها فصارت عندها من ألذ مألوفاتها وأعظم مشتهياتها. "**إن**" تعليل للنهي، أي لأجل أن "**لله رحمة**" واسعة عظيمة ادخرها لبعض عباده تعم القوي والضعيف والشريف والوضيع. "**وأحق الناس منه**" متعلق بقوله "**بالرحمة بالضعفاء**" أي لا يعولون على أعمالهم ولا يغترون بأحوالهم مع قيامهم بما لا بد منه وإخلاصهم لله تعالى في جميع أفعالهم فهم أقوى نية في عبادة الله تعالى، وابعد عن الرياء، فربما حصل لهم بسبب ذلك نفحة سبقوا بها الأقوياء. وفي الحديث القدسي: <<أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي>>. أي لأن مطلوبهم رضاي، ومعتقدهم أن لا عمل لهم ومن هذا ما رءاه صلى الله عليه وسلم في منامه في شأن خلافة أبي بكر، فقال، بعد كلام: فنزع ذَنوبا أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له ضعفه. فهو ليس ضعف يقين ولا عمل، وإنما هو ضعف انكسار وافتقار. وفي الحديث: <<إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم>>. وقال في الحكم: معصية أورثت ذلا وافتقارا، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا. انتهى.

* **ثم استدل على ذلك بمثال محسوس، فقال:**

417 **فابْـقَ في العُـرْجِ عنْد منْقلَبِ الذَّوْ دِ فَفِـي العَـوْدِ تـسْبقُ العـرْجَاءُ**

أي فإن الإبل إذا سرحت إلى الرعاية تقدمت الأقوياء منها وتأخرت العرج، فإذا رجعت إلى ربها تقدمت العرج إلى سيدها وفازت بالوصول إليه قبل الأقوياء. فبتأخرها

أوجب لها السبق إلى ربها، فكذلك تأخرك عن كثير من الطاعات بما أوجب لك سبق المكثر منها، لأنك قد يصحبك من الذل والافتقار والإخلاص ما يخلف تأخرك، بخلاف المكثر فقد يصحبه من العجب والافتخار ما يوجب تأخره ويبطل سعيه. وكذا قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: انكسار العاصي من صولة المطيع. وكان سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه كثير الرجاء لعباد الله، الغالب عليه شهود وسع الرحمة، وكان يكرم الناس على نحو رتبتهم عند الله تعالى حتى أنه ربما دخل عليه مطيع فلا يهتم به وربما دخل عليه عاص فأكرمه، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكثر بعمله ناظرا لفعله، وذلك العاصي دخل عليه بكسره معاصيه وذلة مخالفته. وقد تقدم قول صاحب الحكم: معصية أورثت ذلا وافتقارا، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا. قال سيدي محمد بن عباد رضي الله عنه: الذل والافتقار من أوصاف العبودية ، والعز والاستكبار مناقضان لها ، لأنها من صفات الربوبية، ولا خير في الطاعات إذا لزم عنها شيء مما يناقض صفات العبودية، لأنها تحبطها وتبطلها، كما لا مبالات بالمعصية إذا لازمتها صفات العبودية، لأنها أيضا تمحوها وتزيلها. انتهى. ثم قال، بعد أن ذكر حكاية الغلام مع أمه، الذي كان مسرفا على نفسه. ومن المعنى الآخر، ما روي أن رجلا من بني إسرائيل أتى عابدا من بني إسرائيل فوطئ على عنقه وهو ساجد، فقال له العابد: ارفع فوالله لا يغفر الله لك، فأوحى الله عز وجل: أيها المتألئ علي، بل لا يغفر الله لك. انتهى. ثم ذكر حكاية الخليع مع العابد الذي انتقلت الغمامة عنه إلى الخليع. قال ابن حجر: واعلم أنه لم يجعل ذات المعصية خير من ذات الطاعة، بل لا يتوهم ذلك من كلامه، وإنما الذي أفاده أن المعصية قد يصحبها وصف خير من الوصف الذي صحب الطاعة، فيكون ذلك مقتضيا لعدم المؤاخذة بوصمة تلك، وهذا مقتضيا لسقوط هذه وعدم الاعتداد بها، وكذلك الناظم هنا وفيما قبل يتنزل على هذا فتنبه. انتهى. فقول الناظم "**فابق في العرج**" في الضعفاء المشبهين بالإبل العرج، جمع أعرج وهو من به داء يمنعه من المشي مستقيما "**عند منقلب الذود**" أي عند رجوعه إلى ربه. والذود اسم جمع لا واحد له من لفظه، كالغنم، وهو جماعة الإبل، قيل ثلاثة إلى عشرة، أو إلى خمسة عشر أو إلى عشرين أو ثلاثين، وقيل ما بين الثنتين إلى التسع، وهو مؤنث،

قاله في القاموس "**ففي العود تسبق العرجاء**" إلى ربها فتفوز بمأمولها، فكن أنت مثلها إذا تأخرت عن الطاعة، ولازم الذلة والانكسار.

* **ولا تجمع بين الضعف عن العبادة والحسد عليها لأهلها، فلذلك قال رضي الله عنه:**

418 **لا تقُلْ حاسِدا لغَيْركَ هَذا   أثْمَرتْ نخْلُهُ ونخْلِي عَفَاءُ**

أي "**لا تقل**" حال كونك "**حاسدا لغيرك**" الذي أكثر من العبادة متمنيا زوال نعمة التوفيق عند "**هذا أثمرت نخله**" أي كثرت أعماله الصالحة. شبه الأعمال الصالحة بالنخل على وجه الاستعارة التصريحية، وذكر الأثمار ترشيح. وغنما شبهت بالنخل لأن النخلة من فضلة طينة آدم عليه السلام، فهي أفضل الشجر، وهي أشبه شيء بالمؤمن لأنها لا يسقط منها شيء، كما قال عليه السلام. وكذلك المؤمن الكامل، "**ونخلي عفاء**" بالفتح، أي خالية من الثمار بسبب ضعفي عنها لأنك إذا قلت ذلك كنت معترضا على ربك في حكمه ولذلك عظمت جريمة الحسد، لأنه كفر لنعمة المنعم واعتراض على حكمه الحكيم، وقد ورد أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب الرقيق وصاحبه مذموم طبعا وشرعا، والمذموم منه متابعته والعمل بمقتضاه وأما السلامة منه بالكلية فنادرة جدا، ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: <<ثلاثة لم تسلم منهم هذه الأمة، الحسد والظن والطيرة إلا أنبئكم بالمخرج منها>>. قالوا: أخبرنا يا رسول الله، قال: <<إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيرت فامض>>. ذكره في الجامع. والمعنى: لا تحقق الظن ولا تعمل بمقتضاه، بل توقف عن القطع به والعمل بموجبه، وإن وجدت في قلبك شيئا من الحسد لأحد فلا تعمل به، لأن الحسد واقع في النفس لأنها مجبولة عليه فلذلك عذرت فيه، فإذا استرسلت فيه بمقالها وفعالها كانت باغية، وإذا تطيرت فامض لمقصدك ولا ترجع كما كانت الجاهلية تفعل فإن ذلك ليس له تأثير في جلب نفع ولا نفع ولا دفع ضر. قاله المنوي. وفي كتاب الأربعين، للغزالي، لعل نفسك لا تطاوعك على التسوية بين عدوك وصديقك، بل تكره مساءة الصديق دون العدو، وتحب نعمة

الصديق دون العدو ولست مكلفا بما لا تطيق فإن لم تقدر على ذلك فتخلص من الإثم بأمرين، أحدهما أن لا تظهر الحسد بلسانك وجوارحك وأعمالك الاختيارية، بل تخالف موجبها، والثاني أن تكره من نفسك حبها وزوال نعمة الله تعالى عن عبد من عباد الله، فإذا اقترنت الكراهة على باعث الدين بحب زوال النعمة الذي اقتضاه الطبع اندفع عنك الإثم وليس عليك تغير الطبع، فإن ذلك لا يقدر عليه في أكثر الأحوال. وعلامة الكراهة أن تكون بحيث لو قدرت على إزالة نعمة لم تقدر على الإزالة مع حبك لها، ولو قدرت على معونته في دوام نعمة أو في زيادتها فعلت مع كراهتك لذلك، فإن كنت كذلك فلا إثم عليك فيما يتقاضاه طبعك، فإن الطبع إنما يصير مقموعا في حق المستهزئين بالله الذي انقطع نظره عن الدنيا وعن الخلق. انتهى. والحسد المذموم هو ما تقدم تفسيره. وأما الغبطة فمطلوبة، وهي ان تتمنى من النعم والخيرات ما لغيرك مع بقائها له، لقوله صلى الله عليه وسلم: <<لا حسد إلا في اثنتين>>. الحديث.

*** ثم أمرك الشيخ بالنهوض إلى ما تقدر عليه من أعمال البر ولا تتمنى مقام الصالحين وأنت مع البطالين، فقال:**

419 **وأْتِ بالمُسْتَطاعِ مِنْ عَمَلِ البِـ ـرِّ فقد يُسْقِطُ الثِّمارَ الإِثَاءُ**

أي وافعل ما استطعت "**من عمل البر**" كصلاة نافلة وصدقة وصوم وحج وجهاد وذكر وتلاوة قرآن وصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأحب الأعمال إلى الله ما دام عليه صاحبه وإن قَلَّ، وعمل قليل في سُنة، خير من عمل كثير في بدعة. وما قاله الناظم هو مقتضى قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ المبين لقوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ وقيل ناسخ له، لأنه فسر: بأن يُطاع ولا يُعصى، ويُذكر ولا يُنسى، ويُشكر فلا يكفر، وهذا متعذر إلا على الخواص. والعمل القليل إذا صحبه الإخلاص والحضور والتبري من الحول والقوة أنتج ما لا ينتجه أمثال الجبال من الأعمال التي لم يصحبها إخلاص ولا حضور ودخلها العجب والرياء، ولهذا أشار بقوله: "**فقد يسقط الثمار الإثاء**" أي فقد يسقط الثمار الكثيرة النخل الصغير إذا

خلصت أرضه وازداد ريه وخصبه، ولا يسقط ذلك الكبار من النخل، فكذلك أنت فقد ينتج عملك القليل المصحوب بالخضوع والافتقار، ودوام الذلة والانكسار، ما لا ينتجه عمل غيرك الكثير الذي صحبته الدعوى والعُجب. وفي كلامه هنا وفيما مر تمثيل وتذييل وهو من أرق فنون البلاغة وألطف طريق البراعة. قاله ابن حجر. ثم قال: وتفسير الإثاء بالنخل الصغار وقع في كلام الشارح ولم يبين ضبطه أهو بكسر الهمزة أو فتحها ولأنه بالمثناة أو المثلثة. ولم أر في القاموس هذا الذي ذكره الشارح وإنما الذي فيه: الإثاء بالفوقية ككتاب، تفسيره بما يخرج من الشجر والثمار. وفي الإثاء كالإناء بالمثلثة تفسيره بالحجارة والماشية، وهذا يمكن تنزيل كلام الناظم عليه، أي إن النخلة إذا طالت وصعب عليك رقيها قد يمكنك أن تسقط بعض ثمارها بضربة حجر. انتهى. وهو بعيد واللغة لا تتقيد بالقاموس. فما قاله الشارح أقرب للمعنى.

تنبيه: قد اشتملت هذه الأبيات الخمسة على وصية عظيمة تتضمن شكر النعم وعدم احتقار ما أنعم الله عليه، فإن المؤمن لا يخلو من نعم كثيرة وإن فاته بعضها أو أكثرها، فقد حصل له منها ما لا يقوم بشكره فليتنبه له العاقل أن يسلب منه. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى ما هو فوقكم. فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم>>. فقد حمله بعض المحققين على عمومه في أمور الدنيا والدين. وقد شرح هذا الحديث المبارك سيدي محمد بن عباد رضي الله عنه في وصية له، ونقلها الشيخ زروق رضي الله عنه بنصها، في عُدة المريد، فقال: وصية يحتاج إليها كل مريد طالب المزيد من العزيز الحميد، الحمد لله، من أراد الاستقامة على سبيل الحق في دينه والتحصن من عدوه، والتخلص من وسواس النفوس وضبطها، والحصول على شرح الصدر فليصحح الأدب مع الله ظاهرا وباطنا في جميع أحواله، فذلك هو الشكر الموجب للمزيد، وينبني ذلك على أصلين، معرفته لعظمة ربه وكبريائه واتصافه بالصفات العلية، والنعوت السنية، وعلمه بخسة نفسه وضعفها وعيوبها وآفاتها، فإذا أحاط علمه بهذين الأصلين نظر إلى نفسه وإلى ما أجرى الحق سبحانه عليه من الأفعال والأقوال، وإلى ما صرفه فيه من الأحوال فسيرى حينئذ من لطف الله به ورحمته وعنايته وفضله ما لا طمع لأحد في إدراكه وفهمه إلا به،

فيوجب له ذلك محبة وحياء يحملانه على الشكر لله تعالى وشهود النعم منه وحسن الأدب معه، فإذا رءا نفسه على طاعته فرح بمنة الله عليه من غير استحقاق ولا وسيلة. وكم من شخص لم يعطَها ويستعمل حينئذ الأدب في تحسينها ونفي الآفات عنها وإخلاصه لربه فيها، فيكون حينئذ بهذه الرؤية والأدب أفضل ممن استغرق أوقاته في الطاعات وأنواع العبادات مع فقدانه ذلك، وكذلك إن رءا نفسه بحال نعمة من صحة بدن ونيل رزق وإن قل فليفرح بذلك ويشكر ربه لعلمه أنه لا يستأهل ذلك ولا يليق به ويستعمل حينئذ حسن الأدب في الاستعانة بهما على طاعة الله عز وجل ولا يستعملها في معصية. وكم من شخص مبتلًى بمرض أو فقر يتمنى ذلك ولا يجده وكذلك إن ابتلي بفقر أو أصيب بمرض أو مصيبة من مصائب الدنيا فليفرح بذلك لأنه سلك به مسلك الأولياء والصالحين، وليفرح بمنة الله عز وجل في أن لم تكن أكثر من ذلك كما ابتلي به طوائف من الناس. وتستعمل حسن الأدب في الصبر والرضى ونفي الجزع والشكوى والدعاء إلى الله تعالى في سعة الرزق وكشف الضر وسؤال العافية في الدين والدنيا فإن أمكنه التسبب في اكتساب ما يعينه والتطبب لبرئه فليفعل ذلك فهو من حسن الأدب، وليشكر الله على تمكينه من ذلك وإذنه له فيه. وكذلك إن ابتلي بذنب أو غفلة أو سوء أدب فلا يغفل عن اللطف وخفي المنة بذلك، فقد يكون سببا لخوفه ونفي عجبه والتجائه لربه كما ورد في الخبر في قوله عليه السلام: <<لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشر من ذلك، العجب العجب>>. وكم من شخص مرتكب للكبائر مستحل لها فرح بها ويستعمل حينئذ حسن الأدب في المبادرة إلى التوبة ويذكر الخوف وكثرة الاستغفار والدعاء والبكاء. وكذلك إن كان على مذهب إمام من الأئمة مجمع على إمامته وهو يجد في الحال من يأخذ عنه ممن تفقه فيه من أهل الدين وقد أخذه عن شيوخِه، وشيوخُه عن شيوخه إلى أن ينتهوا إلى ذلك الإمام فليفرح بذلك وليشكر الله عليه. وكم من شخص قلد مبتدعا أو المشرع هو من تلقاء نفسه فهلك بذلك، وليستعمل حينئذ حسن الأدب معه في توقيره واتباعه في كل ما ورد وصدر إلا إن رءا في اتباع غيره من الأئمة المجمع على إمامتهم ما يقتضي احتياطا إن قوي عليه، أو يقتضي رخصة إن احتاج إليها ولم يكن في مذهب إمامه إنكار على من فعل ذلك

فليفعله ولا يسقطه ذلك عن درجة الأدب. وكذلك الظفر بشيخ من شيوخ الصوفية سالك سبيل السنة فليفرح بذلك وليستعمل حينئذ حسن الأدب في القيام بحسن صحبته بالانقياد لأوامره وترك مخالفته وأن يكتمه شيئا من أسراره، وأن لا ينتقل عنه إلى غيره. وكذلك إن كان له صاحب أخ يسلم معه دينه ويجد معه مرافقة في دنياه ويدخل في ذلك الزوج والزوجة، فليفرح بذلك وليشكر الله تعالى عليه. وكم من شخص مبتلى بخس معه دينه ودنياه ويستعمل حينئذ حسن الأدب في القيام بحسن صحبته والوفاء بإخوته. وكذلك إن أقيم في سبب يجد فيه كفايته وغناه عن الناس فليفرح بذلك وليشكر الله عليه. وكم من شخص مبتلى بالالتجاء إلى الناس أو عاجز عن التسبب غير راض ولا صابر وليستعمل حينئذ حسن الأدب في نصح المسلمين بذلك وترك الغش والاجتناب لجميع مناهي الشرع التي يتعرض لها بسبب ذلك. وإن كان في عمل من أعمال البر كتعليم قرءان أو غيره فليحتسب مع ذلك ثوابه وليترفق في تعليمه ما أمكنه ولا يجفوا على متعلم ولا يظلمه ويراقب ربه في ذلك. وكذلك إن سمع مثل هذه النصيحة أو رءاها مكتوبة فليشكر ربه على ذلك وليفرح بها. وكم من شخص مصحوب بالغفلة والسهو أو مستنصح ولا يجد ناصحا، وليستعمل حينئذ حسن الأدب في امتثالها، والوقوف على حدوها وبذلها لأهلها. وملاك ذلك كله صدق الافتقار إلى الله تعالى، والضراعة إليه في أن يوفقه لذلك ويعينه عليه، فمن أعطي ذلك فليفرح بذلك وليشكر الله تعالى. وكم من شخص مبتلى برؤية نفسه واعتماده على عقله وحدسه وليستعمل حينئذ حسن الأدب في اتهام نفسه في تصحيح الافتقار والضراعة الذين ذكرناهما، وهذا الذي ذكرناه من أوله إلى آخره داخل في معنى ما ورد في الخبر الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم: <<انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم. فهذا أجدر ألا يزدروا نعمة الله عليكم>> وبالله التوفيق. انتهى من الرسائل الصغرى بواسطة شرح النصيحة للإمام ابن زكري.

*** ولما كان أقرب الطرق إلى الله سبحانه، وأعظم الوسائل إليه، محبة حبيبه صلى الله عليه وسلم، أمر الشيخ بذلك، فقال:**

420 وبحُـب النَّبـيِّ فابْـغِ رضَـا اللـ ـه فَفـي حـبِّه الرِّضـا والحِـباءُ

قد تكلم العلماء والعارفون في المحبة، واختلفوا فيها اختلافا كثيرا، وليس اختلافهم في حقيقتها، بل في أحوالها وثمراتها، إذ حقيقتها من المعلومات التي لا تحد كما أطبق عليه المحققون وإنما يعرفها من قامت به وجْدانيا لا يمكن التعبير به، ومن ثم قال صاحب مدارج السالكين: هي لا تحد بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء، وإنما تكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها. فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الشريطة، وتنوعت بها العبارات، وكثرت الإشارات، بحسب الإدراك والمقام والحال، وقد وضعوا لها حرفين مناسبين لها غاية المناسبة، **الحاء**، التي هي من أقصا الحلق، **والباء**، الشفهية التي هي نهايته، **فللحاء** الابتداء **وللباء** الانتهاء، وهذا شان المحبة وتعلقها بالمحبوب، فإن ابتداءها منه وانتهاءها إليه، وأعطوا الحب، الضم الذي هو أشد الحركات وأقواها ومطابقة لشدة حركة مسماه وقوتها، وأعطوا الحِبّ، وهو المحبوب الكسر لخفتها، وخفة المحبوب وذكره على القرب والعيان، وهذه مناسبة عجيبة بين الألفاظ والمعاني. وأما اشتقاقه فقيل من اللزوم والثبات، يقال أحل البعير إذا عقله ولا يتركه يقوم، فكان المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه، وقيل مأخوذ من حبة القلب، وهو ما به قوامه، فسمي الحب حبا باسم محله. وقيل غير ذلك. وأما أقاويل الشيوخ في العبارة عنها، فقال بعضهم: الميل الدائم بالقلب الهائم. وقيل: إيثار المحبوب على كل مصحوب، وقيل: موافقة الحبيب، في المشهد والمغيب، وقيل محو المحب لصفاته، وإثبات المحبوب لذاته، وقيل مواطأت القلب لمرادات الرب، وقيل خوف ترك الحرمة، مع إقامة الخدمة. وقال أبو يزيد: المحبة استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك. وقال سهل بن عبد الله: المحبة معانقة الطاعة، ومباينة المخالفة. واعلم أن سبب المحبة إما الإحسان أو الجمال. وقد اجتمعت هذه الخصلتان في سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه المبالغة والكمال، أما الإحسان فاعلم أنه لا إحسان يشبه أو يقارب إحسانه صلى الله عليه وسلم، إذ كل نعمة واصلة إلينا فإنما هي على

يديه وبواسطته صلى الله عليه وسلم، وهو باب الله الأعظم، لا يمكن الدخول إلى حضرة الله إلا من بابه، فوجبت خدمته ومحبته على التمام. وأما الجمال فقد أعطي صلى الله عليه وسلم من الحسن والبهاء والجمال ما تكل دونه الألسن ويقصر عنه الوصف. وقد تقدم شرح نبذة من أخلاقه صلى الله عليه وسلم الظاهرة والباطنة، فمن اطلع على ذلك اكتسب محبته صلى الله عليه وسلم الخاصة التي هي سبب رضى الله سبحانه ومحبته كما قال الشيخ "**وبحب النبي**" صلى الله عليه وسلم "**فابغ**" أي اطلب "**رضى الله**" لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم: <<لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وأهله وولده والناس أجمعين>>. "**ففي حبه**" صلى الله عليه وسلم "**الرضى**" من الله تعالى الذي هو غاية المطالب ومنتهى المقاصد والمئارب. "**والحباء**" أي العطاء العظيم منه سبحانه لجميع الخيرات الدنوية والأخروية كالتوفيق للأعمال الصالحة والفوز بالمقامات العلية، فمحبته صلى الله عليه وسلم هي أصل الأصول، والوسيلة العظمى للفوز بالقرب والوصول،

وأنـــــت بـــــاب الله أي امـــــرئ   أتـــــى مـــــن غيـــــرك لا يـــــدخل

ولو لم يكن في ثوابها إلا الاتصال به صلى الله عليه وسلم والكون معه في دار البقاء ومشاهدة ذاته الشريفة وزيارته متى شاء لكان كافيا. لما روى أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: <<وما أعددت لها>>؟ قال: والله ما أعددت لها من كبير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. فقال: <<أنت مع من أحببت>>. وعن صفوان بن قدامة رضي الله عنه قال: هاجرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته فقلت: يا رسول الله ناولني يدك أبايعك، فناولني يده، فقلت: يا رسول الله أنا أحبك، قال: <<المرء مع من أحب>>. وروي أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من أهلي ومالي، وإني لأذكرك فما أصبر عنك حتى أجيء لأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك فعرفت انك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلتها لا

أراك، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الآية. ومن أراد الوقوف على أخبار السلف الصالح في محبته صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وتوقيره فليطالع الشفا، ففيه الغنية والشفا، نسئل الله سبحانه بمنه وكرمه أن يمن علينا بمحبته ومرافقته في دار الكرامة مع الأحبة والإخوان أجمعين يا أرحم الراحمين.

*** ثم رجع الشيخ إلى الضراعة وإظهار المسكنة والضعف وإبداء التحسر والتحزن والاستغاثة بمن لا يخيب المستغيثين به، فقال:**

421 **يا نَبِيَّ الهُدى استِغاثَةُ ملْهُوفٍ أضـرَّت بحَالِـهِ الحَـوْبَاءُ**

في تخصيص هذا الاسم بالدعاء والاستغاثة، إشعار بطلب الهداية الخاصة، وهي الاستقامة على الطريق الجادة التي لا يصحبها انحراف ولا ميل إلى الممات. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ أي للطريق التي هي أقوم بحيث لا يكون فيها انحراف ولا اعوجاج، وكونه صلى الله عليه وسلم "**نبي الهدى**" معلوم بالضرورة، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ والهداية تطلق على البيان والإرشاد. ومنه الآية المتقدمة، وتطلق على إيصال الهداية للقلب، ومنه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾. وهما حاصلان للنبي صلى الله عليه وسلم، فالأولى عامة، والثانية خاصة بالمؤمنين، وإنما أضيف صلى الله عليه وسلم إلى الهدى لمزيد اختصاص بها على غيره من الأنبياء عليهم السلام، إذ حصل على يديه صلى الله عليه وسلم في الزمن اليسير من الهداية ما لم يحصل لغيره في السنين المتطاولة. وقوله "استغاثةُ" مرفوع على الخبرية أي مسئولي "**استغاثة**"، وهو نداء من يخلص من شدة أو يخففها، أو منصوب على المفعولية المطلقة، أي أستغيث بك استغاثة "**ملهوف**" أي مضطر محتاج إلى من ينقذه من كل مكروه قد "**أضرت بحاله الحوباء**"، أي الحاجة والمسكنة لقلة عمله وتقواه، وكثرة

ذنوبه وغلبة هواه، مع زيادة دعواه لمقام المحبة والإخلاص.

* **وحاله يامر بخلاف ذلك فلذا قال:**

422 **يَدَّعِي الحُبَّ وهْو يَأمُر بالسُّو ءِ ومَنْ لِي أنْ تُصَدِّقَ الرُّغَبَاءُ**

أي "**يدعي**" أنه موصوف ب"**الحب**" لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، "**وهو**"، أي والحال أنه يصدر منه ما يكذب دعواه من مخالفتهما لأنه لا يزال "**يامر بالسوء**"، أي الإسم قولا وفعلا وتركا، والمحبة تنافي المخالفة كما قيل:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع

لو كنت صادقا في حبه لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ ولهذا تمنى أن يصدق في دعواه، فقال "**ومن لي**" أي ومن الذي يتكفل لي في "**أن تصدق الرغباء**" أي العزيمة الصميمة في الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والعمل الصالح حتى يصدق حالي مقالي في ادعاء المحبة.

* **ومما يكذب دعوى المحبة أيضا ما أشار إليه بقوله:**

423 **أيُّ حُبٍّ يَصِحُّ مِنِّي وطَرْفِي للكَرى واصِلٌ وطَيْفُكَ رَاءُ**

"**أي**" أي أنّى "**حب يصح**" وقوعه منه، وفي كلامه التفات، أي "**مني وطرفي للكرى**" أي النوم "**واصل**" لا ينفك النوم عنه، وليس هذا شأن المحب "**وطيفك**" أي خيالك "**راء**" أي محتجب عني كما احتجبت الراء، وهي امرأة كانت محبوبة لرجل مشهور يقال له واصل، فهجرها حتى أنه لم يتكلم بكلمة فيها راء قط، فصار من هجر الشيء الهجر المستمر يمثل عندهم واصل للراء. ففي النظم التورية، لأن واصلا بالنظر للكرا اسم فاعل، والمراد اسم علم وفيه التلميح لأنه أشار إلى قصة واصل المشار إليها، والاستفهام إنكاري، أي كيف تصدق محبتي وأنا مواصل للكسل والنوم، ولو قدر أن النوم لا ينافي المحبة فكيف يوجد مع عدم خطور خيال المحبوب بالضمير يقظة ولا نوما، وهذا ينافي المحبة كما هو محسوس لاستلزامها أن طيف المحبوب لا يغيب

عن مخيلة المحب نوما ولا يقظة.

*** نعم قد يتخلف هذا المانع، ولذا تردد مع ما قدمه في أن عدم خطور الطيف هل هو لذلك أو لغيره، فقال:**

424 **لَيْتَ شِعْرِي أذاكَ من عُظْمِ ذنْبٍ   أمْ حُظُوظُ المُتَيَّمِينَ حُظَاءُ**

425 **إنْ يكُن عُظْمُ زلَّتِي حُجْبَ رُؤْيَا   كَ فقَد عَزَّ داءَ قَلْبِي الدَّواءُ**

أي ليت علمي حاصل "**أَذاك**"، أي: أَعَدمَ خُطور طيفه بقلبي "**من**" أجل "**عظم ذنب**" وقع مني "**أم حظوظ**" أي انصباء "**المتيمين**" أي: المحبين "**حظاء**" أي: متفاوتون في الحظوة والمكانة من المحبوب، فبعضهم يحظى بالقرب من غير كثير عمل، وبعضهم لا يحظى به مع كثرة العمل. ف"**حظاء**" جمع حظوة، بالكسر والضم، وبين حظوة وحظاء الجناس المطابق. ثم تمم الشق الأول فقال: "**إن يكن عظم زلتي**" التي ارتكبتها سبب "**حجب رؤياك**" أي رؤيا طيفك عني التي فقدتها "**فقد عز داء قلبي الدواء**" أي قل بل عدم الدواء الذي يعالج مرض قلبي فلا يوجد له شفاء، لأنه لا يوجد إلا من جنابه صلى الله عليه وسلم، فإن فرض أنه أخذ أحد بذنبه لم يكن أحد غيره ينفذه منه. ثم هذا التردد الذي سبق إنما هو لمزيد الخوف، وأن الإنسان على مدرجة أن يؤاخذ بذنبه وإن كان محبا، لا لزوال محبته، بل هي باقية ورجاؤه في محبوبه واسع وإن كثرت الذنوب.

*** مع أن المحبة لا يتصور معه الإصرار على الذنب، كما قال:**

426 **كيْف يصْدأُ بالذَّنْبِ قَلْبُ مُحِبٍّ   ولَهُ ذِكْرُكَ الجَمِيلُ جَلاءُ**

أي لا يتصور أن "**يصدأ**"، أي يسود "**بالذنب**" الذي ارتكبه ذلك المحب قلبه والحال أن "**له**" أي لقلبه "**ذكرك**"، مضاف للمفعول، أي ذكرك له بالصلاة والتسليم وغيرهما مما يعود عليه وعليك زيادة القرب. فإن الخلق كلهم مفتقرون إلى ذلك، ويصح للفاعل، أي "**ذكرك**" له المخيل العائد على الذاكر بما لم يكن في حسابه

"**جلاء**" أي مصقل ومطهر، فلا يبقى مع ذكرك صدأ ولا درن. قال الصديق رضي الله عنه: الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمحق للذنوب من الماء البارد للنار. والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب. انتهى. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إذا أردت أن لا يصدأ لك قلب ولا يلحقك هم ولا كرب ولا يبقى عليك ذنب فأكثر من سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، اللهم ثبت علمها في قلبي واغفر لي ذنبي واغفر للمؤمنين والمؤمنات وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. قال الشيخ زروق: من استعمله فليستعمل معه قوله صلى الله عليه وسلم: <<اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب غمي>>. فما قاله أحد إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحا. انتهى.

*** ثم صرح بشكواه وأبدى علته لأطبّ الأطباء، فقال:**

427 **هَــذهِ عِلَّتِــي وأنْــت طَبِيبِــي   لَيْس يخْفى عليْك فِي القَلْبِ داءُ**

أي "**هذه علتي**" التي أمرضتني وأقعدتني عن النهوض إلى ما فاز به الأكابر من مرافقتك ومشاهدة قربك، والحال أنك "**أنت طبيبي**" العالم بها والماهر في إزالتها، لأنك "**ليس يخفى عليك في القلب داء**" وأنت لا أحد أكرم ولا أحلم منك، فعجل لي بدواء يكون فيه شفائي من وصمة جميع ذلك، فإن شفاعتك لا ترد. ومن توسل بك لا يخيب، ولا وسيلة إلى الله أعظم منك صلى الله عليك وعلى آلك.

*** ثم إن الاعتراف بالذنوب والإقرار بالعيوب من أعظم أسباب النجاة وإنالة كل مطلوب، فلذلك قال رضي الله عنه:**

428 **ومِـن الفَـوْز أن أبُـثَّك شَـكْوى   هيَ شكْوى إليْك وهي اقْتِضاءُ**

429 **ضُـمِّنَتْها مَـدائحُ مُـسْتَطابٌ   فِـيك منْها المَـديحُ والإصْـغَاءُ**

أي "**ومن**" النجاة "**والفوز**" العظيم الذي لا فوز لي أعظم منه "**أن أبثك**" أي أنشر لك وأظهر "**شكوى هي**" الإخبار عن النفس أو الغير بسبق الفعل "**هي شكوى**" مني بنفسي "**إليك**" لا إلى غيرك فأنا أتطلع إليك، وعيوبي بين يديك في ضمن مدحي لقدرك وجنابك، كي تمنحني نظرة تزيل عني كل وصمة، وتوجب لي من جزيل فضلك كل رحمة، لأن رجائي فيك واسع ومحبتي فيك متزايدة، وبعد كونها شكوى في ضمن ذلك المدح البديع، "**هي**" أيضا "**اقتضاء**" أي طلب من كرمك الواسع، وفيض جودك الهامع، أطلب منك التخلص من تلك الفرطات، والنجاة من سائر الورطات، فإن جاهك متكفل بكل مطلوب، ومحقق لكل مسؤول ومرغوب، لا سيما لخادم حضرتك الفاني في محبتك، وتلك الشكوى الذي نشرتها "**ضمنتها**"، بالبناء للمفعول، أي ضمنت تلك الشكوى واشتملت عليها "**مدائح**" لجنابك بديعة، جمه مدحة، أي كلام متضمن للثناء الجميل، وهل المدح مباين للحمد أو مرادف له، وأعم منه أقوال ومدائح، نائب الفاعل، "**مستطاب**"، نعت له، أي مستلذ تستطيبه النفوس وتميل إليه القلوب، وقوله "**فيك**"، متعلق بمدائح، وقوله "**منها**" متعلق بمستطاب، أي مستطاب من تلك المدائح "**المديح**"، أي المدح لك بها "**والإصغاء**" من سامعها إليها، لأن أوصافك الكريمة زينتها فصارت غاية الكمال الذي قد عبق طيب ريها الأسماع، وملأ عبيره أرجاء القلوب والبقاع.

* **ومن استطابة ذلك المديح ان الله سبحانه يسر نظمه وسهل تأليفه، كما قال رضي الله عنه:**

430 **قَلَّمَا حَاوَلْتُ مَدِيحَكَ إلا سَاعَدَتْهَا مِيمٌ ودالٌ وحَاءُ**

أي "**قلما حاولت**" أي: أرادتْ تلك الشكوى "**مديحك**"، أي إبرازه بعبارة رائقة، ومعان راشقة حتى تجري على أعلى منزل البلاغة، وقانون البراعة، "**إلا ساعدتها**" أي أسعفتها في ذلك "**ميم ودال وحاء**"، أي مسمى هذه الأسماء وهي مدح، أي ما توقف عليّ معنى أو نوع من تلك الأنواع فوجهت همتي إلى الأحسن منها

إلا وجدت الألفاظ الدالة على مدحك تبادرني إلى تأديته بالألطاف، وتساعدني عليه بنهاية الإسعاف فتأتي قريحتي منه بما هو أبدع وأبلغ. قاله ابن حجر. ثم رد على الشارح في جعل ما مصدرية، قال: يلزم عليه وقوع الاستثناء المفرغ في غير نفي أو شبهه، وهو النهي والاستفهام. واختار هو أن تكون ما نافية، والفاعل محذوف دل عليه المذكور، والاستثناء من أعم الأحوال. والتقدير قلَّ أن يستصعب على ما أردته من مدحك لأني ما أحاول في حال من الأحوال إلا ساعدني مدحك على أكمل ما ينبغي. انتهى.

* **ولما كان تسهيل الأمر وتيسره من علامة الإذن فيه كان مدحه صلى الله عليه وسلم متأكدا في حقه، فلذا قال:**

431 **حُقَّ لِي فِيكَ أنْ أُسَاجِل قَوْمًا سَلَّمَتْ مِنْهُمْ لِدلْوي الدِّلاءُ**

أي ثبت واسقر "**لي فيك**"، أي في مدحك "**أن أساجل قوما**" أي أنازعهم وأفاخرهم، فأقول ما صنعته خير مما صنعتموه، وألين لهم ذلك حتى يذعنوا إلي في ذلك، ويصيروا قد "**سلمت منهم لدلوي الدلاء**" وحينئذ أفوز منك بأبلغ مما فازوا به، وعبر بالدلو لأن السجل هو الدلو العظيمة المملوءة، ومنه قولهم: الحرب سجال، ككتاب سجل منها على هؤلاء وأخرى على هؤلاء، ذكره في القاموس. وعليه فالمساجلة تطلق على تنازع المستقيين على البير بدلاء مختلفة ليريد كل منهم أن يظهر على دلوه قبل الآخرين، شبه بهم المادحين في تنازعهم فيما يُزَوِّرونهُ، وادعاء كل واحد منهم أن ما أبرزه خير مما أبرزه غيره، فهي استعارة بالكناية، وإثبات المساجلة: استعارة تخييلية، وذكر الدلو ترشيح.

* **ثم ذكر تسليمهم له وتميزه عنهم، فقال:**

432 **إنَّ لِي غَيْرةٌ وقَدْ زاحمَتْنِي فِي مَعَانِي مَديحِكَ الشُّعَراءُ**

الغيرة، بالفتح، حمية توجب كراهة المشاركة في المحبوب، أي "**إن لي غيرة**" عليك، فلا أحب أن يسبقني أحد إلى مدحك، فأنا أجهد خاطري في تجويد ذلك.

والحالة أنه "**قد زاحمتني في معاني**" ألفاظ "**مديحك الشعراء**" وأنا أغار عليك أن يختصوا بك دوني. ومثل هذا ذكر عن سيدي أبي عمران الفاسي رضي الله عنه، قال: لا يظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنهم فازوا به دوننا، والله لنزاحمهم فيه حتى يعلموا أنهم تركوا رجالا بعدهم. انتهى.

* **ومما يبعث على المدح ويزعج الخاطر إليه، محبة الممدوح والاشتياق إليه، ولذلك قال:**

433 **وِلِقَلْبِـي فـيكَ الغُلُـوُّ وأَنَّـى   لِلِسَانِي فِي مـدْحِكَ الغَلْـواءُ**

هذه علة ثانية لتسليمهم له، فهو معطوف على أن وما بعدها. "**ولقلبي**" في محبتك "**الغلو**" أي مجاوزة الحد الذي بلغ إليه أمثالي. "**وأنى**" ثم أبدل من الياء، "**للساني في مدحك الغلواء**" أي الإسراع والتقدم عليهم بما لا يصلون إليه، أوجب لي ذلك بركة محبتك والاشتغال بخدمة جنابك الرفيع. وفي نسخة "**أَنَّى**" بفتح الهمزة، استفهام بمعنى كيف، لقوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أو بمعنى: من أين؟ نحو: أنى لك هذا؟ أي أنى يكون للساني الغلو والإسراع في مدحك إلا بإسعافك. واختار هذه النسخة ابن حجر.

* **ثم طلب الإنابة على ما أجرى الله على قلبه ونطق به لسانه، فقال:**

434 **فَأَثِـبْ خَاطِـرًا يِلِـذُّ لَـهُ مَـدْ   حُـكَ عِلْمًـا بِأَنَّـهُ الـلألاءُ**

أي بسبب صدق محبتي ولوعتي بمدحك "**أثب خاطرا**" أي قريحة لي على هذا المدح البديع بأن تمدها بما يفوق به جميع مراسمها وتسبق به من سبقها، فإنك أجود من جازى محبيه، وأكرم من أثاب على من أحبه مادحيه، وأنا أصدقهم محبة وأبلغهم مدحة، كيف وقلبي "**يلذ له مدحك**" لذة تحمله على أن يبذل وسعه في صدق التوجه إليك واختراع ما لم يسبق إليه ولا حام أحد قبله عليه، "**علما**" أي لأجل علمه "**بأنه**" أي مدحك "**اللألاء**" أي الفرح التام، وكذا في القاموس وغيره. فإن كان الفرج،

بالجيم، فواضح، أو بالحاء المهملة، ففيه بعد، ويصح أن يكون من تللألأ البرق إذا لمع، أي علما بأن مديحك يضيء قلوب المادحين،

*** لا سيما أبلغهم حتى يأتي في مدحك بالمعاني البديعة والأساليب العجيبة كما وقع لي في هذا النظم الغريب والنسج الغريب فإنه:**

435 **حَاكَ مِنْ صنْعَةِ القَرِيضِ بَرودًا لكَ لَمْ تَحِكْ وَشْيَهَا صَنْعَاءُ**

الحياكة صنعة النسج، و"**حاك**" كذا نسجه، أي نسج ذلك الخاطر "**من صنعة القريض**" أي الشعر "**برودا**" وهي نوع من الثياب اليمانية فيه زينة "**لك**" متعلق بحاك، "**لم يحك**" أي يماثل "**وشيها**" أي نقشها بالألوان المختلفة "**صنعاء**" مدينة باليمن مشهورة بجودة النسج والوِشي، شبه المعاني البديعة في إمالتها للقلوب عند سماعها بالبرود الموشحية المدهشة للأبصار عند رؤيتها. وأثبت لها ما هو من لوازم المشبه به وهو الوِشي كما اثبت للمشبه ما هو ملائم له وهو القريض، ففيه استعارةٌ تصريحية مرشحة بذكر الوشي ومجردة بذكر القريض.

*** ثم وصف هذا النظم، بقوله:**

436 **أعْجَزَ الدُّر نَظْمَهُ فاسْتَوتْ فِيـ ـهِ اليدانِ الصّنَّاعُ والخَرْقَاءُ**

قد اشتمل هذا النظم على براعة وبلاغة وحسن نظم "**أعجز الدر**" النفيس واليواقيت الحسان المنظومة في سلكها، "**فاستوت فيه**" أي في العجز عنه "**اليدان**" أي القريحتان "**الصناع**" بفتح الصاد والنون والعين المهملة، أي الحاذقة الماهرة "**والخرقاء**" أي الغبية البليدة، يعني أنه استوى في العجز عن مثله الماهر في الشعر والغبي فيه الذي لا قدرة له على الشعر.

*** ثم طلب من الممدوح قبوله، فقال:**

437 **فأرْضَه أفْصَحَ امْرئٍ نَطَقَ الضَّا دَ فَصَارَتْ تَغَارُ مِنْها الظَّاءُ**

أي فاقبله مني يا خير من أمله المادحون، ورجاه العارفون، وتجاوز عما فيه وإن كان فيه من الفصاحة ما لا يدركه غيرك. يا "**أفصح امرئ نطق الضاد**"، أي: بها، أي:

يا أفصح العرب العرباء، وهذا اقتباس من قوله صلى الله عليه وسلم: <<أنا أفصح من نطق بالضاد>>. الحديث. وخصها لأن غير العرب لا يحسن إخراجها من مخرجها. والعرب وإن أحسنوا لكنهم متفاوتون فيه، وكلهم لم يصل منهم أحد إلى الحد الذي كان صلى الله عليه وسلم يصل إليها في تأديتها، وكأن وجه هذا الاقتباس إظهار الناظم أن ما أتى به وإن بالغ في بلاغته لا يتأهل إلى حد مدحه، لأن فصاحته معجزة لغيره، فأي بلاغة تؤدي ما يليق به فكأنه يقول: يا أفصح الفصحاء، أقبل ما جئت به وإن لم يشم أدنى رائحة من روائح فصاحتك بل ولا يفي بما يليق بكمالك. ويؤيد هذا قوله الآتي، أبذكر الآيات. إلخ. فبسبب تعسر النطق بها على غيره صلى الله عليه وسلم وسهولة النطق بالظاء "**صارت**"، وفي نسخة "**قامت تغار منها**"، أي الضاد "**الظاء**" لكون الضاد تميزت عنها بتلك المرتبة، فكان إتقانها خاصا به صلى الله عليه وسلم، فوجه غيرة الظاء منها هو تخصيصها بالذكر ونطق المصطفى بها من بين سائر الحروف في قوله: <<أنا أفصح من نطق بالضاد>>.

*** ولما مدح نظمه بالبلاغة والفصاحة خشي أن يتوهم أنه استقصى ما يجب له صلى الله عليه وسلم من الكمالات فرفع ذلك بقوله:**

438 **أَبِذكْـرِ الآيَـاتِ أُوفِـيكَ مَـدْحًا   أَيْـنَ مِنِّـي وأَيْـن مـنْها الـوفَاءُ**

ووطّأ ابن حجر لهذا البيت بقوله: ثم طلبي من كرمك يا أكرم الخلق الرضى بهذه القصيدة، ليس لكونها وفت بحقوقك الواجب استقصاؤها في مدحك، بل للطمع في سعة حلمك وجودك، "**أبذكر الآيات**" أي المعجزات والخصائص الدالة على وصولك لما لم يصل إليه مخلوق، وإضافة المصدر للمفعول، أي أبذكري في هذا كمالاتك "**أُوفيك مدحا**" في مديحك، لا إذ لا يمكن أن يوفيك ذلك إلا من أحاط بمقامك، وأنى يكون ذلك لقاص مثلي، بل الخلق كلهم عاجزون عن وصف كمالاتك الباهرة، "**أين مني**" الوفاء وأنا من جملة العاجزين المقصرين، "**وأين منها الوفاء**" إذ لا وفاء لها إذ هي غير محصورة باعتبار الخلق، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق صلى الله عليه وسلم صلاة لا تعد ولا تحصى كما لا نهاية لكماله.

* **ثم ذكر عديل الاستفهام بقوله:**

439 **أَمْ أُمَارِي بِهِنَّ قَوْمَ نَبِيٍّ   سَاءَ مَا ظَنَّهُ بِي الأَغْبِيَاءُ**

أي "**أم**" أجادل "**بهن**"، أي بذكري لتلك الآيات، "**قوم نبي**"، أي المادحين لنبينا صلى الله عليه وسلم، أي لم أذكر تلك الآيات بقصد أن أوفي بها حقه صلى الله عليه وسلم ولا بقصد أن أجادل بها أمتك. ومن ظن بي واحدا منهما فهو غبي لا يعقل شيئا و"**ساء**" أي قبح "**ما ظنه بي الأغبياء**" لأنهم لقلة فطنتهم يتجاسرون على الناس بما هم برءاء منه. ويحتمل أن يكون قوله نبيا نكر، يعني أني لم أذكر آياتك لتخاصم قوم نبي في نبيهم، لأن ذلك قلة أدب مني مع الأنبياء عليهم السلام، فنكون كمَنْ بنَا قصْرًا وهدم مدينة. وقد نهيتنا عن ذلك بقولك: لا تفضلوا بين الأنبياء، أي بالخصائص والأقيسة.

* **ويوضح هذا الاحتمال، قوله:**

440 **ولَكَ الأمَّةُ الَّتِي غَبِطَتْهَا   بِكَ لَمَّا أَتَيْتَهَا الأَنْبِيَاءُ**

وهو إما استيناف أو معطوف على محذوف، أي ولك الآيات التي لا تحصى، "**ولك الأمة**" الوسطاء كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ أي خيارا عدولا ﴿ **لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ** ﴾ "**التي غبطتها**" أي تمنت مثلها، لكن أي بسببك، لأن شرفها منك "**لمَّا**" أي حين "**أتيتها**" أي أرسلت إليها "**الأنبياء**" عليهم السلام، وكان القياس أن يقول: غبطتك بها الأنبياء، لأنها أفضل من أممهم بنص الآية، وأي ودوا أن يكون لهم مثلهم كما صرح به موسى عليه السلام كما يأتي، لكنه ارتكب طريق القلب الذي هو من أنواع البديع خشية أن يتوهم من ذلك مدحه لنفسه، لأن المدح العام مدح لكل من أفراده، وأيضا ما سلكه الناظم أبلغ في المدح لأنه مدح له صلى الله عليه وسلم بخلاف القياس المذكور فإنه مدح لأمته فقط. والمعنى على ما سلكه الناظم أن الأنبياء عليهم السلام ودوا أن يكونوا من هذه الأمة داخلين في أتباعه صلى الله عليه وسلم وهم وإن كانوا مأمورين بالإيمان به داخلين في أمة الإجابة بدليل قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ الآية. لكنهم تمنوا أن يكونوا من أتباعه الذين بعث فيهم ليفوزوا بغاية الفخر زائدا على عظيم فخرهم بنبوتهم عليهم السلام، ويدل لهذا ما رواه أبو نعيم، أن الله تعالى لما ذكر لموسى عليه السلام صفات هذه الأمة قال: يا رب فاجعلني نبي تلك الأمة. قال : نبيها معها، قال: فاجعلني من أمة ذلك النبي. قال: استقدمت واستأخر، ولكن سأجمع بينك وبينه في دار الجلال. انتهى. وفي البخاري: <<لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي>>. وقد خصت هذه الأمة بخصائص لم تكن لأمة نبي. منها إن موسى عليه السلام تمنى أن يكون منها كما تقرر. وروي أنه سأل ربه: هل في الأمم أفضل من أمتي. فبين أن فضل أمة محمد عليه السلام على سائر أمم الأنبياء، كفضله تعالى على سائر خلقه. ومنها أن الجنة لا يدخلها أحد قبلهم. ومنها الغرة والتحجيل والتيمم واباحة الغنائم وجعل الأرض مسجدا وطهورا، ومجموع الصلوات الخمس، والتأمين والركوع لخبر رواه البزار. ومن تم قيل: صلاة من قبلنا لا ركوع فيها. قوله تعالى: ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أي صلوا. ومنها أن صفوفهم في الصلاة كالملائكة. والجمعة وساعة الإجابة فيها، ورمضان عند الجمهور والتشبيه في الآية لمطلق الصوم، ونظر الله إليهم أوله، وتزيين الجنة فيه، وخلوف أفواههم أطيب من ريح المسك، واستغفار الملائكة لهم حين يفطرون، وعموم المغفرة لهم آخر ليلة منه. والسحور وتأخيره، وتعجيل الفطر وإباحة الطعام والجماع للفجر، ورفع أثقال التكاليف التي كانت على من قبلهم، كتحتم القصاص وقطع الأعضاء الخاطئة، وموضع النجاسة وقتل النفس في التوبة، والمؤاخذة بالخطإ والنسيان وما استكرهوا عليه. ومنها أن الله لم يجعل في دينهم من حرج، وأن شريعتهم أكمل من سائر الشرائع، وأن نبيهم صلى الله عليه وسلم أكمل الأنبياء. وقد كان لموسى عليه السلام في شريعته أن الحلال الصرف ضد ما كان لعيسى في شريعته من كل وجه. وشريعتنا اعتدل فيها الأمران فسلمت من شدة تلك الأولين واعتدلت في جميع مزياتها «فكانت خير امة» الآية. وأعطاهم مرتبة الشهادة على الناس يوم القيامة فأقامهم مقام الأنبياء عليهم السلام، وكمُل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم، كما كمل لنبيهم عليه

السلام ما فرقه في الأنبياء. ولكتابهم ما فرقه في الكتب وأنهم لا يجتمعون على ضلالة، وأن إجماعهم حجة، واختلافهم رحمة، وأن الطاعون شهادة لهم وعذاب على غيرهم. وأن منهم أقطابا وأوتادا، ونجباء وأبدالا، وأنهم يخرجون من قبورهم بلا ذنوب لاستغفار المؤمنين لهم، وأول من تنشق عنهم الأرض وأنهم يكونون مع نبيهم على كوم مشرف في الموقف يغبطهم فيه جميع الأمم، ويميزون بسيما السجود، قاله ابن عباس. وهو بياض شديد. وقال شهر بن حوشب: نور كالقمر ليلة البدر، جعلنا الله منهم وحشرنا في زمرتهم آمين. انتهى.

*** ومن أعظم معجزاته وخصائصه صلى الله عليه وسلم بقاء شريعته المطهرة ودينه القويم إلى قيام الساعة، كما اشار لذلك بقوله رضي الله عنه:**

441 **لَمْ نَخَفْ بعْدكَ الضَّلالَ وفِينَا وارِثُوا نُورِ هَـذْيِكَ العُلَمَاءُ**

أي "**لم**" نخش "**بعدك الضلال**"، أي التلف والحيرة، لأنك تركتنا على منهاج واضح وشريعة بيضاء نقية، الذي لا يزيغ عنها إلا هالك، وكيف نخاف الضلال والحال أن "**فينا**" أعلام الهدى "**وارثوا نور هديك**" أي ما كنت عليه وأصحابك وهم "**العلماء**" الذين هم أهل السنة والجماعة الذين هم أركان السنة ودعائم الإسلام الهادون إلى دين الله الناصحون لعباد الله وهم أصناف قوم هم حفاظ أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم، وحفاظ القرءان وهم بمنزلة الخزنة. وأقوام هم علماء الأصول الرادون على أهل العناد وأهل البدع بواضح الأدلة وقواطع البرهان، وهم بطارقة الإسلام وشجعانه. وقوم هم الفقهاء المرجوع إليهم في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات، وما يتعلق بأحكام المصابرات وحكم الجراحات والديات، وما في معنى الإيمان والنذور من الدعاوي وفصل الحكم في المنازعات، وهم من الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين في الملك وآخرون هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق في الدين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان، وأرباب الأسرار الذين لا يبرحون في عالي مجلس السلطان، فالدين معمور بهؤلاء على اختلافهم إلى يوم القيامة. ويقال: جعل الله المسلمين على مراتب: فعوامهم كالرعية للملك، وكتبة الحديث، كخزنة

الملك، وأهل القرآن كحفاظ الذخائر ونفائس الأموال، والفقهاء بمنزلة الوكلاء للملك، إذ الفقيه يوقع عن الله، وعلماء الأصول كالقواد وأمراء الجيوش، والأولياء كأركان الباب، وأرباب القلوب وأصحاب الصفا كخواص الملك وجلسائه. فشغل قوما بحفظ أركان الشرع، وآخرين بإمضاء الحكام، وآخرين بالرد على المخالفين، وآخرين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجعل قوما منفردين بحضور القلب وهم أصحاب الشهود، ليس لهم شغل، يراعون مع الله أنفاسهم، وهم أصحاب الفراغ لا يستفزهم طلب ولا يهزهم أمر، فهم بالله ولله بمحو ما سوى الله. وأما الذين يتفهمون في الدين فهم الداعون إلى الله، وإنما يُفهِم الخلقُ عن الله من كان يفهم عن الله، قاله القشيري في تفسيره. وهذه الطائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون. وبقوله: <<العلماء ورثة الأنبياء، لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم>>. فمن أخذه أخذ بحظ وافر. حسبما في الصحيحين. وفي رواية: <<تحبهم أهل السماوات وتستغفر لهم الحيتان في البحر>>. وفي أخرى: <<أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد>>. وفي أخرى: <<كاد حملة القرآن أن يكونوا أنبياء، إلا أنهم لا يوحى إليهم>>. وفي أخرى: <<من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه، إلا أنه لا يوحى إليه>>. ورواية: <<علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل>>. لا أصل له. لكن معناه صحيح لما تقرر أن العلماء ورثة الأنبياء، قاله الهيثمي. وقد اتفق العقل والنقل على تفضيل العلم وأهله، وأطبقت الكتب السماوية والأخبار النبوية وأقوال الحكماء على شرف أهل العلم ورفع درجاتهم عند الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ** ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: يرفع الله درجات العلماء على سائر المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة ثمانمائة سنة. وقال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: <<يستغفر للعالم ملائكة السماوات والأرض>>. وأي رتبة تزيد على من تشتغل الملائكة بالاستغفار له. وقال صلى الله عليه وسلم: يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء. وفي حديث آخر: <<لو وزن

مداد العلماء ودم الشهداء لرجح مداد العلماء على دم الشهداء>>. انتهى. وهذا بين لأن دم الشهداء إنما هو ساعة من نهار أو ساعات، ومداد العلماء وظيفة العمر ليلا ونهارا مع مكابدة مشقة التعلم والتعليم ومخالطة الناس وذلك أمر عسير. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: <<تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة. لأنه معالم الحلال والحرام، ومنازل سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السّراء والضّراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة، وأئمة يقتص آثارهم، ويقتدي بأفعالهم، وينتهي إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظُّلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة. والتفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام العمل والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء>>. انتهى. وأحاديث فضل العلم كثيرة وتتبعها يخرج عن المقصود وبالله التوفيق.

*** ثم ذكر ما اختص به نبينا صلى الله عليه وسلم، فقال:**

442 فانْقَضَتْ آيُ الأنْبياءِ وآيَا ... تُكَ في النَّاس ما لهُنَّ انْقِضَاءُ

يعني أن آيات الأنبياء ومعجزاتهم عليهم كانت خاصة بزمان حياتهم، فلما ماتوا انقضت وانقطعت تلك الآيات، بخلاف معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن وشرائعه ليس له انقضاء إلى آخر الدهر. ولذا قال صلى الله عليه وسلم: <<ما من نبي إلا وقد أوتي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجوا أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة>>. هذا ما يرجع إلى دوام معجزات القرآن العظيم وشريعته المطهرة. وأما ما يرجع إلى خوارق العادات من الإرهاصات

والمعجزات، فلا يمكن حصره، فمنها سابقة على ظهوره كإخبار الأحبار والرهبان والكهان حين قرب مبعثه. أما الأحبار فمما وجدوا في كتبهم من صفته ونعت بلده ومهاجره، ومنها متأخرة عن ظهوره، فمنها ما ظهر عند مولده كخمود نار فارس، وسقوط شرافات إيوان كسرى، وغيض ماء بحيرة ساوة، وما سمع من الهواتف المبشرة به صلى الله عليه، ومنها ما ظهر بعد ذلك حال صغره إلى بلوغه كتظليل الغمام وشق صدره وتسليم الحجر عليه ورؤيته القمر وحنين الجذع وانفجار الماء إلى ما لا يعد ولا يحصى.

*** ومنها ما ظهر بعد موته من كرامات الأولياء الوارثين عنه وهذا دائم مستمر إلى قرب الساعة، وإليه أشار بقوله:**

443 **والكَـرامَاتُ مِـنْهُمْ مُعْجِـزاتٌ حَازهَـا مـنْ نَـوالِكَ الأوْلِـيَاءُ**

لا شك أن كرامات الأولياء شاهدة بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم، وما أكرمهم الله تعالى بخرق عوائده إلا ببركة اتِّباعه صلى الله عليه وسلم. فإذن كل كرامة لولي معجزة له صلى الله عليه وسلم. فقوله "**والكرامات منهم**" أي: من الناس، والمراد بهم الخواص، فهو استخدام. وقوله "**حازها**" أي: اختص بها. "**من نوالك**" أي: من عطائك وجودك "**الأولياء**" وكأن القياس أن يقول: حازوها، أي: الناس لكنه أظهر ليدل على أن المراد بالضمير الخواص منهم. والولي فعيل، بمعنى فاعل، لأنه والى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلم يخرج عن أمرهما، أو والى الطاعة فلم يخلل بينهما معصية، أو بمعنى مفعول، لأن الله تعالى والاه بخوارق نعمه، ورسوله صلى الله عليه وسلم والاه بمزيد إمداده. وضابط الولي أنه المداوم على فعل الطاعات واجتناب المعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات، وهذا ضابط الولي الكامل. وأما أصل الولاية فيحصل بوجود صفات العدالة الباطنة بالشروط المذكورة عند الفقهاء. وظهور الكرامة ليس شرطا في صحة الولاية، بل دال عليها مع الاستقامة، وإلا فهي استدراج. وفي الحكم: ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان، كرامة الإيمان بمزيد

الإيقان وشهود العيان. وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة المخادعة، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب، أو ذو خطإ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضى، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخِلعِ المرضى. وكل كرامة لا يصحبها الرضى عن الله ومن الله، فصاحبها مستدرج مغرور ناقص، أو هالك مبتور. انتهى. وبالاستقامة وقع الفرق بين الكرامة والسحر والله أعلم. وأما الفرق بين الكرامة والمعجزة فدعوى الرسالة والولاية، وكل ما جاز أن يكون معجزة جاز أن يكون كرامة. ودليل جوازها: إمكان وقوعها وشمول القدرة لها. ولا بدع في أن يصدق الملك رسله بخرق بعض العادات، ثم يفعل مثل ذلك لبعض أتباعه إكراما له. ودليل وقوعها ما وقع لمريم في شأن الرزق، كلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها رزقا. وفي ولادة عيسى عليه السلام، ولأصحاب الكهف، ووزير سليمان عليه السلام في عرش بلقيس، وما وقع لهذه الأمة يبلغ التواتر المقوي. وقد وقع للصحابة رضي الله عنهم كعمر وعلي رضي الله عنهما وتابعيهم ومن تبعهم إلى زماننا هذا، بل ظهورها يكاد يلحق بظهور معجزات الأنبياء عليهم السلام، ولا عجب من إنكار المبتدعة لذلك، فإنهم حرموا مشاهدة ذلك من أنفسهم ومشايخهم. وظهور المعجزات على غير الأنبياء لا يقدح في علو قدرهم، بل يزيد في جلالة منصبهم والرغبة في اتباعهم حيث نالت أممهم وأتباعهم مثل هذه الدرجة ببركة الاقتداء بشريعتهم والاستقامة على طريقتهم. وأما قوله تعالى: ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ فالاستثناء فيه منقطع بدليل قوله يسألك. والمراد بغيبه جميع الغيوب، لأن الغيب مضاف للضمير فيعم، أي فلا يظهر على جميع غيبه أحدا، لكن من ارتضى من رسول، فحمل الآية باق على حقيقته، إذ الغيوب كلها لم يطلع عليها أحد من خلقه، وإنما غاية من أطلعه منهم أن أطلعه على جزئيات مخصوصة. وعلى تقدير الاتصال فلا حجة لهم فيه، لأن القطع الضروري بوقوع الكرامات يعين أن المراد من الآية غيب مخصوص، أي لا يظهر على ذلك الغيب المخصوص إلا من ارتضى من رسله، وأما الباقي فلا يظهرهم على ذلك الغيب

المخصوص، بل على غيره. واعلم أن من الكفر الصريح ما حكي عن بعض الكرامية، أن الولي قد يبلغ درجة النبوءة. وعن بعض جهلة المتصوفة، أن الولاية فوق رتبة النبوة، وأن الولي قد يبلغ رتبة يسقط عنه فيها التكليف. قال الغزالي: وقتل واحد من هؤلاء خير من قتل مائة كافر. لأن ضررهم أشد، وليس من ذلك الوليان الكبيران ابن العربي وابن الفارض، خلافا لمن زل فيهم قدمه، وطغى عليه قلمه، إلا أن يكون مراده التحذير من اعتقاد ظواهر كلامهم. انتهى من ابن حجر.

*** ثم قال الناظم:**

444 إنَّ مِنْ مُعْجِزاتِكَ العَجْزُ عن وصْـ ـفِـــكَ إذْ لا يَحُـــدُّهُ الإحْـــصَاءُ

هذا تأكيد لقوله: "وآياتك في الناس ما لهن انقضاء" أي من جملة معجزاتك الباهرة العجز عن أوصافك الظاهرة والباطنة، إذ كمالاتك التي خصك المولى بها لا تتناهى فلا يأخذها العد والإحصاء.

*** ثم بين وجه ذلك، فقال:**

445 كـيْف يـسْتوْعِبُ الكَـلامُ سـجَايَا كَ وهَــلْ تنْـزِحُ الـبحَارَ الـرِّكَاءُ

أي "**كيف يستوعب**" أي يستوفي "**الكلام**" الصادر من المادحين لجنابك "**سجاياك**" أي ما فيك من الأخلاق الكريمة والأوصاف البالغة أقصى ما يمكن البشر الترقي إليه، وهي لا حد لها باعتبار أنك لا تزال تترقى في مراتب القرب في الحياة وبعد الممات، في الموقف وفي الجنة، إلى ما لا نهاية له ولا انقضاء. وكيف "**تنزح**" أي تجبّ "**البحارَ الركاء**" جمع ركوة، وهي إناء صغير من جلد. شبه أوصافه وكمالاته صلى الله عليه وسلم ببحار زاخرة متلاطمة الأمواج. وكلام المادحين له والواصفين لها بالأواني الذي يستسقي بها، فهي استعارة تصريحية وذكر النزح ترشيح، وحاصله أن كمالاته صلى الله عليه وسلم عبر عنها من أول الزمان إلى آخره ما أتى على حدها.

*** ثم زاد في ذلك إيضاحا وبيانا، فقال:**

446 لـيْس مـنْ غايَـةٍ لوصْـفِكَ أبغِـيـ ـهَـــا وللقَـــوْلِ غايَـــةٌ وانْـــتِهَاءُ

447 **إِنَّمَــا فَــضْلُكَ الــزَّمَانُ وآيَــا تُــكَ فِــيمَا نَعُــدُّه الآنَــاءُ**

أي "**ليس من غاية**" لأوصافك الكريمة، أي: لا وجود لها حتى "**أبغيها**" أو اطلبها "**وللقول**" مني "**غاية**" أي حد وتمام، لأن أوصافك من كمالات الله تعالى، وهي لا نهاية لها. والقول متناه محدود. ثم أكّد ذلك بقوله: "**إنما فضلك**" أي: فضائلك، "**الزمن**" أي: كالزمان في التجدد شيئا فشيئا. وإنما "**آياتك**"، أي معجزاتك "**فيما نعده**" ونحسبه "**الأناء**" بفتح الهمزة، جمع إنًا كمعاً. قاله الشارح. قال ابن حجر: والذي في القاموس: والأنَا، ويكسر، والإِنْوُ بالكسر: الوقت والساعة من الليل أو ساعة ما منه، والإنى كإلى، وعلى كل النهار. انتهى. والمراد هنا، مطلق الساعات واللحظات، فكما أن هذه لا تحد، فكذلك تلك. انتهى.

* **ثم بين مراده من هذه القصيدة في مدحه صلى الله عليه وسلم، فقال:**

448 **لَـمْ أُطِلْ فِي تَعْدَادِ مَدْحِكَ نُطْقِي ومُــرادِي بِــذلكَ اسْتِقْــصَاءُ**

449 **غَيْـرَ أَنِّي ظَمْئانُ وجْدي ومَا لِي بِقَلِــيلٍ مِــنَ الــوُرُودِ ارْتِــواءُ**

يعني أنه لم يطل الكلام في تعداد مدحه صلى الله عليه وسلم وذكر محاسنه، ومراده بذلك الاستقصاء والحصر، لأنه قدم أنه لا غاية لها، وإنما مراده بذلك الاستلذاذ وبرد الغليل كما أشار له بقوله "**غير أني ظمئان وجدي**"، أي عطشان من شدة وجدي وشوقي إلى سماع تلك الأوصاف غاية التعطش، وليس يحصل لي بقليل من الماء الذي أشربه حال الورود منه ارتواء مما في العطش، لا لطلب حصره لتعذره. وفي كلامه استعارة تصريحية. شبه شغفه بتلك الآيات، وذكر أفضل الصفات بظمإ شديد لا يرويه إلا الماء الكثير، ورشح بذكر الورود والارتواء.

* **ثم ختمهما بالصلاة والسلام على المتصف بهما امتثالا لقوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، **فقال:**

450 **فَـسلامٌ علَـيْكَ تتْـرى مِـنَ اللـ ــهِ وتَبْقَــى بِــهِ لَــك الــبَأْوَاءُ**

أي ف"**سلام**" عظيم، بالتنوين للتعظيم، أي سلامة من كل آفة ونقص كانت "**عليك تترى**"، أي يتكرر ويتتابع بعضه بعضا دائما. وفي القاموس: ترى يترى يتكرر، كرعى يرعى، وأترى: عمل أعمالا متواترة بين كل عملين فترة. انتهى. وأراد الناظم هنا مطلق التتابع من غير فترة ولا تراخ بقرينة المقام. وقد يخرج البليغ عن المعنى إلى ما هو أخص للضرورة مع قرينة المقام والسياق. وهذا السلام العظيم هو واصل "**من الله**" إليك "**وتبقى به**" أي بسببه على عد الأزمنة إلى فنائها وما بعد ذلك إلى ما لا نهاية له "**لك البأواء**" أي الفخر والتعظيم، لأن تسليم أمتك عليك مع التكرار والدوام زيادة في شرفك وفخرك إلى ما خصك الله به من الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود الذي لا يقوم فيه غيرك. وإنما أسند السلام إلى الله سبحانه لأنه مكافأة له ولا يقدر أحد أن يكافئه إلا هو سبحانه.

*** ثم أسنده ثانيا إلى رسوله إذ لا يقدر أحد من أمته أن يكافئه على ما أسدى إلينا من نعم الله تعالى، فقال:**

451 **وسَــلامٌ عَلَـيْكَ مِنْكَ فَمَـا غَـيْـ ـــرُكَ مِــنْهُ لَـكَ الـسَّلامُ كَفَـاءُ**

أي "**وسلام**" شريف "**عليك**" من نفسك إذ لا يقوم بحقك غيرك "**فما**" أي ليس "**غيرك**" من المخلوقين "**منه**" متعلق بالسلام "**لك**" متعلق ب"**كفاء**". "**السلام**" مبتدأ و"**كفاء**" خبره، والجملة خبر "**ما**" الحجازية، واللام في "**لك**" بمعنى على، أي ليس غيرك يكون السلام منه عليك كفاء، لما أسديت وأنعمت من نعمة الإسلام إلى ما لا يحصى، إذ كل نعمة من الله على خلقه أنت الواسطة فيها وأصل لها كما هو معلوم،

*** ولكن يطلب السلام منهم على وجه التعبد وامتثال الأمر، ولذلك أشار بقوله:**

452 **وسَــلامٌ مِـنْ كُـلِّ مَـا خَلَـقَ الله لِتَحْــيَا بِذِكْــرِكَ الأمْـــلاءُ**

أي "**وسلام**" كريم "**من كل ما خلق الله**" من ناطق وجامد من مستقر العرش

إلى ما تحت الثرى. وإنما حيّيْتك بهذا العموم "**لتحيى بذكرك الأملاء**" جمع ملأ، وهو الجماعة، أي لتقع الحياة بطيب ذكرك للأرواح والأشباح في جميع الأقطار، فلا حياة لهم إلا بذكرك والوقوف مع شريعتك، ولذلك قال القطب سيدي عبد السلام بن مشيش في صلاته المشهورة: واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي، إلخ. قال ابن حجر: وبالغ الناظم رحمه الله في هذا السلام حيث طلبه أولا من ربه ثم من نفسه ثم من سائر المخلوقات ليجتمع له صلى الله عليه وسلم سائر وجوه السلامة فيه وفي شريعته وأمته وجميع آثاره. ولأجل هذا العموم الذي يوجد في السلام دون الصلاة خصه بالذكر. انتهى.

* **ولعل مراده بالتخصيص بالذكر تقديمه على الصلاة، وإلا فقد ذكرها، حيث قال:**

453 **وصَلاةٌ كالمِسْكِ تَحْمِلُهُ مِـ ـنِّي شِمَالٌ إليْكَ أوْ نكْبَاءُ**

أي "**وصلاة**" عظيمة تليق بجلالك إليه، لأنه أهل لكل عظيم، وهي من الله الرحمة المقرونة بالتعظيم، أي: من الله تعالى، ومنك ومن كل ما خلق الله نظير ما مر في السلام. وتكون هذه الصلاة "**كالمسك**" في الطيب والنفع البالغ "**تحمله**" أي: ذلك المسك الذي هو عين صلاتي. "**مني شمال**" وهي الريح التي تهب من جهة القطب إلى المغرب "**إليك**" حتى يتعطر الوجود بعبيره، وتحيى الأرواح بنشره ومسيره، "**أو**" تحمله اليك، "**نكباء**" وهي الصباء وتهب من سهيل إلى القطب. وأنا الجنوب فهي التي تهب من سهيل إلى المغرب. وأما الدبور فهي التي تهب من المغرب، سميت بذلك لأنها تهب من ظهر الكعبة. والحاصل أن الريح إن هبت من تجاه الكعبة فالصبا وهي حارة يابسة. ومن ورائها فالدبور، وهي باردة رطبة. ومن يمينها فالجنوب وهي حارة رطبة. أو من شمالها فالشمال، وهي باردة يابسة وهي ريح الجنة التي تهب عليهم. رواه مسلم. ولهذه الخصوصية التي للشمال بدأ بها الناظم. قاله ابن حجر فانظره.

* **ثم حيا قبره عليه السلام بالسلام تعظيما لصاحبه، فقال:**

454 **وسَـلامٌ عَلَـى ضَـريحِكَ تَخْـضَـ ـــلُّ بِــهِ مِــنْهُ تُــرْبَةٌ وَعْــسَاءُ**

أي "**وسلام**" مني "**على ضريحك**" أي قبرك المكرم، وهو أفضل بقع الدنيا. والمراد به البقعة التي ضمت أعضاءه الشريف. وقوله "**تخضل**" أي تبتل "**به**" أي بالسلام "**منه**" أي من القبر المكرم "**تربة وعساء**" أي لينة ذات رمل. شبه السلام بالماء الكثير الطيب البارد البالغ في النفع، فهو استعارة مصرحة وخيل بذكر تخضل، قاله الشارح.

* **ثم ختم بالثناء العام الصادق بالصلاة وغيرها، فقال:**

455 **وثَــنَاءٌ قَـدَّمْتُ بـيْن يَـدَيْ نجـ ـــوايَ إذْ لَـمْ يكُـنْ لَـدَيَّ ثَـراءُ**

"وثناء" جليل في هذه القصيدة "**قدمت بين يدي نجواي**" أي سؤالي منك، الواقع في هذه القصيدة، وهو قولي جد لعاص إلخ. أو كل نجوى وقع مني فقد قدمت بين يديه ثناء عليك لتسمعه مني وتبلغني ما أملته منك "**إذ لم يكن لدي**" أي عندي "**ثراء**" بالمثلثة، أي مال، فإذْ تعليلية، أي: قدمت الثناء عليك لأجل أنه لم يكن عندي مال أتصدق به امتثالا لقوله تعالى: ﴿ **إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةً** ﴾ إذ الأمر فيها كان للوجوب، ثم نسخ بقوله ﴿ **ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ** ﴾ الآية. وورد أنه لم يعمل بهذه الآية قبل النسخ إلا علي كرم الله وجهه، ولا يلزم من نسخ الوجوب نسخ الندب، ولذا ليس لمن يريد زيارته صلى الله عليه وسلم أن يقدم بين يديه صدقة. والناظم رحمه الله ممن يرى بقاء الندب، فاعتذر أنه لا مال له يتصدق به بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه جعل حسن توسله وثنائه بدل المال.

* **ثم أبّد هذا الثناء ببقاء وجود الدنيا والآخرة، فقال:**

456 **مـا أقَـام الـصَّلاة مَـن عَـبَد اللـ ـــهَ وقَامَــتْ بِــربِّها الأشْــياءُ**

أي مدة إقامة الصلاة اللغوية والشرعية "**ممن عبد الله**" سبحانه، ف"**من**" فاعل

ب"**أقام**". قال ابن حجر: وأيد هذا مع انقطاعه استغناء عنه بما بعده، على أنا لا نسلم انقطاعه، لأن أهل الجنة يدعون ويتعبدون كما علم من حديث: اقرأ وارق. لكن للتزد لا للتكليف، ولا يضر في ذلك التأييد، انقطاعه مدة يسيرة للخبر الصحيح: لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول: الله الله. ولا ينافيه الخبر الصحيح: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى أن تقوم الساعة. لأن المراد قرب قيامها لما جاء أن الله قبيلها يرسل ريحا لينة فلا تمر على مؤمن ولا مؤمنة إلا مات. ثم تتمحض الكفرة فلا يبقى على الأرض مؤمن، ثم أبَّدَها ثانيا ببقاء العالم، فقال وما "**قامت**"، أي بقيت على أبلغ نظام وأتقن أحكام "**بربها**" بإيجاده وإمداده "**الأشياء**" أي الموجودات في الدنيا والآخرة. ولا شك أن الوجود بأسره قائم بقدرته، مستمد منه البقاء في كل لحظة، ﴿ **۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ** ﴾ وقال أبو مدين رضي الله عنه: الحق مستمد والوجود مستمد والمادة من عين الجود، فإذا انقطعت المادة انهدّ الوجود. انتهى. وأبَّدَها بالأول مع انقطاعه بفناء هذه الدار لما مر، وللتبرك بذكر المتعبدين. إلى آخر كلامه. وبالثاني مع الإشارة إلى الختم بذكر الرب سبحانه وتعالى وإلى استفتاح أبواب تربيته واستمناح فواتح لطفه وهباته. قاله ابن حجر رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركته آمين. وهو الذي اعتمدته في هذا التعليق مع زيادة يسيرة، والفضل كله له، وإنما لنا فيه النسخ والتنقيل لتسهل مراجعته على من أراد فهم شيء من ألفاظ القصيدة، لأني جمعتها ثم ذكرت شرحها، جعله الله سبحانه خالصا لوجهه الكريم، وذخيرة ندخرها لدار النعيم، وبلغنا ما أملناه من الانخراط في سلك من خدم نبيه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وحاز به مرتبة القرب منه والنظر إلى وجهه الكريم، وجعلنا من رفقائه مع المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، والحمد لله رب العالمين. كمل الشرح بحمد الله وحسن عونه. والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، على يد جامعه العبد المذنب الفقير إلى عفو ربه ورحمته، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحجوجي، سمح الله له وعفا عنه يوم

الأحد الأول من شعبان عام تسعة وتسعين ومائة وألف. انتهى.

هذا، ويقول العبد الحقير المذنب، الراجي عفو ربه وشفاعة نبيه، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، محمد الأمين، ابن محمد السعيد، ابن أحمد بن أحمد المؤلف، ابن محمد بن المهدي بن عجيبة. قد أخذت هذه النسخة من مبيضة مؤلفها بخط يده المرحومة.

وكان الفراغ منها صبيحة يوم الجمعة، ثالث عشر صفر الخير، عام واحد وتسعين وثلاثمائة وألف موافق 9 أبريل سنة 1971.

واعتنى بطبعه: عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي

11 ربيع النبوي، عام: 1430 هـ موافق: 9 مارس، سنة: 2009م.

فهرس الأنوار القدسية، في شرح قصيدة الهمزية، لأبي العباس سيدي أحمد بن عجيبة